الجمهورية الجزائرية الديموقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

جامعة وهران 1 أحمد بن بلة

كلية العلوم الانسانية و العلوم الاسلامية

قسم التاريخ و علم الاثار

موقف الطريقة التجانية من قضايا الاستعمار الكبرى في شمال و غرب افريقيا خلال القرن 19م و بداية القرن 20م

رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم في التاريخ الحديث و المعاصر

من اعداد الطالب : شيخ لعرج

تحت اشراف الأستاذ: أ.د فغرور دحو

أعضاء لجنة المناقشة

أ.د بن نعمية عبد المجيد	جامعة وهران 1 أحمد بن بلة	رئيسا
أ.د فغرور دحو	جامعة وهران 1 أحمد بن بلة	مشرفا مقررا
د حمدادو بن عمر	جامعة وهران 1 أحمد بن بلة	عضوا مناقشا
أ.د مباود محمد	جامعة الجيلالي اليابس سيدي بلعباس	عضوا مناقشا
أ.د مكحلي محمد	جامعة الجيلالي اليابس سيدي بلعباس	عضوا مناقشا
أ.د بن داها عدة	جامعة مصطفى اسطمبولي معسكر	عضوا مناقشا

السنة الجامعية : 2016-2017

بسم الله الرحمن الرحيم

اهداء

إلى كل من ساعدنا في تذليل صعوبات هذا البحث.

إلى كل من شجعنا في إتمام هذا العمل، بنصيحة و بكلمة طيبة..

نهدي هذا العمل.

شكر و تقدير

إلى أستاذنا الفاضل الذي ضحى بجهده و وقته الثمين، رغم كثرة مهامه، و ثقل رسالته التعليمية..من أجلنا ..

إلى من قدم لنا كل التسهيلات، و أعطانا كل ما نحتاج، و أجزل العطاء..

إلى من شجعنا على الدوام، بنصائحه المثمرة، و بصبره الجميل..

إلى من لا ينتظر من كل أفضاله و خدماته سوى دعاء صافي نابع من القلب ..

إلى الأستاذ القدير ، الأستاذ الدكتور دحو فغرور: كل معاني المودة و الشكر و التقدير، و جعل الله كل ما قدمتموه من أجلنا ومن أجل غيرنا في ميزان حسناتكم، و حفظكم و رعاكم، و أدام عليكم نعمة الصحة و العافية، و حفظ أبناءكم، و وفقهم لما فيه الخير و الصلاح.

قائمة المختصرات

م : ميلادي
ه : هجري
د.ت : دون تاريخ
م.و.ك : المؤسسة الوطنية للكتاب
ط : الطبعة
ص : صفحة
ص ص : من الصفحة..إلى الصفحة..
ت : توفي
م .س : مرجع سابق

opcit :ouvrage précédemment cité
J.M.O : journal des marches et operations
Ibid : ibidem
S.H.D : Service historique de la defense
S.D : sans date
S.M.E : sans maison d'edition
ANOM : archives nationales d'outre-mer
S.E.D : societe d'édition et de distribution
O.P .U : office de publications universitaires
T : tome
N : numéro
P : page
PP : de la page .. à la page ..

Edit : édition

R.M.M : revue du monde musulman

R.O.M.M : revue de l'occident musulman et de la méditerranée

S.E.D.E.T : societe de developpement d'études transdisciplinaires

P.U.F : presses universitaires de France

المقدمة

لم يكن ظهور الطريقة التجانية أمرا عاديا في الجزائر ، بعد أكثر من عشرين سنة قضاها مؤسسها في الترحال و البحث عما يحقق طموحه ، مترددا على العلماء و شيوخ الطرق الصوفية ، آخذا أورادهم ، و ملقنا تعاليمهم أحيانا . لم يكن أمرا عاديا لأنها أتت بمبررات عن وجودها ، لم يتقبلها كثير من الناس و العلماء و الفقهاء، كأن يأخذ الشيخ أحمد التجاني أوراده عن الرسول صلى الله عليه و سلم مباشرة ، يقظة لا مناما ، و أنه خاتم الأولياء ، و أن طريقته أحسن من كل الطرق التي عرفت قبلها .

و رغم كل ما حملته من معطيات تبدو غير موضوعية ،إلا أنها تمكنت من اكتساب عدد كبير من الأتباع في الصحراء الجزائرية في البداية ، و أصبح لها نفوذ كبير في فترة قياسية ، و تكاثرت زواياها ، و ذلك ما أثار تخوف البايات العثمانيين ، الذين رأوا في تعاظم نفوذها تهديدا لسلطتهم في المناطق الجنوبية ، فدخلوا معها في صراع مستمر من خلال توجيه عدة حملات الى عين ماضي ، كان من نتائجها فرار الشيخ أحمد التجاني إلى فاس سنة 1798 م .

هده الهجرة كانت محطة مهمة في تاريخ الطريقة التجانية ، إذ بعد بناء زاوية فاس ، بدأت إشعاعاتها تتجاوز حدود المغرب الأقصى و الجزائر ، و تسربت عبر عدة مقاديم من شمال و غرب إفريقيا إلى مناطق واسعة ، و زاد عدد أتباعها بعد انضمام العائلات الحاكمة في عدة بلدان كالمغرب الأقصى و تونس و بعض الإمارات في غرب إفريقيا ، كما كثر أتباعها بفعل احتكاك بعض مقدميها بالناس أثناء الحج في البقاع المقدسة ،و تحولت الطريقة في زمن قصير إلى طريقة عالمية ، عدد أتباعها يقدرون بالملايين .

و إذا كان هذا الانتشار مرتبطا – ربما – بسهولة تعاليمها – كما يرى بعض الباحثين – أو بسبب الجهل المنتشر في أوساط عامة الناس – كما يرى آخرون – خاصة و أنها (تضمن) الجنة لأتباعها فلماذا عرفت بالتناقضات في مواقفها ؟قد نستثني من ذلك مواقفها في العهد العثماني لأنها كانت في بداية انتشارها ، ولكن الفترة الاستعمارية كانت أكثر تأثيرا في هذه المواقف ، التي تضاربت بين الوقوف في وجه الحملات المنظمة على العروبة و الإسلام ، و بين تأييد الاستعمار في استغلال شعوب إفريقيا الشمالية و الغربية اجتماعيا و عسكريا ، تحت غطاء رد الجميل لفرنسا التي (أتت بحقوق الإنسان و نشرت الطمأنينة و الاستقرار)

وقد ظهر التناقض أيضا بين شمال و غرب إفريقيا في الموقف من المقاومة ، حيث جهرت الزوايا التجانية في المنطقة الأولى بالولاء للاستعمار و بمقاومته في الثانية في مرحلة من مراحلها لما كان على رأس الزاوية بغرب إفريقيا الحاج عمر الفوتي ، ثم تحولت في

المرحلة الثانية إلى المهادنة أيضا ، بعد القضاء على الدولة التجانية من قبل الاستعمار الفرنسي ، و هذه التناقضات تنطوي على أسرار لا يمكن استنطاقها من الوثائق التي تظهر هذا الولاء .

من هذا المنطلق ، و رغبة منا في الوصول الى بعض هذه الحقائق المتعلقة بهذه المواقف ، ارتأينا الاستمرار في البحث في شؤون هذه الطريقة خلال العهد الاستعماري ، بعد أن عالجنا دورها خلال العهد العثماني في مذكرتنا السابقة لنيل شهادة الماجستير . و التساؤلات التي كنا نواجه بها دوما حول حقيقة ما سماه السائلون (عمالة الطريقة للاستعمار) ، و دون امتلاكنا لما يمكن أن نرد به على تلك (الاتهامات) كان الدافع الأساسي للاستمرار في دراسة الطريقة، التي تبقى مهما كانت حولها بعض الأحكام قاسية ، تبقى موروثا دينيا و ثقافيا ، لازال يؤدي دورا هاما في المجال الديني و الاجتماعي و التربوي ، و حتى في بعض القضايا السياسية ، ومن منطلق البحث عن الحقيقة ، جاء موضوعنا الموسوم " موقف الطريقة التجانية من قضايا الاستعمار الكبرى في شمال و غرب إفريقيا خلال القرن التاسع عشر و بداية القرن العشرين ".

لقد عرفت الفترة التي نحاول دراستها ضمن هذا الموضوع تكالبا استعماريا رهيبا على منطقة شمال و غرب إفريقيا .ففي شمال إفريقيا سقطت الجزائر عام 1830 م ، ثم تلتها تونس عام 1881 م ثم في الأخير المغرب الأقصى عام 1912 م .أما في غرب إفريقيا فالتغلغل الاستعماري بدأ منذ القرن السادس عشر باستقرار الأوربيين في الساحل الإفريقي الغربي ، و ممارسة التجارة بأنواعها (الصمغ ، الذهب ، الرقيق)، و بدأت عملية إفراغ إفريقيا انطلاقا من هذا الساحل من سكانها الذين أصبحوا يباعون في إطار ممارسة تجارة الرق ، و ينقلون إلى العالم الجديد ، ثم تطور التغلغل الاستعماري مع بداية القرن التاسع عشر إلى احتلال المناطق الداخلية و اكتمل النفوذ الاستعماري بعد مؤتمر برلين الثاني 1884- 1885م .

و موضوعنا هذا مرتبط بما سببه الاستعمار من أخطار على شعوب شمال إفريقيا و غربها شكلت بالفعل قضايا مصيرية كان لابد لأصحاب النفوذ في المجتمع مواجهتها و اتخاذ مواقف منها ،و هذه القضايا – في الواقع كثيرة – و لكننا اقتصرنا ، في دراستنا للموضوع ، على تلك التي عثرنا فيها على مواقف للطريقة و استبعدنا بقية القضايا و في مقدمتها التجنيس ، لعدم تمكننا من إيجاد و لو إشارات إلى مواقف يفهم منها وجود رد فعل معين ، و القضايا التي ركزنا عليها هي :

1- قضية التنصير اعتبرنا التنصير المحرك الأساسي للحركة الاستعمارية ، فلا يمكن لأي نشاط استعماري أن ينجح دون أن يلازمه – كما قال أحد المنصرين – أخوه التنصير فالمنصرون يمهدون نفسيا لتثبيت جذور الاستعمار من خلال غرس فكرة القابلية

للاستعمار، و زرع الروح الانهزامية لدى شعوب المستعمرات ، زيادة على إفراغ هذه الشعوب من عقيدتها دون الاهتمام أكثر بتحويلها إلى الديانة المسيحية ، و المهم كما ورد في تقارير المؤتمرات التنصيرية أن تبقى الشعوب الإسلامية بالذات شعوبا لا دينية وبالتالي تتيه في الفراغ ، كما هو تائه شبابنا اليوم في ظل الغزو الثقافي المسلط على رقابنا . و الذين كان عليهم إبداء رد فعل معين على هذا الخطر الذي جلبه الاستعمار هم من كان لهم النفوذ الروحي في أوساط هذه الشعوب ، وفي مقدمتهم التجانيون .

2- قضية التعليم :

لا تقل خطورة عن التنصير، وقد صرح بذلك كل ساسة الاستعمار ، و أولوها العناية الفائقة ، من تخصيص معلمين كونهم الاستعمار لغرض نشر الفكر الاستعماري الذي مهد له التنصير . و حاول الاستعمار ان يتمم ما حققه من توسع بقواته العسكرية بم يلعبه التعليم من أدوار ، تصور الرجل الأبيض رجل مدنية و حضارة و رجل قوة لا تقهر ، مكرسا بذلك مبدأ الرجل السيد الذي على بقية الأهالي معاملته بالطاعة و الولاء و الخضوع ، و لذلك خصص الاستعمار للتعليم ميزانيات ضخمة ، إدراكا منه لعظمة النتائج لو تتحقق . و ما دامت الخطورة واحدة على الهوية الوطنية و على ديننا الحنيف، و رجال الدين مسؤولون في المقام الأول عن الدفاع عن العقيدة و عن أصالة المجتمع المسلم فكان من الضروري تتبع رد الفعل التجاني في هذه المناطق الآهلة بالمسلمين، المهددين في هويتهم و عقيدتهم ، خاصة و أن نسبة التجانيين مرتفعة في هذه الربوع كما هو الحال في غرب إفريقيا .

3- القضية الثالثة: هي قضية التجنيد العسكري ، حيث استغل الاستعمار فقر الشعوب الإفريقية ، و تدهور أحوالها الاجتماعية ، ليعرض عليها في البداية الانخراط في صفوف جيوشه الاستعمارية ،ثم وصل به الأمر إلى تجنيد شبابها إجباريا ، في ظل تناقض صريح بين قوانينه المدنية التي لا تعترف لهذه الشعوب بالمواطنة ، و تفرض عليهم واجبات لا تنسجم مع وضعهم كأهالي غير مواطنين .

هذا الاستعمار أصبح يحتل أراضينا بأبنائنا ، و يبيد أهالينا بشبابنا (قوم ، صبايحية ، قناصة، رماة)ويقضي عل ثوراتنا بمجندينا ، و يحمي نفسه برميهم في الجبهات الأمامية للقتال في كل المعارك الخطيرة ، التي أبيد فيها المقاتلون من الأهالي بالآلاف ، دون شفقة أو رحمة من هذا المحتل ، الذي عدد بعض التجانيين مزاياه و طالبوا شعوب المستعمرات بالدفاع عنه و زار بعضهم المقاتلين في فرنسا لرفع معنوياتهم ، و إظهار افتخارهم بهم لكونهم يدافعون عن بلد (الحرية و الإنسانية) . و قد سجل التاريخ إبادة الكثير من الجزائريين و التونسيين في المراكز الفرنسية دون قتال ، و دون ذنب ارتكب من طرف هؤلاء المجندين في الحرب العالمية الأولى،لا لشيء سوى لإرهاب زملائهم حتى لا يفكروا

في الفرار من الجيش . وتلك خطورة تضاف إلى ما تسبب فيه الاستعمار ، فهل أدرك التجانيون ذلك ، و كان موقفهم في مستوى تطلعات شعوب شمال و غرب إفريقيا ؟

4- الرابعة و هي قضية المقاومة ، كيف ينظر التجانيون إلى مقاومة الاستعمار ؟ هل قضية القضاء و القدر التي حاول التجانيون إقناع أتباعهم بها تنطبق على مهاجمة بلد مسيحي لبلد مسلم يسلبه سيادته ، و يحارب دينه ، ويستولي على أوقافه و يحول مساجده إلى كنائس و إسطبلات و مستودعات و ثكنات ؟ على اي أساس نستبدل فرض الجهاد الذي حاول الأمير عبد القادر من أجله رص الصفوف ، و دعا التجانيين إلى المشاركة فيه دون جدوى ، بالمهادنة و الولاء ؟ هل كانت هناك ظروف قاهرة وراء هذه المواقف التجانية من المقاومة ؟ هل كانوا يؤمنون فعلا بان الله استجاب لدعاء شيخهم أحمد التجاني لما دعا على الأتراك بزوال حكمهم ، وان عليهم قبول الاستعمار بناء على هذا الدعاء ؟ هل كان التجانيون فعلا مقتنعين بهذا الموقف ؟ وان كانت لهم نوايا أخرى ، لماذا لم يفصحوا عنها كما فعل زملاؤهم من شيوخ التجانية في غرب إفريقيا ، لما رددوا مرارا أن المهادنة ما هي إلا وسيلة مؤقتة للعمل على إنقاذ المجتمع من دسائس الاستعمار؟ و إذا كان التجانيون قد نهلوا من مورد واحد، و متمسكون كلهم بمبادئ طريقتهم، و يدافعون عنها ، فلماذا اختلفت المواقف بين الزوايا الكبرى و الزوايا الثانوية؟فقد سجلنا تضاربا بين الطرفين ، حيث في الوقت الذي أيدت عين ماضي و تماسين الاستعمار في الجزائر ، حاربته زاوية تلمسان ، واضطر شيخ الطريقة في عين ماضي إلى عزل الطاهر بوطيبة من منصبه كمقدم لهذه الزاوية ، و التبرؤ منه أمام السلطات الاستعمارية و طالب بردعه ، و نفس الشيء حصل مع زاوية الكاف في تونس، لما وقعت أحداث الجنوب و حاول مقدم هذه الزاوية إعلان الثورة مساندة لسكان الجنوب الثائرين ،فعزله شيخ زاوية تماسين التي كان لها نفوذ على الزوايا التونسية .

لقد لاحظنا في الكثير من الوثائق الضباط الفرنسيين يثنون على المواقف التجانية ، بل وصل بهم الأمر إلى التفكير في تعيين أحمد عمار في منصب قايد لمواقفه البارزة في خدمة قضايا الاستعمار ، ولسنا ندري إن كانت النوايا الاستعمارية حقيقية تجاه التجانيين لمكافأتهم على مواقفهم ، أم أن ذلك يندرج في إطار السياسة الاستعمارية الهادفة إلى ترويض و إخضاع الطرق الصوفية القوية كالتجانية .خاصة وان هذه الأخيرة لها نفوذ كبير في غرب إفريقيا وينتظر منها الاستعمار الوقوف إلى جانبه لإخضاع مناطقها .وتبقى قضية وقوف الحاج عمر الفوتي في وجه الاستعمار الفرنسي حلقة شكلت علامة استفهام للتجانيين الذين راسلوه لتوحيد الموقف ، و رغم ذلك واصل جهاده ، و ربما لم يكن يعتقد انه سيصطدم بالاستعمار و كان- كما أسلفنا- يركز على محاربة الوثنيين .

و الكثير من الباحثين يرجعون الولاء إلى حرص التجانيين على الحفاظ على نفوذهم و مكانتهم في شمال و غرب إفريقيا ،وتكون هده الفرضية صحيحة –في نظرنا- من كون التجانيين خرجوا من الفترة السابقة للاستعمار منهكي القوة و كانوا في طور إعادة بناء طريقتهم و لم يكن بمقدور أي منهم المجازفة بالدخول في مقاومة (لا يمكنهم التنبؤ بنهايتها) كما قال محمد الصغير التجاني لما أرسل رده للأمير ، و لربما كان يقصد نتيجتها ، في وقت لم تمر على ذكرى نكبة أخيه سوى بضع سنوات .

هذا الموضوع الشائك و الصعب من حيث الوصول إلى حكم نهائي ،قادنا إلى تتبع الدراسات التي تناولت هذه القضايا ، و مواقف الطريقة التجانية منها ،و كان من الصعب الوصول إلى هذه المواقف بوضوح من خلال المؤلفات لأن بعضها نقل ربما عمن سبقوه دون البحث عما يستدل به ،و صادفنا ذلك عند تتبعنا لمسار الأحداث التي قيل (إن أحمد عمار شارك فيها و بسببها تم اعتقاله ، وعد مناهضا للاستعمار ، وأخذ بالفكرة باحثون لهم باع في حقل البحث العلمي . والذي صادفناه أن أحمد عمار نفسه يعتبر ذلك وشاية للإساءة إلى سمعته ، و ضرب علاقته الطيبة مع الفرنسيين ، و يتوسل إليهم لإعادته إلى عين ماضي والوثائق تبين ذلك.ونفس الإشارة لدى آخرين بخصوص أخيه البشير ، و الذي أعتبر بدوره مؤيدا و مشاركا في هذه الإحداث (ثورة أولاد سيدي الشيخ)، حتى في الملتقيات المنضمة حول التصوف أشير إلى ذلك في عدة مداخلات ، و الوثائق الفرنسية ، وهي عبارة عن تقارير حول مناطق الجنوب تشير إلى الترخيص للبشير لزيارة أخيه في العاصمة ، ولما تقرر نقله إلى بوردو بفرنسا احتفظوا بأخيه معه ليرافقه إلى هناك حتى تهدأ الأمور خوفا على الشابين (أحمد عمار الأكبر 19 سنة) من التأثر ربما بهذه الثورة لصغرهما ، ثم أعيد البشير إلى عين ماضي لتسيير شؤون الزاوية ريثما يعود أخوه .و بالتالي زرعت فينا هذه الإشارات الشكوك و دفعتنا للتأكد من أي معلومة بالبحث عما يثبتها من وثائق .

و قد اعتمدنا في دراسة القضايا الأخرى على العديد من المراجع التي هي في الواقع أبحاث سابقة، و اعتمدت في معظمها على الأرشيف، مما جعلها ذات فائدة لموضوع دواستنا، ومن هذه المراجع :

-التنصير و الاستعمار في إفريقيا السوداء لعبد العزيز الكحلوت : والذي أعطانا فكرة هامة عن التنصير في إفريقيا ،و كيف واجهه رجال الدين ، و عدد أبرز الإرساليات التنصيرية في القارة السمراء و الدور الذي لعبته هذه الإرساليات بطرق شتى في تنصير أبناءإفريقيا. التنصير في إفريقيا لعبد الرزاق عبد الحميد الأرو : أعطانا شرحا مفصلا عن ظاهرة التنصير و التبشير محددا الفرق بينهما و أيهما الأصح في حالة إفريقيا ، وركز على أخطار حملات التنصير على الشعوب الإفريقية ، و قد أفادنا في معرفة بعض المواقف من هذه

الحملات حفاظا على تماسك المجتمعات الإفريقية، وتحصينها ضد الغزو التنصيري، الذي تغلغل كثيرا في قارة إفريقيا عن طريق الأعمال الخيرية و التطبيب و التعليم التنصيري، وغيرها اغتناما لفرصة تخلف القارة و فقرها.

-مؤلفات أجنبية منها :

Mgr louis Antoine pavy évèque d'Alger –de Challamel Ainé

vie de Mgr Dupuch .de M L'Abbé.

Histoire des missionnaires d'Afrique .de Jean Claude Ceillier

Missionnaires en Afrique.de André Picciola.

وهذه المؤلفات بدورها كانت معينا لنا في إدراك خطورة التنصير سواء في الجزائر او في بقية بلدان شمال وغرب إفريقيا لما عددته مما أعتبر بالنسبة لهؤلاء الأجانب خدمات جليلة ، نحن ندرك مدى استغلالها في التسرب إلى المجتمعات الإسلامية .

أما في مجال التجنيد العسكري فهناك مؤلفات عديدة اعتبرناها أساسية لبحثنا ، لكونها أعطتنا تفاصيل مهمة عن عمليات التجنيد .منها المؤلفات العربية و أخرى أجنبية ومن هذه المؤلفات :

- التليلي العجيلي ، الطرق الصوفية و الاستعمار بالبلاد التونسية : وفيه تحليل مهم جدا لاستغلال الطرق الصوفية في عملية تجنيد الشباب ، وأعطانا صورة واضحة عن دور ابن المنوبي التجاني في تجنيد فرق عسكرية قادها بنفسه إلى فرنسا للمشاركة في القتال ، و كيف تركها وعاد تحت ستار تعرضه لمرض تنفسي .

-كتاب محمد الصالح بجاوي : متعاونون و مجندون جزائريون في الجيش الفرنسي 1830-1918 م أعطانا كل التفاصيل حول عمليات تجنيد الجزائريين في الجيش الفرنسي منذ سنة 1830 ، وهو كتاب مهم كان في الأصل مذكرة ماجستير حول قضية التجنيد وخدمت بدورها موضوعنا خاصة لما استعملنا في دراسة التجنيد بعض الوثائق التي عثرنا عليها في مركز الأرشيف لما وراء البحار.إضافة إلى كتب أخرى و مقالات أخذنا معلومات متناثرة في ثناياها .

اما المؤلفات الأجنبية التي ساعدتنا في معرفة الأحداث المرتبطة بالتجنيد و الحروب التي شارك فيها الأهالي وبعض المواقف من التجنيد فنذكر منها عينات مثل:

le 1er régiment des tirailleurs algeriens (histoire-campagnes). -Duruy victor

-Huré Robert, l’Armée d’Afrique 1830-1962.

-Duc D’Aumale, les zouaves et lrs chasseurs d’Afrique.

-Paul Azan, les grands soldats de l’Algérie.

-Gilbert meynier, l’Algérie révélée la guerre de 1914-1918.

وهذه المؤلفات كلها- التي اخترنا منها عينات لأنه لايتسع لنا المجال للإشارة إليها كلها بالتفصيل –كانت محل مقارنة مع الوثائق التي حصلنا عليها وخدمتنا بدورها كثيرا منها:

-Goums algériens pour le maroc (1908-1914)-30h74-Anom –Aix-en provence.

-Evènements du rif, goumiers algeriens (1925-1933)30h73- (1925-1930) 30h72.

-service militaire des indigènes 3h56.

Pensions militaires aux indigènes 3h19

Etude sur le recrutement des indigènes 3 h 61.

وبالتالي فتجانس المادة الأرشيفية مع المادة المتناثرة في الكتب ساعدنا على الخروج بنظرة مكتملة تقريبا حول قضية التجنيد و ما خلفته من آثار لازالت ماثلة إلى اليوم في أذهان أهالي هؤلاء المجندين.

في مجال المقاومة زيادة على المادة المحصل عليها في بعض المؤلفات ككتاب العجيلي السابق الذكر بالنسبة لتونس و مجلات عديدة استقينا منها مادة متناثرة أيضا ،والتي معظم بلدان شمال و غرب إفريقيا ، كانت الوثائق الأرشيفية حاضرة ولا يمكن الخروج بإشارات عن مواقف معينة دون إيجاد ما يوضحها ، و كانت العلبة الأرشيفية 16غنية جدا بهذه الوثائق المتعلقة بالطرق الصوفية ومنها التجانية .

أما في مجال التعليم، تكاد تقتصر الوثائق التي حصلنا عليها على إحصائيات حول المدارس التجانية في غرب إفريقيا ، أو في الجزائر ، بينما أعطتنا المؤلفات التي اطلعنا عليها المواقف العامة للتجانيين في قضية التعليم الاستعماري ، و كيف بذلوا جهودا كبرى في سبيل نشر تعليم موازي للتعليم الرسمي الاستعماري، وهو التعليم الإسلامي رغم الضغط الاستعماري على كل ما يرمز للإسلام ، وهذه المؤلفات كانت كثيرة نركز على البعض منها كنماذج مثل:

-التعليم التبشيري لواعلي محمد الطاهر ،والذي حلل بطريقة جيدة دور المدارس التبشيرية في الجزائر ، وأمدنا بمعلومات مهمة حول خطورة التعليم التبشيري على الجزائريين ، وكيف قاوما هذا النوع من التعليم .

- التعليم الأهلي في الجزائر في عهد الاستعمار للمؤلف جمال قنان ،و الذي كان بدوره ذا فائدة لبحثنا أعطاء صورة كاملة عن دور الاستعمار في مقاومة التعليم العربي الإسلامي .

- نفس الفائدة حصلنا عليها من مجموعة من المقالات ، والدراسات حول قضية التعليم ومنها:مقل: سميلا محمد البشير حول مظاهر تأثير التعليم الغربي في التعليم الإسلامي في إفريقيا .- مقال قنايزية علي وهو دراسة تاريخية حول مناهج تعليم القرآن الكريم بين الماضي و الحاضر ، وغيرها من المقالات التي لا يتسع المجال لذكرها كلها .

وعموما بعض هذه الدراسات كانت ذات فائدة لعملنا هذا ، وكان علينا بالنسبة للبعض الآخر الوقوف عند العديد من النقاط ، ومقارنتها بالوثائق المتوفرة حتى نصل إلى حكم موضوعي حول قضية من هذه القضايا .

وحتى نستوفي بقدر أكبر، العناصر الضرورية لهذا الموضوع سردا ونقدا وتحليلا للوصول إلى معالجة مقبولة اتبعنا في دراستنا عدة مناهج هي:المنهج التاريخي الذي يعتمد على جمع المادة الضرورية حول الظاهرة المراد دراستها ، وكذلك المنهج التحليلي و المنهج المقارن ، لتحليل القضايا و المواقف بعد مقارنتها بغيرها ،خاصة وأننا نعالج موضوعا حساسا للغاية يحتاج إلى التريث في اتخاذ الحكم المناسب .

لقد حاولنا في هذه الدراسة أن نلم بالقضايا الأساسية المرتبطة بالاستعمار ، وحتى تكون هذه الدراسة أكثر الماما خصصنا لها أربعة فصول هي:

الفصل الأول :عالجنا فيه ظاهرة التنصير في شمال إفريقيا و في غربها ،وكنا نبدأ عملنا بعرض القضية في كل منطقة ، ثم نتبعها بالموقف ، وعلى هذا الأساس يتكون هذا الفصل من مبحثين أساسيين : الأول قضية التنصير في شمال و غرب إفريقيا ، والثاني : موقف الطريقة التجانية منها في كلا الإقليمين ، و طبعا كل مبحث مقسم بدوره إلى مجموعة من المطالب .

الفصل الثاني: بدوره يعالج قضية أخرى هي قضية التجنيد العسكري ، وبنفس المنهجية عالجنا هذه القضية مقسمينها إلى مبحثين أساسيين هما :ظاهرة التجنيد في الإقليمين المذكورين ، ثم الموقف من هذه القضية .

الفصل الثالث: عالجنا فيه ظاهرة التعليم الاستعماري ،وبدوره قسم إلى قسمين : الأول يتناول قضية التعليم بجميع أشكاله ،وخطورته ، والمبحث الثاني يتناول بالتفصيل رد الفعل

التجاني حول هذه القضية ، التي حاول التجانيون التقليل من خطورتها بإنشاء المدارس الإسلامية الموازية .

أما الفصل الأخير: فتناولنا فيه قضية المقاومة ، وطبعا لا يمكن أن تكون هناك مقاومة بدون احتلال ولذلك ارتأينا الكلام عن الاحتلال أولا، وتناولناه في مبحثين كالعادة ، الأول عن شمال إفريقيا ، والثاني عن غرب إفريقيا ، وأتبعناه مباشرة بموقف التجانية من هذه القضية الشائكة التي كتب عنها الكثير من منتقدي الطريقة واصفين إياها بالعمالة ، وذلك حكم قاسي جدا كان علينا إيجاد مبررات للمواقف التجانية الموالية ، أو المهادنة .

وعموما فدراستنا تبقى محاولة للوصول إلى بعض المعطيات المتعلقة بهذه الطريقة ، و لا يمكننا أبدا أن نعتبر أنفسنا قد وصلنا إلى أسرار هذه المواقف ، التي تحتاج إلى المزيد من التنقيب و البحث العلمي ، لعلنا نصل إلى أجوبة مقنعة تحافظ على مصداقية هذه الطريقة و الله نسأل أن يعيننا ، و يعين الجميع .

الفصل التمهيدي :

الطريقة التجانية و انتشارها في شمال و غرب افريقيا

- ✓ تعريف بمؤسس الطريقة
- ✓ نشأتها و أورادها
- ✓ انتشارها في شمال و غرب افريقيا

شهدت فترة أواخر القرن 12ه/18م ميلاد طريقة صوفية جديدة ، أضيفت إلى الطرق الصوفية الأخرى التي كانت منتشرة في الجزائر و بقية مناطق شمال إفريقيا، هي الطريقة التجانية.

ولدت هذه الطريقة في ظروف خاصة مرت بها الجزائر ، كان من أبرزها بداية القطيعة بين السلطة العثمانية و الطرق الصوفية ، مما خلق لها صعوبات في بداية ظهورها ، ترجمتها حملات البايات العثمانيين المتكررة على عين ماضي : الأولى سنة 1784م، قام بها محمد بن عثمان الكبير ، باي معسكر ، و فرض على السكان ضريبة سنوية [1] ، الثانية سنة 1787م قام بها عثمان بن محمد الكبير ، لتحصيل الضريبة التي فرضها أبوه .

هذه المضايقات هي التي أرغمت الشيخ أحمد التجاني على الهجرة إلى فاس عام 1798م، و رغم هذه الصعوبات فقد أثبتت الطريقة قدرتها على الصمود و البقاء ، بل و تمكنت من نشر نفوذها بسرعة في الجزائر ، ثم تجاوزت الحدود الجغرافية للجزائر و المغرب الأقصى بعد الهجرة إلى فاس، لتعرف انتشارا في معظم مناطق شمال إفريقيا و غربها ، أين سجل لها التاريخ مواقف تبدو متناقضة من قضايا الاستعمار المختلفة.

التعريف بمؤسس الطريقة:

هو الشيخ أبوالعباس أحمد بن محمد التجاني ، ولد بعين ماضي ، قرب الأغواط بالجزائر سنة 1737م ، وسط عائلة جل أفرادها كانوا على مستوى رفيع من العلوم الدينية و الدنيوية ، فأبوه محمد بن المختار كان عالما متمكنا من العلوم الدينية ، و أخوه ابن عمر كان حافظا للقرآن الكريم ، وأجداده كانوا بدورهم علماء و صلحاء ، وجده الثالث محمد بن سالم هو الذي وفد إلى عين ماضي ، و تزوج من بني توجين ، فكانوا أخوالا للشيخ أحمد التجاني ، و كنيته بالتجاني تعود إلى أخواله.

ويظهر بذلك أن مؤسس الطريقة قد تربى في وسط يشع بالعلم و المعرفة ، فنشأ كريم الأخلاق ، مقبلا على الاجتهاد، متمسكا بالدين ، حفظ القرآن الكريم عن ظهر قلب ، وهو ابن سبع سنوات تحت إشراف محمد بن حمو الماضوي.[2]

بعد حفظه القرآن الكريم،انهمك في طلب العلم ،فدرس على الشيخ المبروك بن بوعافية

الماضوي مختصر الشيخ خليل ،و مقدمة ابن رشد ، و الأخضري[3]

---

[1] Octave Depont, Xavier Coppolani, les confréries religieuses musulmanes, Alger, Adolphe Jourdan, 1897, p418.

2 -علي حرازم برادة،جواهر المعاني و بلوغ الأماني في فيض سيدي أبي العباس التجاني ، بيروت ، دار الكتب العلمية ،1997، ص23.

1-علي حرازم برادة ، م.س ،ص 24 .

وهو في عين ماضي مال إلى الزهد و الانعزال عن الناس ، حتى إذا بلغ سن الرشد ، تحول إلى الدعوة إلى الله ، تزوج ، وبعد سنة من زواجه طلق زوجته الأولى ، ثم تزوج من امرأتين: الأولى السيدة الغالية التي أنجبت له محمد الكبير ، و الثانية السيدة مبروكة التي خلفت له محمد الحبيب المعروف بمحمد الصغير[1]

في عام 1753م توفي والداه في يوم واحد بالطاعون، فخلف أباه على رأس زاويته و هو ابن ست عشرة سنة، درس خلال ذلك القرآن و السنة، و لكنه كان شديد الطموح، فبدأ يبحث عن توسيع معارفه خارج عين ماضي، و بدأ الترحال منذ ذلك الوقت.

أول رحلة قام بها ، كانت إلى فاس عام 1758م لشهرتها العلمية آنذاك ، و كان يحضر بها مجالس العلماء و حصل منهم على إجازات تسمح له بالتدريس[2]و الشخصيات التي التقى بها الشيخ أحمد التجاني بفاس تدل على اهتمامه بالجانب الروحي ، ومنها : مولاي الطيب الورزازي[3] المتوفى سنة 1766م ، محمد بن الحسن الونجلي المتوفى سنة 1771م ، و الذي نصحه بالرجوع إلى بلده ، عبد الله بن العربي الأندلسي المتوفى سنة 1774م ، أحمد الطواش المتوفى سنة 1789م ،و الذي طلب منه لزوم الخلوة و الصبر حتى يحصل على الفتح، و علمه بعض الأذكار . و لم تشر المصادر التجانية إلى ملازمته جامع القرويين أثناء تواجده بفاس ، رغم شهرتها العلمية ، و الوحيد الذي أشار إلى ذلك هو دون ذكر المصدر الذي اعتمد عليه الشيخ عبد الرحمن الجيلالي[4]

رجع الشيخ أحمد التجاني إلى الجزائر ، و استقر بالأبيض سيدي الشيخ ، حيث زاوية الشيخ سيدي عبد القادر ، المعروف بسيدي الشيخ ، اتجه إلى تلمسان سنة 1772م ، و منها إلى البقاع المقدسة لتأدية فريضة الحج ، فمر بمنطقة جرجرة ، و زار الشيخ محمد بن عبد الرحمن الأزهري ، شيخ الطريقة الرحمانية ، ثم وصل إلى تونس ، و تعرف على الشيخ عبد الصمد الرحوي ، و مكث بها سنة ، درس خلالها عدة مؤلفات ، ثم واصل طريقه .[5]

بوصوله إلى مصر، اتصل بالشيخ محمود الكردي، و لاحظ فيه حماسا كبيرا للوصول إلى أرقى المقامات الصوفية، و منها توجه إلى الحجاز سنة 1773م، و اتصل في المدينة المنورة بالشيخ محمد بن عبد الكريم السمان.[6]

1-عمار هلال، الطرق الصوفية و نشر الإسلام و الثقافة العربية في غرب إفريقيا السمراء، الجزائر، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، 1988م، ص119.
2-علي حرازم برادة ،م.س، ص29
3-هو شيخ الطريقة الطيبية ،و الذي ازدهرت في عهده الطريقة كثيراحتى سميت باسمه،رغم أن تأسيسها يعود الى عبد الله الشريف(1678م)
4-عبد الرحمن الجيلالي،تاريخ الجزائر العام،ج 4،الجزائر-ديوان المطبوعات الجامعية،1994م، ص 54.
5-أحمد الأزمي،الطريقة التجانية في المغرب و السودان الغربي، ج 1، المغرب، دار فضالة ، المحمدية2000م ،ص 39.
6-علي حرازم برادة، م س ،ص 39.

بعد تأدية فريضة الحج، عاد إلى الجزائر، مرورا بمصر من جديد، ثم تونس، و استقر بتلمسان التي قضى بها ثلاث سنوات، و في عام 1777م غادرها إلى فاس، و التقى في طريقه بعلي حرازم برادة لأول مرة و توجها معا إلى فاس، التي عاد منها إلى تلمسان ثم اتجه إلى قصر أبي سمغون بداية من عام 1782م.[1]

اتجاهه إلى هذا القصر كان بفعل المضايقات التي لقيها في تلمسان ، ويبدو أن الشيخ كان يحضر به للإعلان عن طريقته الجديدة ، و لم يكن يفضل التواجد بفاس حتى لا يكون ميلادها خارج بلاده الجزائر.

نشأة الطريقة التجانية :

مهد الشيخ أحمد التجاني للإعلان عن ميلاد طريقته الجديدة بمجموعة من المرائي التي أراد من خلالها أن يثبت للناس أنه كان موعودا بالقطبانية ، و أن يعطي طريقته أساسا شرعيا ، اقتداء بالرسول صلى الله عليه و سلم ، الذي ظهرت لديه الرؤيا الصالحة قبل أن يبشر بالنبوة.

فالرؤيا الأولى ورد فيها أنه رأى في عين ماضي أن كرسي المملكة أنتصب له، و جلس عليه، و الجنود يحيطون به من كل جانب، و هو يقود الجميع كأنه ملك.[2]

الرؤيا الثانية ورد فيها أنه رأى الرسول صلى الله عليه و سلم راكبا على حصان ، و حاول أن يسلم عليه حين ينزل منه ، غير أن النبي صلى الله عليه و سلم دخل بستان رجل من عين ماضي ، و بدأ الصلاة، و لم يدركه الشيخ أحمد التجاني إلا في الركعة الثانية ، و فسر ذلك أنه لن يبلغ مراده في القطبانية إلا بعد نصف عمره .[3] أما الثالثة فرأى فيها أنه كان في صورة ملك ، و عقد الناس له البيعة ،و نصبوا له كرسي الخلافة على سطح مرتفع ، و لما حان وقت صلاة الظهر أراد أن يطلب أحدا ليؤم الناس في الصلاة ،ثم تذكر أنه الخليفة ، و عليه أن يصلي بالناس ، و صلى بهم فعلا.[4]

وقد فسر الشيخ هذه الرؤيا أيضا بإمكانية وصوله إلى القطبانية، و أن يكون خاتم الأولياء و قد روج لهذه الفكرة فيما بعد أتباع الطريقة التجانية، و منهم محي الدين الطعمي الذي قال :"أما سر هذا الختم ، فهو رجل مقامه بين النبوة و القطبانية، اسمه أحمد، و كنيته أبو العباس، بلده فواس، حسني النسب، نبوي الأدب، منقطع المشرب إلا عن جده المصطفى

[2]-Louis Rinn, Marabouts et Khouan, étude sur l'Islam en Algérie , Alger , Adolphe Jourdan,1884,p.41.

[3]-علي حرازم برادة ، م.س ، ص42.

[4]-علي حرازم برادة ، نفسه ، نفس الصفحة .

[5]-علي حرازم برادة ، نفسه ، نفس الصفحة .

صلى الله عليه و سلم، صاحب الأدب ،مولده في عين مضت، و بدا نجمه من علم المعاني إلى علم الظهور في سنة خمسين و مائة و ألف من الهجرة ."[1]

يذكر التجانيون أن الشيخ أحمد التجاني أحس بإرهاصات الفتح الصغير، و قرب رؤيته للرسول صلى الله عليه وسلم خلال تواجده بتلمسان، من خلال تبدل الأحوال عليه، حتى أنهم شبهوا الحالة التي أصبح عليها التجاني بحال النبي صلى الله عليه و سلم حين نزول الوحي .[2]

و لما رحل من تلمسان إلى أبي سمغون عام 1782م رأى والده كأنه على قيد الحياة ، و استبشر بقدومه و في تلك الليلة وقع له الفتح برؤية النبي صلى الله عليه و سلم و عمره آنذاك حوالي 45 عاما .

ذكر الشيخ أحمد التجاني أنه رأى الرسول صلى الله عليه و سلم، يقظة لا مناما، و أخبره بعلو مقامه، و أمره بترك جميع الطرق التي أخذها من قبل، و عين له الورد الذي يلزم طريقته الجديدة، و أمره بتلقينه للناس، من عير خلوة و لا اعتزال، حتى يصل إلى ما وعد به، و أخبره – كما قال –بأنه مربيه و كافله، و أنه لا يصله شيء من الله إلا على يديه .[3] و قد أراد الشيخ أحمد التجاني بذلك أن يثبت للناس أن طريقته مستقلة تماما عن بقية الطرق ، و أنسنده فيها هو الرسول صلى الله عليه و سلم .

وبإعلانه عن وقوع الفتح، بدأت صفحة جديدة في حياة الشيخ بميلاد طريقته، و عاد إلى عين ماضي مسقط رأسه لتثبيت أركانها، واتخاذ قريته مقرا رئيسيا لها.[4]

ومنذ ذلك الحين بدأ الشيخ أحمد التجاني يحاول نشر طريقته ، متنقلا بين عدة مناطق حتى اتسع نفوذها ، لتبدأ انتشارها إلى شمال إفريقيا و غربها بعد هجرته إلى فاس عام 1798م.

أوراد الطريقة التجانية:

بعد حصول الفتح للشيخ أحمد التجاني ، عين له الرسول صلى الله عليه وسلم – وفق ما ذكره الشيخ-الورد على مرحلتين :الأولى سنة 1782م و كلفه فيها بالاستغفار مائة مرة و الصلاة على النبي صلى الله عليه و سلم مائة مرة . و الثانية سنة 1786م، و فيها زاده الورد اللازم مائة مرة من الكلمة المشرفة (لا اله إلا الله).

1-محي الدين الطعمي، عروش الحقائق ، ج1، بيروت، المكتبة الثقافية،1994، ص 300.و السنة المذكورة 1150ه هي سنة ميلاد الشيخ أحمد التجاني.

2-علي حرازم برادة،جواهر المعاني ، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية رقم 1711، الورقة 11 ظهر .

3-علي حرازم برادة، جواهر المعاني ،مصدر سابق مطبوع ، ص40.

4-Octave Depont, Xavier Coppolani, op.cit. p 416.

والأوراد التجانية نوعان : لازمة و اختيارية.

أولا: الأوراد اللازمة :عددها ثلاثة حسب المصادر التجانية و هي :

أ-الورد: و يتمثل في:

1- الاستغفار بصيغة (أستغفر الله)100 مرة.

2- الصلاة على الرسول صلى الله عليه و سلم بأية صيغة كانت 100 مرة[1] ، و لكن الأحسن بصلاة الفاتح لما أغلق لما فيها - كما يرى التجانيون- من جوامع الثناء على الرسول صلى الله عليه و سلم و هي : اللهم صلي على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق ، و الخاتم لما سبق ، ناصر الحق بالحق ، و الهادي إلى صراطك المستقيم ، و على آله حق قدره و مقداره العظيم .

3- الهيللة : و هي (لا اله إلا الله) 100 مرة .

ووقت هذه الأذكار بعد صلاة الصبح إلى وقت الضحى، و بعد العصر إلى صلاة العشاء .

ب: الوظيفة: تقرأ في اليوم مرة، أما صباحا, أو مساء, و تتمثل في:

1- الاستغفار بأية صيغة ، 100 مرة أو بصيغة (أستغفر الله العظيم الذي لا اله إلا هو الحي القيوم) 30 مرة .

2 – صلاة الفاتح 50 مرة .

3- الهيللة : 100 مرة .

4- جوهرة الكمال : 11 مرة [2] وهي (اللهم صلي و سلم على عين الرحمة الربانية ، و الياقوتة المتحققة، الحائطان بمركز الفهوم والمعاني و نور الأكوان المتكونة، الآدمي، صاحب الحق الرباني، البرق الأسطع بمزون الأرباح المالئة لكل متعرض من البحور و الأواني، و نورك اللامع الذي ملأت به كونك الحائط بأمكنة المكاني ، اللهم صلي و سلم على عين الحق التي تتجلى منها عروش الحقائق ، عين المعارف الأقوم , صراطك التام الأسقم ، اللهم صلي و سلم على طلعة الحق بالحق الكنز الأعظم , إفاضتك منك إليك إحاطة

1- أحمد الأزمي ، م . س ، ص 72 .

[1] علي حرازم برادة ، م.س ، ص 92 . بينما ذكر العدد 12 مرة في الرماح " لعمر الفوتي (ص 229) ، و الحماليون كفرع من التجانية في غرب إفريقيا يعتمدون أيضا العدد 12 .

النور المطلسم ، صلى الله عليه و على أله ، صلاة تعرفنا بها إياه). و يشترط في قراءتها الطهارة المائية لا الترابية ، لأن النبي - صلى الله عليه و سلم - حسب اعتقاد التجانيين يحضر قراءتها . [1] و يستحسن قراءتها في جماعة .

ت – ذكر يوم الجمعة : و يتمثل في الهيللة ، و يذكر جماعة لمدة ساعة أو أكثر ، بعد صلاة العصر .

ثانيا: الأوراد الاختيارية: وهي أوراد غير إجبارية لأهل الطريقة و منها:

أ – ياقوتة الحقائق في التعريف بحقيقة سيد الخلائق :

و هي واردة كاملة في المصادر التجانية و خاصة "الرماح" و " أحزاب و أوراد " ، و تبدأ بعبارة (الله ، الله ، الله ، اللهم أنت الذي لا اله إلا أنت) و تنتهي بالصلاة على الرسول صلى الله عليه و سلم بعبارة (اللهم صلي على سيدنا محمد آمين) .

ب : الصلاة الغيبية في الحقيقة الأحمدية :

وتبدأ بعبارة (اللهم صلي و سلم على عين ذاتك العلية) و تنتهي ب (عدد إحاطة علمك)

ت- الحزب اليماني (الحزب السيفي) :

و يبدأ بعبارة (اللهم أنت الله الملك الحق) و تنتهي ب (و حسبنا الله و نعم الوكيل، و الحمد لله رب العالمين).

ث- حزب المغني : و يقرأ بعد الحزب السيفي، و يبدأ بعبارة (الهي بك أستغيث فأغثني .. إلى: و الحمد لله رب العالمين)

ج – سورة القدر

ح- سورة الإخلاص

خ- آخر سورة الحشر

د- حزب البحر: و يقرأ في الصباح و المساء، و يبدأ بعبارة (يا علي، يا عظيم ، يا حليم , يا عليم ، .. إلى غاية .. و لا حول و لا قوة إلا بالله العلي العظيم) .

ذ- الدور الأعلى : و يبدأ بعبارة (اللهم يا حي ، يا قيوم ، بك تحصنت ، إلى غاية .. و لا تكلني إلى نفسي طرفة عين ، و لا أقل من ذلك).

---

[1] علي حرازم برادة ، م س ، ص 92 .

إضافة إلى أوراد أخرى [1] منها : الأسماء الادريسية ، استغفار الخضر ، صلاة رفع الأعمال ، المسبعات العشر ، و الرجز الذي يردفه المريد بصلاة الفاتح ، و هذا الرجز موجود في مصدر تجاني واحد [2] و كان الشيخ أحمد التجاني يأذن فيه لبعض خاصيته .

و هكذا ولدت الطريقة التجانية كطريقة جديدة ، لها تعاليمها و أورادها و منهجها الخاص في التربية الروحية ، و المستوحاة كلها – حسب مؤسس الطريقة - من الرسول صلى الله عليه و سلم .

و لم تعرف هذه الطريقة الشهرة و الانتشار إلا بفضل نشاطها الذي لم يتوقف منذ ميلادها ، سواء داخل الجزائر قبل سنة 1798 م ، أو انطلاقا من فاس بعد هجرة مؤسسها إليها ، و استقراره بها لمدة سبع عشرة سنة ، حقق فيها ما لم تحققه الطرق الصوفية التي سبقت طريقته في النشأة إذ عرفت أولا انتشارا واسعا في شمال إفريقيا و غربها، ثم زاد نفوذها ليصل بقية القارات .

انتشار الطريقة التجانية في شمال إفريقيا :

1- الجزائر:
يمكن تقسيم انتشار الطريقة التجانية في الجزائر إلى مرحلتين أساسيتين هما :

مرحلة أولى: مرحلة الانتشار في عهد مؤسس الطريقة 1782م – 1815 م

مرحلة ثانية: و هي مرحلة الانتشار في عهد خلفائه 1815م – 1897م.

فالمرحلة الأولى تبدأ من تأسيس الطريقة بأبي سمغون عام 1782م و تنتهي بوفاة الشيخ أحمد التجاني بفاس عام 1815م , بينما تبدأ المرحلة الثانية بخلافة الشيخ الحاج علي التماسيني و أنهيناها بسنة 1897 م التي تمثل تاريخ وفاة أحمد عمار، ابن محمد الصغير التجاني ، لأن الطريقة بوصولها إلى هذه الفترة كانت قد بلغت أوج انتشارها في منطقة الجزائر و شمال إفريقيا ، و لم تعرف مناطق جديدة بعد هذه السنة خاصة داخل التراب الوطني .

[1] - يمكن الاطلاع على الأوراد الاختيارية كاملة ، و مرفقة بشرحها في كتاب (أحزاب و أوراد) من الصفحة 22 إلى الصفحة 120 ، و في (جواهر المعاني) من الصفحة 93 إلى الصفحة 95 ، طبعة بيروت 1997 م.

[2] - عبيدة بن محمد الصغير الشنقيطي ، مختصر ما أملاه سيد الوجود على التجاني، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية ، الجزائر ، رقم 2396 .

1-1 المرحلة الأولى 1782م- 1815م:

بدأ النشاط الحقيقي للشيخ أحمد التجاني في قرية أبي سمغون , و كثرت تحركاته بعد ذلك لنشر طريقته إلى معظم مناطق الجزائر بداية بالجنوب ، و حقق بالفعل نجاحا كبيرا لطريقته ، رغم ما مرت به من ظروف ، و من هذه المناطق التي وصلتها الطريقة في هذه المرحلة :

أ- قرية أبي سمغون :

بمجرد انتشار خبر الفتح ، بدأ الناس يتوافدون على الشيخ أحمد التجاني في هذه القرية و أخذ يلقنهم الذكر ، و كان ذلك أول انطلاقة لطريقته بالجزائر ، و من بين أبرز الأتباع الذين عينهم مقدمين ، و كانوا النواة الأولى للطريقة : محمد بن العباس ، أحمد بن عبد الرحمن ، أبو القاسم بن يحيى ، محمود بودواية ، أبو الحسن أبو حفص ، ابن المشري ريان السمغوني ، أحمد بن عاشور ، الطيب بن محمد بن قدور البوشيخي ، محمد بن قنيش السمغوني ، و عبد القادر بن زياد الزيادي. [1] وقد ساهم هؤلاء المقدمون بفعالية في نشر تعاليم الطريقة و الترويج لها عبر المناطق المجاورة.

ب-عين ماضي: بعد الإعلان عن ميلاد طريقته بأبي سمغون، اتجه الشيخ أحمد التجاني إلى مسقط رأسه عين ماضي التي أصبحت أول مركز للطريقة التجانية ، و هناك كثر زواره للأخذ عنه ، و لم يعارضه سوى قبائل التجاجنة (الشراقة) و سببوا للطريقة فيما بعد بعض المتاعب. [2]

ولكثرة أعداد هؤلاء الزوار، شبه ازدحامهم على بابه صاحب (بغية المستفيد) بالطواف على الكعبة في قوله:"فترى الناس من شدة الازدحام على إتباعه و كثرة

الوفود منهم على بابه، كأنهم يطوفون ل بالكعبة المشرفة.." [3] وكثرة الوفود من عين ماضي للأخذ عنه تعود ربما لمعرفة ورعه و صلاحه و تقواه، باعتباره من مواليد المنطقة . و كان من بين الذين أخذوا عن الشيخ أحمد التجاني ، و أصبح لهم دور كبير في توسيع نفوذ الطريقة بالمنطقة :

---

[1] أحمد الأزمي ، م.س ، ص 299 .

2-هؤلاء التجاجنة الشراقة كانوا يرون في أحمد التجاني دخيلا على العائلة التجانية باعتباره ينتمي إليهم من حيث الأم (أخواله)،و كانوا يرفضون طريقته ، و قد استنجدوا عام 1820م بالباي حسن بن موسى باي وهران ضد محمد الكبير التجاني ، ثم بايعوا الأمير عبد القادر عام 1838 م لما وصل إلى عين ماضي و حاصرها .

-محمد العربي بن السايح، بغية المستفيد لشرح منية المريد ، بيروت ،دار الكتب العلمية ،2007، ص 179.[3]

- الشيخ محمد بوحسون الماضوي ، الذي عينه مقدما بها .[1] و هو الذي بنى له الدور و الخلوات بعين ماضي و أبي سمغون .

الشيخ عبد القادر بن محمد بن سليمان بن قدور ، الذي كان له نشاط كبير في نشر الطريقة بعد هجرة الشيخ أحمد التجاني إلى فاس .

الشيخ محمد بن قويدر العبدلاوي ، و ابنه أحمد العبدلاوي الذان تمكنا من إدخال عشيرتهما كلها في الطريقة التجانية .[2]

محمد الهاشمي السرغيني و النوي بن عطا الله، و محمد بن سلامة الذي وهب أملاكه للزاوية .[3] و الحاج علي التماسيني الذي كانت له فيما بعد مساهمة كبيرة في نشر الطريقة بالشرق الجزائري ، بعد خلافة الشيخ أحمد التجاني على رأس الطريقة سنة 1815م.

ت-قصر الأبيض بنواحي أبي سمغون:

ساهم في نشر الطريقة به عدة مقدمين عينهم الشيخ أحمد التجاني و منهم: المقدم الحاج أحمد الزاوي الشلالي البوشيخي ، و أحمد بن قدور ألشلالي ، و أحمد بن سعد ألشلالي ، و خليفة بن كربوب ، هؤلاء المقدمون تمكنوا من كسب عدد كبير من الأتباع في المنطقة بعد نشاط كبير ، روجوا من خلاله للطريقة الجديدة .

ث- تلمسان :

كان من بين أتباعه الذين أجازهم في الطريقة ، و عملوا على نشرها بتلمسان_: الشيخ محمد بن عبد الرحمن العزوري ، و بغض التلاميذ الذين كانوا على صلة به منذ أن كان يقيم بها و منهم : الطاهر بوطيبة الذي عين مقدما للطريقة ، و أصبح له فيما بعد شأن كبير أثناء الفترة الاستعمارية ، لمعارضته للاستعمار، و المختار بن طالب ، و محمد بن معمر البوشيخي .[4] و محمد المازوني الذي قتل أثناء الصراع الذي نشب بين الأمير عبد القادر و محمد الصغير التجاني سنة 1838م.[5]

ج-توات :

2-أحمد بن الحاج سكيرج العياشي ،كشف الحجاب عمن التقى مع الشيخ التجاني من الأصحاب ،فاس ، المطبعة الحجرية ،1907م ،ص 403.

-أحمد سكيرج العياشي ، نفسه ، ص299.[2]

4-أحمد بن الشين ،الطريقة التجانية بين الماضي و الحاضر ، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في علم الاجتماع ، معهد علم الاجتماع ، جامعة الجزائر ، 2001/2000م، ص59.

-أحمد الأزمي ، م.س ، ص295.[4]

-أحمد بن الشين ، م.س ، ص59.[5]

كانت من بين المناطق التي تردد عليها الشيخ أحمد التجاني كثيرا بعد الفتح ، و تمكن فيها من جمع عدد كبير من الأتباع ، كان من أبزهم : محمد بن الفضيل التواتي الذي عينه مقدما ، و كان له دور هام في نشر الطريقة في معظم المناطق الصحراوية انطلاقا من توات ، وساعده في مهمته مقدمون آخرون منهم : المقدم يعزى برادة ، ابن علي حرازم برادة أحد أبرز المقربين من الشيخ أحمد التجاني ، و أبو حفص عبد الرحمن الصحراوي ، وأحمد بن محمد التواتي ، و الطاهر عبد القادر القندوسي ، و مسعود بن كحولة الصفراني ، و ابن زيان الشلالي ، و غيرهم .

ح-تاجموت[1] :

كانت من بين المناطق التي استقبلت الشيخ أحمد التجاني ، و عين عليها حسن بن دحمان التاجموتي مقدما . هذا الأخير بنى فيها مقاما للمريدين التجانيين ، يلتقون فيه للذكر و الذي كان له أثر هام في نشر الطريقة ، إضافة إلى الشيخ أحمد بن يعقوب الذي كان من أشد المتحمسين لنشر تعاليم الطريقة .[2]

خ- الأغواط:

ساهم في نشر الطريقة بها كل من البشير بن بوعلام ، الجيلالي بن عبد الرحمن الذين أخذا عن الشيخ أحمد التجاني ورد الطريقة ، و تمكنا من نشر تعاليمها بين أقاربهما ، ثم عمت مجموعة كبيرة من الأغواطيين ، إضافة إلى دور بعض العلماء التجانيين من أمثال : سحنون الأغواطي ، و محمد بن عبد الله الأغواطي [3]

د- وهران :

رغم حداثة فتحها [4] و صعوبة وصول الطرق الصوفية إليها بسبب عداء باياتها المتأخرين لرجال الطرق ، إلا أن الطريقة التجانية انتشرت بها على يد بعض المقدمين منذ عهد الشيخ أحمد التجاني كما كان بفاس ، و منهم أحمد بن عبد السلام الفيلالي [5] ، و رغم هجرة الشيخ إلى فاس منذ 1798 م إلا أنه بقي حريصا على نشر تعاليم طريقته في جل ربوع الجزائر و قد أوفد لذلك عدم مقدمين ، زيادة على المقدمين الذين عينهم قبل رحيله ، و منهم الشيخ ابن المشري الذي جال تلمسان ، و الجزائر ، و أبا سمغون ، و عين ماضي يثبت جذور الطريقة بهذه المناطق إلى أن توفي سنة 1809م ، و الشيخ محمد الغالي بوطالب الذي

-قرية صغيرة تبعد عن عين ماضي بحوالي 35 كم ، و هي تابعة حاليا مع عين ماضي لولاية الأغواط.[1]

-أحمد الأزمي ، م.س ، ص 302 .[2]

[3] أحمد سكيرج العياشي ، م.س ، ص 132

[4] الفتح الثاني لمدينة وهران كان سنة 1792 م على يد محمد بن عثمان الكبير ، باي معسكر ، و الذي على إثره أصبحت وهران عاصمة بايلك الغرب .

[5] أحمد سكيرج العياشي ، م.س ، ص 369.

تخرج على يديه الكثير من الشيوخ و ساهموا في نشر الطريقة ، ليس فقط في الجزائر ، بل حتى خارجها ، منهم محمد أكنسوس ، و أحمد بناني .

ذ- وادي سوف :

أول من أدخل الطريقة التجانية إلى وادي سوف : الشيخ محمد السياسي القماري الذي كان معلما للقران بالأغواط ، وسماعه خبر وصول الشيخ أحمد التجاني إلى عين ماضي ، سارع ليأخذ عنه تعاليم الطريقة ، و نقلها إلى أهل بلدته ، الذين انخرطوا في الطريقة بقوة ، حتى أصبح موكب أهل في المنطقة ، و ممن ساهم في نشرها ، زيادة على الشيخ محمد الساسي : الطاهر بن صادق ، أحمد بن داسي ، أحمد المنصور ، أحمد بن سعيد .. وكانت زاوية قمار التجانية أقدم زاوية تجانية بالجزائر ، و بناها محمد التونسي ، سنة 1789 م بطلب من الشيخ أحمد التجاني ، ثم توسعت في عهد أبناء أبناء الحاج علي التماسيني ، و استمرت وفود قمار في زيارة الشيخ كل سنة إلى غاية هجرته إلى فاس . و بقي بعض القماريين على اتصال به حتى و هو في المغرب الأقصى ، و البعض الأخر يكتفي بمراسلته ، و آخر زيارة للشيخ أحمد التجاني لعين ماضي كانت سنة 1813[1] و كانت تشكل أخر اتصال للقماريين بالشيخ الذي توفي بعدها بسنتين .

ر- تماسين :

عرفت تماسيين الطريقة ، على يد الشيخ محمد بن المشري الذي تعرف على الشيخ أحمد التجاني في تلمسان سنة 1754 ، و لما أعلن الشيخ عيد ميلاد طريقته أخذ ابن المشري وردها ، و نشره بين أفراد قبيلته ، الذين أسسوا زاوية تقرت و كان من بين من ساهموا كثيرا في نشر تعاليمها بالمنطقة في عهد الشيخ أحمد التجاني : قويدر العبدلاوي ، و المقدم سليماني ، و عبد القادر بن مالك ، إلا أن الانتشار الكبير للطريقة بالجنوب الشرقي و ليس فقط تماسين كان على يد الحاج علي التماسيني، الذي لازم الشيخ أحمد التجاني بضعة أشهر في فاس، [2] ثم عاد الى تماسين ، وشرع في نشر تعاليمها واضعا أمواله في خدمة الطريقة ، و حتى و هو في تماسين ، كان كثير الزيارة لشيخه التجاني حتى أصبحت له مكانة خاصة عند الشيخ ، وورثه الطريقة ، و قد بنى الشيخ الحاج علي زاوية كبرى بتماسين هي زاوية تملاحت التي أصبحت لها فيما بعد شهرة واسعة ، شمل نفوذها تونس أيضا .

2-1 المرحلة الثانية : 1815م-1895م :

بعد وفاة الشيخ أحمد التجاني ، عرف انتشار الطريقة التجانية بعض الركود ، باستثناء الجنوب الشرقي ، و يعود ذلك ربما إلى استمرار المضايقات العثمانية للطريقة التجانية ، و

[1] أحمد بن الشين ، م.س ، ص 60 .

[2] فاطمة قارة ، موقف الطرق الصوفية التونسية من الحماية الفرنسية ('1881 -1939) الطريقة القادرية و التجانية نموذجا، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث و المعاصر ، جامعة الجزائر 2012/2011 ، ص 19.

التي ترجمتها حملة الباي حسن على عين ماضي سنة 1820م ، ثم نكسة إبادة جيش محمد الكبير التجاني بكامله سنة 1826م بمعسكر على يد نفس الباي ، ثم حلول الاستعمار الفرنسي بالجزائر منذ عام 1830م، وسياسة الحصار التي ضربها على الطرق الصوفية ، إضافة إلى مشكلة الصراع على الخلافة بين زاويتي عين ماضي و تماسين بين أبناء الشيخ أحمد التجاني و أبناء الحاج علي التماسيني .

هذه الظروف كلها قللت من نشاط التجانيين ، و بالتالي قل انتشارها الذي اقتصر تقريبا على أعماق الصحراء ، مع انتشار ضيق في باقي المناطق .

أ- استمرار انتشارها في الصحراء :

بعد وراثة الحاج علي التماسيني لمقاليد الطريقة التجانية ، اثر وفاة الشيخ أحمد التجاني سنة 1815م شهدت الطريقة في عهده انتشارا واسعا في جانبها المادي ، حيث تأسست الكثير من الزوايا في مناطق إستراتيجية ، أصبحت تؤمن الطريق للقوافل التجارية العابرة للصحراء [1] إضافة إلى وقوعها في طريق الحج .

و هكذا أصبحت ، زيادة على المكاسب المادية ، تنشر تعاليم التجانية في أوساط زوارها ، مما مكن من انتشارها في مناطق شتى من التراب الوطني ، و لكن تبقى قوة الانتشار في المناطق الصحراوية . و عموما تعد فترة 1815م-1875م أصعب فترة لانتشار الطريقة خاصة في الشرق الجزائري و جنوب الصحراء، و هي الفترة التي تولى فيها الحاج علي التماسيني قيادة الطريقة إلى غاية وفاته عام 1844م ، و خلفه ابنه محمد العيد إلى غاية عام 1875م.

و قد حدد كل من " دوبون " و " كوبولاني " عدد الزوايا التجانية بالجزائر خلال النصف الثاني من القرن 19 ب 32 زاوية و أورد مناطق أخرى ، زيادة على المناطق التي ذكرناها ، دون تفصيل في ذلك ، و من هذه المناطق : عين فزة ، الرمشي ، عين تموشنت ، معسكر ، سعيدة ، سيدي بلعباس ، مستغانم ، آفلو ، المشرية ، مغنية ، عين الصفراء ، البيض [2] .

2- تونس :

بعد الشيخ إبراهيم الرياحي [3] أول من أدخل تعاليم الطريقة التجانية إلى تونس ، فقد اجتمع بالشيخ أحمد التجاني أثناء سفره إلى المغرب الأقصى سنة 1803م لجلب المؤونة ، أثناء

---

[1] -أحمد بن الشين ، م.س ، ص 61 .

[2] O.Depont et X. Coppolani , opcit , p 437

[3] إبراهيم الرياحي : هو الشيخ أبو إسحاق إبراهيم بن عبد القادر الرياحي ، ابن الفقيه إبراهيم الطرابلسي الذي نزل بجهة "رياح" و اشتغل بتعليم القرآن الكريم ، ثم انتقل ابنه عبد القادر إلى "تستور" و فيها ولد الشيخ إبراهيم سنة 1766م ، و

حدوث مجاعة بتونس ، على رأس وفد بعثة الباي حمودة باشا ، حاملا رسالة إلى السلطان مولاي سليمان ، و بوصوله إلى فاس اتجه إلى بيت الشيخ أحمد التجاني ، الذي وجد عنده الشيخ محمد المشري ، و محمد الغالي ، و قد تأثر الشيخ إبراهيم الرياحي كثيرا بالشيخ أحمد التجاني [1] . و كان أول تونسي يتلقى أوراد الطريقة التجانية ، و يعمل على نشرها ، حيث أنشأ أول زاوية ، قرب حوانيت عاشور ، بحاضرة تونس.

أما في فترة الحماية الفرنسية ، فقد أدى الشريف المنوبي التجاني دورا بارزا في نشر الطريقة ، و كان يدعي الانتساب للرسول صلى الله عليه و سلم [2] و هو في الواقع قد استفاد من ولائه للإدارة الاستعمارية في حصوله على تسهيلات عدة مكنته من تحقيق انتشار أوسع للطريقة التي شملت معظم مناطق تونس، ليصل عدد أتباعها سنة 1925م إلى 16094 مريدا . [3] ووصل عدد زواياها في هذه السنة إلى 24 زاوية ، تعتبر زاوية بوعرادة أهمها بوجود الشريف المنوبي على رأسها، و قد فضلنا توضيح هذا الانتشار الذي تمركز بالخصوص في الغرب و الجنوب، بسبب تأثير زاويتي قمار و تماسين على هذه المناطق لقربها الجغرافي منها ، عن طريق جدول يبين المناطق و عدد الزوايا و الأتباع .

جدول انتشار الطريقة التجانية بتونس سنة 1925 : [4]

المنطقة	***عدد الزوايا***	***الأتباع***
بنزرت	2	293
تونس	6	501
قرنبالية	1	51
مجاز الباب	1	201
سوق الأربعاء	1	22

حفظ القرآن ثم انتقل إلى حاضرة تونس لطلب العلم ، و درس على يد علماء بارزين منهم : حمزة الجباس و صالح الكواش ، محمد الفاسي، عمر المحجوب .. ثم تصدر للتدريس . و في سنة 1796م قدم من المغرب الشيخ علي حرازم و تعرف عليه و نزل عنده في بيته أين دعاه للطريقة التجانية . و في سنة 1803م ، لما سافر إلى المغرب جدد انخراطه على يد الشيخ أحمد التجاني نفسه ، توفي سنة 1850م . ينظر : عمر بن محمد بن علي إبراهيم الرياحي ، تعطير النواحي بترجمة سيدي إبراهيم الرياحي ، مطبعة بكار و شركائه – تونس 1902م ، ص ص 7 – 22 .

[1] أحمد بن أبي الضياف ، إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس و عهد الأمان ، ج 3 ، تحقيق لجنة من كتابه الدولة للشؤون الثقافية و الأخبار ، تونس ، المطبعة الرسمية 1964م ، ص 39 .

[2] فاطمة قارة ، م.س ، ص 21 .

[3] التيلي العجيلي ، الطرق الصوفية و الاستعمار بالبلاد التونسية ، المجلد 2 ، 1881م-1939م ، منشورات كلية الآداب بمنوبة ، جامعة تونس1، تونس 1992م ، ص 44 .

[4] التليلي العجيلي ، م.س ، ص 44.

باجة	-	400
الكاف	1	1015
سوسة	3	123
تالة	-	5350
القيروان	2	1578
قفصة	-	500
توزر	3	555
قابس	3	406
مدنين	1	68
تطاوين	-	5031
المجموع	24	16094

3- المغرب الأقصى :

كان لاستقرار الشيخ أحمد التجاني بفاس منذ سنة 1798م أثر هام في انتشار الطريقة بالمغرب الأقصى ، حيث قضى 17 سنة به ، ساعيا لنشر تعاليمه بعزيمة قوية ، و لم تقتصر جولاته و زياراته على مدينة فاس وحدها ، بل شملت ضواحيها أيضا ، يحضر حلقات الذكر ، يعين المقدمين و يراقب أعمالهم ، و يبعث الرسائل إلى كل المناطق داعيا إلى طريقته ، شارحا أورادها و أذكارها ، و منبها الناس إلى فضلها ، و امتد نشاطه إلى الأسر ، يحل عليها ضيفا ، فيغتنم الفرصة للتعريف بطريقته و الترويج لها . لقد كان له جواد يستعمله في جولاته و زياراته [1] و كلما مر بحي من الأحياء، إلا ووقف برهة عند أي جمع يصادفه، مبشرا بدعوته.

نشاطه لم يقتصر على الطبقات الشعبية ، بل كان يحضر أيضا المجالس العلمية للسلطان ، مما زاد من نفوذه لدى السلطة الحاكمة ، و بعد بناء زاويته أصبح يستقبل الوفود حتى من خارج المغرب الأقصى ، لعل علاقته الحسنة بالسلطان مولاي سليمان كان لها تأثير

[1] أحمد الأزمي ، م.س ، ص 254 .

ايجابي على الطريقة، و ساعدت على انتشارها كثيرا بالمغرب ، خاصة و أن الكثير من ساسة بلاط السلطان اعتنقوا الطريقة التجانية [1] .

وبعد وفاة الشيخ أحمد التجاني سنة 1815م و دفنه بزاويته بفاس ، وجود ضريحه و زاويته هناك ساهم أيضا في نشر الطريقة و انتشار الزوايا بمعظم مناطق المغرب الأقصى ، و خاصة في الجنوب .

ففي إقليم سوس بالجنوب ، و الذي يقطنه البربر ، انتشرت الطريقة على يد محمد بن أحمد الكنسوس ، و الذي تعرف على الشيخ أحمد التجاني أثناء دراسته بفاس ، و لم ينضم للطريقة إلا في سنة 1822م [2] . فقد كان محمد الكنسوس في خدمة السلطان ، و بعد وفاة هذا الأخير في 28-11-1822م ، اتجه إلى مراكش ، و هناك قام بدراسة الطريقة التجانية ، و عمل على نشرها بين أصدقائه الذين عملوا بدورهم على الترويج لها، و في سنة 1854م بنى أول زاوية في مدين ، و التي كانت تستقر بها الأسرة التجانية عند زيارة مراكش [3] و أصبحت هذه الأخيرة منذ أواخر القرن 19م مقرا هاما للطريقة التجانية بمجموع اثني عشر زاوية .[4]

تولى قيادة الطريقة في جنوب مراكش أحد شيوخ البربر ، " محدم لقطيفي " الذي انضم إلى الطريقة سنة 1892م ، و كان له تأثير كبير على الناس ، حيث بفضله انضم عدد كبير من المغاربة إلى الطريقة التجانية ، و خاصة من إقليم سوس . وفي هذا الإقليم عرفت التجانية انتشارها خارج المغرب إلى موريتانيا عن طريق قبيلة عدوة على (ايداوعلي) التي حمل أبناؤها الطريقة إلى غرب إفريقيا .

انتشار الطريقة التجانية في غرب إفريقيا :

انتشرت التجانية في غرب إفريقيا من خلال الدور الذي لعبته قبيلة " ايداو علي" و أصبح لها عدد كبير من الأتباع ، و يتفق أغلب المؤرخين أن أول من أدخل الطريقة إلى هذه المنطقة ، هو الشيخ محمد الحفيظ بن المختار بن الحبيب الشنقيطي ، وهو من هذه القبيلة . فلما رجع من البقاع المقدسة سنة 1801م ، التقى الشيخ أحمد التجاني بمدينة فاس ، و الذي لقنه الورد و عينه مقدما للطريقة بموريتانيا و السودان الغربي ، وبقي ينشط في المنطقة ملقنا تعاليم التجانية لأهل بلده و بقية المناطق الى غاية وفاته عام 1830م[5]

---

[1] O. Depont, X. Coppolani, op.cit. p.439

[2] فاطمة قارة ، م.س ، ص 22

[3] Jamil Abunnasr, the tijaniyya : a sufi order with the modern world, Oxford university press, London, 1965. p96

[4] فاطمة قارة ، م.س ، ص 23

[5]-Rene Luc Moreau, Africains musulmans,des communautes en mouvement,inades editions,Abidjan,1982,p177

حماس أفراد قبيلة " ايداو علي " الموريتانية زاد من انتشار نفوذ الطريقة حتى وصلت إلى السنغال بفعل الاحتكاك المباشر بين الموريتانيين و أهل السنغال ، و ظهرت عدة زوايا تجانية في الفوتاتورو و الفوتا جالون [1] و كان من أبرز من نقل التعاليم التجانية إلى هذه المناطق مولود فال ، و عبد الكريم الناقل ، الذان منحا بدورهما ورد الطريقة إلى الحاج عمر الفوتي سنة 1820م.

و رغبة من الحاج عمر في الاحتكاك بتجانيين آخرين ، اتجه إلى الحج ، و التقى هناك بمحمد الغالي أحد الرفقاء المباشرين للشيخ أحمد التجاني ، و الذي علمه بدوره مبادئ الطريقة بين سنوات 1828م و 1830 م و عينه خليفة لإفريقيا الغربية .

و بعد عودة الحاج عمر من الحج ، مكث عدة سنوات في صوكوتو التي كان بها نظام إسلامي _ في شمال نيجريا حاليا _ و عزم على توسيع نفوذ التجانية بغرب إفريقيا ، و تكوين إمبراطورية إسلامية تجانية عن طريق الجهاد ضد الوثنيين ، و معهم الاحتلال الأجنبي [2] ، و رغم الصعوبات التي واجهتها من القادريين، خاصة في نهر النيجر الأوسط و زعماء ماسينا ، إلا أن الحاج عمر بذكائه الخارق ، و إرادته الكبيرة و حرصه الشديد على نشر تعاليم طريقته ، تمكن بالفعل في النهاية من مد نفوذ التجانية إلى معظم مناطق غرب إفريقيا [3] . استمر انتشار التجانية حتى بعد استشهاد الحاج عمر ، و بعد سقوط دولته ، حيث واصل نهج الحاج عمر ، و لكن سلميا ، كل من الحاج مالك سي و إبراهيم نياس ، الذين تمكنا من أن يجلبا للطريقة أكبر عدد من المنخرطين خاصة في السنغال، التي احتلت فيها الطريقة المرتبة الأولى من حيث عدد الأتباع ، ثم في شمال نيجيريا بمنطقة كانو [4] كما انتشرت بغامبيا ، بعد استقرار إبراهيم نياس بها لبعض الوقت وهذا الانتشار الكبير للطريقة التجانية يترجمه عدد زواياها المرتفع في إفريقيا الغربية و عدد أتباعها، و من أهم الزوايا التجانية في غرب إفريقيا : زاوية تيواوين (العاصمة الروحية للطريقة التجانية ، هذه الزاوية التي أسسها الحاج مالك سي عام 1902م، و نشر من خلالها الطريقة بين قبائل الوولوف في السنغال ، و زاوية جيني (Djenné) بمالي و زاوية نيورو و كاياس بمالي ، زاوية كنكاتي - تمبو بغينيا ، زاوية كابو بالنيجر _ كانو بنيجيريا ، و يزيد عدد الزوايا التجانية بالسنغال عن 100 زاوية كبرى [5] ، زيادة على المعاهد التعليمية التجانية الكبرى مثل : معهد كولخ الذي أسسه الشيخ إبراهيم نياس ، و مركز تيواوين الذي أسسه الحاج مالك سي .

---

[1] Alphonse Gouilly, l'Islam dans l'Afrique occidentale française, édition Larousse, paris 1952, p 111

[2] Jean louis Triaud, et David Robinson, la Tijaniyya, une confrérie musulmane a la conquête de l'Afrique - paris édition Karthala, 2005 p 12.

[3] Jamil M.Abun Nasr, op.cit. , p 106.

[4] Jean louis Triaud et David Robinson, op.cit. p 13.

[5] أحمد بن الشين ، م.س ، ص 74

أما أهم مناطق انتشار التجانية في غرب إفريقيا ، فقد أوردناها في الجدول الموالي[1]

البلد	العددالإجمالي للسكان	نسبة المسلمين	نسبة التجانيين
موريتانيا	03 ملايين	100 %	%60
السنغال	06 ملايين	95 %	%90
غينيا(كوناكري)	05 ملايين	%97	%80
ساحل العاج	06 ملايين	%57	70 %
نيجيريا	100 مليون	65 %	%65
النيجر	05 ملايين	%90	80 %
مالي	07 ملايين	92 %	%80

و بذلك يظهر أن التجانية تفوقت على الطرق الصوفية الأخرى بحصولها على أكبر عدد من الأتباع لسهولة أذكارها من جهة ، و ارتباطها بمعارضة الاستعمار من جهة أخرى مما جعلها محل اعتزاز من شعوب إفريقيا الغربية و ساعد على التفاف الكثير من الأتباع حول شيوخها.

[1]-أحمد بن الشين ،م س ، ص76.

الفصل الأول

قضية التنصير في شمال و غرب افريقيا و موقف الطريقة التجانية منها

- تطور النشاط التنصيري في شمال و غرب افريقيا
  - مفاهيم عامة حول التبشير و التنصير
  - الظروف المساعدة على التنصير
  - النشاط التنصبري في شمال و غرب افريقيا
  - أهم البعثات التنصيرية في شمال و غرب افريقيا
- موقف الطريقة التجانية من قضية التنصير في شمال و غرب افريقيا

التنصير و القارة الإفريقية موضوع شغل الساحة الفكرية كثيرا سواء لدى المسلمين أو الغرب المسيحي، و اختلفت الكتابات في هذا الموضوع حتى من الناحية النظرية : هل ما عرفته إفريقيا كان تبشيرا أم تنصيرا ؟ و هل الحركة ذاتها كيفما سميت كانت في صالح إفريقيا - لو استجاب لها الأفارقة بالشكل الذي روج له الفكر الغربي المسيحي، من أن الإسلام كان أساس تخلف القارة، و أن الثقافة المسيحية و اعتناق النصرانية سبيل التقدم.

المعروف عن القارة الإفريقية أنها عرفت الإسلام قبل وصول الأوروبيين إليها، و أن القرن 16م الذي شهد توافد الاسبان و البرتغاليين عليها، اثر نشاط حركة الكشوفات الجغرافية، شاهد على تجذر الإسلام بالمنطقة، و انتشاره الواسع خاصة في شمال القارة و غربها ، مما يعني أن قضية التنصير في المنطقة مرتبطة أساسا بإزاحة الإسلام و القضاء عليه، و قد تدخل الديانة المسيحية محله، و لن يتحقق ذلك للمنصرين إلا بإزالة كل ما يحافظ على الإسلام و يدعمه مثل : اللغة العربية و المساجد و الأوقاف، و الطرق الصوفية السنية التي كانت تتولى رعاية رموز الإسلام، و منها الطريقة التجانية موضوع دراستنا، فكيف كان موقف الطريقة من هذه القضية التي نعتبرها من أخطر القضايا التي واجهتها منذ دخول الاستعمار في شمال و غرب إفريقيا ؟ و هل كانت الكتابات التاريخية منصفة للطريقة في مواقفها أم مجانبة للصواب ؟

ونحن نتكلم عن الإنصاف ، فإننا نعتقد أن النوايا الحقيقية لا تترجمها تصرفات بعض الشيوخ التجانيين، وألا نلقي اللوم على كل ما هو تجاني،خاصة وأن مصدر التشهير الأساسي بالتجانيين هو الكتابات الغربية التي تكلمت عن ترويض الطريقة لصالح الاستعمار ، و عن اعتبار الطريقة للاستعمار الفرنسي منقذا لإفريقيا من التخلف، و أنه نقل لها المدنية و الحضارة ، مركزة على الجيل الثاني الذي خلف الحاج عمر التل الفوتي في إفريقيا الغربية، و عهد أحمد عمار الذي تزوج الفرنسية أوريلي بيكار في شمال إفريقيا في النصف الثاني من القرن 19م.

و إذا كانت الطريقة التجانية قد هادنت الاستعمار في شمال إفريقيا منذ البداية، حسب الكتابات الأوربية و تقارير الضباط العسكريين، ثم هادنته أيضا في غرب إفريقيا بعد فشل المقاومة المسلحة خلال النصف الثاني من القرن 19م، و إخضاع المنطقة نهائيا للاستعمار الفرنسي بالخصوص والذي سيطر لوحده على عشر دول، و التنصير ارتبط بشكل كامل بهذا الاستعمار الذي دعمه و حمى إرسالياته ، ووفر لها الظروف المناسبة لممارسة مهامها التنصيرية فهل معنى ذلك أن الطريقة قد قبلت ضمنيا هذه النشاطات التنصيرية ؟

أصبح شمال إفريقيا يعج بالمنصرين منذ بداية القرن 19م في هيئة رحالة ، و ازداد نشاطهم

بعد هيمنة فرنسا بالخصوص على معظم بلدان شمال إفريقيا، بدءا بالجزائر ثم تونس ثم المغرب الأقصى .

و أصبح للكنيسة الكاثوليكية دور بارز في المنطقة بسيطرتها على التعليم التنصيري والخدمات الصحية. و على نفس المنهج أصبح غرب إفريقيا أكبر مناطق إفريقيا تعرضا لحملات التنصير، فالحقد المسيحي أصبح يرمي بكل ثقله لاقتلاع الإسلام من جذوره في المنطقة ، وعمل الاستعمار مع التنصير على تكوين (المسيحي الأسود)، الخاضع للاستعمار، المتشبع بالفكر الغربي ، المتنكر لجذوره و هويته الإفريقية، المعجب بالسلوك الغربي في المأكل و الملبس و سفور المرأة و غيرها من المظاهر، و تتحقق بذلك ما أسماها الاستعمار (سياسة الاستيعاب)، فهل تحققت هذه السياسة ؟

وهل وصل الإفريقي فعلا إلى المدنية التي روج لها ؟ و ذلك ما سنحاول دراسته ضمن هذا الفصل مرورا بكل النقاط التي رأيناها ضرورية في توضيح الموضوع .

أولا: تطور النشاط التنصيري في شمال و غرب إفريقيا :

1-مفاهيم عامة حول التبشير و التنصير :

1-1 مفهوم التنصير :

_ظاهريا، يبدو التنصير محاولة من النصارى تحويل غير المسيحيين إلى النصرانية ، و قد ينطبق الأمر على أتباع الديانات المختلفة وعلى اللادينيين، و لكن واقعيا الصراع كان و لا يزال شديدا بين النصرانية و الإسلام، و المنصرون ركزوا كثيرا على تنصير المسلمين بالدرجة الأولى، وفق خطط تنفذ باستغلال الجهل والفقر وما يتاح من ظروف متشابهة لإخراج المسلمين من دينهم.

و تعرفه دائرة المعارف البريطانية بأنه عمل يهدف إلى جعل الإنسان نصرانيا ، و النصرانية تعود يسوع الناصري و تؤكد انه المختار من الله [1]

و يذهب عبد الرزاق عبد الحميد الأرو إلى ربط التنصير صراحة بالقضاء على الإسلام، فهو كما قال: " تشكيك المسلمين في تاريخهم وزعزعة عقائدهم ، و بعبارة أخرى تحويلهم إلى نصارى و إن عجز المنصرون عن ذلك يحولونهم إلى ملحدين أو لادينيين [2]
رأي آخر يرى أن التنصير هو إخراج غيرالنصارى من دينهم من غير ضرورة إدخالهم في النصرانية، و هو ما عبر عنه أحد المنصرين في مؤتمر التنصير بجبل الزيتون بفلسطين سنة

[1] دائرة المعارف البريطانية 693/5 مادة: " النصرانية" (christianity)
[2] عبد الرزاق عبد الحميد الارو، التنصير في إفريقيا- سلسلة دعوة الحق العدد 227 – السنة 2008م، ص 13 إصدار الإدارة العامة للثقافة والنشر، رابطة العالم الإسلامي مكة المكرمة، المملكة العربية السعودية,

1927م في قوله: "أتظنون أن غرض التنصير و سياسته إزاء الإسلام هو إخراج المسلمين من دينهم ليكونوا نصارى، إن كنتم تظنون ذلك فقد جهلتم التنصير و مراميه...

و لكن الغاية التي نرمي إليها هي إخراج المسلم من الإسلام فقط، ليكون مضطربا في دينه، وعندها لا تكون له عقيدة يدين بها و يسترشد بهديها ، و عندها يكون المسلم ليس له من الإسلام إلا اسم أحمد أو مصطفى، أما الهداية فينبغي البحث عنها في مكان آخر".[1] و حتى المنصرين أنفسهم يختلفون في تحديد مفهوم التنصير إذ يعتبره البروتستانتي* تنصيرا للمجتمعات غير النصرانية، والكاثوليكي كثلكة جميع الذين لا يؤمنون بالكنيسة الرومانية الكاثوليكية*، بما فيهم البروتستانت والأرثوذكس* الذين لا يرون في البابا خليفة للمسيح و لا ممثلا له في الأرض. وهكذا من خلال هذه التعاريف يبدو-على العموم- التركيز واضحا على الإسلام و المسلمين، وهو ما يمثل استمرارا للنزعة الصليبية الهادفة إلى القضاء على الإسلام، و يبقى جر المسلمين إلى النصرانية من الأهداف الثانوية.

2-1 مفهوم التبشير :

يفهم من كلمة تبشير، انطلاقا مما ورد في الكتاب المقدس للنصارى طمأنه معتنقي النصرانية بالخلاص والنجاة من عقاب الله ، و بالتالي فهو دعوة ضمنية لاعتناق النصرانية دون إلزام الناس باعتناقها أو وضع الخطط الهادفة إلى ذلك. و يبذل المنصرون كل جهودهم لإظهار المسيح عيسى -عليه السلام- كمنقذ للبشرية و مصلح أحوالها إن اتبعته، و يروجون لفكرة أن المسيح ضحى بنفسه و حمل خطايا أتباعه، و يكفي المسيحي أن يؤمن بهذه التضحية ليدخل الجنة، حتى و لو ارتكب الكثير من الذنوب. وفي ذلك يقول مارتن لوثر مؤسس المذهب البروتستانتي :"إن الأعمال ليست وسيلة للتكفير عن الذنوب ، ومهما ارتكب الإنسان من ذنوب ، فيكفيه الإيمان بتضحية المسيح و آلامه، و أن المسيح قد افتداه و حمل خطاياه و آثامه، و لاحاجة له بعد ذلك بالمغفرة، و لا ضرورة للتوبة .. فليفسق و يفحش و يرتكب من الآثام ما يريد.. فقد مهدت له سبيل الدخول إلى جنة النعيم[2]."

و بذلك يظهر لنا أن التبشير الذي تدعو إليه المسيحية، هو تبشير يبيح كل شيء يتعارض مع القيم السامية للإنسانية: الرذيلة، الخطيئة ،النهب ،القتل ،التدمير ،الاستعباد و الاحتقار، فلا غرابة لنا الآن إن عرفنا ما ارتكبه الغزاة الأوربيون في احتلالهم لأراضي المسلمين، سواء في شمال إفريقيا أو غربها، أو باقي مناطق العالم الإسلامي من جرائم، و فساد، و استرقاق، باعوا

---

[1] عبد الرزاق عبد الحميد الأرو ، نقلا عن " جريدة السياسة المصرية ، العدد 3145 بتاريخ 1933/06/20م

*البروتستانتية : حركة دينية نصرانية تشمل من بقوا في دائرة التقاليد النصرانية دون توافق مع الكنيسة الكاثوليكية الرومانية. ينظر : Collier’s encyclopedia , vol 19 , Halsey and Friedman eds , N.York, 1983, p 431.

*الكاثوليكية : إحدى الطوائف النصرانية الثلاثة ، تحت السلطة العليا للبابا ، تؤمن بأن البابا خليفة للمسيح و حامل بركته ، و ممثل الله في الأرض . ينظر : عبد الرزاق الأرو ، م.س ، ص 18.

*الأرثوذكسي: معناه ذو العقيدة السوية ، و تطلق على كل نصراني لا يعترف برئاسة البابا الكاثوليكي . ينظر : الموسوعة العربية الميسرة ، ص 1487.

[2] ول ديورانت قصة الحضارة 32 من المجلد 6 الإصلاح الديني ترجمة عبد الحميد يونس الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية ص42.

من خلاله أكثر من 25 مليونا إفريقيا في إفريقيا وحدها[1] .

2- الظروف المساعدة على التنصير :

كثيرة هي الظروف التي مكنت المنصرين من تحقيق بعض أهدافهم في تنصير أفراد المجتمعات الإسلامية، و هذه الظروف و إن كانت تختلف نسبيا بين شمال و غرب إفريقيا، إلا أنه من الأكيد أن جلها من صنع الاستعمار لتهيئة الأرضية المناسبة لحملات التنصير، و من هذه الظروف :

2-1 المجاعات:

2-1-1 في شمال إفريقيا :

عرفت الجزائر بالخصوص في الفترة الاستعمارية فترة جفاف منذ سنة 1864م ، مست حوض الشلف و الهضاب العليا، و كنتيجة لهذا الجفاف، قلت كثيرا المحاصيل الزراعية و حلت مجاعة كبرى ، فقد ماتت أعداد هائلة من رؤوس الماشية لقلة الكلأ، و اتجه السكان في كل جهة -من شدة الجوع- يقلبون الأرض، عساهم يجدون بعض ما يأكلون، و ازدادت مأساتهم بانتشار كارثة أخرى هي مرض الكوليرا، القادم- حسب الباحثة عبلة غزيل- من مكة عام 1867م [2] و معه مرض التيفوس مما تسبب في هلاك المئات من الناس، و كثرة اليتامى.

في القطاع القسنطيني تكررت المأساة، قبائل بأكملها ضربتها المجاعة، وزادها بؤسا غزو الجراد الذي التهم ما تبقى في الأرض من محاصيل زراعية، و أثر ذلك على أسعار المواد الغذائية حيث أصبح سعر قنطار الشعير يتعدى عشرين فرنكا، و القمح ثلاثين فرنكا،[3] و لم يعد هناك سبيل للحصول على الغذاء، و أصبح جل الناس معرضين للهلاك، و قد يكون بيير دارمون صادقا حين أشار- لهول المأساة- إلى وجود حالات لأكل لحوم البشر، و وأد الأطفال الرضع أو المواليد الجدد[4] ،إذا قبلنا المقارنة بين الظروف الكارثية للسكان آنذاك، و ما يحدث حاليا من حالات انتحار بسبب الظروف الاجتماعية في المقام الأول. و نقلا عن الدكتور (بيريي) فان عدد الضحايا من الأهالي وصل إلى 500 ألف شخصا، و هول الفاجعة دفع الرأي

---

[1] عبد العزيز الكحلوت، التنصير و الاستعمار في إفريقيا السوداء، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، ط 2 ، طرابلس . ليبيا 1992م، ص27.

[2] 2- Abla Gheziel, l'éveil politique de la société algérienne à travers: révoltes, soumissions, assimilation et nationalisme 1830 -1936, thèse de doctorat en histoire, université de Toulouse Jean Jaurès, sous la direction de Guy Perville, 2015, P 172.

[3] بما يعادل حاليا 80 إلى 100 أورو، و هو سعر خيالي لا تستطيع جل العائلات دفعه.

[4] - Pierre Darmon, un siècle de Passions algériennes, une histoire de l'Algérie coloniale 1830-1940, Paris, édit. Fayard 2009, P. 245.

العام إلى مطالبة سلطات الاستعمار إلى تشكيل لجنة تحقيق خلصت في تقريرها إلى أن 217 ألف شخص ماتوا بسبب الجوع و المرض في مدة سنتين، أي خلال سنتي 1866 - 1867 م[1]

2-1-2 في غرب افريقيا :

وقعت مجاعات بالغة الشدة في عدة مناطق استغلتها البعثات التنصيرية أشد الإستغلال، و كانت ناجمة عن نقص الأغذية، بسبب سياسة التفقير المنتهجة من قبل الاستعمار، و من هذه المناطق:

النيجر :

تعرض في سنة 1930 م لمجاعة لا تزال ذكرياتها محفورة في أذهان السكان ، حيث لا يزال إلى اليوم أهل" صونغاي زرما" في غرب النيجر، يتذكرون ما أصاب ذويهم من مآسي اثر هذه المجاعة، التي أعقبها هجوم أسراب الجراد و التي قضت على آخر ما بقي للسكان من محاصيل[2] . و رغم الإنعكاسات الخطيرة لهذه المجاعة على السكان، فان الإستعمار الفرنسي زاد من خلال إجراءاته التعسفية في تفاقم الوضع، حيث لجأ إلى مضاعفة الضرائب التي ارتفعت من 1.25 فرنك إلى 07 فرنكات ، وهو ما دفع السكان ممن بقوا على قيد الحياة إلى الفرار إلى ساحل الذهب (غانا حاليا)، و من بقي منهم و عجز عن الفرار فرض عليه العمل الإجباري بأجور جد زهيدة ، و خاصة في مدينة نيامي. [3] و الضرائب التي كانت مفروضة على السكان شملت رؤوس المواشي، و الجنود الفارين من الجيش، والذين كان أهاليهم ملزمين بدفع هذه الضريبة إلى غاية عودة أبنائهم إلى ثكناتهم، ولم يسلم حتى الموتى من الضريبة، مما أدى إلى هلاك قرى بأكملها من الجوع و بلغ معدل الوفيات في بعض المناطق أكثر من 50 بالمائة. [4]

السنغال :

عرفت بدورها مجاعة كبرى في نفس الفترة تقريبا، و عاشت نفس المأساة، وهي ظروف يراها المنصرون بركة من السماء لإنجاح مشروعهم التنصيري ، فقد استغلت البعثات التنصيرية هذه المجاعة، و بدأت تساوم العائلات السنغالية على قطعة خبز، و قليل من الماء مقابل قبولها التنصير. و تمكنت هذه البعثات من توقيع عقود مع الأسر الفقيرة المعدمة تنص على :

---

[1] Pierre Darmon, op.cit. p 245.

[2]- أدو بواهن، تاريخ إفريقيا العام ، المجلد 07 ، إفريقيا في ظل السيطرة الاستعمارية 1880-1935م، صدر عن اليونيسكو ، طبع : المطبعة الكاثوليكية - لبنان -بيروت - 1990 م، ص380.

[3] - أدو بواهن، نفسه، نفس الصفحة.

[4] -أدو بواهن، نفسه، ص 380.

- تقديم مقادير من المواد الغذائية شهريا لهذه العائلات، مقابل حصول البعثات على طفل تختاره من أطفال هذه الأسر لتربيته، وطبعا تربية نصرانية.

- التزام هذه العائلات السنغالية بدفع ثمن كل المواد المقدمة لها، إن هي تراجعت عن التزاماتها و أرادت استعادة أبنائها.[1]

و كان الهدف الأساسي لهذه العملية هو إعداد جيل جديد يتولى مسؤولية التنصير أو التسيير، إن هو تمكن من الحصول على مستوى مقبول في التعليم التبشيري، غالبا ما يعمل هذا الجيل على تأكيد القيم الأوروبية و يصبح أداة طيعة في خدمة الاستعمار، وهو ما أصبح يعرف بأبناء الإرساليات تمييزا لهم عن مواطنيهم من جهة ، و عن رجال الكنيسة البيض من جهة أخرى ، و عن موظفي الإدارة الاستعمارية من جهة ثالثة[2] ، وكان منهم : ليوبولد سيدار سنغور الذي أصبح أول رئيس للسنغال بعد الاستقلال. وكان سفيرا لفرنسا في إفريقيا أكثر منه رئيسا لهذا البلد [3] .

2-2 القمع الاستعماري :

عرفت الجزائر- وهي أول بلد من شمال إفريقيا يخضع للسيطرة الاستعمارية - مقاومة باسلة، و صمودا أبهر السلطات الاستعمارية ذاتها، و لم تتمكن فرنسا من توسيع احتلالها إلا بعد حروب إبادة، راح ضحيتها أعداد كبيرة من السكان .

هذا القمع الاستعماري للسكان كانت له نتائج قاسية : خسائر بشرية كبيرة، عدد كبير من الأيتام و المشردين، و الأرامل ، و انتشار الفقر و الأمراض، و نفي البعض من السكان إلى خارج البلاد، بما في ذلك المناطق النائية ككاليدونيا الجديدة، مثلما وقع في منطقة القبائل بعد إخماد ثورة المقراني سنة 1871م . فالمنصرون و على رأسهم أساقفتهم من بافي إلى غاية سنة 1866م، ثم الكاردينال لافيجري منذ سنة 1867م، و القس شارل دوفوكو(1916-1901) وغيرهم، كانوا يبذلون كل جهودهم لاستغلال الظروف الناجمة عن هذا القمع، في محاولة للتظاهر بمد يد المساعدة و جلب السكان إلى الديانة المسيحية.

و قد ركزنا في شمال إفريقيا على الجزائر لأنها البلد الوحيد الذي خضع لاحتلال استيطاني و عرف قمعا لم تعرفه بقية المناطق التي خضعت للحماية.

نفس الظاهرة عرفتها منطقة غرب إفريقيا، حيث كانت السلطات الاستعمارية تواجه حركات

---

[1] - عبد العزيز الكحلوت ، م س ، ص 81.

[2] - محمد البشير سميلا مظاهر تأثير التعليم الغربي في التعليم الإسلامي في إفريقيا -- مجلة قراءات افريقية، إصدار : منتدى العالم الإسلامي، العدد 02 افريل - جوان ،2012 ص74.

[3] - عبد العزيز الكحلوت، م.س ، ص118.

التمرد بالعنف، بل في بعض الحالات حركات احتجاج بسيطة كانت تقمع بقوة، مما ينجم عنها خسائر باهضة

في الأرواح، كما أن القوات الاستعمارية كثيرا ما كانت تلجأ إلى ما تسميه (الحملات التأديبية) ضد السكان، لحملهم على الولاء ، و عدم معارضة الاستعمار، و من أمثلة ذلك الآلاف الذين قتلوا في السنغال عام 1886م ، عندما عارضوا مشروع إنشاء خط حديدي[1] و بالتالي عمليات القتل و ما يرافقها من تشرد و أيتام، تكون دوما أرضية خصبة لنشاط التنصير .

3-2 الفقر و الأمراض و الجهل :

و تعتبر من الظروف المناسبة جدا لنجاح حملات التنصير، و لذلك استغل المنصرون هذه الظروف بالاحتكاك بالسكان ، و خاصة بعد وصول الاستعمار إلى المنطقة ، لأن هذا الأخير صادر ممتلكات السكان، و حولهم من ملاك إلى مجرد عمال أجراء، يعملون لدى المعمرين بأجور زهيدة مثلما حدث في الجزائر، و انتشرت البطالة و ضعفت القدرة الشرائية، و زاد الاستعمار من فقرهم بفرض الضرائب الباهضة . و ظروف الفقر هذه ولدت الأمراض و الأوبئة الخطيرة التي أدت إلى وفاة الكثير من الأهالي، و هذه الأمراض بدأت مع دخول الاستعمار الفرنسي ، ففي سنة 1835 م صرح الجنرال كلوزيل نفسه بأن وباء الكوليرا قتل في مدينة معسكر 1500 شخصا من مجموع ساكنيها المقدرين بعشرة آلاف نسمة[2].

لافيجري نفسه كان يركز كثيرا على المرضى لتنصيرهم ، لأنهم يكونون في حالة ضعف نفسي كبير، يجعلهم يتقبلون أي شيء مقابل النجاة من الموت، و لذلك كان يحث دوما المنصرين العاملين تحت رعايته بالتقرب أكثر منهم، و الاحتكاك بهم، للتأثير عليهم و حملهم على اعتناق النصرانية على مراحل،[3] و يبقى الجهل السمة المميزة لكل الشعوب الإفريقية، و التي استغلها المنصرون أيضا في ضرب الإسلام، و محاولة إبعاد أهله عن القرآن الكريم باطلاع المنصرين على آياته، و إعطاء تفاسير خاطئة لها ، و محاربة الأخلاق الإسلامية السامية واعتبارها من مظاهر التخلف ، و نشر مظاهر الانحلال الأوربية لإفراغ المسلمين في إفريقيا من هويتهم الإفريقية، و إبعادهم عن عقيدتهم تمهيدا لتنصيرهم، أو تركهم يتخبطون في الفراغ الديني.

الفقر و المرض أيضا عرفهما غرب إفريقيا، و خاصة منذ حدوث أزمة 1929 م ، ففي سنة 1931 بدأت المدن تكتض بجموع الفلاحين الوافدين إليها من جراء ركود النشاط الزراعي، في وقت كان موقف اليد العاملة في المدن في حرج أيضا، و انتشرت البطالة بنسب مرتفعة ،

---

1 أدو بواهن، م.س ، ص 482 .

2 ايفون توران ، المواجهات الثقافية في الجزائر المستعمرة ، المدارس و الممارسات الطبية و الدين ، 1830م-1880م ، الجزائر ، دار القصبة للنشر ،2007، ص 85.

3 مصطفى خالدي و عمر فروخ، التبشير و الاستعمار في البلاد العربية ، المكتبة العصرية ،بيروت، لبنان، 1973.

و لم يعد عدد العمال ذوي مهنة قارة يزيد عن 176 ألف أجير في إفريقيا الغربية الفرنسية، أي ما لا يتجاوز نسبة1 % من مجموع السكان و تحول معظم السكان إلى فقراء. و حالة الفقر هذه أثرت من جهة على النمو السكاني العام الذي أصيب بالركود، و أدت إلى الإصابة بالأوبئة الخطيرة من جهة أخرى ، كالأنفلونزا و الجدري و الملاريا و خاصة في السنغال ، مالي، و فولتا العليا[1].

3 النشاط التنصيري في شمال و غرب افريقيا :

3-1 في شمال إفريقيا : أ- الجزائر:

عرفت منطقة شمال إفريقيا نشاطا تنصيريا مكثفا منذ احتلال فرنسا للجزائر سنة 1830م، إذ لم تسلم منه حتى تونس و المغرب الأقصى قبل خضوعهما للاستعمار، و لكن الجزائر كانت أكثر المناطق عرضة للتنصير بحكم موقعها الجغرافي الذي يسمح للنشاط التنصيري بالانطلاق منها نحو بقية الجهات في القارة الإفريقية.

منذ أن وطئت أقدام الفرنسيين أرض الجزائر سنة 1830م و أعداد المنصرين تتزايد ببلادنا تدعمهم سلطات الاحتلال، و تسهل عليهم مهامهم في المناطق التي تخضع لهم بعد إخماد انتفاضاتها. ففي سنة 1835 م استقرت بالجزائر العاصمة أخوات القديس يوسف، تبعتهم الراهبات الثالوثيات و الجزويت و شرعن في عملهن التبشيري إلى غاية 25 أوت 1938م و تأسست أسقفية الجزائر بتعيين أول أسقف هو ديبوش[2] سنة 1838م[3] .

بقي ديبوش يترقب الوضع في الجزائر و يحاول اغتنام أية فرصة له لتنفيذ مهامه التي عين من اجلها ، ولكن صعوبة التوغل الاستعماري في البلاد حدت نسبيا من نشاطه.

و في سنة 1850م، طلب من الحاكم العام شارون[4] مساعدة البعثات التنصيرية على القيام بعملها في المناطق الريفية التي سيطر عليها الفرنسيون، و لكن الحاكم العام كان متحفظا على

---

1 أدو بواهن م.س ، ص381.

2 الأسقف ديبوش (Dupuch) : هو أنطوان أدولف ديبوش، ولد في 1800/05/20 م في بوردو بفرنسا، مارس قبل التحاقه بالكنيسة مهنة المحاماة، عينه البابا غريغوار 16 على رأس أسقفية الجزائر سنة 1838 وكان له نشاط كبير في مجال التنصير، تعرف على الأمير عبد القادر أثناء تبادله الأسرى الفرنسيين سنة 1840 ، تورط في مشاكل مالية سنة 1846 دفعته إلى الفرار إلى اسبانيا ثم إيطاليا أين توفي عام 1856م ونقل جثمانه إلى كاتدرائية الجزائر ليدفن بها, ينظر: .M .L'Abbe.E.Pioneau, vie de Mgr.Dupuch, premier évêque d'Alger, édit Paul Chaumas, Bordeaux, 1866, pp 104-116.

3 عمورة عمار , موجز في تاريخ الجزائر , دار ريحانة للنشر و التوزيع ,ط1, الجزائر، القبة، 2002 ،,ص 124 .

4 شارون: هوالبارون فيالا شارون قائد عسكري و سياسي ،شارك قبل نقله الى الجزائر كضابط في حملات نابليون بونابرت التوسعية في أوربا و آخرها معركة واترلو سنة 1815م ،و ترقى في الرتب العسكرية حتى وصل الى رتبة مارشال ،أثناء وجوده بالجزائر منذ عام 1835م ،و لمدة 14 سنة قضاهافي قمع الانتفاضات المتكررة ،و في حملات التوسع مثل حملة شرشال و مليانة 1840م ،معسكر 1841م ،الشلف و فليتة 1843م ، عين حاكما على الجزائر في 9-9-1848م ، وقعت في عهده عدة مجازر أبرزها مجزرة الزعاطشة 1849م، توفي في باريس يوم 26-11-1880م ينظر: Narcisse Faucon, le livre d'or de l'Algérie,Challamel et Cie , éditeurs, librairie algérienne et coloniale , 1889 ,pp 166-168

هذا الطلب و هذا لا يعني رفضه لحملة التنصير في الجزائر[1] و قد علل تحفظه المؤقت هذا في تقرير بعث به إلى وزير الحرب في 05-01-1851م بكون الأهالي لم يتأقلموا بعد مع الوجود الفرنسي ، و لا زالوا يرفضون كل ما يرمز إلى الفرنسيين بما في ذلك المنصرين، و طلب الانتظار مؤقتا حتى يتقربوا من الفرنسيين ، و ذكر في تقريره انه حتى و لو تمكن المنصرون من تمسيح بعض الأهالي فما الفائدة من أهالي منصرين قبلوا وضعهم الجديد تحت تأثير الخوف، لأنهم لا زالوا ينظرون إلى المنصرين أنفسهم كأفراد من الجيش الاستعماري , و حثهم على استغلال اليتامى و تمسيحهم مع القيام بالتنصير في المدن، و تبقى الأرياف إلى أن يحين الوقت المناسب- كما قال- بعد القضاء على الانتفاضات[2] .

و يتضح من هذا التصريح أن السلطات الاستعمارية كانت مصممة منذ البداية على ضرب ما ورد في معاهدة 05 جويلية 1830م، بخصوص احترام الديانة الإسلامية في الجزائر،عرض الحائط خاصة و أن كل من تعاقبوا على إدارة الجزائر انتقدوا صفة القداسة التي أضفاها دي بورمون، موقع المعاهدة مع الداي حسين على الديانة الإسلامية ، بل و حتى الملك شارل العاشر قبل عزله من الحكم كاتب رئيس وزرائه بولينياك مبديا تذمره من صفة القداسة هذه [3] ، وصمموا كلهم على ضرب الديانة الإسلامية و اقتلاعها من الجزائر، بدءا بضرب كل رموزها كالمساجد و الأوقاف و اللغة العربية ، وصولا إلى تمسيح الأفراد بشتى الوسائل و السبل التي سيأتي الكلام عنها لاحقا، و بقي

العسكريون يمهدون الأرضية للمنصرين لتحقيق هذه الغاية ، و ظهر الدعم الاستعماري بكل وضوح بعد فترة ديبوش التي انتهت سنة 1846.

بعد تخلي الأسقف ديبوش عن مهامه سنة 1846 م ،عين لويس فيليب الأسقف الجديد بافي[4] ليباشر مهامه على رأس أسقفيه الجزائر، و استمر بافي في تنفيذ المخطط التنصيري الذي بدأه ديبوش ، ببناء الكنائس و التقرب من السكان عن طريق الأعمال الخيرية ، و بناء المدارس

---

[1] Abla Gheziel, opcit, pp 160-162.

[2] ينظر نص التقرير كاملا في: Abla gheziel, Ibid, P161.

[3] خديجة بقطاش، الحركة التبشيرية الفرنسية في الجزائر1830م-1871م مطبعة دحلب، الجزائر 2009، ص16.

[4] الأسقف بافي : هو لويس أنطوان أوغسطين بافي ولد في 18-03-1805م بروان ضاحية لوار بفرنسا ،التحق بالكنيسة الكاثوليكية في 13-06-1829م ،و في 18-11-1837 م كلف بتدريس التاريخ المسيحي بكلية علوم الدين بليون أين أصبح عميدا لها سنة 1842م ،و في 25-2-1846 م استدعى لمدينة الجزائر أين عين أسقفا خلفا لديبوش ، و بقي في منصبه إلى غاية وفاته في 16-11-1866 م بضاحية القديس أوجين بالجزائر العاصمة (حاليا بولوغين) ينظر : Challamel Aine, Mgr louis Antoine Augustin pavy évêque d'Alger, éditeur Hachette, 1867 , pp75-76.

إلى غاية وفاته عام 1866م بالجزائر، و عرف عهده بدوره إقبال المزيد من المنصرين على الجزائر، و تم استعمال كل الوسائل لإبعاد الجزائريين عن دينهم، و تحقيق ما ورد عن المؤرخ الفرنسي غوتي: "حاولت فرنسا في الجزائر أن تجعل من ارض شرقية أرضا غربية. [1]" ووصلت بالفرنسيين الجرأة إلى حد اختطاف الأطفال أثناء قمع الانتفاضات المسلحة ، مثلما قام به الجنرال بيجو في آخر عهده بالجزائر باختطاف 250 طفلا من اليتامى ،و تسليمهم إلى أحد القساوسة لتنصيرهم قائلا له : "حاول يا أبي أن تجعلهم مسيحيين ،و إذا فعلت فلن يعودوا إلى دينهم ليطلقوا علينا النار[2] " .

و قام المنصرون في عهد بافي أيضا بفتح ديار الرحمة في وهران و قسنطينة و عنابة ،لاستقبال المشردين في إطار سياسة التقرب من السكان و تنصيرهم على مراحل.

بعد وفاة الأسقف بافي سنة 1866م بعث البابا في 12-01-1867 م الكاردينال لافيجري إلى الجزائر لتنفيذ سياسة تنصير واسعة النطاق و حددها بقوله : "علينا أن نجعل من الجزائر مهدا لدولة مسيحية تضاء أرجاؤها بنور منيع، وحيها الإنجيل تلك هي رسالتنا " [3]، و كان لافيجري يحلم بتحويل إفريقيا كلها إلى الكاثوليكية و ليس الجزائر وحدها، خاصة لما أضافت إليه الكنيسة مهمة التنصير في الصحراء الكبرى و بلاد السودان و حصل على أموال طائلة لتحقيق هذا الحلم [4] .

نشاط لافيجري لم يتوقف منذ وصوله إلى الجزائر، و كان من حظه أن ارتبط تعيينه بالجفاف الذي ضرب الجزائر، وما أعقبه من مجاعات سهلت إلى حد ما مهمته ، و ذلك ما سنوضحه بعد إعطاء نبذة عن شخصية هذا الأسقف ،الذي كان من أبرز أساقفة الجزائر نشاطا في مجال التنصير، جعله يحضى بثقة الكنيسة و دعمها ،و دعم السلطات الاستعمارية نفسها في الجزائر.

-شخصية الكاردينال لافيجري و نشاطاته في الجزائر :

اسمه الكامل : شارل مارسيال ألمان لافيجري ،و لد في بايون بمنطقة البرينيه يوم 31-10-1825م هو الابن الأكبر لعائلته المتكونة من والديه ،و أخ و أختين .أبوه : ليون لافيجري كان مفتشا بمصلحة الجمارك بمدينة وير مقاطعة بايون و أمه : لورا لاتريل من عائلة بورجوازية[5].

كان لافيجري منذ صغره مواظبا على الحضور إلى كاتدرائية المدينة ،مما يظهر توجهه الديني ،و لذلك أدخله أبوه معهد الدعاية التنصيرية ، ثم المدرسة الأكلركية للدراسات الأسقفية

---

[1] عمار عمورة ، م س ، ص125.
[2] عمار عمورة -نفسه - نفس الصفحة.
[3] عمار عمورة –نفسه – ص 125.
[4] عبد العزيز الكحلوت ،م س ،ص 35.
[5] Louis Baunard, Mgr le cardinal Lavigerie, librairie Ch.Poussielgue, T1 paris ,1896 P67.

بلاروسور في مقاطعة بايون.

في سنة 1840م وعمره لا يتعدى 15 سنة دخل المدرسة الاكلركية سان نيقولا دي شاردوني بباريس، وهناك وهب نفسه لخدمة الكنيسة.

في سنة 1848 تم تعيينه شماسا إنجيليا [1] وبقي في خدمة الكنيسة بهذه الهيئة إلى أن ترقى إلى رتبة قسيس[2] على يد الأب سيبور مطران[3] مدينة باريس في 02 جوان 1849[4] ثم واصل دراساته العليا في ضاحية "كارم" ابتداء من 12 جويلية 1850م أين توجت دراسته بتقديم أطروحتين لنيل شهادة الدكتوراه بمعهد الآداب بباريس، الأولى بالفرنسية تحت عنوان " خواطر المدرسة المسيحية بإيداس بالمشرق" والثانية باللاتينية حول الكاتب: "هيجيسيبو" أحد المنصرين الذين

عاشوا في القرون الوسطى بالمشرق [5] وتبعا لذلك تم تعيينه أستاذا للآداب اللاتينية بمعهد " لي كارم "، وهناك أعد رسالة دكتوراه أخرى في اللاهوت ناقشها سنة 1853م، ليعين في سنة 1854 م أستاذا محاضرا بجامعة السوربون لتدريس التاريخ الكنسي[6] وبقي أستاذا بها لمدة ست سنوات كاملة، ولكنه لم يكن متحمسا للبقاء بها. ولذلك لما عرضت عليه "جمعية مدارس الشرق" التي أسسها سنة 1855 م عدد من المسيحيين الكاثوليك، منصب إدارتها سنة 1861م قبله على الفور وأصبح مديرا لها.

بداية نشاطه التنصيري كان من الشام، حيث زار المنطقة لما حدث نزاع بين المسلمين و المسيحيين سنة 1860 م، واتجه إلى لبنان وسوريا ليوزع على المسيحيين ما جمعه من مساعدات في فرنسا لصالحهم، وهناك كانت له فرصة لقاء الأمير عبد القادر الذي تدخل لحل هذا النزاع الطائفي، كما تعرف لافيجري هناك على الإسلام والمسلمين و الثقافة العربية وكنائس الشرق.

بعد ثلاثة أشهر من هذه الزيارة عاد إلى باريس، واعترافا من الحكومة الفرنسية بخدماته، أهدته وسام الشرف في 08 ديسمبر 1861م.

---

[1] شماس إنجيلي: معناه خادم الكنيسة، يساعد الكاهن في أداء الخدمات الدينية و الصلوات الكنسية.
[2] قسيس: ثاني الرتب ضمن الرتب الكهنوتية المسيحية.
[3] مطران: أسقف ذو أقدميه كبيرة.
[4] علي بطاش، لمحة عن تاريخ منطقة القبائل، حياة الشيخ الحداد وثورة 1871، الجزائر، دار الأمل 2007، ص56 .
[5] العنوان الأصلي للأطروحتين هو: الأولى -Essai historique sur l'école chrétienne d'Edosse, Faculté de lettres, paris périsse-1850.
الثانية: -De Egesippo, disquisitionem proponebat-Facultati litteranum parisiensi – périsse 1850
[6] عبد الجليل شلبي، الإرساليات التبشيرية، دار منشأة المعارف، الإسكندرية، د.س، ص158 .

في 05 مارس 1863م عين أسقفا بنانسي، وبعد وفاة الأسقف "بافي" عام 1866م، عين لافيجري على رأس أسقفية الجزائر وباشر مهامه الجديدة مستغلا كل الظروف التي أتيحت له لإنجاح مخططه التنصيري[1].

نشاطات لافيجري بالجزائر:

افتتح لافيجري مشروعه التنصيري في الجزائر باستغلال الظروف الصعبة التي كانت تمر بها الجزائر إثر المجاعة التي حلت بالبلاد سنتي 1868/1867م وما انجر عنها من وفيات، وقد أشرنا سابقا إلى خطورة هذه الكارثة على السكان، والتي اعتبرها لافيجري بركة من الله لإنجاح مهمته، فجمع الأيتام في مراكز إيواء وكان عددهم 1752 طفلا تتراوح أعمارهم بين ثمانية و عشر سنوات، و منعهم من رؤية ذويهم أو استرداد الأهالي لهم .[2] وكانت هذه المراكز مكملة لدار اليتامى التي أنشئت ببن عكنون بمدينة الجزائر سنة 1842م، وتكفل لافيجري بحاجياتهم المعيشية وتربيتهم المسيحية بعد أن جمع مبالغ مالية معتبرة من الحاكم العام وبقية الهيئات الرسمية.

ولم يكتف لافيجري بتكوين هؤلاء الأطفال وتربيتهم تربية مسيحية وتعميدهم بل لجأ إلى تزويج الإناث بالذكور منهم لتكوين أسر مسيحية من السكان أنفسهم.

كان لافيجري يركز على تمسيح الأطفال وبعدهم المرضى، وقد سبق لنا أن بينا حالة المريض ومدى تقبله لما يعرض عليه في سبيل إنقاذ حياته،و منه مسألة اعتناق المسيحية، وذلك لا يعني بالضرورة قبول كل المرضى المسلمين للتنصير، حيث واجهت المنصرين حالات كثيرة يقبل فيها المريض البقاء على حاله حتى الموت ويرفض التخلي عن دينه. فقد ورد عن إيفون توران أن الانطباع العام للسلوك الشائع لدى الجماهير المسلمة هو رفضها للعلاج، والإرتياب إزاء الطبيب الأوربي، وهذه الذهنية تتفاقم زمن الأوبئة الخطيرة كالكوليرا عام 1849م، مثلما حدث في معسكر، مغنية، دلس، جيجل، سيدي بلعباس، وهران، قسنطينة). وتدعم ما ذهبت إليه من استنتاجات بتصريح للدكتور رينييه (Rigny) حول الوضع في معسكر والذي ورد فيه: " نحن لا نجهل من دون شك أن العرب لا يثقون في أطبائنا.. فالعربي قد يوافق على التوجه إلى الفحص، وإذا ما أحس في الطريق أنه صار أحسن حالا، حتى ولو كان مرضه خطيرا، فإنه يعود أدراجه فرحا لأنه لم يخضع لمساومة المسيحي.."[3] أما الأطفال فكان لافيجري يرى فيهم ميدانا خصبا وسهلا للتنصير لسهولة تلقينهم مبادئ النصرانية على اعتبار أن نموهم العقلي لم يصل بعد إلى درجة من النضج، تمكنهم من اكتشاف النوايا الحقيقية للمنصرين، ويكونون بعد تلقينهم النصرانية، مستقبلا

---

[1] Narcisse Faucon, op.cit, p 374.

[2] عمار عمورة، م.س، ص125.

[3] إيفون توران، م.س ،ص149 .

حاملي لواء التنصير في مجتمعهم[1]. وزيادة على إيلائه الأهمية اللازمة للتكفل بالأطفال، كان يلجأ إلى ستار الأعمال الخيرية فيقدم مساعدات للمقبلين على الزواج من المتنصرين، من البحث عن الخطيبة، إلى تقديم المهر لأوليائها، إلى توفير المسكن، ومساعدات مالية ليلة الزواج، كما لا يتأخر عن تقديم الهدايا للجزائريين في عيد الميلاد، من قمصان، وشاشيات للبنين، ومناديل وفساتين للنساء مرفقة بصور للمسيح، والمساعدات المالية المقدمة للمحتاجين والمقبلين على الزواج تكون على شكل هبات.

ويتضح من خلال هذا السلوك أن لافيجري اتبع منذ تنصيبه بالجزائر سياسة المراحل في نشاطه التنصيري بدءا بتحبيب السيد المسيح لدى الأهالي بالمساعدات والهدايا والأعمال المختلفة، ووصولا إلى انجذاب هؤلاء الأهالي إلى المسيحية، وهذه الإستراتيجية ظهرت بوضوح في قوله: " إن الأهالي عمي، لا يجب أن نقدم لهم النور برهة واحدة مخافة أن نراهم يتساقطون، ويتهاوون للأبد في الظلمات، فهذا النور إذا ما جرح كبرياءهم من شأنه أن يحدث لهم كرها وحقدا."[2]

وهذا معناه أن المسلم معروف بشدة تمسكه بالإسلام، ويستحيل الوصول إلى تنصيره بشكل مباشر، وهذا (التعصب) كما سماه لافيجري سيكون وبالا على العمل التنصيري إذا لم ينتبه إليه المنصرون.

و حث لافيجري المنصرين على الاندماج وسط الأهالي و التظاهر بمظهر التدين و التحلي بالصبر و التسامح و جذب السكان بالأعمال المختلفة و المساعدات و الوقوف إلى جانبهم في المآسي .

و اللافت للانتباه و نحن ندرس موضوع موقف التجانية من قضايا الاستعمار , أن لافيجري لم يتوان لحظة في استثمار أي فرصة يراها تخدم مصالحه و جاءته سنة 1870م- و هو في السنوات الأولى لمشروعه التنصيري- فرصة زواج شيخ الطريقة التجانية أحمد عمار مع الفرنسية أوريلي بيكار لتروض هذه الطريقة و احتوائها باستغلال هذا الزواج لصالحه، فحسب جميل أبو النصر فان الحاكم العام الأميرال دوقايدون لم يأذن بالزواج المدني للتجاني مع أوريلي خوفا من انتشار ظاهرة زواج المسلمين بالفرنسيات، و لذلك تدخل الكاردينال لافيجري لمباركة هذا الزواج، و اشرف عليه ليكون زواجا وفق الطريقة المسيحية مما يخدم أهدافه التنصيرية، و بعد ذلك أعاد التجاني إبرام زواجه وفق الأعراف الإسلامية تحت

---

[1] محمد الطاهر واعلي، التعليم التبشيري في الجزائر من 1830 إلى 1904م، دراسة تحليلية تاريخية، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 2009م، ص88.

[2] مقران يسلي ، الحركة الدينية الإصلاحية في منطقة القبائل (1945-1920 م) مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في الفلسفة ، جامعة الجزائر ، 1991 ، ص 146 .

إشراف المفتي الحنفي في العاصمة "بوقندورة"، [1] و هي القضية التي جلبت للطريقة في الجزائر انتقادات حاول التجانيون إثرها الدفاع عن شيخهم و عن أوريلي على أساس أنها اعتنقت الإسلام.

انتقل لافيجري من مرحلة الجهود الشخصية في التنصير إلى تكوين الجمعيات مثل جمعية الآباء البيض سنة 1868 م ، و فرعها النسوي جمعية الأخوات البيضاوات. و الاسم الرسمي لهذه الجمعية هوجمعية مبشري السيدة الإفريقية، كان تأسيسها في الحراش[2] بالجزائر، لتنصير الشعب الجزائري و نشر تعاليم الإنجيل في إفريقيا انطلاقا من الجزائر، و في 2 جويلية 1872م شيد كاتدرائية السيدة الإفريقية بالجزائر بعد أن انتهى بناؤها الذي بدأ منذ عهد الأسقف بافي، و أقام بالمناسبة حفل زفاف مسيحي لأربعة من اليتامى الذين تم تنصيرهم اثر مجاعة 1868م 1869م ، و أنشا عدة مدارس تنصيرية بالجزائر و هي:- كلية اللاهوت بالقبة و فرعاها بوهران و قسنطينة .

-مدرسة المنصرين المبتدئين للإناث بالقبة ، و التي نقلت إلى الحراش ثم إلى العطاف بسهول شلف.

- مدرسة المنصرين المبتدئين للإناث بالقبة، و التي تم نقلها إلى بوزريعة ثم أعيد مقرها إلى القبة[3] .

في المجال الإعلامي أنشأ مجلة السيدة الإفريقية للأغراض التنصيرية في الجزائر، و كان يحاول من خلالها إظهار(صفاء ومزايا الديانة النصرانية) موهما الناس بأنها دين الخير و الخلاص، و قد ذاع صيته من خلال هذه المجلة .[4] و رغبة في وصول مشروعه التنصيري إلى المناطق الصحراوية و منها إلى إفريقيا السوداء، لجأ لافيجري إلى إرسال الآباء البيض إلى غرداية و بسكرة و المنيعة وورقلة، و حاول إنجاح مشروعه بكل السبل التي رآها ممكنه، كالتعليم الزراعي و المهني و إنشاء فرقة إخوان الصحراء المسلحين، ظاهريا لمحاربة الرق، و لكن في الواقع للدفاع عن أنفسهم في ممارسة نشاطهم و دعا إلى إنشاء سكة حديدية عابرة للصحراء [5] لأهمية هذا الخط الحديدي في المد المسيحي نحو إفريقيا ، و خاصة غرب إفريقيا المسلم ، و هكذا بدأ لافيجري يسير شؤون الديانة المسيحية عن طريق التبشير العلني بكل حزم

---

[1] Jamil M Abunnasr the Tijaniya a Sufi order in the modern world, Oxford university press, UK. January 1965 P75.

[2] في تلك الفترة التي تأسست فيها الجمعية كانت تسمى: (maison carrée)

[3] محمد الطاهر واعلي، م س، ص ص 157-159 .

[4] علي بطاش ، م س ، ص 56 .

[5] إسماعيل العربي ، الصحراء الكبرى و شواطئها ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر 1983م. ص110.

إلى غاية وفاته عام 1892م بتونس .

بعد الجزائر جاء دور بقية مناطق شمال إفريقيا و منها بالخصوص تونس و المغرب الأقصى، و لو أن حملات التنصير بهما تأخرت مقارنة بالجزائر لخضوع هذه الأخيرة مبكرا للسيطرة الاستعمارية، التي وفرت كل الشروط للنشاط التنصيري. ففي تونس سعى لافيجري إلى إحياء العمل التنصيري منذ سنة 1875م، أي قبل خضوع هذا البلد للهيمنة الفرنسية بسنوات، و اهتم بالتعليم التبشيري كوسيلة جد ناجعة لتحقيق هذا الغرض، و استغل وجود كنيسة مسيحية قديمة هي كنيسة قرطاج [1] التي أحياها من جديد، و أعطاها اسم :كنيسة القديس لويس، و أسس أيضا بالمناسبة معهدا بنفس الاسم.[2] و بفرض الحماية الفرنسية على تونس سنة 1881 م و بفعل هذا النشاط الذي قام به ثم تعيينه مديرا رسوليا لأساقفة تونس ثم مطرانا على كنيسة قرطاج، و مباشرة بعد هذا التعيين سارع إلى إنشاء مدرسة للمنصرين المبتدئين، خاصة بالإناث في قرطاج، مما يعكس الأهمية الكبرى التي كان لافيجري يوليها للمرأة في العمل التنصيري، خاصة و أنها الدعامة الأساسية في الأسرة، و لها بذلك وزن هام في المجتمع العربي الإسلامي. و هذا النشاط الكبير للافيجري سواء في الجزائر أو تونس كان محل تقدير من الكنيسة الكاثوليكية، و تمت ترقيته سنة 1882 م إلى منصب كاردينال و لكن الظروف فيما بعد أصبحت في غير صالح لافيجري الذي لقي جفاء في سنواته الأخيرة من بعض العسكريين، ربما للمكانة التي كان يحظي بها لدى الكنيسة أو السلطات الفرنسية، و لكننا لانشك أبدا أن ذلك كان بدافع الحد من نشاطاته التنصيرية عطفا على المجتمعات الإسلامية، كما أن الدور الذي لعبته بعض الطرق الصوفية و الحركات الإصلاحية عرقلت جهوده التنصيرية، و أصبح مبشروه يلقون في الكثير من الجهات سواء في شمال أو غرب إفريقيا الاهانة، بل وصل الأمر إلى حد قتل بعضهم مثلما حدث للآباء البيض الثلاثة الذين قتلوا في الجنوب الجزائري سنة 1875(و هم : بولميي -مينوري – وبوشو) [3]. و بدأ لافيجري يحس بالفشل في تحقيق حلمه الأول بجعل إفريقيا كلها مسيحية، و ذلك ما اثر على صحته و أصيب بشلل تام، و ازداد عليه المرض إلى أن توفي بقرطاج بتونس في 26 نوفمبر 1892م ودفن هناك .[4]

قد يتبادر إلى الأذهان أن ما ذكرناه من صعوبات أثرت على الكاردينال لافيجري قد يحد من النشاط التنصيري أو يوقفه ، و لكن يظهر أن المنصرين قد استفادوا كثيرا من تجربة

---

[1] كنيسة القديس لويس بقرطاج : كنيسة كاثوليكية ، مساحتها 1800 م^2 ، شرع في بنائها على هضبة بيرسا قرب أثار المدينة القديمة ، بعد موافقة حسين الثاني باي تونس على طلب القنصل العام الفرنسي ماتيو دي ليسيبس في 8 أوت 1830 ، وصادق على المشروع الملك لويس فيليب ، و بعد فرض الحماية الفرنسية على تونس سنة 1881م، و بإيعاز من لافيجري شرع في بناء كاتدرائية قرب الكنيسة القديمة سنة 1884 ، لتنتهي الأشغال بها في 1890/05/15م . و بعد وفاة لافيجري في 1892م دفن بها . ينظر : Jean Claude Ceillier , histoire des missionnaires d’Afrique (pères blancs) : de la fondation par Mgr Lavigerie a la mort du fondateur (1868-1892)paris , édit . Karthala , 2008 , p 106 .

[2] محمد الطاهر واعلي ، م س ، ص 157 .

[3] محمد الطاهر واعلي، نفسه ، ص 209 .

[4] علي محبوبي ، انتصاب الحماية الفرنسية بتونس ، سراش للنشر ، تونس ، 1986م ، ص 195 .

لافيجري، و استوعبوا توجيهاته في ضرورة التحلي بالصبر و التسامح، و الاندماج وسط الأهالي، و العيش معهم، و لبس لباسهم، و أكل نفس غذائهم، أي التأقلم مع نفس الظروف التي يعيشها الأهالي حتى و لو كانت صعبة، إذا أرادوا الوصول إلى أهدافهم، و لذلك لا غرابة في استمرار حملات التنصير في شمال إفريقيا أو غربها بنفس الوتيرة السابقة حتى بعد وفاة لافيجري، و خاصة بعد وصول منصر آخر لا يقل نشاطا عن لافيجري هو دوفوكو (1901م –1916م) [1]

من هو شارل دوفوكو و ماهي نشاطاته؟

هو شارل أوجين دوفوكو دو بومبريان، (Charles Eugène de Foucauld de Ponbriand)

ولد في 15 سبتمبر 1858م بستراسبورغ بفرنسا ، توفي والداه و تركاه يتيما و عمره ست سنوات فرباه جده لأمه ، العقيد بودي دو مورلي. أدخله جده المدرسة العسكرية الخاصة بسان سير[2]، و أصبح ضابطا عسكريا في الجيش الفرنسي، و لما توفي جده ورث عنه ثروة مالية معتبرة ، جعلته يفكر في مغادرة الجيش، و فعلا انسحب منه و دخل مجال الاستثمار في المغرب الأقصى بمساعدة أحد اليهود، و نجح في مشاريعه الاستثمارية، و هو ما جعله يؤلف كتابا سماه : العرفان للمغرب سنة 1888م. وبعد عودته إلى فرنسا سنة 1890 م انجذب إلى الكنيسة و أصبحت حياته تميل إلى الجانب الروحي أكثر من الجانب المادي، و لذلك دخل سلك الرهبنة، ثم اتجه إلى سوريا، و بعدها عاش في فلسطين مدة من الزمن، و لكن ميله إلى البساطة و حياة البداوة جعله يفضل الاستقرار بالصحراء الجزائرية، و اختار منطقة بني عباس ليعيش وسط "الطوارق"،و كان يرى فيهم أناسا قابلين للتنصير إذا ما تمكن من التأثير عليهم بالعيش بينهم و اتخاذهم – كما قال – إخوة له ، و لذلك شرع في عمله ابتداء من 1901 م، و اعتبر عمله التنصيري كفارة عن ذنوبه . و حاول تأسيس صومعة يستقبل فيها الناس بعد اثني عشر سنة من العيش مع السكان ، تعرف فيها على عادات و تقاليد الطوارق[3] و كان دوفوكو يعتبر انتصار المسيحية حتمية لا مفر منها[4] .

---

[1] مصطفى خالدي ، عمر فروخ ، م س ، ص 241.

[2] مدرسة عسكرية للتعليم العالي أسسها نابليون بونابرت سنة 1802 م، و كانت تكون ضباطا عسكريين من سلك المشاة و ضباط الدرك الفرنسي ، تقع في مدينة قار (Guer) بإقليم موربيهان Morbihan في مقاطعة بروطاني Bretagne في شمال غرب فرنسا ، و هي المدرسة التي انضم إليها الأمير خالد حفيد الأمير عبد القادر سنة 1892م ، و تخرج منها ضابطا عسكريا سنة 1897م .

[3] Dominique Casajus, Charles de Foucauld face aux touaregs, revue Terrain. N° : 28 du 28-03-1997, édition direction générale des patrimoines-paris. pp 29-42.

[1]- مصطفى خالدي و عمر فروخ ، م.س ، ص241 .

لذلك لم يهدأ له بال و هو يجول المنطقة و يحظر مناسباتها و حفلاتها، و يشارك العائلات أحزانها محاولا نشر أفكاره المسيحية بين أفرادها، بل وصل به الأمر إلى التفكير في دفع السكان إلى قبول الاستعمار الفرنسي كمنقذ و مخلص لهم من التخلف، باعتباره حامل لواء الحضارة و المدنية للمستعمرات، و قد أشار إلى ما يفكر فيه بقوله :" الأمر الأول هو إقامة النظام الفرنسي و الحضارة في إمبراطوريتنا بالشمال الغربي الإفريقي، و الأمر الثاني هو التبشير [1] .

و أمام هذا النشاط الذي سرعان ما انتبه له السكان ، و بعد مناهضته لانتفاضة السنوسيين ، و تخوف فرنسا من مساندة السكان للثوار على الحدود الجزائرية الليبية ، و ما قام به دوفوكو في سبيل خدمة الاستعمار الفرنسي، تم اغتياله عند باب صومعته بتمنراست يوم 01 ديسمبر 1916 م بعد احتجازه من طرف مجموعة من الثوار[2] .

و رغم ذلك استمرت سياسة التنصير على أشدها بالصحراء الجزائرية، حيث تم بناء كنيسة بتقرت رفقة مركز الأخوات البيض، تبعتها كنيسة أخرى بجامعة بمنطقة وادي سوف، و بالمقابل تمادى الاستعمار في تشويه الدين الإسلامي بتحويل بعض المساجد إلى ثكنات كما هو الحال بالنسبة للمسجد المالكي بتقرت. [3]

ب-المغرب الأقصى :

لم يسلم بدوره من حملات التنصير حتى قبل خضوعه للحماية المزدوجة الفرنسية الاسبانية، و تضاعف النشاط التنصيري به بعد فرض الحماية بدعم من الاستعمار الفرنسي بالخصوص، بل وبتدخل مباشر من قادته و على رأسهم الجنرال ليوتي. فقبل الحماية المزدوجة عليه، و في إطار التنافس بين الجمعيات التنصيرية سارعت إرسالية جنوب المغرب [4] (Southern Morocco Mission)، إلى ما سمته ملأ الفراغ التنصيري بجنوب المغرب . أول منطلق لها كان منطقة الصويرة التي استقرت بها سنة 1889م تحت رئاسة الطبيب المنصر (كوثبارت نارن) لتنشئ فرعا لها بعد سنة من مكوثها هناك بمراكش ، و ضاعفت من خدماتها الخيرية بغية جذب أكبر عدد من السكان إلى الديانة النصرانية على المذهب البروتستانتي، خاصة الخدمات الصحية و إنشاء المدارس.بعد مراكش وسعت نفوذها إلى مزاغان (الجديدة حاليا) ثم صافي، و حتى يسهل عليها الاحتكاك بمجموع السكان لجأ أفرادها إلى تعلم لغة

---

[1]- يمينة بن صغير حضري , سياسة التوغل الاستعماري الفرنسي بمنطقته وادي ريغ , مجلة الواحات للبحوث و الدراسات ،العدد 02 , 2014 م ، منشورات معهد العلوم الإنسانية و الاجتماعية ، جامعة غرداية، ص ص 36 .

[2] Dominique Casajus op.cit. P42.

[3] - يمينة بن صغير حضري ، م,س ، ص36 .

[4] إرسالية جنوب المغرب : هي إرسالية تنصيرية بروتستانتية بريطانية ، تأسست سنة 1888 م باسكتلندا خصيصا لتنصير العرب و البربر و اليهود في جنوب المغرب و المناطق المجاورة .

السكان و لهجاتهم المحلية كالعربية و تشليحت البربرية. و في سنة 1904م قامت بترجمة إنجيل (سان جون) إلى التشليحت ، و تكفلت بطبعه الشركة البريطانية الأجنبية للكتاب المقدس بالحروف العربية، لتوزع نسخه، البالغ عدد صفحاتها 166 صفحة مجانا على السكان. [1]

بعد الاحتلال الفرنسي للمغرب سنة 1912م لجأت السلطات الاستعمارية إلى دعم مجال التنصير في المغرب ، و تسهيل مهمة المنصرين، و بناء الكنائس لاقتلاع الشعب المغربي المسلم من جذوره الإسلامية، و هو ما صرح به الجنرال ليوتي شخصيا في كتابه الذي أصدره سنة 1925 م حيث ورد فيه بشكل صريح : "" الفكرة الأساسية التي ننطلق منها للتوغل في المغرب هي اعتبار الشعب المغربي غير عربي .. يجب محو الصبغة العربية- يعني الإسلامية- و جعله يحصل بصفة مستمرة على مظاهر الحضارة الفرنسية "" [2] و طبعا: إبعاده عن أصالته الإسلامية يعني بوضوح إفراغه من عقيدته الدينية، و تركه يتخبط في هذا الفراغ أو تمسيحه، و في كلتا الحالتين يتم إخضاعه و الهيمنة عليه.

و تحقيقا لهذا الهدف أصدرت الإدارة الاستعمارية ما يسمى "الظهير البربري" في 16 ماي 1930 و ادعت أن البربر يتشابهون إلى حد كبير مع الفرنسيين ، و أنهم ارتبطوا بالإسلام تحت العنف فقط ويمكن إعادتهم إلى المسيحية، و شرعت في إنشاء المدارس التنصيرية لتصل في هذه السنة (1930) إلى 20 مدرسة، و لكن عدد تلاميذها لم يتجاوز 700 تلميذ [3]، مما يبين نفور المغاربة من هذه

المدارس التي رأوا فيها وسيلة للتمسيح و ليس للتعليم. ورغم الحذر الشديد للسكان من هذه الحملات التنصيرية، إلا أن المنصرين تمكنوا في بعض المناطق من تمسيح بعض الشباب و تحويلهم إلى رهبان، ليتكفلوا بمهمة التنصير في وسط ذويهم مثلما حدث في بعض المناطق في فاس سنة 1935م و بعض المناطق الجنوبية ، حيث تم تنصير أحد أفراد عائلة كبيرة اسمه : محمد عبد الجليل، و هو أخ واحد من أوائل الوطنيين المغاربة (عمر عبد الجليل)، و أخذ هذا الشاب اسم :جون محمد عبد الجليل [4]، و استولى الفرنسيون في الكثير من مناطق المغرب على أموال الحبوس لبناء الكنائس، حدث ذلك في الرباط، في سلا ، في أغادير ، وفي وجدة ...

---

[1] Naima AFIF, A propos de l'évangile selon Saint Jean de la british and foreign bible society en berbère tachelhit, (Maroc) Revue Babelao, n° : 03 – 2014, université catholique de Louvain – Belgique – p.111.

[2] Gille Lafuente, dossier marocain sur le dahir berbère de 1930, R.O.M.M, n 38, 1984, P 84.

[3] Gille Lafuente, ibid. P85.

[4] Gille Lafuente, ibid, P88

ظاهرة أخرى لجأت إليها البعثات التنصيرية في المغرب و هي طبع كتيبات صغيرة أخذت عنوان: حياة المسيح، كانت توزع على السكان، و لما عزفوا عنها أصبح القادة العسكريون يرغمون المغاربة على شرائها ، حيث اضطر الموظفون المغاربة في مكتب القائد (مارتي) إلى شراء هذه المطبوعات بأمر من هذا الأخير. [1] أنشأت أيضا مجلة شهرية تنصيرية اسمها :" المغرب الكاثوليكي" في العشرينات من القرن 20 يشرف على إدارتها أسقف الرباط "فيال"(Vielle)، و معظم المقالات التي كانت تنشرها تحث السكان على اعتناق المسيحية، و تعود في الكثير منها إلى كتابات لافيجري و دوفوكو و جون غيرود محرر "جريدة الصليب"[2] التي أنشئت في باريس بفرنسا سنة 1880م كمجلة شهرية، ثم تحولت إلى جريدة يومية منذ 15-06-1883م، و بالتالي فكل المقالات ذات أهداف تنصيرية .

2-3 النشاط التنصيري في غرب إفريقيا :

لم يكن النشاط التنصيري في غرب إفريقيا وليد الاستعمار الأوربي الحديث، إذ عرفت هذه المنطقة حملات تنصيرية منذ القرن 15م ، و كان أوائل المنصرين من البرتغال، و قد وصلوا إلى لاغوس في نيجيريا سنة 1472م ، نزل منصرون برتغاليون آخرون من الكاثوليك في مدينتي "واري" و "بنين" شرقي البلاد، و قاموا ببناء مدارس و كنائس، و أول بعثة بروتستانتية وصلت نيجيريا عام 1841م، نزل منصروها بمدينة "بداغري" جنوب البلاد [3]، و هذه البعثة انجليزية حلت بالمنطقة في إطار الصراع حول مناطق النفوذ، و أسست بدورها عدة مدارس تنصيرية قبل أن تنتقل إلى تدعيم هذه المدارس بكلية تنصيرية سنة 1930م .

تبعهم بعد ذلك العديد من المنصرين الأوربيين ، وتمركزوا في المدن الساحلية للمحيط الأطلسي قبل توغلهم إلى الداخل ، فقد وصلت إلى سيراليون إرسالية بريطانية بروتستانتية سنة 1804م،[4] ووصلت في نفس الوقت بعثات تبشيرية كاثوليكية إلى النيجر بإمكانيات هائلة، استغلتها في تقريب السكان منها عن طريق حفر الآبار و الخدمات الطبية، بسبب انتشار الأمراض في الأوساط الفقيرة و في عمليات الإغاثة بمساعدة الفقراء و المعوزين، كما تكفلت بتصريف منتجات الفلاحين و أصحاب المهن التقليدية، و تمكنت فعلا من اكتساب ثقة الناس علها تنجح في ما تبقى لها بتمسيح أفراد القبائل النيجرية .

أما الفرنسيون فكان أول اتصال لهم بغرب إفريقيا في القرن 17م، عندما أقاموا مراكز و محطات تجارية لممارسة تجارة الرق ، و نقل العبيد إلى العالم الجديد لبيعهم ، من أجل

---

[1] Gille Lafuente,opcit. P88

[2] Gille Lafuente, ibid. P88

[3] أحمد سعد الدين البسال ’ التبشير و أثاره في البلاد العربية و الإسلامية ، دار أبو المجد للطباعة ، مصر 1989، ص 111.

[4] عبد الرزاق عبد الحميد الأرو، م.س، ص32 .

استغلالهم في خدمة الأرض، واتخذوا مدينة سان لويس مركزا لنشاطهم التوسعي ، و البحث عن المعادن ، و اقتناص العبيد ، و كأي بلد حل به الأوربيون و معهم جيوش المنصرين، فان البعثات التنصيرية لم تكن بعيدة عن مناطق النفوذ الفرنسي، حيث استقر أفرادها في ساحل السنغال، يمارسون مهامهم التنصيرية في ظروف صعبة، إلى أن تمكنوا من تأسيس أول مدرسة عام 1819 م تحت اسم (مدرسة أخوات القديس يوسف دوكلوني، [1] وعيا منهم بأهمية التعليم التنصيري في تحقيق مخططاتهم التي جاؤوا لتنفيذها .

اعتمد المنصرون في البداية، و قبل توفير الهياكل اللازمة للتنصير على تمسيح العبيد، و استغلوا تأييد المسيحية للرق قبل التخلي عن هذه التجارة، فقد اعتبر المنصرون ذلك خلاصا لأرواحهم فقط بينما تبقى أجسادهم في الرق ، و هم يرون الرق كفارة عن الذنوب التي ارتكبها العبيد يؤدونها لما استحقوه من غضب الله [2] .

ثم لجأ المنصرون إلى بقية الناس بعد التوقف عن تجارة العبيد، و جربوا وسائل كثيرة في مقدمتها الكنائس و المدارس التنصيرية و المستوصف ثم الأعمال الخيرية، فقد بنى الفرنسيون بعد مدرسة القديس يوسف كنيسة في سان لويس سنة 1821 م، ثم صومعة في داكار عام 1846 م، ووسعوا بناء الكنائس إلى مناطق واسعة من السنغال مثل غوري و غازوبيل، فاتك ،جنغولور، جروب، كولخ، زيغنشور، مورولاند، تياس، جوال [3]

و في 1822م نزلت منصرة مشهورة معروفة بنشاطها التنصيري بمدينة سان لوي هي: جافويه (Javouet) رئيسة جمعية "" أخوات القديس يوسف " [4] و أعادت تنظيم النشاط التنصيري في سان لوي و غوري ، ثم عادت إلى فرنسا بصحبة ثمانية من الشبان السنغاليين لتلقي التكوين الديني في فرنسا، ليعودوا إلى بلادهم كمنصرين بعد الانتهاء من التكوين. [5] و هذه العملية جاءت بعد نجاحها في تربية ثلاث شبان أصبحوا رهبانا و هم دافيد بوالات ، أرسن

---

[1] انجاي محمد يمبا، أضواء على السنغال، د.د.ط، القاهرة - مصر ،1991م ص45

ينظر أيضا : ادم عبد الله الالوري ، موجز تاريخ نيجيريا ، بيروت، منشورات دار مكتبة الحياة ، ط 1 ، 1975م، ص 128,

[2] أحمد شلبي , الإسلام ,القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية , ط 7، 1983 م، ص 238 .

[3] غالي لو، التنصير في إفريقيا، السنغال نموذجا، مجلة البيان، عدد 154، سبتمبر 2000, المنتدى الإسلامي، مركز البيان للبحوث و الدراسات، الرياض ، المملكة العربية السعودية ، ص 82 .

[4]- جمعية أخوات القديس يوسف ، تأسست سنة 1807 م من طرف آن ماري جافويه ، و كانت هذه الجمعية تركز في نشاطها على تعليم البنات في بورغوني (Bourgogne) ثم وسعت نشاطها إلى باريس، و حققت نجاحا باهرا جلب أنظار الحكومة الفرنسية ، و لذلك طلب منها وزير الداخلية (ليني) إيفاد مجموعة من الأخوات إلى السنغال للاستفادة من خدماتها في مجال التنصير ، و فعلا حلت بالسنغال سنة 1819م رفقة العقيد شمالتز الذي عين حاكما للمقاطعات الفرنسية في السنغال و الأسقف تيراس . ينظر : André Picciola , missionnaires en Afrique , l’Afrique occidentale de 1840 à 1940 , édit Denoël, paris 1987, p.24.

[5] - غالي لو م.س ص 81.

فريدوال، جون بيار موسى .[1]

المراكز التكوينية- كما ذكرنا – لا تقل أهمية عن الكنائس، و حتى يتفادى المنصرون إرسال أبناء البلدان المستعمرة إلى فرنسا أو غيرها، لجأوا إلى إنشاء هذه المراكز ليتخرج منها القساوسة و الرهبان، أهل البلد و منها : - مركز تكوين القساوسة الأفارقة في غازوبيل سنة 1850م .

- مركز سبيقوتان ، على بعد 40كم من دكار، و هو أكبر مركز على مستوى غرب إفريقيا سنة 1857 م .

- وفي نفس السنة مركز أخوات القديس يوسف في سان لوي لتنصير البنات [2] .

غينيا :

وصلتها حملات التنصير سنة 1842 م و استقرت معظمها في مدينة بوفا ، ثم كوناكري التي بنيت فيها أول كنيسة سنة 1877م .

- و في نفس الفترة تقريبا حل المنصرون بساحل العاج التي بنيت بها أكبر كنيسة بإفريقيا بمدينة ياموسوكرو [3] .

بالنسبة لغانا(ساحل الذهب سابقا) وصلها النشاط التنصيري بشكل قوي سنة 1879م حيث بعث البابا"بلانك" الأبوين "أوغست مورو" و "أوجين مورات" إلى مدينة آلمينا وصلا إليها في 18-5-1880م، و قد ساعدهما في عملهما ، ووفر لهما الشروط الضرورية التاجر (بونات)، و افتتحا مدرسة تنصيرية خاصة سنة 1883م لتعليم البنات، و التي أشرفت على التدريس بها أخوات (سيدة الرسل) الفرع النسوي لإرسالية ليون التنصيرية، و في 1895م تم فتح محطتين للتنصير في نيجيريا بعد آلمينا: الأولى في صالتبوند، و الثانية في أكرا، و مع بداية القرن 20م وصل المنصرون إلى سيكوندي على خليج غانا و كوماسي (الموجودة حاليا في ساحل العاج)، كما وصلوا في سنة 1906م إلى نافرونغو في شمال البلاد [4] ، بعد غانا و صل النشاط التبشيري إلى ليبيريا في سنة 1906م نفسها، و فتح المنصرون مقرا لبعثتهم في منروفيا، أغلق أثناء الحرب العالمية الأولى و أعيد فتحه سنة 1920م، و لكن نشاط الكاثوليكية لم يتعد في هذا البلد بناء بعض الكنائس [5] .

---

[1] André Picciola, op.cit. , p. 29.

[2] - غالي لو ، م.س ، ص 82 .

[3] -عمران كبا ، الشعر العربي في الغرب الإفريقي خلال القرن العشرين الميلادي ، المجلد الأول، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية و العلوم و الثقافة ،ايسيسكو،2011م، ص 19 .

[4] André Picciola, op.cit. , P269.

[5] André Picciola, ibid. P270.

و هكذا يتضح من خلال هذه النماذج التي أوردناها حول نشاط المنصرين في غرب إفريقيا أن المنظمات التنصيرية كلها كانت تركز جهودها على ضرب الإسلام أولا، و إن تمكنت من تمسيح الأفارقة فذلك هدف آخر، و قد وضعت في مجموعها يدها في يد الاستعمار، فالبعثات التنصيرية كانت تنظمها هيئات دينية ، و تدعمها الحكومات الاستعمارية ماديا و عسكريا، و هو ما أقره اللورد آرثر جيمس بلفور الذي كان وزير خارجية بريطانيا ، و صاحب الوعد المشؤوم الخاص بتكوين وطن قومي لليهود في فلسطين في قوله: " إن المبشرين هم ساعد جميع الحكومات الاستعمارية و عضدها في كثير من الأمور المهمة ، و لولاهم لتعذر على تلك الحكومات أن تذلل كثيرا من العقبات، و لذلك فانا في حاجة إلى لجنة دائمة تعمل لما فيه صالح المبشرين."[1]

و فعلا هذه الجمعيات التنصيرية- كما رأيناها- في كل بلد حلت به إلا و زرعت فيه نزعة الخضوع للرجل الأبيض، معتبرة الأوربيين من الأجناس المتفوقة، صاحبة الحضارة ، و التي على الشعوب المختلفة أن تستفيد من مدنيتها و حضارتها، بقبول قيمها الحضارية، و إقرار هذه الشعوب بضعفها و بالتالي زرع القابلية الاستعمار في نفوسها ، و هو ما عبر عنه الزعيم الأمريكي الأسود مالكوم اكس مخاطبا مستمعيه البيض قائلا : " عندما جاء أجدادهم إلى إفريقيا كنا نملك الأرض و كانوا يحملون الصلبان، أما الآن فنحن نحمل الصلبان و هم يملكون الأرض." [2]

و بالتالي فالسيطرة الاستعمارية لا يمكن إنجاحها إلا بالقضاء على المقومات الروحية و المعنوية للشعوب التي يريد المحتلون إخضاعها، لكن هل حقق الاستعمار و التنصير معا كل الأهداف التي تم التخطيط لها و تنفيذها في أوساط شعوب غرب إفريقيا ؟ .

الشيء الأكيد أن تخصيص كل هذه الإمكانيات الهائلة، و الدعم المتواصل للحكومات الاستعمارية للنشاط التنصيري، و الظروف المأساوية التي عاشها الأفارقة عموما, من استعباد و فقر و مجاعات و أمراض، سيعود بنتائج تخدم أهداف التنصير و أهداف الاستعمار، و لكن حتى و لم تمكن المنصرون من تكوين أفارقة منصرين، فان الكنيسة الإفريقية التي ولدت في ظروف صعبة لم تعد قادرة على أداء مهامها، في الوقت الذي ازدادت فيه قوة الإسلام، و بالتالي فالتخوف الذي أبداه الغرب تجاه الإسلام تحقق بالفعل، و أقرت الكنيسة الكاثوليكية نفسها أن نسبة المسيحيين الكاثوليك في غرب إفريقيا رغم الجهود المبذولة في مجال التنصير، و رغم الإمكانيات المسخرة لم تتعد سنة 1936م 4 بالمائة أمام استمرار انتشار الإسلام و قد

---

[1]- غالي لو, م.س ص35.

[2]- سيد احمد علي الناصري، الإسلام و مواجهة حركة التبشير، مجلة البحوث الإسلامية، العدد 12، من ربيع الأول إلى جمادى الثانية 1405 ه /أكتوبر إلى ديسمبر 1984م – الرئاسة العامة للبحوث و الإفتاء – المملكة العربية السعودية، ص53.

أدمجت في هذه النسبة غير الأفارقة [1].

هذه الظاهرة و إن كانت قد حيرت المنصرين، و حتى الأوربيين الذين كتبوا عنها الكثير تبدو طبيعية لو لم يرد الغرب مجانبة الحقيقة، فالإقبال على الإسلام، حتى بعد مقتل الحاج عمر الفوتي ازداد من قبل الأفارقة لأنه دين المظلومين، المقهورين، الباحثين عن العدل و الحرية، بينما ارتبطت الكنيسة بالاستعمار، و الجشع، و احتكرت كل الخدمات الضرورية و على رأسها التعليم و الطب، و لم يعد للإفريقي الاختيار أمامها، فإما البقاء على حاله الذي زاده الاستعمار سوءا أو قبول خدمات المنصرين، و التخلي عن جذوره. و حيرة الغرب من الإسلام تترجمها إحدى كتابات المؤرخ كرودر و التي ورد فيها :" في الخمسين سنة الأولى للاستعمار بلغ عدد المسلمين 34 بالمائة من سكان غرب إفريقيا، و هو ما يقارب 20.067.000 نسمة ، بينما لم يزد عدد من اعتنقوا المسيحية عن 04 بالمائة رغم كل الدعم و التأييد ."[2] و هذا التراجع يظهر بوضوح في النسب التالية للمسيحيين في دول غرب إفريقيا:[3]

الرأس الأخضر :

99 بالمائة من سكانها مسيحيون و هي ظاهرة عادية إذا عرفنا أنها بقايا الرقيق الذين خلفهم الاستعمار بعد إلغاء تجارة الرق، وكنا قبل هذا قد تكلمنا عن قضية تمسيح العبيد، بعد اقتناصهم من إفريقيا و تركهم في العبودية على أساس تمسيح الروح فقط، و بالتالي لم تكن لهؤلاء العبيد حرية اختيار المعتقد.

- مالي: % 01
- غينيا (كوناكري) : %02
- النيجر : % 02
- غينيا(بيساو) : %05
- السنغال: % 03
- ليبيريا: % 10
- سيراليون : % 10
- بوركينافاسو : % 10

---

[1] André Picciola ,opcit ,p276.

[2] Michael Crowder, West Africa under colonial rule, Hutchinson, London, 1968, P356.

[3] M. Crowder, ibid. même page.

- بنين :   20 %

- ساحل العاج :   20%

4- أهم البعثات التنصيرية في شمال و غرب إفريقيا :

أمام توفير شروط الاستقرار للمنصرين في المستعمرات الإفريقية، و مناصرتهم و تشجيعهم خاصة بعد القضاء على الانتفاضات المسلحة، تزايد إقبال الجمعيات التنصيرية على شمال وغرب إفريقيا وتكاثر عددها، و أصبحت تلجأ إلى كل الوسائل لتنصير شعوب المنطقة .

أ- البعثات التنصيرية في شمال إفريقيا :

بعد احتلال الجزائر و توسيع هذا الاحتلال إلى المناطق الداخلية، حصل المنصرون على الأموال و السلاح، و الحماية القانونية في عمليات تهريب الأطفال إلى فرنسا لتنصيرهم مثل ما حدث في منظمة القبائل، أين هرب رجال جمعية "الجزويت " أطفالا إلى بن عكنون و سطاوالي، ووضعوا في مراكز الأيتام قبل تهريبهم إلى فرنسا، و برأتهم المحاكم رغم شكاوي الآباء، [1] كما وقف إلى جانبهم حكام الجزائر يشجعونهم على تنصير الجزائريين مثل الحاكم العام "دوقايدون " الذي خلف المارشال ماكماهون سنة 1871م، و الذي قال بعد القضاء على ثورة المقراني: "لقد حان الوقت الذي سيدخل فيه هذا الشعب الذي هزمناه إلى حظيرة المسيحية." [2] و بلغت نصرته للمسيحية إلى حد تسميته من قبل المعمرين (الأميرال كاردينال) ،[3] كما وفرت السلطات الاستعمارية التنقل المجاني للمنصرين بين الجزائر و فرنسا، على متن جميع السفن التي تربط بين الجزائر و فرنسا طبقا لقرار 07-04-1884م [4] و تبعا لكل هذه التحفيزات أصبحت الجزائر و بعدها تونس و المغرب الأقصى ساحة للجمعيات التنصيرية المختلفة، وأهم و ابرز هذه الجمعيات:

1- جمعية الجزويت :

أو ما كانت تسمى (الآباء اليسوعيون) (les jésuites) : هذه الجمعية من الجمعيات التنصيرية القديمة، أسست منذ 27-09-1540 م في باريس بفرنسا، و هي خاصة بالذكور فقط، حيث لا يسمح للإناث بالانضمام إليها، استقرت بمدينة الجزائر وقسنطينة سنة 1840م،و كانت تسير ملجأ اليتامى في بن عكنون الذي كان يضم 120 يتيما[5]، لتربيتهم تربية مسيحية، و كانت تبعث ببعض أفرادها لتقديم دروس في التبشير في القرى، و تقدم خدمات طبية للمرضى. و في سنة 1844 م فتحت فرعا بوهران، و أسست مدرسة ضمت 1500 تلميذا، [6] و بقيت هذه الجمعية تمارس نشاطاتها إلى غاية سنة 1881 م أين اضطرت

---

[1] محمد الطاهر واعلي، م.س ، ص51 .

[2] محمد الطاهر واعلي، نفسه، ص48.

[3] Charles Robert Ageron, les algériens musulmans et la France 1871-1919, Paris P.U.F, 1968, PP.301 – 302.

[4] هذا القرار تضمن مادتين تتعلقان برجال الدين و رؤساء الجمعيات التبشيرية و حقوق سفرهم مجانا على حساب وزارة العدل و الديانات ، نص القرار كاملا أورده محمد الطاهر واعلي ، المرجع السابق ، ص 52 .

[5] محمد الطاهر واعلي، نفسه، ص35.

[6] عبد الحميد زوزو ، نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر المعاصر ، الجزائر، م.و.ك، 1984 ، ص 236 .

إلى الانتقال إلى المشرق العربي.

2- أخوات القديس يوسف : (Sœurs de saint Joseph de l'apparition)

هي جمعية تنصيرية أسست سنة 1832 م من طرف القديسة ايميلي دي فيالار، و كانت مهامها تتركز أساسا في الخدمات الصحية و التعليم، وصلت إلى الجزائر سنة 1835م، و استقرت بعنابة و الجزائر العاصمة تحت ستار معالجة السكان بعد انتشار مرض الكوليرا، كما كانت تقدم مساعدات للفقراء، و تكفلت أيضا بتربية اليتيمات، مقرها المركزي كان و لا يزال بباريس، و لسوء تفاهم مع الأسقف ديبوش اضطرت إلى مغادرة الجزائر سنة 1840م باتجاه تونس، و أصبح لها فيما بعد مراكز في الكثير من الدول [1] .

- 3 الراهبات الثالوثيات : (les religieuses trinitaires)

أقدم جمعية ظهرت بفرنسا حيث أنشئت سنة 1194م من طرف فرنسيين هما : "جون دي ماتا" و "فليكس دي فالو"، كان عملها يقتصر على إعادة شراء الأسرى الفرنسيين قبل أن تتحول إلى جمعية تنصيرية، وصلت إلى الجزائر يوم 26 نوفمبر 1840 م و استقرت بوهران و تكفلت بالتعليم، حيث أشرفت على إدارة المدرسة البلدية ابتداء من سنة 1849م إلى غاية سنة 1880م [2] .

- 4 أخوات العقيدة المسيحية : (les sœurs de la doctrine chrétienne)

جمعية تنصيرية فرنسية تأسست في مدينة تول بمقاطعة اللورين بفرنسا سنة 1716م من طرف جان بابتيست فاتلو و في سنة 1721 م افتتحت مدرسة لتكوين المعلمات في تول بغية توجيههن لتعليم فتيات البوادي، استقرت في الجزائر في ماي 1841م بدعوة من الأسقف "ديبوش"، و فتحت عدة مدارس بالشرق و الوسط و الغرب، حتى بلغ عددها الإجمالي ثماني عشرة مدرسة إضافة إلى ملجأ لليتامى [3].

5-أخوات القديس فانسان:(sœurs du saint-Vincent-de Paul)

جمعية دينية تأسست من طرف فانسان دي بول سنة 1633م ،و ترأستها عند تأسيسها لويز دي مارياك، و كانت مهمتها ترتبط بخدمة المرضى و الفقراء، و تعليم الفتيات الأميات. و في سنة 1837م أسست فرعا لها سمي " أطفال مريم الطاهرة " و كانت مهمته : جمع الفتيات المراهقات من الطبقات الفقيرة لتعليمهن و تكوينهن في حرف متنوعة، وصلت هذه الجمعية إلى الجزائر سنة 1868م و استقرت ببسكرة، كما كانت تشرف على إدارة شؤون التعليم في

---

[1] محمد الطاهر واعلي، م.س ، ص35 .
[2] محمد الطاهر واعلي، نفسه، ص36.
[3] عبد الحميد زوزو، م.س، ص 237 .

الكثير من المناطق [1]. .

6- *أخوات القس الطيب :* (sœurs du bon pasteur)

جمعية دينية تأسست سنة 1837م بفرنسا في مدينة أنجار(Angers) من طرف ماري بيليتيي مهمتها مساعدة النساء و الأطفال المعوزين، بعثت بعض أفرادها إلى الجزائر سنة 1843 م، أسست ملجأ في العاصمة، و معبدا في مسرغين بوهران سنة 1850م كما أنشأت معبدا آخر في قسنطينة سنة 1855 م [2] ، و أصبحت بذلك جمعية تنصيرية تدعو السكان مباشرة إلى التقرب من معابدها للإطلاع على عقيدة المسيح و الانتفاع من بعض المساعدات.

7- *راهبات القلب المقدس:* (Religieuses du sacré cœur)

تأسست هذه الجمعية بباريس عام 1800 م من طرف الراهبة "مادلين صوفيا بارات" لتعليم الفتيات من الطبقات البرجوازية الدين المسيحي، و مساعدة النساء ليضطلعن بأدوار هامة في المجتمع، و تمكنت هذه الجمعية في ظرف زمني قصير من توسيع نفوذها إلى عدة مدن أخرى.

أصبحت لهذه الجمعية الكثير من المدارس، مما جعلها تفتح أقساما للفتيات الفقيرات، و توفر لهن التعليم و الإطعام مجانا و اكتسبت شهرة كبيرة ، جعلت السلطات الاستعمارية في الجزائر تطلب منها فتح مدرسة بالعاصمة، و استغلت هذه المدرسة التي خصصتها لبنات ضباط الاحتلال للاحتكاك أيضا بالجزائريات عن طريق بعض الأعمال الخيرية [3]

8- *جمعية رهبان سطاوالي :* (les trappistes de Staoueli)

رهبان سطاوالي هم مجموعة من الرهبان وصلوا إلى الجزائر سنة 1841م، بناء على توصية من لجنة تقصي الحقائق التي شكلتها السلطات الفرنسية لتحديد مصير الجزائر، بعد الصعوبات التي خلقتها المقاومة الجزائرية للاحتلال، حيث زارت هذه اللجنة الجزائر سنة 1841 م ، و بعد 60 يوما من التحقيق خلص رئيس اللجنة "كورسال" إلى ضرورة فتح

المجال للمنصرين لتغيير الوضع في الجزائر عن طريق التنصير، مؤكدا في تقريره أن الجزائر لا يمكن أن تكون فرنسية إن لم تكن مسيحية [4] .

---

[1] محمد الطاهر واعلي، م س، ص36.

[2] محمد الطاهر واعلي، نفسه، نفس الصفحة

[3] محمد الطاهر واعلي نفسه ص36 .

[4] Le moniteur universel du gouvernent français, paris, 8/9/1842.

و بناء عليه، وصل إلى سطاوالي، غرب العاصمة ثلاث عشرة راهبا، وفر لهم الجنرال بيجو قطعة أرض مساحتها 1020هكتار، قرب شبه جزيرة سيدي فرج ، ووقع عقد ملكيتها لبناء دير في 18-07-1843 م ليشرع في بناء دير سطاوالي هذا ، و انتهت الأشغال به في 30-08-1845م و أصبح يضم منذ جانفي 1846م سبعا و ستين راهبا، ثم ارتفع هذا العدد إلى 120 راهبا فيما بعد منهم ضباط عسكريون سابقون، شاركوا في معركة سطاوالي، و في 11-07-1846م تحول هذا الدير إلى كنيسة في عهد الأسقف 'بافي "، و كان رهبانها زيادة على التزاماتهم الدينية و نشاطهم التنصيري يعملون في الفلاحة و تربية الحيوانات [1] .

-9 إخوان القس يوسف لإقليم مانس : (les frères de saint Joseph du mans)

بدأت هذه الجمعية عملها بشكل رسمي في إقليم مانس بمقاطعة" صارت" في غرب فرنسا، بعد موافقة الدولة بأمر ملكي فرنسي في 25-6-1823م ، ثم سمح لها بتوسيع نشاطها التنصيري إلى الممتلكات الفرنسية في إفريقيا بأمر ملكي في 3-4-1843م فانتقلت إلى الجزائر في هذه السنة، و فتحت مراكز في كل من عنابة ، سكيكدة ، ووهران، و كانت تشرف أيضا على إدارة المدارس البلدية .عدد أفرادها العاملين بالجزائر وصل إلى ست و ثمانين راهبا، و بلغ مجموع مؤسساتها إلى غاية سنة 1901 م تاريخ مغادرتها الجزائر 31 مؤسسة [2] .

10- إخوان العقيدة المسيحية : (les frères de la doctrine chrétienne)

جمعية ظهرت إلى الوجود في نانسي بفرنسا في 1822/07/17 م أسسها جوزيف فريشار ، بدعم من أسقف ماتز " جوفري " ، اختصت في البداية في التعليم الابتدائي و التربية الدينية للذكور ، اتسع نفوذها كثيرا في فرنسا خصوصا في النصف الثاني من القرن 19 ، و أصبحت تشرف على المدارس البلدية ، و حققت نجاحا باهرا في إدارتها في عهد نابليون الثالث بفضل دعم وزير التعليم العام (فورتول) .

في 1854م انتقلت إلى الجزائر لتشرف على المدارس التي تضاعفت إلى غاية 1888م في العاصمة، وهران ، البليدة ، قسنطينة ، تلمسان ، سيدي بلعباس ، مستغانم ، مليانة ، سكيكدة و عنابة . و كان بافي أسقف الجزائر قد ساعد هذه الجمعية بمبالغ مالية معتبرة لإنشاء مقر لها بالجزائر، أمام هذا النجاح الذي ترجمته الأعداد الكبيرة من التلاميذ الذين أصبحت تشرف على تعليمهم، و التي وصلت إلى 2300 تلميذا [3] .

---

[1] محمد الطاهر واعلي، م.س ، ص 36.

[2] Dictionnaire de pédagogie et d’instruction primaire, publié par : L’institut français de L’éducation, sous la direction de : Ferdinand Buisson, série F ,1911 .

[3] Pierre Gourinard, l’enseignement primaire en Algérie, quelques aperçus sur l’enseignement religieux en Algérie, revue l’algérianiste, n° : 14 (n. spécial) du 15/05/1981.

11- إخوان المدارس المسيحية : (les frères des écoles chrétiennes)

تأسست جمعية إخوان المدارس المسيحية من طرف القديس يون (yon) في 1808/03/17م [1]. استقرارها بالجزائر كان قد بدأ منذ سنة 1854م، بإدارة بعض المدارس البلدية مثل زميلتها السابقة (إخوان العقيدة المسيحية)، مما يعكس الاهتمام الكبير الذي كانت هذه الجمعيات التنصيرية توليه للتعليم التنصيري حتى و لو كان هذا التعليم عموميا لا يرتبط بالجمعيات ، و قد توزع أفرادها على معظم مناطق الجزائر شرقا و وسطا و غربا ، و هي الجمعية التي كانت تشرف أيضا على ملجأ يتامى مجاعة 1868م و الذين جمعهم لافيجري . [2]

12- جمعية مبشري السيدة الإفريقية(الآباء البيض) و فرعها النسوي : الأخوات البيض :

(Les pères blancs et les sœurs blanches) أو (Missionnaires d'Afrique)

أسسها شارل لافيجري عام 1867م، مباشرة بعد تنصيبه أسقفا في الجزائر، ليغتنم فرصة المجاعة و يحتك بالسكان عن طريق هذه الجمعية التي كونها، و هو يحلم بنقل نشاطاتها إلى إفريقيا كلها انطلاقا من الجزائر . واسم "الآباء البيض" أو "الأخوات البيض " مأخوذ من اللباس الأبيض الذي خصصه لافيجري لأفراد هذه الجمعية، و لكن التسمية الرسمية لها هي : جمعية مبشري السيدة الإفريقية .

دستور هذه الجمعية [3] : 1- ضرورة لبس المنخرطين اللباس العربي الجزائري .

2- ضرورة إتقان اللغات و اللهجات المختلفة .

3- ضرورة الحصول على دراسات عليا في عل.م اللاهوت.

4- التقشف في المعيشة و الملبس و المسكن.

5- التعهد حتى الممات بخدمة التنصير في إفريقيا .

وكانت هذه الجمعية تضم ثلاثة فروع و هي:

- جمعية مبشري السيدة الإفريقية (آباء و إخوان)

- جمعية مبشرات السيدة الإفريقية (أخوات) هدفها الوصول إلى المرأة المسلمة

- إخوان الصحراء المسلحين.

[1] Dictionnaire de pédagogie et d'instruction primaire, op.cit.

[2] محمد الطاهر واعلي، م.س ، ص 36 .

[3] محمد الطاهر واعلي، نفسه، ص 38.

ب- البعثات التنصيرية في غرب إفريقيا :

ارتبطت البعثات التنصيرية في غرب إفريقيا بالاستعمار ، و معظم أفرادها أسسوا مراكزهم بعد السيطرة الاستعمارية على المناطق التي حلوا بها، و ازدادت قوة نفوذهم بالخصوص مع مطلع القرن 20م، بعد القضاء على الحركات الجهادية المناهضة للاستعمار . [1] و من أبرز هذه البعثات :

1- جمعية مبشري السيدة الإفريقية (الآباء البيض):

سبق الكلام عن كيفية تأسيس هذه الجمعية من طرف لافيجري سنة 1868م ، و حتى تحقق أهدافها في تنصير القارة الإفريقية ، تحمس لافيجري منذ تأسيسها على الوصول بها إلى كل منطقة من القارة ، و تصبح إفريقيا كلها مسيحية . و لذلك بمجرد تعيينه مندوبا رسوليا للصحراء و إفريقيا ، بعث في ديسمبر 1875م ثلاثة منصرين إلى الصحراء و هم بولمييه ، مينوري ، و بوشان ، بهدف الالتحاق بتومبوكتو ، و لكنهم اغتيلوا من طرف مجموعة من الطوارق.

في 1881م ثلاثة منصرين كانوا ضمن البعثة التي استقرت في غدامس بليبيا منذ 1878م، انطلقوا إلى السودان الغربي و هم الآباء: ريشار ، مورات ، و بوبلار ، و لكن نهايتهم على يد الطوارق كانت على بعد 20 كيلومترا فقط من غدامس.. و هو ما دفع لافيجري إلى التوقف مؤقتا عن إرسال المزيد من البعثات إلى إفريقيا الغربية في انتظار تحسن الظروف ، و لكن الموت أنهى مشواره مع الآباء البيض سنة 1892م .

خلف الكاردينال لافيجري على رأس جمعية الآباء البيض " ليفينهاك " و في هذه الفترة كانت الجيوش الاستعمارية الفرنسية قد حققت توسعا على حساب السنغال و السودان الغربي ، مما هيأ الظروف لإنجاح المد التنصيري لهذه البقاع من إفريقيا الغربية ، و لذلك سارع " ليفينهاك " إلى إرسال أربعة من الآباء البيض إلى السودان الغربي انطلاقا من مرسيليا في 25 ديسمبر 1894م ، و في 1 أفريل 1895م تأسست المحطة التنصيرية لمقاطعة سيغو(في مالي) ، و في الثلاثين من نفس الشهر وصل الأب "هاركار" و مرافقه إلى تومبوكتو ، ثم رافق في 1896م بعثة الملازم هورست من تومبوكتو إلى بورتونوفو(عاصمة بنين حاليا في جنوب البلاد على ساحل المحيط الأطلسي) . [2] و توالت بعثات الآباء البيض إلى غرب إفريقيا كل سنة بعد ذلك، و ازداد تأسيس المحطات التنصيرية لهذه الجمعية .

في 1897م ثمانية من الأخوات البيض اتجهن إلى غرب إفريقيا في أول بعثة للفرع النسوي ،

---

[1] Jean Marie Bouron, les pères blancs, acteur du jeu colonial, revue : histoire des missions chrétiennes, N.14, fev.2010, Karthala, paris, p59

[2] M.N. Sauvaigo, l'œuvre des pères blancs dans l'Afrique Occidentale Française, Le Littoral du 24-06-1928, p3.

استقرت بمالي ، ثم تبعتهم بعثات أخرى و تكفلت بتعليم النساء و (تطويرهن)، مدعية أن الإسلام كان وراء تخلفهن [1]، و بمعالجة الأطفال .

و في سنة 1900م وصلت أخوات أخريات إلى " موسي " عند مدخل نهر النيجر ، و أخيرا بعثة أخرى إلى واقادوقو التي أنشأت بها محطة تنصيرية ثابتة . و بقيام الحرب العالمية الأولى توزع بعض الآباء البيض على جبهات القتال دفاعا عن فرنسا، و البعض الأخر بقي في إفريقيا الغربية في المحطات الثابتة إلى نهاية هذه الحرب، و عودة بعثات أخرى ابتداء من سنة 1922م . و عموما فانه بين سنتي 1895م و 1922م، جمعية مبشري السيدة الإفريقية كانت قد بعثت إلى غرب إفريقيا 124 من الآباء : 25 منهم ماتوا، و 52 عادوا إلى فرنسا لظروف صحية ، كما بعثت 52 من الأخوات : 15 منهن توفين في المنطقة، و 15 أخريات عدن أيضا لظروف صحية . عدد المراكز الثابتة للتنصير التابعة لهذه الجمعية بلغ 13 مركزا و 60 ديرا، و مستشفيات و 13 مستوصفا صحيا،و 03 منشات صناعية لتشغيل الأهالي [2] .

2- جمعية التنصير الكنسية لإفريقيا و الشرق (Church Missionary society for Africa and the East)

جمعية تنصيرية بروتستانتية ، تأسست في لندن في 12 أفريل 1799م خلال اجتماع تأسيسي حضرته طائفة كلافام(بجنوب غرب لندن) التي كان على رأسها "ويلبرفورص" ، أحد المتحمسين لإلغاء الرق في الإمبراطورية البريطانية ، و لما تأسست هذه الجمعية دعي

ويلبرفورص لرئاستها لكنه اعتذر مكتفيا بمنصب نائب الرئيس، لكي لا يشغله المنصب عن النضال من أجل هدفه .

ثم دعم المؤسسون هذه الجمعية بفرعين آخرين هما : مؤسسة سيراليون التنصيرية ، و مؤسسة تربية الأفارقة ، و من البعثات التي أرسلتها الجمعية إلى غرب إفريقيا نذكر :

- ملكيور رينار و بيتر هارتويق سنة 1804م إلى نهر بونغو في غينيا ، ثم بعثة أخرى إلى سيراليون سنة 1816م .

- في 1841 م تمكنت الجمعية من تكوين أحد الأفارقة من قبيلة اليوروبا في نيجيريا في مجال التنصير، و تحول إلى منصر هو : صامويل أجاهي كروثر الذي أرسل مع بعثة "سكوت" إلى النيجر للقيام بمهام تنصير السكان.

- و في 1844م أعيد إلى بني أصله اليوروبا في نفس المهمة ، و في عام 1857م أرسل إلى

---

[1] M.N. Sauvaigo,opcit. Page3.
[2] M.N. Sauvaigo, ibid. même page.

النيجر من جديد [1]، و عموما فهذه الجمعية كانت تحظى برعاية الأسرة المالكة في بريطانيا ، و قد بلغ مجموع ميزانية نشاطها التنصيري في غرب إفريقيا عام 1910م وحده 33,048 مليون جنيه إسترليني[2] .

3- إرسالية السودان المتحدة: (the Sudan United Mission)

تكونت هذه الإرسالية في بريطانيا عام 1904م من طرف هارمان كارل ويلهالم كوم الألماني (1875م-1930م) و زوجته لوكي غيناس (1865م-1904م)، و قد انجذب هارمان نحو النشاط التنصيري أثناء إقامة ندوة حول نشاط المنصرين في إفريقيا لتنصير المسلمين، أقيمت في بريطانيا في مركز دراسة المسيحية خارج العالم الغربي ، التابع لجامعة أدنبرج سنة 1904م ، فقرر إنشاء جمعية تنصيرية موجهة أساسا للمسلمين ، و ساعدته زوجته في إنشائها . و حتى يضمن النجاح لمهمته اتجه إلى مصر، و درس اللغة العربية و اختلط مع المسلمين هناك للتعرف على الإسلام ، و في سنة 1913م بدأ نشاطه التنصيري في السودان، ثم وسع هذا النشاط لكل من نيجيريا و الكاميرون[3]. استقرت بعثته في شمال نيجيريا و كان من اهتماماتها : تقديم خدمات و مساعدات للأهالي ، إدارة المستشفيات و تقديم مساعدات طبية للمرضى ، إنشاء مؤسسات للتعليم المهني و مدارس جديدة للتعليم العام

إنشاء محطات تنصيرية ، و بعد نيجيريا وصل نشاطها إلى مناطق أخرى هي التشاد و الكاميرون.

4- الجمعية التنصيرية الميثودية : (the Methodist Mission)

الحركة الميثودية هي حركة دينية إصلاحية، أسسها جون ويسلي البريطاني في أكسفورد ببريطانيا سنة 1727م، و أصلها نادي مسيحي بروتستانتي يسمى "النادي السعيد "، أسسه مع مجموعة من رفقائه، يهدف إلى مقاطعة التقاليد الانجليكانية القديمة ، و أطلق عليهم منذ ذلك الوقت اسم (الميثوديين)، و بقي جون ويسلي يعمل على نشر أفكاره خاصة بعد أن أصبح أستاذا في جامعة أكسفورد ، و تمكن من كسب أعضاء في ناديه في الولايات المتحدة الأمريكية من خلال زياراته المتكررة لهذا البلد ، و ما أن حلت سنة 1791م تاريخ وفاته حتى كانت الميثودية قد انتشرت انتشارا واسعا في بريطانيا و الولايات المتحدة ، ووصل عدد أتباعها إلى 70 ألف بريطاني و 60 ألف أمريكي .

---

[1] The Church Missionary atlas (Church Missionary society) Publisher : Adam Matthew digital, 1986. pp 210-213.

[2] عبد الرزاق عبد الحميد الأرو ، م . س ، ص 77.

[3] عبد الرزاق عبد الحميد الأرو ، نفسه ، ص 78.

أما عن انتشارها في غرب إفريقيا ، فان الميثودية انتشرت بقوة في سويسرا و فرنسا مع بداية القرن 19م، و تمكن الميثوديون الفرنسيون و الانجليز من ضم العديد من الغانيين الذين تم تنصيرهم ، و هؤلاء الغانيون و معهم بعض المنصرين من سيراليون شكلوا أول تجمع ميثودي في غرب إفريقيا ابتداء من سنة 1870م. [1]

الميثوديون الأفارقة أرسلوا إلى ساحل العاج سنة 1872م ، و قد فضلت الجمعية الميثودية الاعتماد على الأفارقة في التنصير ليسهل عليهم احتكاكهم بذويهم ، و يتمكنوا من تحقيق النجاح في تحقيق الأهداف التنصيرية مقارنة بالمنصرين الأوربيين ، و قد استقرت أول دفعة في " ألونغوانو"في الجنوب الشرقي ، ثم وصلت بعثة أخرى إلى " بيليوليكرو " عام 1873م ، كما وصلت بعثة أخرى سنة 1890م و هي خليط من الغانيين (الغانتي) ، الليبيريين و السيراليونيين (نزيما) و استقرت في جنوب ساحل العاج ، في سنة 1895م وصلت بعثة أخرى من الميثوديين إلى باصام في الشرق ، ثم أخرى إلى ياكوبوى في الجنوب ، و في عام 1907م استقر ميثوديون آخرون في أبواسو بالجنوب الشرقي و بعدهم آخرون سنة 1908م بمدينة قرونلاهو في الجنوب على حواف خليج غينيا[2] .

و بذلك يظهر أن الميثوديين ركزوا كثيرا على ساحل العاج لتنصير أكبر عدد من أفرادها – ربما لموقعها الجغرافي الذي يتوسط إفريقيا الغربية، فهي محاطة بكل من غانا و بوركينافاسو شرقا ، و ليبيريا و غينيا كوناكري غربا، و مالي شمالا، و خليج غينيا جنوبا- مما يسمح لها في حالة نجاح حملات تنصيرها بمد النفوذ المسيحي البروتستانتي إلى بقية مناطق غرب إفريقيا بسهولة .

هذه الحملات رغم كثرتها ما بين 1870م و 1908م لم تحقق النجاح الكبير الذي كانت تنتظره الجمعية الميثودية، حيث لم تزد نسبة التنصير في ساحل العاج عن 07 % . و لكن ابتداء من سنة 1914م حدث تطور نسبي في حركة تنصير هذا البلد ، بعد تعيين أحد المنصرين ، المشهود له بالحماس ، على رأس الجمعية الميثودية ، انه الليبيري " ويليام وادي هاريس " الذي شرع في حملة تنصير واسعة في وسط السكان ، و تمكن فعلا من تحقيق نجاح مهم وصل من خلاله عدد المنصرين إلى حوالي 30 ألف شخصا[3] . و كانت الجمعية تستغل كل منصر من هؤلاء الأفارقة في القيام بمهمة التنصير في أوساط عائلته و أفراد مجتمعه، مما يعكس خطورة هذه الجمعيات كلها على المجتمعات الإسلامية الإفريقية .

[1] Rubin Pohor, l’église protestante méthodiste unie de cote d’Ivoire, une approche socio- historique (1870-1914) in : Revue d’études théologiques religieuses. Janvier 2009, T8.édit. Institut protestant de théologie. Faculté de théologie de Montpellier, p23
[2] Rubin Pohor, ibid. p26.
[3] David A. Shark, ‘’ Bref résumé de la pensée du prophète William Wade Harris ‘’ in revue : perspectives missionnaires n° :5, 1983, édit : L’association, perspectives missionnaires, paris. pp23-30.

5- جمعية شهود جيهوفا : (Jehovah's witnesses)

ظهرت جمعية شهود جيهوفا سنة 1870م في بيتسبورغ بالولايات المتحدة الأمريكية ، عن طريق شارل تازا روسل الذي كان يرى أن ديانة العالم كله خاطئة، مما يستوجب إعادة قراءة الكتاب المقدس الأول قراءة صحيحة و تصحيح المفاهيم الخاطئة ، و كان يروج لفكرة عودة المسيح إلى الأرض دون رؤيته ابتداء من سنة 1874م لتصحيح هذه الديانة الخاطئة ، و حتى تتضح أفكاره و تنتشر بين الناس أسس مجلته : برج المراقبة(watch Tower) سنة 1879م ، و التي دعمها سنة 1881م بشركة نشر هي مجتمع برج المراقبة (Watch Tower society)، و التي كان يدعو من خلالها إلى ترك كل الأنظمة السائدة لأنها تحت مراقبة الشيطان ، و تأسيس مملكة الله [1] ، و قد تمكن أنصار هذا الفكر من اكتساب أعضاء جدد في العديد من المناطق كبريطانيا و فرنسا، و أصبحوا يسمون (قراء الكتاب المقدس) و من أوربا انتقل تأثير هذا الاتجاه إلى إفريقيا الغربية، سواء عن طريق الفرنسيين و الانجليز الذين اعتنقوا هذا الفكر، أو عن طريق عودة بعض الأفارقة مع مطلع القرن 20 إلى إفريقيا و هم يحملون هذا المعتقد ، و استقر معظم أعضاء هذه الجمعية في ساحل العاج و نيجيريا . و نظرا لاعتبار كل ما يرمز إلى الدولة خاضعا لإرادة الشيطان فان شهود جيهوفا (أو قراء الكتاب المقدس) كانوا يرفعون شعار الحياد، و عدم التعامل مع مؤسسات الدولة بما في ذلك تأدية الخدمة العسكرية .

6-جمعية أباء الكنيسة الانجليكانية : (Anglican presbyterian)

جمعية قديمة ظهرت منذ القرن 16م بريطانيا ، و أخذت تنتشر في معظم القارات، حيث عرفت انتشارا واسعا مع مطلع القرن 18م بالخصوص في كل مقاطعات بريطانيا ، ثم انتقل أثرها إلى فرنسا ، ثم مع حلول القرن 19م عرفت انتشارا في أمريكا الشمالية و أصبح لها أتباع كثيرون في الولايات المتحدة الأمريكية و كندا .

و بخصوص غرب إفريقيا ، فإنها وصلته خلال القرن 19م من خلال نشاط المنصرين الاسكتلنديين الذين أسسوا العديد من المراكز التنصيرية، و خاصة في غانا التي كانت مقصدا للكثير من هؤلاء المنصرين .

أما في نيجيريا فكان نشاط أفراد هذه الجمعية يعتمد بالخصوص على الخدمات الصحية و التعليم و منها انتشر نفوذها إلى باقي مناطق غرب إفريقيا. و أغلب المحطات التي أسسوها في نيجيريا كانت في الجنوب الشرقي ، و الذي يعرف كثافة سكانية كبيرة ، بغية استقطاب أكبر عدد من الناس لتنصيرهم .

---

[1] Bernard Blandre, les témoins de Jéhovah, in : archives des sciences sociales de religions n° :80, 1992, pp 245-246

وفي مقدمة المناطق المستهدفة لاغوس ، و آبيا و ثم تكوين أغلب المحطات التنصيرية في نيجيريا و غانا بين 1908م و 1942م بعد انضمام العديد من السكان إلى الجمعية [1].

7-إرساليات ليون الإفريقية :

تكونت هذه المنظمة في 1856/12/08م من طرف ديماريون بريزيلاك في مدينة ليون الفرنسية، و هي تضم منصرين كاثوليك. أول منطقة اختيرت للإرسالية كانت سيراليون التي وصلتها بعثة من ست منصرين منهم المؤسس بريزيلاك في ماي 1859م ، و لكن من سوء حظهم أنهم تعرضوا لعدوى الحمى الصفراء، و مات منهم خمسة كان من بينهم المؤسس نفسه في جوان 1859م ، بعدها قرر في ليون الأسقف أوغسطين بلانك مواصلة المغامرة ، و توافد عليه الكثير من الراغبين في هذه المهمة . في عام 1861م أرسل اثنان من الرهبان إلى الداهومي (بنين حاليا) رفقة الأب فرانسيسكو بوغيرو ، و نجحوا في مهمتهم إلى حد كبير، حتى أن نشاطهم وصل إلى غاية لاغوس في نيجيريا .

وبدأت إرساليات ليون تعلم الانجليزية لبعض أفرادها لإرسالهم إلى مناطق النفوذ البريطانية ، و لجأت إلى فتح المدارس بإفريقيا لتعليم البنات ، و قد امتد نشاط هذه الإرساليات من المحيط الأطلسي إلى خليج غينيا[2] ، و تمكنت من الوصول إلى منطقة نفوذ بريطانية هي ساحل الذهب (غانا) سنة 1879م بإرسال المنصرين : أوغست مورو و أوجين مورات ، و افتتحت البعثة هناك مدرسة تنصيرية للبنات سنة 1883م، و التي أشرفت عليها أخوات من الفرع النسوي للإرساليات .

بعد ساحل الذهب وصلت إرساليات ليون إلى ليبيريا عام 1906م ، و رغم فشل منصرين من جمعيات أخرى في مهمتهم بهذا البلد منذ عام 1866 م، إلا أن أفراد إرساليات ليون كانوا أكثر حماسا لتحقيق نتائج ايجابية من سابقيهم، و قد نجحوا إلى حد ما لولا قيام الحرب العالمية الأولى سنة 1914 م، و إغلاق مراكزهم هناك إلى غاية إعادة فتحها عام 1920م بمبادرة من الأب أوجي[3] .

و هكذا يظهر من خلال هذه المحطات التي وصلتها إرساليات ليون أنها كانت أكثر الجمعيات التنصيرية نشاطا ليس فقط في غرب إفريقيا ، ولكن حتى في المناطق الأخرى من القارة ، و أصبح أفرادها ينتشرون في كل مكان، و دعمت وجودها بإنشاء المجلات التي تظهر عناصرها دوما و هم محاطون بالمراهقين في صور كبرى بصفحات هذه المجلات، و انتشرت أديرتهم و كنائسهم في معظم المدن الهامة ببلدان المنطقة .

[1] Presbyterian Church of the gold Coast 1908-1942 Missionary Research Library archives, section 1, the Burke Library archives, Columbia university libraries, union theological seminary, New York, january 2012, pp 1-3.
[2] André Picciola, op.cit. p.268.
[3] André Picciola, Ibid., p.270.

ثانيا : موقف التجانيين من قضية التنصير في شمال و غرب إفريقيا :

1- شمال إفريقيا :

تعتبر الجزائر أهم محطة ركزت عليها الحملات التنصيرية لعدة اعتبارات سبق الكلام عنها في تحليل نشاط التنصير بالمنطقة ، ثم أن كونها أول بلد يخضع للاستعمار و المدة الزمنية الطويلة التي بقيها بها ، جعلنا نخصص لها الحيز الأكبر من هذه المواقف ، خاصة إذا أخذنا في الاعتبار تصميم سلطات الاستعمار الفرنسي على استئصال الإسلام من جذوره بها، من مجتمع كل أفراده مسلمون . و إلا كيف نفسر تصريح حاكم الجزائر ، القائد العسكري روني صافاري [1] سنة 1832م بعد مرور سنتين فقط على سقوط مدينة الجزائر والذي ورد فيه :"إن آخر أيام الإسلام قد دنت ، و في خلال عشرين عاما، لن يكون للجزائر اله غير المسيح ، و نحن إذا أمكننا أن نشك في أن هذه الأرض تملكها فرنسا، فلا يمكننا أن نشك على أي حال بأنها قد ضاعت من الإسلام إلى الأبد ، أما العرب فلن يكونوا رعايا فرنسيين ، إلا إذا أصبحوا مسيحيين جميعا . "[2]

و قد تأكدت هذه السياسة بعد مرور قرن على احتلال الجزائر ، أثناء الاحتفالات المخلدة للذكرى سنة 1930 م، حيث صرح ساسة الاحتلال من جديد و في مقدمتهم بيار بورد[3] الحاكم العام للجزائر أن (المغزى الحقيقي من وراء إقامة هذه الاحتفالات ، إنما هو تشييع جنازة الإسلام في الجزائر). و لذلك كان على جميع الطرق الصوفية ، و من معهم من رجال الحركة الإصلاحية الوقوف في وجه هذه السياسة الاستعمارية ذات النزعة الصليبية و من هذه الطرق : الطريقة التجانية .

رغم ما قيل عن التجانية في الجزائر ، فان بعض الباحثين و منهم شهبي يرون أن أهميتها الاجتماعية و السياسية هي التي جعلت الاستعمار يحاول أن يستغلها لتحقيق أغراضه ، و أن زواياها كبقية الزوايا الصوفية كانت حصنا للعقيدة الإسلامية في الجزائر، فهي مراكز لتعليم الدين الإسلامي، و تحفيظ القران الكريم [4] ، و معنى ذلك أنها أغلقت الباب في وجه حملات التنصير التي كانت تستهدف الدين الإسلامي و مصدره الأساسي القرآن الكريم ، و أنها ساهمت مع بقية إخوانها في حماية المجتمع الجزائري من الذوبان في ثقافة المحتل و عقيدته . و نحن إذا أدركنا تكالب ساسة الاستعمار مع المنصرين طيلة الفترة الاستعمارية على تشديد الخناق على كل من يشمون منه رائحة الإسلام ، و بالمقابل وضع كل التسهيلات في خدمة

---

[1] روني صافاري : قائد عسكري عين حاكما للجزائر من 1831/12/06م إلى غاية 1833/04/29م خلفا للقائد السابق بيار برتوزان (1831/03/21 إلى 1831/12/06) .

[2] عبد العزيز شهبي ، الزوايا الصوفية و العزابة و الاحتلال الفرنسي في الجزائر ، دار الغرب للنشر و التوزيع ،وهران 2007 ، ص 41 .

[3] بيار بورد (1870-1943) : عين حاكما عاما على الجزائر من 20-11-1927 إلى 03-10-1930 في عهد الرئيس الفرنسي غاستون دومارق الذي حضر الاحتفالات المئوية في الجزائر ، و دعا لحضورها وفودا كثيرة من البلدان الأوربية .

[4] عبد العزيز شهبي ، م.س . ص 139 .

المنصرين ، أدركنا الظروف الصعبة التي كان على التجانيين أو غيرهم العمل فيها للإبقاء على الجزائر عربية مسلمة . فهذا دوقايدون مثلا كسابقيه من المتشددين إزاء الإسلام يقول بافتخار : " لقد أمضيت حياتي في حماية البعثات الكاثوليكية في كل بحار العالم ، و لن أرضى بأن أراها مقهورة فوق هذه الأرض الفرنسية .. لقد آن الأوان لإشراك هذا الشعب المهزوم في تقبل الحضارة المسيحية. " [1] و أمام هذه الظروف -حتى بعض المؤرخين الفرنسيين – رغم وصفها بالموالية لفرنسا ، يقرون بأنها طريقة صوفية قوية [2] ، و ربما يشيرون في ذلك إلى قوتها الدينية التي جعلتها تنتشر في معظم قارات العالم، مع فصل الجانب السياسي و قضية المهادنة في الجزائر عن الجانب الديني و دفاعها عن الإسلام ، تلك المهادنة التي يربطها التجانيون بمسألة القضاء و القدر الذي جعل الفرنسيين يسيطرون على الجزائر، و ضرورة تقبل ذلك إلى أن يشاء الله خروجهم .

و بالتالي فمسألة الذود عن الإسلام و عروبة الجزائر ، تبقى بالنسبة للطريقة مسألة أساسية لا يمكن ربطها ببعض المواقف السياسية التي يراها التجانيون وليدة ظروف العصر ، و أنه سيأتي اليوم الذي يغادر فيه الفرنسيون أرض الجزائر كما دخلوها ، و أن تلك الظروف من مشيئة الله ، و ذلك ما سنتكلم عنه لاحقا في موقف الطريقة من مسألة المقاومة المسلحة للاستعمار ، و رفضها مساندة الأمير عبد القادر في كفاحه ، و أسباب هذا الرفض ، محللين وجهة نظر التجانيين من هذه المسألة.

ففي مسألة الحفاظ على الشخصية الإسلامية للجزائر ، و جهود مقاومة التنصير بالزوايا التجانية قامت بدور اجتماعي و تربوي هام ، فما قامت به من أعمال البر و الاحسان و التربية و التعليم أغلق الأبواب في مناطق تواجدها أمام المنصرين، الذين كانوا يريدون استغلال أية فرصة تتاح لهم لجذب السكان و تطبيق مشاريعهم التنصيرية ، فالتجانية كانت تغدق بمساعداتها على الفقراء و تأوي المشردين ، و تعلم أبناءهم و تنقذهم من الارتماء في أحضان المنصرين .

لقد رأينا في هذا المجال أخذ نموذج عن دور التجانية في الحفاظ على الشخصية العربية الإسلامية من خلال شيخ لطالما ميزته السلطات الاستعمارية كغيره من الشيوخ الذين سبقوه ، بالولاء التام ، و أكدت يقينها في إمكانية مساعدة التجانيين لفرنسا في مد نفوذها إلى تونس ، لما بدأت تخطط لهذا الاحتلال ، حيث ورد عن أرنولد قرين أن الطريقة الوحيدة التي تضمن لفرنسا تحقيق أهدافها، و الوقوف في وجه باقي الطرق الصوفية هي التجانية التي تملك نفوذا واسعا في شمال إفريقيا بما في ذلك تونس ، و التجانية التي قضت –كما قال – على نفوذ الأمير عبد القادر و تعاونت مع الفرنسيين بما في ذلك زاوية تماسين ، يمكنها تقديم الدعم لنا

[1] محمد دراجي ، الإسلام في الجزائر في عهد الاستعمار ،الجزائر، مؤسسة عالم الأفكار للنشر و التوزيع ،2007 ، ص 554 .
[2] شارل روبير أجرون ، الجزائريون المسلمون و فرنسا 1871-1919م ،الجزائر، دار الرائد للكتاب ، 2007 ، ص 550 .

في تونس . [1]

نفس الوصف أكده أوكتاف ديبون و غزافيي كوبولاني في كتابهما الطرق الدينية الإسلامية ، لما أشارا إلى وفاة محمد الصغير التجاني و انتقال الخلافة إلى محمد العيد لكون ابني محمد الصغير صغيرين لم يبلغا بعد ، و كيف اتبع محمد العيد نفس النهج الذي كان عليه سابقوه، و كيف سهل المهمة للجنرال"ديفو" سنة 1854م للسيطرة على سوف، و كيف أهدى سبحته و شهادة مريد" لديفيرييه" [2] و كأن الكتاب الغربيين سواء عسكريين فرنسيين أو مؤرخين آخرين استقوا معلوماتهم من مصدر واحد ، و الأكيد أن الهدف واحد. بقي لنا ما أخذناه عن محمد العيد من كتابات لويس رين في مؤلفه (مرابطون و إخوان) أنه لما وصل إلى رئاسة

الطريقة التجانية ، بعد وفاة محمد الصغير سنة 1853م ، اتبع نفس النهج في تأييد الاستعمار.[3]

و يبقى لنا مقارنة ما ورد سابقا عن هؤلاء الغربيين و رواد المدرسة الاستعمارية بما كتبه جزائري من رواد حركة الإصلاح التي كانت من أشد المناهضين للفكر الطرقي ، و هي جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، انه الشيخ السعيد الزاهري .

فالزاهري أشاد في البداية بالشيخ أحمد التجاني قبل الكلام عن الشيخ محمد العيد ، ففي مقال له بمجلة الصراط السوي اعتبر الشيخ التجاني مجددا و مصلحا و يعتقد أنه تأثر بالفكر الوهابي ، بل و يذهب إلى أكثر من ذلك حين يتكلم عن مكاتبته ابن سعود ليتفق معه على نشر الكتاب و السنة في المغرب العربي، و اعتبره من رواد الإصلاح في الجزائر.[4]

و في مقال آخر بمجلة الشهاب ، أشاد الزاهري بمحمد العيد ، و بالدور الذي قام به في زاوية تماسين في سبيل الحفاظ على الشخصية الوطنية للجزائر و العقيدة الإسلامية أمام محاولات الفرنسة و التمسيح ، و أكد في مقاله أن الشيخ محمد العيد بأعماله الإصلاحية هذه، ووقوفه في وجه كل حملات التشويه التي أراد الاستعمار إلحاقها بالديانة الإسلامية ، قد نال رضى التجانيين ، و سائر الطرق الأخرى ، و رضى سائر رجال الإصلاح المعتدلين و المتطرفين . و قد أشار الزاهري إلى أن محمد العيد بدأ الإصلاح من زاويته، بتنظيم أمور الزاوية و توعية مريديه بما يدبر للجزائريين و عقيدتهم. و طالب بضرورة تمسك الناس بالكتاب و السنة لأنهما الحصن المنيع ضد كل ما يسيء إلى الإسلام. و أورد عدة شواهد عن صلاح محمد العيد و

[1] Arnold .H.GREEN, The Tunisian ulama 1873-1915 social structure and response to ideological currents, E.J _ Brill, Leiden, Hungary 1978. P 136 .

[2] Octave Depont, Xavier Coppolani, les confréries Religieuses musulmanes, Adolphe Jourdan, Alger,1897, p425.

[3] Louis Rinn, marabouts et khouan, étude sur l'Islam en Algérie, A.Jourdan, Alger, 1884, p428.

[4] محمد السعيد الزاهري ، هل كان الشيخ التجاني وهابيا ؟ حقائق من التاريخ لا يعلمهن كثير من الناس ، مجلة الصراط ،العدد 07 ، السنة الأولى ، 30-10-1933 ، ص 4 .

نضاله و شخصيته القوية عكس ما روج له الاستعمار و أعوانه .[1]

2- غرب إفريقيا :

في غرب إفريقيا ، تبدو الأمور مختلفة نوعا ما فيما يتعلق بمواقف الطريقة التجانية من قضية التنصير ، ففي مرحلتها الأولى ، اتسمت بالعنف ، و محاولة التصدي لكل ما يمس بالإسلام بالقوة التي ترجمها جهاد الحاج عمر الفوتي السنغالي ، و تمكن من إقامة دولة إسلامية تجانية كادت تتحول إلى إمبراطورية إسلامية في غرب إفريقيا بشهادة ساسة الاستعمار أنفسهم ، لولا الظروف الصعبة التي كان وراءها الاستعمار بالدرجة الأولى ، ثم جاءت مرحلة المهادنة بعد وفاة الحاج عمر سنة 1864م ، و التي برز فيها علماء وقفوا في وجه السياسة الاستعمارية الهادفة إلى إفراغ مسلمي غرب إفريقيا من هويتهم الإفريقية الإسلامية بالتعاون مع الجمعيات التنصيرية المختلفة .

2-1 : مرحلة جهاد الحاج عمر الفوتي :

هي مرحلة ارتبط فيها الجهاد المسلح ضد الوثنية و الاستعمار بالنهج الإصلاحي، الرامي إلى تحصين المسلمين من محاولات التنصير التي شجعها الاستعمار بنفس القوة التي شجعها بها في شمال إفريقيا ، هذا الاستعمار الذي كان يرى في الإسلام الخطر الوحيد الذي يجب إزالته بكل السبل ، و هاهو الضابط " ماج " يعبر عن ذلك بوضوح في قوله : " إن جل آلام إفريقيا متأتية من الدين الإسلامي ، إن علينا أن لا نشجع أبدا ، لا في مستعمراتنا الحالية ، و لا في تلك التي سنؤسسها لاحقا هذا الدين ، حتى و لو لبس المظاهر الأكثر جاذبية كما يحدث أحيانا في السنغال "" [2] و من هنا كان على الحاج عمر الفوتي الدفاع عن الإسلام، و التصدي لهذه المحاولات الاستعمارية مستعملا أسلوب الكفاح المسلح و معه أسلوب التوعية و الإصلاح ، خاصة و أنه رأى المسلمين في حد ذاتهم يطبقون إسلاما تشوبه الكثير من البدع و العادات الوثنية الموروثة عن الماضي ، و هو ما يسهل على الاستعمار و حليفه التنصير التأثير على هؤلاء المسلمين و إبعادهم عن دينهم .

و لذلك كان هدف الحاج عمر تنقية الإسلام في السودان الغربي ، و قام ببناء العشرات من المساجد و المدارس القرآنية في كل أرجاء المنطقة التي امتدت إليها حركته.[3] و يشير" لوثروب" بدوره إلى أن نفوذ التجانية – بفضل هذه المدارس و المساجد و الزوايا- أوقف المد المسيحي، و عجزت المسيحية على تحقيق نتائج مشجعة في غرب إفريقيا ، و أصبحت الكثير من المدن مراكز هامة للدعوة الإسلامية على غرار : باماكو ، بافولاب ، سيغو ، جني ، و

---

[1] محمد السعيد الزاهري، المرحوم الشيخ محمد العيد، مجلة الشهاب، العدد 124، السنة 1927م، ص ص 6-9.

[2] محمد بن محمدن ، المجتمع البيضاني في القرن التاسع عشر ، منشورات معهد الدراسات الإفريقية ، الرباط 2001 ، ص 301 .

[3] علي محمد عبد اللطيف ، إفريقيا العربية ، نشر جمعية الدعوة الإسلامية العالمية ، بنغازي ، ليبيا 1998م ، ص 158 .

تومبوكتو . [1]

و كان الحاج عمر صارما في حركته الإصلاحية ، لا يرضى برؤية عادات دخيلة على العقيدة الإسلامية ، يدعو دوما إلى مبادئ الإسلام الصحيحة ، و إلى الأمور الدنيوية بما يتماشى و الشريعة الإسلامية ، و ذلك ما كان له صدى ايجابي في نفوس الأفارقة ، أثار اندهاش لويس فيدارب [2] ، مما دفعه إلى تكليف "" أبي المقداد ""، واحد من الذين كانوا في خدمة المحتل ، بكتابة تقرير مفصل حول الحاج عمر ، و أسباب التفاف الناس حوله ، و ذكر في تقريره أن السبب يكمن في أدائه فريضة الحج و تقديس هذه الفريضة من قبل المسلمين ، و حفظه القرآن الكريم ، و إتقانه اللغة العربية [3]. و من هنا كان على فيدارب أن يأخذ في الحسبان هذه الركائز الأساسية لدى المسلمين الأفارقة، و يضع الخطط التي يراها مناسبة لاستئصالها .

2-2 : مرحلة الدعوة :

بعد استعراض نتائج الجهاد و انعكاساته على المسلمين في غرب إفريقيا، و تعرض الوجود الإسلامي للخطر أمام الطغيان الاستعماري من جهة، و تكالب البعثات التنصيرية على شعوب المنطقة لإبعادها عن عقيدتها و نشر الديانة المسيحية من جهة أخرى ، و في ظل انعدام تكافؤ القوى بين المسلمين و القوات الاستعمارية، كان على الطريقة التجانية تكييف نفسها مع الظروف الجديدة بانتهاج خطة تضمن صد خطر التنصير و تحصين السكان ضد مخططات الاستعمار ، و هي حركة الدعوة الإسلامية التي امتدت من القرن 19 م إلى القرن 20م بزعامة أقطاب التجانية : عبد الله نياس و ابنه إبراهيم نياس ، مالك سي ، و حماه الله .

هؤلاء الشيوخ التجانيون قاموا بجهود كبرى لتعزيز الوجود الإسلامي و مقاومة التنصير بإقامتهم دور حفظ القرآن، و بناء المساجد و الزوايا، و الدعوة لاعتناق الإسلام في أوساط غير المسلمين، و تنقية الإسلام من الشوائب، و توعية المجتمعات الإفريقية في الغرب الإفريقي من خطورة المنصرين ، و أصبحت حركة الدعوة قوية جدا بزعامة هؤلاء الشيوخ ، حتى أن الاستعمار لما تأكد من خطورة العمل الدعوي ، تصدى للدعاة بنفي بعضهم، ووضع البعض الأخر تحت الإقامة الجبرية ، و مضايقة الآخرين ، و لكن هذه الإجراءات كلها لم تثن من عزيمة شيوخ التجانية في أداء مهمتهم الدعوية، مما حمل الاستعمار في بعض الأحيان إلى مهادنتهم أملا في احتواء المد الإسلامي و استمالة أولئك الشيوخ . و قد رأينا ، تعميما للفائدة و توضيحا لدورهم في سبيل الحفاظ على أصالة شعوب غرب إفريقيا و هويتها الإسلامية ، أن

---

[1] ستودارد لوثروب ، حاضر العالم الإسلامي ، ترجمة عجاج نويهض ، ج2/1 ، دار الفكر ، ط3 ، 1971م ، ص 319 .

[2] لويس فيدارب:لويس ليون سيزار فيدارب : ولد في 1818/6/3 بمدينة ليل الفرنسية ، عسكري فرنسي ،عين في السنغال كحاكم عام في فترتين (1854-1861) و (1863-1865) ، قاد جيش الشمال في الحرب البروسية الفرنسية 1870-1871.سبق له أن شارك في حملات التوسع

الاستعماري– – بالجزائر من 1842 إلى 1847 كضابط ثم نقل إلى قوادلوب في 1848 ثم عاد إلى الجزائر في 1849 كنقيب و في 1854/12/16 عين حاكما عاما على الجزائر. ينظر : Klein martin. A, islam and imperialism in Senegal-sine Saloum 1847-1914, Edinburg university press 1968 pp 55-59.

[3] أحمد بوعتروس ، الحركات الإصلاحية في إفريقيا جنوب الصحراء إبان القرن 13 ه/19م ،الجزائر، دار الهدى للطباعة و النشر و التوزيع ، 2009 ص 321 .

نفرد الكلام عن كل منهم ، مع التوقف عند ظاهرة (الولاء) التي أثيرت في عدة كتابات عن بعض هؤلاء الشيوخ ، محاولين المساهمة كغيرنا في التحري عن حقيقة الظاهرة .

2-2-1 : الشيخ عبد الله نياس و نشاطه الدعوي :

عبد الله نياس : هو عبد الله بن محمد بن مدمب بن بكر بن محمد الأمين بن ساتيورو بن صمب بن الرضى ، و كثير من النسابين رفعوا نسب الرضى إلى عقبة بن نافع الفهري ، و هو عربي قدم إلى بلاد السودان و تزوج امرأة من ملوك كجور يقال لها " جيل نياس "[1] و هو الاسم الذي صار لقب أسرته . و عبد الله نياس من مواليد مدينة "نياسين" بناحية بلغي في جلف ، لما شب غادر بلغي إلى " سالوم " بطلب من الإمام " ما به جخ به "، و أعلن الجهاد في البداية كي يوحد السنغال تحت راية الإسلام.[2]

و كان الحاج عبد الله من كبار العلماء ، و أمام تكالب المنصرين على السنغال ، اهتم بالتربية أكثر من اهتمامه بالتأليف بعد رجوعه إلى نياسين ، و هناك التف عدد كبير من التلاميذ حوله مما جلب أنظار الفرنسيين و شرعوا في مراقبته ، و قد أقر " مارتي " الضابط الفرنسي أن عبد الله كان أكثر التجانيين عددا من المريدين خارج فوتا .[3]

و أمام نشاطه الدعوي المستمر ووقوفه في وجه حملات التنصير ، اتهمته فرنسا بالتحريض ضدها سنة 1901م و نفته إلى غامبيا إلى غاية 1910م أين سمح له بالعودة إلى كولخ ، و كان من أكبر الرافضين للمدارس التنصيرية و المحرض على الابتعاد عنها و عن المدارس الفرنسية ، و كان قدوة لغيره بعدم إدخال أبنائه هذه المدارس .[4]

2-2-2 : الشيخ إبراهيم نياس و جهوده ضد التنصير :

أ – حياته و مكانته العلمية :

سمي " شيخ الإسلام " و كان من أكبر الدعاة التجانيين السنغاليين ، و أكثرهم أثرا ، أخذ الطريقة التجانية عن والده و الذي أخذها بدوره عن عدة خلفاء منهم : محمد البشير شيخ زاوية عين ماضي (ت. 1329 ﻫ/1911م)، ابن محمد الحبيب بن الشيخ أحمد التجاني .[5]

ولد الشيخ إبراهيم نياس في طيبة [6] نياسين سنة 1900 م بإقليم سين سالوم ، و نشأ في بيت علم و دين ، آباؤه و أجداده كلهم من حفظة القرآن الكريم و مفسريه ، و من أسرة مجاهدة و

---

1 الحاج محمد نياس ، خاتمة الدر على عقود الجوهر في مدح سيد البشر ، طبع مؤسسة الفجر ، دكار ، السنغال 1996م، ص 111.
2 عامر صمب ، الأدب السنغالي العربي ،الجزائر، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ،1978، ص 5 .
3 Paul Marty, étude sur l'islam au Sénégal, édit, Ernest Leroux, paris 1917, p 136.
4عيسى صغير حسن ، الشيخ إبراهيم نياس و منهجه في التصوف و الدعوة إلى الله ، مذكرة ماجستير ، شعبة القرآن الكريم و علومه ، كلية الدعوة الإسلامية –ليبيا 2004/2003 م . ص 19 .
5 عبد الباقي مفتاح ، أضواء على الشيخ أحمد التجاني و أتباعه ، بيروت، دار الكتب العلمية ، 2009 ، ص 249 .
6 طيبة : كان اسمها : ته به باللغة الولوفية ، و معناها : (من سئم ترك) و غير الشيخ اسمها إلى (طيبة) تيمنا بطيبة رسول الله صلى الله عليه و سلم . ينظر: عيسى صغير حسن، م . س ، ص 8 .

معروفة بنشر العلم و محاربة الجهل، و بالتالي فالشيخ إبراهيم شب في وسط علمي و ديني ،

قرأ القرآن و حفظه عن والده قبل العاشرة من عمره ، و كان نجيبا منذ صغره ، تلقى بقية العلوم عن والده أيضا .[1]

بعد وفاة والده سنة 1922م خلفه في الإفتاء و التعليم، و عمره لم يكن يتجاوز 22 عاما، و رغم صغر سنه تميز بسعة علمه و قوة ذاكرته، و جودة حفظه، مما جعل عددا كبيرا من الطلبة يتوافدون على حلقات دروسه. كان الشيخ إبراهيم نياس يفسر القرآن الكريم باللغة المحلية و اللغة العربية ، و حصل على إجازات علمية من عدة علماء منهم : الشيخ أحمد سكيرج ، و الشيخ محمد عبد الحي بن أبي المكارم عبد الكبير الحسيني الحسن الإدريسي الكتاني، و من عالم الأزهر الشيخ عبد الله بن الطيب الشافعي . [2] و هذه الإجازات تثبت ثقافته الواسعة و تعمقه في الدين، مما جعله يأخذ عن جدارة لقب شيخ الإسلام .

ب- جهود الشيخ إبراهيم نياس في مقاومة التنصير :

كان الشيخ إبراهيم من أكثر الناس تمسكا بالقرآن و السنة ، و يدعو دوما إلى الرجوع إليهما ، فقد كان يرى في القرآن دستور كل زمان و مكان ، و كان يحذر من الاستعمار , وعيا منه بخطورته على الأمة الإسلامية قاطبة رغم تظاهره بحمل الحضارة و المدنية إلى الشعوب المستعمرة ، و يؤكد دوما أن هذا الاستعمار إنما يسعى إلى تجهيل المسلمين و إبعادهم عن دينهم . كان الشيخ يرى في الطريقة التجانية حصنا منيعا في غرب إفريقيا أمام كل الأخطار الناجمة عن هذا الاستعمار ، و سعى بكل قوة لتوسيع نفوذها بشكل لا يوحي بمعارضته للإدارة الاستعمارية ، حيث كان يزور القنصليات الفرنسية كلما عزم على السفر خارج السنغال للتظاهر بالوفاء لها ، حتى لا تقدم على إيذائه و شل جهوده ، و هذا الأسلوب مكنه من زيادة عدد أتباعه ، ليس فقط في السنغال ، و لكن في كل مناطق غرب إفريقيا [3] . و لعل هذا الأسلوب (الذكي) الذي اتبعه الشيخ إبراهيم نياس اتجاه الإدارة الاستعمارية، هو الذي جعل الكتابات الفرنسية [4] بالخصوص تروج لفكرة تحالفه مع الاستعمار رفقة الحاج مالك سي و غيرهما من الدعاة البارزين ، حتى تنتشر في أوساط المسلمين الأفارقة روح الخضوع و الولاء.

---

[1]-عيسى صغير حسن ، نفسه ، ص 9 .

2- عيسى صغير حسن ،م س ، ص 10 .

[3]- عيسى صغير حسن ، نفسه ، ص 57 .

[4] المجلات الفرنسية نظمت حملة تشويه لسمعة هؤلاء الدعاة و اعتبرتهم موالين للإدارة الفرنسية و منها على الخصوص: مجلة العالم الإسلامي الاستعمارية: ينظر كمثال: العدد الخاص من هذه المجلة Revue du monde musulman numéro spécial 1915

ص 132: حول الشيخ إبراهيم نياس .

ص 149: حول الشيخ مالك سي .

أما المنصرون ، و أمام تظاهره بالتعاون و التفاهم مع السلطات الاستعمارية ، فقد اعتقدوا إمكانية التأثير عليه و دفعه إلى غض النظر عن وسائلهم التنصيرية ، و كانوا في كل مرة يقدمون له بعض الحاجيات و النفقات باسم صدقات الكنيسة لتوزيعها على أتباعه ، و لكنه كان يردها لهم إدراكا لكيدهم[1] ، و تمثلت جهوده في مقاومة التنصير في المظاهر التالية :

1- الرد على المنصرين نثرا : حيث ألف كتيبات يرد من خلالها على ما كان ينشره الأساقفة حول الإسلام في السنغال كالادعاء بأن الإسلام سبب تخلف إفريقيا ، و أن العرب استعبدوا الأفارقة ...

2- انتقاد الحكومة الاستعمارية لدعمها المدارس التنصيرية و ترك المدارس الإسلامية و المساجد.

3- الرد نظما : و ذلك بكتابة أبيات شعرية ردا على ادعاءات المنصرين بأن السنغال ستصبح في القريب العاجل مسيحية ، و قد اخترنا منها هذه الأبيات الدالة على دفاعه على الطابع الإسلامي

للسنغال حيث قال: [2]

- فَالسِّنِغَالُ يَأْوِي تَحْتَ ظِلِّ مُحَمّدٍ وَ يَعْبُدُ رَبّا جَلَّ شَأْناً مُوَحَّدَا
- رُوَيْدَكُمْ أَهْلَ الْكَنِيْسَةِ لَنْ تَرَوْا مَدَى الدّهْرِ أنّا قَدْ تَرَكْنَا مُحَمَّدَا

4- الإرشاد و التوجيه : بفعل دعوته و قدرته على الإقناع لسعة ثقافته ، و حرصه على خدمة أمته الإسلامية و توسيع نشر عقيدتها، وتفانيه في إرشاد غير معتنقي الإسلام بما في ذلك المسيحيين ، تمكن الشيخ إبراهيم نياس من التأثير على الكثير من الناس ، و دفعهم إلى الدخول في الإسلام ، و كان لنشاطه التوجيهي وقع كبير على الشعوب الإفريقية .

5- الدعوة إلى تعمير الأوقات بذكر الله ، و كان يطالب الناس بالالتفاف حول الطريقة التجانية مؤكدا أن أساس هذه الطريقة هو ذكر الله، و ملازمة الاستغفار، و الصلاة على النبي صلى الله عليه و سلم و الكلمة المشرفة (لا اله إلا الله) و قراءة القرآن ، و كان يعتبر الذكر السلاح الأقوى للحصانة ضد محاولات التنصير . [3]

6- اهتمامه بالمجتمع وعيا منه بأن هذا الأخير إذا صلح و استقام، و طور إمكانياته المادية، و اعتمد على نفسه في كل مجال ، قد أغلق الباب في وجه المنصرين بالدرجة الأولى و معهم الاستعمار ، و هذا الاهتمام ترجمه في الكثير من الأعمال منها :

---

[1]- عيسى صغير حسن ، م .س ، ص 218 .
[2]- إبراهيم نيام، 25 عاما على رحيل الشيخ، القاهرة-مصر، مطبعة النهار للطبع و النشر و التوزيع، ط1، 2002، ص66.
[3]- عيسى صغير حسن ، م.س ، ص 68 .

- دعوته لحب العمل و الاعتماد على النفس في كسب القوت ، و نهى عن التسول ، و اعتبره مهنة دنيئة و كان يضرب المثال على تقديسه للعمل باشتغاله هو شخصيا في مزارعه التي تبلغ مساحتها 400 هكتارا ، كان يزرع فيها الفول السوداني ، و كان شعاره : "" خير الناس من ينفع الناس ""[1].

- تشجيع الزواج بعد البلوغ ، و الدعوة المستمرة لتيسير المهور ، و كان يرفض دائما حضور عقد زواج فيه شروط تعجيزية ، لأنه كان يرى أن الاستعمار و المنصرين ، إنما يريدون استغلال الشباب في الرذيلة للتأثير عليهم و إخضاعهم ، لأن الانحراف يبعدهم عن دينهم و يجعلهم فريسة لهؤلاء المنصرين .

- عنايته بالمرأة: فقد كان يهتم بتعليم البنات اهتماما كبيرا ، بدءا ببناته اللواتي حفظن القرآن الكريم في سن مبكرة ، و درسن مبادئ الدين الإسلامي و اللغة العربية . و إذا كان الشيخ إبراهيم حريصا على الاهتمام بالمرأة فذلك وعيا منه بأهميتها في المجتمع، فهي أساس الأسرة و من الأسرة يبنى المجتمع ، فقوة المرأة في دينها و في تربيتها الإسلامية الصحيحة ، لذلك سوى الشيخ بين البنات و البنين في طلب العلم ، و كان يحث المرأة دوما على ضرورة الوصول إلى مراتب عليا في العلم[2] ، و حقق في هذا المجال نتائج أبهرت الجميع حيث تبحرت الكثير من النساء في شتى العلوم الدينية ، و برزت في الحقل الدعوي ، و على رأسهن :[3]

-السيدة أم الخير ابنة الشيخ إبراهيم نياس : أصبحت داعية كبيرة و أسست مدارس في النيجر ووقفت بكل حزم في وجه حملات التنصير.

-السيدة مريم ابنة الشيخ إبراهيم نياس أيضا : كانت تعلم أبناء المسلمين في بيتها بداكار.

-السيدة رقية ابنته الثالثة: أسست مدرسة للتعليم، و اهتمت بالتأليف، من مؤلفاتها:

- تنبيه البنت المسلمة في الدين و الحياة .

- حظ المرأة في الإسلام .

- حرصه على تكوين الفرد الصالح، لأن الصلاح و الاستقامة حاجز منيع أمام كل محاولات اختراق المجتمع المسلم و النيل منه، و لذلك ركز في دعوته على : تقوى الله ، التحذير من

---

[1]- عيسى صغير حسن ، م س ، ص 42 .

[2]-Jean Louis Triaud, l'Afrique occidentale et centrale in : Les voies d'Allah, les ordres mystiques dans le monde musulman, des origines à aujourd'hui, librairie Arthème Fayard, France. 1996 p 424.

[3] - عيسى صغير حسن ، م . س ، ص 161 .

المعاصي ، الأمر بالتوبة و مراقبة الذات خوفا من الله ، الأمر بالصدق ، الأمر بالصبر و التآخي.. [1]

- الإصلاح بين الناس : فقد كان شديد الاهتمام بالإصلاح بين الأفراد و الجماعات ، حتى أنه كان يطلب من المريدين الجدد التعهد بالإصلاح عند أخذهم ورد الطريقة التجانية ، و هو يدرك جيدا أن الاستعمار يراقب باستمرار مثل هذه الخلافات الموجودة بين المسلمين ، و يعمل على تغذيتها إضعافا لهم و تحقيقا لسيادته على الجميع .

- مساعدة الضعفاء : الكنيسة تغتنم دوما فرصة الفقر و العوز للتغلغل في أوساط الضعفاء و جلبهم إلى أحضان المسيحية ، و لذلك و إنقاذا لهؤلاء الفقراء ، كان الشيخ إبراهيم نياس سباقا إلى الإنفاق في سبيل الله ، و مساعدة المحتاجين بشتى الضروريات كالألبسة و الأفرشة و الحبوب و المواشي في أوقات عيد الأضحى ، و الأموال ، و مساعدة الناس في بناء مساكنهم ، و توزيع التمور ، و إيواء طلبة العلم و رعايتهم ، و مساعدة الراغبين في الزواج ، و قد سبق لنا الكلام عن تشجيعه للزواج قصد التعفف و الابتعاد عن الرذيلة ، كما كان يقدم مساعدات للفقراء الراغبين في الحج أو

العمرة. و قد عرف الشيخ إبراهيم بكثرة أعماله الخيرية هذه من ماله الخاص، الذي يحصل عليه من عمله و استثماراته في مزارعه التي أشرنا إليها سابقا .[2]

و هكذا كان لهذه الجهود أثرها الهام في التصدي لمحاولات التنصير ، حتى أن المنصرين حاولوا- أمام قوة تأثيره - التشويه عليه ببناء كنيسة في كولخ ، و إغراء أصحابه بالمال ، و لكنهم فشلوا فشلا ذريعا ، و اضطروا إلى ترك الكنيسة فارغة و مغادرتها ، كما بنوا كنائس كثيرة في أنحاء متفرقة من السنغال ، و لم يزرها أحد بفضل مواقف الشيخ إبراهيم الصارمة من حركة التنصير.[3]

و أمام هذا الفشل الذريع للنشاط التنصيري من جهة ، و الانتشار الكبير للتجانية في عهد الشيخ إبراهيم من جهة ثانية ، و ما يرتبط بها في ذلك من تمسك بالعقيدة الإسلامية ، طلبت فرنسا التعاون مع بريطانيا لمراقبة نشاطاته في غرب إفريقيا، بعد ملاحظتهم تأثيراته الكبيرة حتى في نيجيريا و غانا و غامبيا . و أكد الفرنسيون في تقاريرهم أن سرية حركته في تنظيم الطريقة التجانية تتطلب المراقبة من الفرنسيين و البريطانيين .

ورغم هذه المراقبة ، لم تتمكن الإدارة الاستعمارية من إيقاف نشاطه الدعوي لأنه كان

يتعامل معها بحكمة ، و بقي الشيخ وفيا لمبادئه، نشيطا في نضاله ، لا ييأس و لا يكل إلى أن

[1] عيسى صغير حسن، م س ، ص 45 .
[2]- عيسى صغير حسن ، نفسه ، ص 116 .
[3] - نفسه ، ص 224 .

توفي سنة 1975م.

3-2-2 : الشيخ مالك سي و جهوده في مقاومة التنصير :

أ- حياته و مكانته العلمية :

هو مالك بن عثمان بن معاذ سي التكروري ، ولد يتيما سنة 1855م في قرية غايا بمنطقة داغتا بالسنغال، عاش في السنغال، زار البقاع المقدسة و أدى فريضة الحج ، ورث عن أبيه مكتبة عامرة بالكتب ، وجهت نشأته و سددت مسيرته العلمية [1] ، حفظ القرآن الكريم على يد شيوخ قريته ، و منهم سمية مالك و عمه أحمد و خاله ألفامير ، ثم انتقل إلى كاجور و تعلم مختصر خليل في علم الأصول على يد مغاي أوا ، و تنقل في مدن أخرى من السنغال لدراسة علوم النحو و الأدب و علوم الحضارة الإسلامية ، عمل معلما ، و أسس المدرسة الأدبية الإسلامية في تيواوين ، و عمل بالدعوة الإسلامية ، انتسب للطريقة التجانية و أسس الزاوية التجانية بتيواوين.[2] هذه الزاوية التي اتخذها منذ سنة 1902م مركزا للدعوة الإسلامية ، و كون فيها المئات من المعلمين و الدعاة ، و ترك بصماته بثقافته الواسعة ، و تحول في فترة قصيرة من نضاله إلى رمز من رموز الإسلام في غرب إفريقيا.

ب- جهوده في مقاومة التنصير :

بنيت إستراتيجية الشيخ مالك سي في مقاومة الاستعمار و التصدي لمخططات التنصير على تجنب الصدام مع السلطات الاستعمارية حتى يعمل في هدوء ، و يتمكن من تحقيق أهدافه في الحفاظ على أصالة المجتمعات الإفريقية الإسلامية ، و إدراكا منه لخطورة التنصير ، تفرغ منذ سنة 1870م للتربية ، باعتبارها وسيلة هامة لتحصين المسلم ضد محاولات الدمج و التمسيح ، و ذاع صيته في سان لويس ، و سعى إلى توسيع نفوذ التجانية ، بكسب مريدين جدد ، و حصل بفضل سعة ثقافته الدينية على عدة إجازات وصلت إلى عشرة ، و كان على اتصال مستمر بزاوية عين ماضي في الجزائر ، و زاوية فاس بالمغرب ، و كان يسافر باستمرار بين داكار ، روفيسك ، سان لويس ، و غامبيا ، في إطار نشاطه الدعوي.[3]

تخوفه من مكائد الاستعمار ، دفعه - بنفس النهج الذي اتبعه إبراهيم نياس - إلى التظاهر بالتعاون مع الإدارة الاستعمارية ، سعيا منه أيضا لتغيير نظرة الإدارة الاستعمارية للطريقة التجانية ، حيث كانت تعتبرها أكبر عدو لها منذ جهاد الحاج عمر التل ، و معنى ذلك أنه كان يريد من تعاونه مع الاستعمار تحقيق تصالح بين هذا الأخير و طريقته التجانية ، حتى تترك له المجال لتحقيق ما عجز عنه الحاج عمر بالسلاح ، و هو ترقية الطريقة التجانية من جهة ،

---

[1] - عيسى صغير حسن ،م س ، ص 59 .

[2] - معجم البابطين لشعراء العربية في القرنين 19 و 20 ، مؤسسة عبد العزيز سعود البابطين ، الكويت .

[3] Adriana Piga, les voies du soufisme au sud du Sahara, parcours historiques et anthropologiques, édition Karthala –paris, p 179.

وتوسيع نفوذ الإسلام في غرب إفريقيا سلميا ، و عن طريق القلم و الدعوة . و لذلك فهذا التقارب بين الطرفين، و الذي ترجمته عدة رسائل ولاء من الشيخ مالك سي للإدارة الاستعمارية هو ما أعتبر تحالفا و خضوعا لهذه الإدارة ، كما سبق أن بينا في كتابات الفرنسيين، و من والاهم في مجلاتهم و جرائدهم و مؤلفاتهم و أعطينا مثالا عن ذلك مجلة العالم الإسلامي . الشيخ مالك سي أظهر تعاونه مع الاستعمار بالخصوص منذ سنة 1910م- ربما في نظرنا - لكون الاستعمار الفرنسي قد تفرغ من قمع الثورات و إخضاع شعوب غرب إفريقيا، و جمعها في فيدرالية إفريقيا الغربية الفرنسية منذ سنة 1895م ، و بالتالي اشتدت رقابته على الحركات الإسلامية التي كان يرى فيها خطرا على نفوذه ، فحاول الشيخ التقرب منه لكسب ثقته و الإفلات من هذه الرقابة . وحتى يظهر للفرنسيين نواياه الحسنة تجاههم ، بعث برسالة في 29 أوت 1912م إلى كل أتباعه ، و إلى كل المسلمين في السنغال يحث فيها على ضرورة الولاء للسلطات الاستعمارية ، مبينا فيها أن إرادة الله هي التي سمحت للفرنسيين باحتلال السنغال لحماية سكانه ، و هي الرسالة التي رحبت بها الصحيفة الاستعمارية (السعادة) بتاريخ 07 سبتمبر 1913 م، ووصل صداها إلى المغرب الأقصى[1] ، و أكد الشيخ نفس الولاء في رسالة أخرى بعثها إلى أتباعه في 20-01-1914م يعبر فيها عن ارتياحه للإدارة الفرنسية ، ويدعو إلى عدم معارضة فرنسا، بشكل يجعل الفرنسيين يرتاحون لنهجه أكثر و يثقون فيه، حيث ورد في هذه الرسالة أن (من يعارض الفرنسيين كمن يريد خنق نفسه بيده) و دعا لهم بالنصر ، و قد يظهر أن السلطات الاستعمارية أصبحت تثق في نوايا الشيخ مالك سي ، إن لم تكن هي بدورها تخطط لاحتواء طريقته، حيث قامت بطبع ست و عشرين من مؤلفاته بتونس، معتبرة ذلك اعترافا بالدور الذي يؤديه مالك في الحفاظ على استقرارالنظام الاستعماري .[2] و حتى و إن كانت تتظاهر فقط بالاعتراف بالجميل، فان عملا كهذا ، يعد في نظرنا ، نجاحا لإستراتيجية الشيخ مالك سي ، الرامية إلى العمل في هدوء بعيدا عن الضغط الاستعماري، و الشيخ مالك سي نفسه ، حتى يظهر لأتباعه و منتقديه أن تعاونه هذا مجرد مهادنة ، لم يقبل أية مساعدات مالية أو امتيازات أخرى من الإدارة الاستعمارية .

ويذهب الباحث موريبا ماقاسوبا إلى اعتبار حب مالك سي لدينه، و دفاعه المستميت عن مسلمي غرب إفريقيا ضد التنصير و الذوبان في فلك المجتمعات الغربية المسيحية ، السبب الرئيسي في إظهار تحالفه مع الاستعمار الفرنسي[3] . و منذ تأسيس زاويته في تيواوين عام 1902م و الوفود لا تنقطع عنها ، حتى أصبحت قبلة لمعظم مسلمي غرب إفريقيا يمارس من خلالها نشاطه الدعوي ، و يعمل على تمتين أواصر الأخوة و التعاون بينهم ، حتى لا يتأثروا بمكائد الاستعمار و منصريه ، و كان يحيي كل سنة- تحقيقا لهذا الهدف – مناسبة

[1] Adriana Piga, op.cit. p 179.
[2] Ibid. p 180.
[3] Moriba Magassouba, L'islam au Sénégal, demain les Mollahs ? édit. Karthala – paris 1985, p.44.

الاحتفال بالمولد النبوي الشريف (الغامو) في زاويته ، بإقامة الصلاة و الذكر ، و اغتنام الفرصة للتوجيه و الإرشاد . [1]

و طريقة مالك سي هذه كانت ذات أثر بالغ على السنغاليين، حيث أصبحت التجانية - كما أورد ماقاسوبا أيضا - أكثر نشاطا في عهده من بقية الطرق الصوفية الأخرى، و ازداد السكان انخراطا في صفوفها ، و أصبح الإسلام أكثر انتشارا ، و سمى اتجاهه بالاتجاه الإصلاحي .

و مالك سي بالمجدد ، و أدخل في هذا الاتجاه أيضا : إبراهيم نياس و زاويته بكولخ .[2]

و تمكن الشيخ مالك سي بفعل نشاطه الدعوي و التربوي من تكوين المئات من الدعاة ، و من معلمي القرآن الذين انتهجوا نهجه في الدعوة للإسلام و الحفاظ على أسس العقيدة الإسلامية ، و في مقدمتها القرآن الكريم بتحفيظه للأجيال، و تدريسه و تفسيره، و تدريس بقية العلوم الإسلامية ، مما جعل هذه الجهود حاجزا منيعا أمام محاولات التنصير ، و يعترف بول مارتي الضابط العسكري ، و صاحب كتاب (دراسات حول الإسلام في السنغال) (بأن الإسلام في كل ظروف الأمن ، و تسامح الإدارة الفرنسية حقق في نصف قرن ما لم يتمكن من تحقيقه رجال الدين في ثلاثمائة عام) .[3]

4-2-2 : الشيخ أحمد حماه الله و جهوده في مقاومة التنصير :

أ- حياته و مكانته العلمية : اسمه الكامل أحمدو حماه الله هيدر بن محمد بن عمر بن حماه الله بن الشريف أحمد العباس ، أمه : عايشاتو اديالو و هي فلانية ، ولد في سنة 1886م بمنطقة نيورو بمالي توفي أبوه و عمره لا يزيد عن خمس سنوات ، نشأ يتيما و ربته أمه في ظروف صعبة لمحدودية إمكانياتها ، حصل على ورد الطريقة التجانية و عمره 15 سنة ، و لم يتعلم الشيخ حماه الله لا في مدارس و لا في جامعات ، إنما كان يحضر مجالس العلماء و يأخذ منهم حتى أصبح من كبار مشايخ التجانية في موريتانيا . لم يترك الشيخ أية مؤلفات أو كتابات أخرى ، و لم يكن عالما كبيرا كما هو الحال بالنسبة لعمر التل الفوتي أو إبراهيم نياس ، و رغم ذلك أنشأ مكتبة خاصة ذات قيمة كبرى تضم حوالي 1500 كتابا ، و التي صادرتها الإدارة الاستعمارية سنة 1941م ، و ساهم الشيخ في تطوير ثقافة أدبية عربية ، و دراسة العلوم الإسلامية لمواجهة محاولات السلطات الاستعمارية القضاء على كل ما يرمز إلى الإسلام في بلاده و بقية مناطق غرب إفريقيا .[4]

و الشيخ أحمد حماه الله يعتبر من مجددي الطريقة التجانية ، حيث يختلف مع الطريقة الأم في عدد مرات جوهرة الكمال في الوظيفة، فهو يتمسك بأحد عشر مرة و الطريقة الأم باثني

---

[1] Jean louis Triaud, op.cit. p 423.
[2] Moriba Magassouba, op.cit. p 41.
[3] Moriba Magassouba, ibid. p 45 .
[4] Adriana Piga, op.cit. , p 195.

عشر مرة ، و هو ما تسبب في بعض الاضطرابات بين المريدين التجانيين مثل ما وقع سنة 1930م في مدينة كايدي أين قتل ثلاثون شخصا ، و اغتنمت الإدارة الاستعمارية الفرصة لتتهمه بالتحريض على الفوضى و العنف و قامت باعتقاله .[1]

ب- جهوده في مقاومة التنصير :

عرف الشيخ حماه الله بمناهضته لكل ما يسيء للإسلام سواء المنصرين أو الإدارة الاستعمارية ، و عرف بمواقفه الصلبة تجاههما غير آبه بعواقب مواقفه هذه . فكان يدعو الناس جهارا إلى الابتعاد عن هؤلاء المنصرين ، و الحذر من مكائدهم. و خوفا عليه من المضايقات الاستعمارية ، بعث إليه الحاج مالك سي رسالتين سنة 1911م يحثه فيهما إلى العودة عن مناهضته للإدارة الاستعمارية ، و يحذره من عواقب مواقفه تجاهها ، و لكنه لم يحصل على أي رد منه إلى غاية و فاته عام 1922م. و كان حماه الله يعتبر كل تعامل مع الكفار خيانة للإسلام ، مما دفع الحاكم العام للسنغال "تيراسون دو فوجار" إلى اتهامه بتهديد الأمن الداخلي سنة 1924م و اعتقاله .[2]

و كنتيجة لهذه المواقف أعتبرت الحمالية منذ تأسيسها خطرا، و ركزت السلطات الاستعمارية على مؤسسها و أتباعه، تكيل لهم الاتهامات من حين لآخر تحضيرا لمعاقبتهم ، كما اعتبرتها تهديدا خطيرا (للمهمة الحضارية لفرنسا في غرب إفريقيا) .[3]

و قد قام الشيخ حماه الله بدور كبير في النضال ضد الاستعمار و ضد التنصير ، و أعتبر هذا الأخير أداة خطيرة في يد الاستعمار ، رغم نفي المنصرين ارتباطهم به في الكثير من المناسبات ، و محاولة إظهار المسيحية كمنقذ للمحرومين، ووسيلة موصلة إلى التقدم و النهضة، بغية التأثير في المسلمين. ووصلت تأثيرات الشيخ حماه الله إلى عدة مناطق بعد مالي و هي موريتانيا ، فولتا العليا (بوركينا فاسو) ، ساحل العاج ، السنغال و النيجر، و شكل فعلا خطرا عظيما على السياسة الاستعمارية و أفشل الخطط التنصيرية ، ووصل صداه إلى المناطق الخاضعة للنفوذ البريطاني مثل صوكوتو و هديجية و منطقة اللورن في نيجيريا[4]، و عجزت السلطات الاستعمارية عن الحد من نشاطاته و اضطرت إلى اعتقاله سنة 1940م من جديد ، بعد الاعتقال الأول سنة 1930م . و المشكلة التي واجهت الاستعمار أنه كلما اعتقله ازداد عدد أتباعه ، و لذلك نفي إلى ساحل العاج حتى يُمحى أثره ، ثم اضطرت الإدارة الاستعمارية إلى نقله إلى الجزائر[5] ، أين وضع رهن الاعتقال بسجن كاسان شمال شرق مستغانم ، على أن يقضي مدة 10 سنوات بها ، و لكنها اضطرت من جديد إلى ترحيله إلى

---

[1] Adriana Piga, ibid. , p200.
[2] Adriana Piga, ibid. p 204.
[3] Adriana Piga, ibid. p 203.
[4] Adriana Piga, opcit. p 192.
[5] Adriana Piga, ibid. p 200.

فرنسا في عهد الحاكم العام بيار بواسون سنة 1942م . و أثناء اعتقاله بفرنسا عومل معاملة قاسية ، و لم يتمكن من التأقلم مع مناخ المنطقة فأصيب بالمرض ، نقل على إثره للعلاج في مستشفى أوبيناس (Aubenas) في الجنوب الشرقي ، و بعده إلى مستشفى مون ليسون بوسط فرنسا ، و توفي هناك في 16 يناير 1943م و دفن بمقبرة مون ليسون ، و لكن الحاكم العام لم يعلن عن وفاته لأهله و أتباعه إلا في 07 جوان 1947م من باريس .

و انطلاقا مما ذكرناه عن الحمالية يتضح لنا أن الشيخ حماه الله ، و إن كان متصلبا في مواقفه ، إلا أنه لم يحمل السلاح في وجه الإدارة الاستعمارية ، و الفرق الوحيد بينه و بين بقية الدعاة الذين سبق الكلام عنهم أنه كان يعتبر التعامل مع الاستعمار خيانة لا يمكن قبولها ، و بقي متشددا في مواقفه، محرضا على عدم مهادنة الاستعمار و التعاطف معه، و لو أن طريقته هذه جلبت له المتاعب و تسببت في إبعاده وموته بعيدا عن وطنه و أهله و أتباعه ، إلا أن النتيجة التي يلتقي عندها جميع هؤلاء الدعاة هي ازدياد رقعة الإسلام في غرب إفريقيا، و عجز النصرانية عن القضاء عليه رغم كل إمكانياتها بسبب جهود هؤلاء الشيوخ .

الفصل الثاني
قضية التجنيد في شمال و غرب افريقيا و موقف الطريقة التجانية منها

- **قضية التجنيد العسكري في شمال و غرب افريقيا**

- أولا : شمال افريقيا

1- الجزائر

2- تونس

3- المغرب الأقصى

- ثانيا : غرب افريقيا :

1- فترة ما قبل الحرب العالمية الأولى

2- فترة الحرب العالمية الأولى

- **موقف الطريقة التجانية من قضية التجنيد في شمال و غرب افريقيا**

إن قضية تجنيد الاستعمار لأبناء شمال إفريقيا و غربها خلال القرن 19م و النصف الأول من القرن العشرين ، لا تقل خطورة عن قضية التنصير التي عالجناها سابقا . فالتجنيد العسكري هو الوسيلة التي يحقق بها الاستعمار أهدافه و يتغلغل من خلالها المنصر للتأثير على المجند ، على أن يعود بعد انتهاء خدمته العسكرية - إن تم تنصيره - واحدا من ركائز التنصير في قريته ، و من خلالها مجتمعه .

لقد ظهر التفكير مبكرا في كيفية الاستفادة من هذا الخزان البشري الهام الذي تمتلكه إفريقيا، مع تطور النزعة التوسعية للدول الاستعمارية و على رأسها فرنسا، إذ اشتد التنافس على بناء إمبراطوريات استعمارية تشمل بالخصوص القارة الغنية بالموارد الطبيعية و البشرية. و أمام عدم قدرة جنود الاستعمار على التأقلم مع ظروف القارة ، كان لابد من بناء قوة عسكرية محلية توكل إليها مهمة إخضاع شعوب هذه المستعمرات من جهة و توسيع النفوذ الاستعماري من جهة ثانية ، و قد قدم أبناء إفريقيا، و نخص منهم أبناء شمالها و غربها تضحيات جسام في كل المهام العسكرية التي أوكلت إليهم و في الحروب الكبرى التي شارك فيها المحتلون ، و لكن هذه المشاركة الفعالة لم تلق التقدير لا المادي و لا المعنوي ، و كان الاستعمار ينظر دوما إلى المجند الإفريقي نظرة مقاتل تابع ، مخلص ، مستعد للتضحية بحياته من أجل (سيده الذي جلب له الأمن و الحضارة) .

أولا: التجنيد العسكري في شمال إفريقيا :

1_ التجنيد في الجزائر :

1-1 سقوط الجزائر سنة 1830 م و بداية التفكير في تجنيد الجزائريين :

لما اضطر الداي حسين إلى تسليم الجزائر، و وقع مع قائد الحملة الفرنسية الكونت دي بورمون معاهدة 5 جويلية 1830م، رأى هذا الأخير صعوبة التوغل إلى المناطق الداخلية، وأصبح الاعتماد على عناصر محلية ضرورة ملحة لتوسيع رقعة الاحتلال إلى بقية المناطق . و كانت فرنسا بحاجة إلى قبائل مستعدة للتعاون معها كما كانت تتعاون مع النظام العثماني السابق، و إلى أعيان من البلد، تمكنهم ألقابهم و مراتبهم من استمالة أبناء الجزائريين للانخراط في سلكها العسكري. [1]

و كان الفرنسيون ينظرون إلى الجزائريين على أنهم شعب يميل إلى العنف ، و لا يمكنه أن يعيش بدونه في إشارة ضمنية إلى ما كان يردده ساسة الاستعمار على أنهم قدموا إلى الجزائر لتطوير شعب (بربري متوحش) ، و لتأكيد ضرورة الاعتماد على العناصر المحلية ، ها هو الجنرال يقول صراحة سنة 1845م: " إن النزعة القتالية طبع متأصل في

[1] لويس رين , تاريخ انتفاضة 1871 في الجزائر ، تر حاج مسعود ، الجزائر ، دار الرائد للكتاب ، 2013، ص41.

الشعب الجزائري ، و كما انه سيظل على حالة همجيته مدة طويلة ، فان فرص التجنيد بين صفوفه لا حدود لهاّ ." و بذلك كانت الإدارة الاستعمارية منذ احتلال الجزائر تفكر في إخضاع الشعب الجزائري عن طريق أبنائه ، بتطبيق القانون العسكري الفرنسي على الجزائريين ، و لكن الظروف لم تكن تسمح بذلك ، فوجهة النظر حول التجنيد بين الساسة الفرنسيين كانت مختلفة ، و غياب قوائم مضبوطة للحالة المدنية صعب المهمة [1]، زيادة على الخوف من تدريب الجزائريين و تسليحهم و فرارهم بعد ذلك ، و ما يشكله ذلك من خطورة على الوجود الفرنسي بالجزائر .

1_2 تجنيد الجزائريين و بداية تنظيمهم في فرق عسكرية:

قد يعتقد البعض أن مسألة التجنيد العسكري للجزائريين وليدة قانون التجنيد الإجباري الذي صدر في 03 فبراير 1912م. فبمجرد دخول القوات الفرنسية أرض الجزائر ، و في إطار بحثها عن قبائل لها قابلية للاستعمار ، تمكنت من إيجاد ما كانت تسعى إليه . أول قبيلة تقربت من الاستعمار و عرضت عليه خدماتها ، كانت قبيلة " الزواف" [2] و تم تجنيد أفرادها في 25 أوت 1830 م ، بعد أقل من شهرين على سقوط العاصمة ، و تشكلت منها فرقة عسكرية من 500 فارسا ، بقيت معسكرة بمدينة الجزائر ، و لم تشركها الإدارة الاستعمارية في عهد دي بورمون في أية عملية عسكرية إلى غاية مجيء كلوزيل محل دي بورمون. [3]

بدأ الجنرال كلوزيل الاستفادة من هذه الفرقة العسكرية المحلية في ضبط الأمن في مدينة الجزائر ، و حاول تخفيض عناصر جيش الاحتلال إلى الثلث ليتمكن من الاعتماد الفعلي عل الجزائريين، و كتب في هذا الشأن إلى وزير الحربية يوم 06 سبتمبر1830م، معتبرا عشرة آلاف جندي كافية للتحكم في مدينة الجزائر، و احتلال وهران و عنابة، و أن الكثير من الجزائريين يبدون رغبتهم في الانضمام إلى الجيش الاستعماري .

رد الوزير كان ايجابيا ، و غادرت الفصائل الأولى الجزائر العاصمة يوم 18 أكتوبر 1830م، و لكن ذلك أثر سلبا على وضع فرنسا في الجزائر. [4]

---

1 شارل روبر اجرون , الجزائريون المسلمون و فرنسا 1871-1919 تر حاج مسعود , ج2 الجزائر , دار الرائد للكتاب , ص722 .

2 قبيلة الزواف: في بعض الكتابات يوضع اسم (زواوة) بدل اسم الزواف ، مما جعل الكثير يعتقدون أنها قطعة من القبائل , و لكنها بقايا فرقة عسكرية من المتطوعين ، كانت تابعة للحكم العثماني بالجزائر و فرنسا نفسها روجت لفكرة الأصل البربري (الأمازيغي) لهذه القبيلة ربما لاستمالة سكان منطقة القبائل ، و لكن حسب بعض الدراسات ، فان هذه القبيلة تقع جغرافيا في جبال الظهرة شمال غرب مدينة المدية على بعد 28 كلم، و جنوب غرب مدينة البليدة، و الواقع أن منطقة القبائل رفضت الخضوع للفرنسيين و كانت مسرحا لعدة ثورات كبرى ، و لم بتمكن الفرنسيون من إخضاعها إلا بصعوبة . للمزيد ينظر محمد بجاوي , المجندون الجزائريون في الجيش الفرنسي 1830م-1900م , مذكرة ماجستير في التاريخ الحديث , جامعة الجزائر- بوزريعة، السنة الجامعية: 2005م- 2006م، ص30.

3 Duruy Victor, le 1er régiment de tirailleurs algériens (Histoire, campagnes) édit. Hachette et Cie, paris, 1899, p3.

4 Esques Gabriel, G.G.A, correspondances du général Rovigo T1, édit : Adolphe Jourdan, Alger 1914. p6.

و هنا كان لابد من تعويض النقص ، و تفادي أي خطر على مستقبل الوجود الفرنسي باللجوء إلى الجزائريين، و اتخذ كلوزيل قرارا بإنشاء فيلقين منهم يوم فاتح أكتوبر 1830م ، دعمته أمرية ملكية بتاريخ 21 مارس 1831م، و أطلق على هذين الفيلقين اسم(الزواف). و كانت للعناصر المجندة هذه خبرة عسكرية سابقة، بتعاونهم مع العثمانيين في الجزائر في عهد الدايات في مجال حفظ الأمن ، و جمع الضرائب ، و قمع القبائل المتمردة . و كان مسموحا لكل جزائري يرغب في التعاون مع الاستعمار الانضمام إلى هؤلاء الزواف[1] .

لقد أبدى هؤلاء المجندون منذ بداية انخراطهم في السلك العسكري الاستعماري حماسا كبيرا في خدمة الاستعمار، و جعلت هذا الأخير يعتمد عليهم في جل توسعاته الداخلية، و أصبحوا أداة طيعة لقمع إخوانهم و تسهيل مهمة الاستعمار في السيطرة على المناطق الداخلية. فقد شارك هؤلاء المجندون في الحملة العسكرية على المدية في 22 نوفمبر 1830 م و أدوا دورا بارزا في احتلال المدينة .[2] حتى أن الفرنسيين بعد سقوط المدينة و للقضاء على المقاومة نهائيا ، تركوهم ضمن حامية عسكرية هناك لمدة شهرين ، لم تتوقف خلالها ضربات المقاومة ضدهم ، و كانوا دوما في مقدمة الدفاع عن الحامية إلى غاية الأيام الأولى من شهر جانفي 1831 م .

اضطر الجنرال بيرتوزين الذي خلف كلوزيل إلى العودة إلى المدية من جديد في 25 جوان 1831م لفك الحصار الذي ضربه المقاومون على المدينة ، و كان للمجندين الزواف مساهمة كبرى في المعركة التي دارت بين الفرنسيين و المقاومة التي قادها ابن الباي المخلوع مصطفى بومزراق، وحتى بعد عودة الجيش الفرنسي إلى مدينة الجزائر، و تعرضه لضربات الثوار كان لهؤلاء المجندين دور هام في التصدي للمقاومين ، مثلما حدث لهم في فج الثنية [3] الذي فقد فيه الفرنسيون 250 قتيلا ، و لولا صمود الزواف و تصديهم للثوار و استماتتهم في الدفاع عن المستعمر، لكانت خسائره أكبر.[4] و هذه الصعوبة التي واجهها الجيش الفرنسي كانت من أهم الدوافع التي زادت في حتمية تجنيد المزيد من الجزائريين، خاصة و أن الأتراك الذين كان من الممكن ضمهم إلى صفوفهم عجلوا بترحيلهم إلى تركيا ، و ذلك ما أقره الجنرال " دوباريل " نفسه في مذكراته التي جاء فيها: " إن الفرنسيين ارتكبوا خطأ فادحا عندما طردوا الجيش الانكشاري . فهؤلاء المماليك كانوا على استعداد لمساعدتنا في قضيتنا و البقاء في خدمتنا، فلقد حطمنا الإدارة التركية، ولم نتمكن من وضع شيء بديل آخر عنها. و من حسن الحظ أن هناك بعض الكراغلة ما

---

[1] Huré Robert (Général), L’Armée d’Afrique. 1830-1962, édit Charles Lavauzelle, paris 1977, P20.

[2] Esques Gabriel, op.cit. P 5.

[3] فج الثنية: منطقة تقع بين المدية و البليدة.

[4] Duc d’Aumale, les zouaves et les chasseurs à pied, édit Michel Levy frères, paris 1855 P.21.

يزالون في البلاد ، و يمكن الاعتماد عليهم ." [1] و من هنا ، أصبح الفرنسيون أكثر اقتناعا بضرورة التقرب من الجزائريين و جرهم إلى التطوع للخدمة في صفوف الجيش الاستعماري ، أو الاكتفاء بصيغة التعاون معه ، لتظهر مع مرور الوقت فرق كثيرة أخذت مسميات عديدة، و كان لها كلها هدف مشترك هو خدمة الاستعمار ، حتى و لو كانت هذه الخدمة في غير صالح ذويهم ، و ضد سكان تجمعهم بهم قرابة الدم و رابطة الدين .

3-1 أهم الفرق المشكلة من المجندين :

1-3-1 فرق الزواف:

كان من الضروري – كما ذكرنا في بداية هذا الفصل – البحث عن عناصر محلية تحقق للاستعمار عدة أهداف ، فهي صاحبة الأرض و تعرف خباياها وسكانها أكثر من الفرنسيين ، و متأقلمة مع ظروف هذه الأرض ، و تعرف كيفية إخضاع هذا الشعب لأنها منه ، و يستعملها الاستعمار في جمع الضرائب و قمع الانتفاضات ، و تسمح من جهة أخرى عن طريق كل هذه الخدمات بتخفيض النفقات الحربية للفرنسيين و الحفاظ على ميزانيتهم . تشكلت فرقة الزواف كما بينا سلفا في أوت 1830م . ووصل عدد أفرادها بعد انضمام أجانب و فرنسيين إلى 2000 جنديا ،عملت إدارة الاستعمار على تقسيمها إلى فيلقين في مارس 1833 م، ثم أنشئ فيلق آخر في 1837/03/20م ، و تم تجميع هذه الفيالق في جيش واحد في 11 نوفمبر 1837م. [2] و استمر التحاق الجزائريين بسلك الزواف ، تبعا للظروف الصعبة التي كان الشباب الجزائري يتخبط فيها ، و بالمقابل يرى المجندين في أحسن حال و تغريه ألبستهم العسكرية ، ليطلب الانخراط في هذا السلك ، و بالتالي زاد عدد أفراده ، و فتح الفرنسيون المجال أكثر لانضمام الجزائريين و تجنيدهم كلما اشتدت الحاجة لحملات عسكرية من أجل التوسع ، و التي استعمل فيها المجندون في المقدمة ، سواء داخل الجزائر أو خارجها[3] .

و الحملات الداخلية التي كان فيها للمجندين دور أساسي في قمع الجزائريين و إبادتهم، أدت إلى الحقد على الفرنسيين، مما صعب من مهمة تجنيد المزيد من الشباب، و هو ما اعترف به الجنرال بروتوزين نفسه، [4] زيادة على النظرة السيئة التي أصبح الجزائريون ينظرونها إلى هؤلاء المجندين الذين اعتبروهم خانوا وطنهم، في ظل رفض الشعب الجزائري الخضوع لحكم الأجنبي (الكافر)، و توالت الضربات على فرق الزواف و على رأسهم قادتهم الفرنسيين، حيث أصيب الرائد مومي و أسندت القيادة للاموريسيير، و الذي

---

[1] Du Baril, mes souvenirs, T1, édit collection Georges Barba, paris 1894. P.49.

[2] عبد القادر سلاماني، الإستراتيجية الفرنسية لإجهاض الدولة الجزائرية الحديثة 1832-1847 م، الجزائر، دارقرطبة للنشر والتوزيع،2012 ص160 .

[3] محمد الصالح بجاوي ، م س ، ص 151.

[4] Deladriere. P, coup d'œil sur l'armée d'Afrique, s/m. édit, S/D, paris P.17.

أخضع لأول مرة سلك الزواف للتكوين العسكري حتى يرفع من قدراته القتالية، و يتمكن من تحقيق المهام التي أوكلت إليه . و كان هذا الضابط على دراية كبيرة باللغة العربية، و العادات الجزائرية.[1] مكنته من التحكم الجيد في تسيير هذا السلك. و تحسين كفاءته العسكرية في وقت أظهر الزواف ولاء لقادتهم الفرنسيين، وأبانوا عن قدرتهم الكبيرة في تحمل الصعاب ، و سهلوا مهمة القوات الاستعمارية في السيطرة على مختلف المناطق . و لكن رغم إظهار المجندين الولاء للفرنسيين إلا أن هؤلاء الأخيرين لم يكونوا يثقون فيهم ثقة كبيرة، و ما يترجم فقدان هذه الثقة صدور أمرية ملكية في 07 مارس 1833م ، تحدد بصفة رسمية عدد كتائب فرق الزواف بعشرة مع اشتراط إدراج اثني عشر (12) جنديا فرنسيا ضمن كل كتيبة .[2] و يبدو أن الفرنسيين كانوا يرون أن انخراط هؤلاء الجزائريين ليس عن اقتناع ، و لكن الظروف الاجتماعية فقط هي التي كانت وراء هذا الانضمام ، و بالتالي فإضافة هذا العدد من الجنود الفرنسيين كان- ربما- للاحتياط من إمكانية حدوث حركة تمرد في صفوف عناصر الزواف .

2-3-1 الفرق القومية :

استمر تجنيد الجزائريين بعد فرق الزواف عن طريق الإغراء و تشجيع الانضمام الإرادي، استغلالا للظروف البائسة التي كان عليها الجزائريون من جهة ، و لطموحات بعض العائلات الكبرى في التقرب من الإدارة الاستعمارية و الاستفادة من بعض الامتيازات ، كما أن بدايات الاحتلال الفرنسي كانت حرجة جدا للجيش الاستعماري الذي أصبح يواجه مقاومة بطولية من الشعب الجزائري رغم ضعف إمكانياته ، و بالتالي ظهرت الحاجة الماسة لأسلاك أخرى تدعم سلك الزواف ، و كان هذا السلك الجديد هو : سلك القومية .

فرق القومية هي فرق متعاونة مع الاستعمار لدعم عملياته الحربية سواء داخليا، لتحطيم المقاومات الشعبية كما حدث مع الأمير عبد القادر، أو خارجيا في الحروب الاستعمارية التي جرت في المكسيك، السنغال، مدغشقر. و تدعمت أكثر ابتداء من نوفمبر 1840م حين رأى الجنرال فالي أن تحقيق السيطرة الفعلية و السريعة على الشعب الجزائري لا يتم إلا بتجنيد الأهالي . [3]

---

[1] Duc D'Aumale, op.cit. p p 24-26.

[2] Duc d'Aumale, ibid. pp 20-23.

1- مصطفى الأشرف ، الجزائر الأمة و المجتمع ، ترجمة حنفي بن عيسى ،الجزائر، دار القصبة للنشر و التوزيع ، 2007 ص322.

و من الفرق القومية التي تعاونت مع الاستعمار فرقة الأغا مصطفى بن إسماعيل في الغرب ، و التي شاركت في تحطيم مقاومة الأمير عبد القادر، و فرقة ابن قانة [1] شيخ العرب البسكري في الشرق التي حاربت بدورها أتباع الأمير ، و هذه الفصائل رغم الدور الخطير الذي كانت تؤديه في القضاء على المقاومة و توسيع نفوذ الاستعمار ، لم تكن تكلف الخزينة الفرنسية أية مصاريف إضافية [2]، حيث أن أفرادها لم يكونوا يتلقون أية مرتبات، عدا بعض المساعدات المتمثلة في مواد غذائية، و علف للماشية، و رصاص وهي تمثل مقابلا ماديا ضئيلا جدا، لا يعادل ما تقدمه هذه الفرق من خدمات للاستعمار و لعلها كانت تطمح إلى امتيازات أكبر بتعاونها هذا بعد الإخضاع التام للشعب الجزائري . هذا الدور السلبي تجاه بلدها، ربما هو الذي جعل مصطفى الأشرف يصفها بالفرق الشبيهة بالحركى . [3]

أول فرقة قومية في الجزائر شكلها المملوك التونسي " يوسف" [4] الذي أصبح فيما بعد جنرالا في صفوف الجيش الفرنسي. و قد سخر الجنرال يوسف فرقته هذه لخدمة الاحتلال الفرنسي في الجزائر، و كان يستعمل معها كل الوسائل الدنيئة في محاربة الجزائريين، و عرف بطريقته الإرهابية، راميا عرض الحائط بكل القيم الإنسانية، حتى أن الفرنسيين أنفسهم كلما تبينت لهم خطورة عملية عسكرية ما أسندت له، مما جعل فرقته القومية من أخطر الفرق التي تكونت بالجزائر. [5] و لما احتلت فرنسا المغرب الأقصى شاركت هذه الفرق بدورها في هذا الاحتلال، و هناك وثائق كثيرة لا زالت محفوظة بأرشيف ما وراء البحار، تؤكد هذا الدور الذي أدته فرق القومية في المغرب ، سواء في عمليات الاحتلال[6] أو في القضاء على ثورة عبد الكريم الخطابي بالريف [7] ، و هذه الوثائق عبارة عن تقارير يثني من خلالها الضباط الفرنسيون على ولاء القومية، و حماسهم في العمليات القتالية ، و تفانيهم في خدمة الاستعمار الفرنسي .

---

[1] ابن قانة بوعزيز: ابن قانة من عائلة نافذة في منطقة الزيبان , كان شيخ العرب في ناحيته منذ سنة 1826 م لما احتل الفرنسيون الجزائر ، تخلى عن احمد باي و التحق بهم ، و هو الذي سهل مهمة الاستعمار في الزيبان. ينظر: بن يوسف تلمساني ، التوغل الفرنسي في منطقتي الأوراس و الزيبان ، مجلة المصادر ، العدد 22 ، الجزائر، دار غرناطة للنشر و التوزيع ، 2010م ، ص50 .

[2] عاشور شرفي ، معلمة الجزائر ، الجزائر ، دار القصبة للنشر و التوزيع ، 2008 ، ص 778.

[3] مصطفى الأشرف ، م س ، ص 322.

[4] الجنرال يوسف هو مملوك تونسي ، ولد في جزيرة البي (Elbe) الايطالية عام 1808 م ، ومن مسقط رأسه اختطف و هو غلام من طرف قرصان تونسي ، أهداه إلى باي تونس ، عاش معظم طفولته في القصر ، و تربى تربية عسكرية ليكون ضمن حرس القصر ، و لكن بعد اكتشاف علاقته بإحدى الأميرات ، و خوفا من قتله ، فر على متن قارب إلى الجزائر بمساعدة القنصل الفرنسي " ليسابس" .. وصل إلى الجزائر في 1830/06/16 أي بعد يومين من نزول القوات الفرنسية في سيدي فرج و من هناك اتصل بالقيادة العامة للجيش، و عينه دي بورمون مترجما برتبة أغا العرب، و عندما جاء كلوزيل أعجب به و كلفه بمهام خطيرة برز فيها ، و كان طموحا ، ذكيا ، و لذلك تحصل على مختلف الرتب حتى وصل إلى رتبة جنرال . ينظر : Paul Azan , les, grands soldats de l’Algérie , publication du comite national métropolitain du centenaire de l’Algérie , Orléans 1930,P58.

[5] Paul Azan,opcit. P58.

[6] Goums algériens pour le Maroc (1908-1914)- 30^{H} 74, ANOM, AIX- En-Provence.

[7] _ Evénements du Rif, Goumiers algériens (1925 - 1933) 30 ^{H} 74, ANOM.
_ Evénements du Rif, Goumiers algériens (1925 - 1930) 30 ^{H} 72 Aix- En- Provence.

3-3-1 فرقة الصبايحية [1] :

هي فرق كانت موجودة منذ العهد العثماني ، تشكلت آنذاك من أبناء العائلات الكبيرة النافذة التي كانت في خدمة السلطة العثمانية في الجزائر ، و لما استولت فرنسا على الجزائر شجعت السلطات الاستعمارية هذه الفرق على البقاء في خدمة فرنسا مقابل بعض الامتيازات ، خاصة لما عجز الاستعمار عن القضاء على ثورة الأمير عبد القادر ، و كان هدفه من إعادة ضم الصبايحية إلى صفوفه ، عزل هذه العائلات الكبيرة عن الأمير ، مما سيضعف الأمير و يقلل من نفوذه و قدرته على الصمود مع مرور الوقت ، لأن هذه العائلات الكبيرة ستجر وراءها حتما الكثير من القبائل الموالية لها. عملية تجنيد الصبايحية كانت تتم تحت إشراف أغا العرب ، حيث يطلب الراغب في الانضمام تجنيده، و يقدم حصانه و بندقيته ، على أن يكون سنه بين 16 و 40 سنة ، و يعلن ولاءه لفرنسا جهرا و أمام الضابط الفرنسي المكلف بالتجنيد ، و الغريب في الأمر أن فرنسا كانت تطلب منهم أثناء الانخراط القسم على القرآن الكريم بالولاء لها، و طاعة أوامر ضباطها، [2]و العقد الذي يربط الصبايحي بالإدارة الاستعمارية يصلح لمدة ثلاث سنوات قابلة للتجديد. و فرق الصبايحية يرجع أصلها إلى عدة قبائل في الوسط و الشرق و الغرب ، ففي مقاطعة الجزائر كانت تنتمي إلى قبائل بني سليمان و أولاد عثمان و أولاد بوعيش ، و في الشرق إلى قبائل أولاد عبد النور و التلاغمة ، و في الغرب إلى شلف بالخصوص، و قد أوكلت لهم في البداية حراسة المناطق التي يقيمون بها قبل المشاركة في العمليات القتالية [3]

و في 07-12-1841 م تم تنظيم فرق الصبايحية في 03 فيالق ، الأول في العاصمة ، و الثاني في وهران ، و الثالث في قسنطينة ، و بمقتضى مرسوم 16-01-1874م تم إعفاء الصبايحية من مختلف الضرائب ، مما شجع الشباب على الانضمام حتى وصل عدد المجندين في هذا السلك إلى 7000 فارسا [4] ، مميزين عن غيرهم ببرنوسهم الأبيض و الأحمر، و عمامتهم البيضاء و الحمراء . و هكذا عملت فرنسا من خلال تجنيدها لهذه الفرق على التفرقة بين أبناء الجزائر و إضعافهم من جهة و تحقيق أهدافها التوسعية باستغلال خدمات هؤلاء المجندين .

4-3-1 فرقة القناصة الجزائريين:

---

[1] الصبايحية : فرسان جندتهم فرنسا للقضاء على المناوئين لسلطتها في الجزائر ، يطلق عليهم أيضا اسم فرق السبايس. ينظر: نواري ساعي المفيد في المصطلحات التاريخية ، الجزائر، منشورات عشاش، 2007، ص 93.

[2] Charles Andres Julien, Histoire de l'Algérie contemporaine ; la conquête et le début de la colonisation (1827 - 1871) paris 1964, P.274

[3] عبد القادر سلاماني ، م س ، ص 169 .

[4] Charles Robert Ageron, les algériens musulmans, et la France 1871-1919, T2 P.U.F, paris P1056.

لقد سبق أن أشرنا إلى القرار الذي اتخذه كلوزيل في 01 أكتوبر 1830م بإنشاء فيلقين من الزواف ، وفي 09 مارس من سنة 1831 م تم إنشاء سريتين منهم ، أطلق عليهما اسم (القناصة الجزائريين) و تم إدراجهم ضمن السلك العسكري الفرنسي (قناصة إفريقيا)[1] . و قد شارك القناصة الجزائريون في الكثير من العمليات العسكرية، و برهنوا على قدراتهم القتالية العالية، و أظهروا شجاعة كبيرة أدهشت الضباط الفرنسيين أنفسهم ، فعمدت الإدارة الاستعمارية إلى إنشاء لواءين جديدين في 16 نوفمبر1831م، أحدهما في الجزائر العاصمة و الثاني في وهران، ثم دعمتهما بلواء ثالث في 1833/01/06م في مدينة عنابة ، و كان كل لواء يضم ست سرايا ، و كل سرية بها 13 خيالا و 59 جنديا من المشاة [2] ، كل جندي مزود بحصانه و سلاحه .

و صدر أمر فيما بعد يقضي بضرورة تعليم مجندي هذا السلك، لتمكينهم من التعامل مع الضباط الفرنسيين و أداء واجبهم بإتقان لمدة سنتين، و قد عرف هؤلاء المجندون بالطاعة و الولاء لرؤسائهم و للإدارة الاستعمارية، و استمر العمل بسلك القناصة إلى غاية اندلاع الحرب العالمية الأولى. [3]

و نحن نكتب عن كل هذه الفرق الجزائرية التي جندتها الإدارة الاستعمارية في الجزائر، و استعملتها في احتلال جل المناطق التي أخضعتها لسلطتها بعد العاصمة، قد يتبادر إلى أذهان القراء سؤال جوهري يتعلق بمدى قدرة الاستعمار في التوسع في الجزائر، لو لم يجند مثل هذه الفرق التي يعترف بشجاعتها و صمودها في المعارك، و كان يقحمها دوما في الجبهات الأمامية، و هي قضية - ربما تطرح مستقبلا للدراسة - تستحق أن نقف عندها، لأن هذه الفرق هي التي أدت الدور الأساسي في قمع مختلف الثورات الداخلية في قسنطينة ضد أحمد باي، و في الغرب ضد الأمير عبد القادر، و ثورة أولاد سيدي الشيخ و الزعاطشة و ثورة المقراني و الإخوان الرحمانيين، كما أقحموا في احتلال مناطق كثيرة : المدية ، عنابة ، موزاية ... و الكثير من الجزائريين يجهلون دور هذه الفرق الجزائرية في التوسع الاستعماري ببلادهم، ثم هل فعلا الظروف الاجتماعية القاهرة هي التي كانت وراء انضمام هؤلاء المجندين إلى صفوف الجيش الاستعماري ضد بلدهم و إخوانهم ؟ لأن الفرنسيين يربطون هذا الانضمام برغبة هؤلاء المجندين في الحصول على أراضي سهلية خصبة، تبعدهم عن الجبال التي يقطنون بها، و يستغلونها لحسابهم لتحسين ظروفهم المعيشية ، على أن يكونوا أداة قوية في يد الاستعمار لبسط نفوذه على ما تبقى من مناطق الجزائر [4].

---

[1] - محمد الصالح بجاوي ، م س ، ص 164.

[2] - صالح عباد، الجزائريون وفرنسا والمستوطنون (1930-1830) قسنطينة، ديوان المطبوعات الجامعية، المطبعة الجهوية، 1999 ص 188.

[3] - محمد الصالح بجاوي ، م س، ص 166 .

[4] Liorel Jules, races berbères : Kabylie du Jurjura, Ernest Leroux, paris 1892, pp 543 -544.

1-4 طرق تجنيد الجزائريين قبل صدور قانون التجنيد الإجباري لسنة 1912م :

1-4-1 التطوع الإرادي للأفراد :

فتحت السلطات الاستعمارية أبواب التجنيد العسكري أمام الشباب الجزائري منذ سنة 1830م ، و كانت أول طريقة هي صيغة الانضمام الإرادي لكل من يريد التطوع للخدمة في سلك الزواف بعد إنشائه في 25 أوت 1830م ، و بقيت هذه الطريقة سائدة طيلة القرن 19 م ، و كان الضباط الفرنسيون يرون في الشعب الجزائري القابلية للتجنيد ، لكن ذلك مرتبط بما تقدمه الإدارة الاستعمارية من منح و امتيازات، لأن الجزائري -حسبهم - لا يمكنه تقديم خدماته للاستعمار بصفة مجانية، إذ أن الراغب في الانضمام للجيش الاستعماري ، يطمح إلى المقابل المادي في البداية نظير تجنيده ، قبل أن يظهر فيما بعد الطموح إلى المناصب و الامتيازات الأخرى ، و قد سبق لنا الإشارة إلى تقارير الضباط الفرنسيين بهذا الخصوص . بالنسبة للمنح ، مقدارها كان يختلف حسب طبيعة المجندين : ففي بداية الاحتلال مثلا، الخيالة كانوا يتقاضون فرنكين يوميا، و المشاة فرنكا واحدا[1]. و لما تأسس جهاز الشرطة الأهلية في 1843/09/16م من مشاة وخيالة لجمع الضرائب خصصت منحة للمشاة قدرها 15 فرنكا شهريا، و 30 فرنكا للخيالة [2]، أما الامتيازات التي كان المجندون يتحصلون عليها ، فقد تمثلت في إعفائهم من الضرائب. و الإدارة الاستعمارية كانت تعرف جيدا قيمة هذا الإغراء لجلب الجزائريين إلى التجنيد ، لأنها كانت ترهقهم بمجموعة من الضرائب التي كثيرا ما كانوا يعجزون عن دفعها ، إضافة إلى وعدها لهم بضمان التقاعد بعد انتهاء مدة خدمتهم بهذه الفرق العسكرية ، و وعود مغرية أخرى بتحسين أحوالهم الاجتماعية ، و منحهم مناصب .[3] و لكن الأكيد أن هذه الوعود لم تتحقق كلها ، خاصة قضية التقاعد لأن الأرشيف الفرنسي يحتفظ بالكثير من الشكاوي المقدمة من هؤلاء المجندين للسلطات الفرنسية، لتذكيرها بهذا الحق الذي وعدتهم به ، أو من أرامل ، مات أزواجهن في العمليات العسكرية و لم يحصلن على أية منحة تخفف عنهن مأساة الفقر و الحاجة .

1-4-2 استمالة رؤساء القبائل :

إدراكا منها بمدى احترام و طاعة الجزائريين في الريف لرؤساء القبائل ، و مدى ما يمكن أن يقدمه هؤلاء الشيوخ من خدمات للاستعمار و في مقدمتها التأثير على الشباب و دفعهم للتجنيد ، تقربت السلطات الاستعمارية من الشخصيات المحلية في كل مقاطعة من مقاطعات الجزائر علها تستميلها إلى صفها، و تضمن ولاءها مقابل منحها بعض الامتيازات مثلما

---

1 عاشور شرفي ، م س ، ص 778.

2 عاشور شرفي ، نفسه ، ص 35.

3 عمار هلال، أبحاث و دراسات في تاريخ الجزائر المعاصرة 1830-1962، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1995، ص 235.

حدث في مقاطعة قسنطينة، أين قام الجنرال فالي بتنصيب بعض شيوخ القبائل كقياد، بغية تعاون قبائلهم مع الفرنسيين و مساعدتهم ضد المقاومة الوطنية .[1]

3-4-1 الاحتفاظ بصيغ التجنيد الموروثة عن العهد العثماني :

محاولة منها الاستفادة من خدمات بعض الفرق التي كانت سابقا تعلن ولاءها للإدارة العثمانية في الجزائر ، و بعد أن لاحظت الإدارة الاستعمارية استعداد هذه الفرق لتكون في خدمة المحتل، لجأت إلى إحياء فرق المخزن في 16 جوان 1835م من قبائل الزمالة و الدواير في الجهة الغربية ، و استعملتها في القتال ضد الجزائريين ، حيث حدث بالفعل أن حاربت هذه القبائل ضد الأمير عبد القادر في معركة سيق . و قد خصصت لها السلطات الاستعمارية منحا قدرها: فرنكان يوميا للخيالة و فرنك واحد للمشاة، مع إعفاء هذه القبائل من الضرائب العربية.[2]

و هكذا يظهر الفرق الكبير بين الخدمات التي تقدمها هذه الفرق المختلفة من الجزائريين للاستعمار، و المقابل المادي الزهيد الذي يقدمه هذا الأخير، و الذي لا يكلف الخزينة الاستعمارية شيئا، لأن هذه المنح تشكل جزءا يسيرا مما يقدمه الشعب الجزائري من ضرائب.

5-1 قانون التجنيد الإجباري 03 فبراير 1912م :

1-5-1 مراحله:

لم يكن صدور قانون التجنيد الإجباري سنة 1912م قرارا ارتجاليا أتخذ بشكل مفاجئ ، و لكن سبقته مشاريع كثيرة كانت ترمي كلها إلى تجنيد الجزائريين ، و هي بمثابة الأرضية التي انطلق منها هذا القانون . الضباط الفرنسيون جلهم كانوا يرون أن بقاء فرنسا في الجزائر ، أو توسيع نفوذها خارجها ، مرهون بنجاح مسألة التجنيد ، و لربما الاختلاف الوحيد بينهم تمثل في كيفية تطبيق هذا التجنيد و مسألة الثقة في المجندين الأهالي ، و لذلك بقيت مسألة التجنيد الإجباري مؤجلة إلى غاية حدوث ظروف أرغمت فرنسا على تطبيقه بصفة رسمية، وفق قانون صادق عليه البرلمان الفرنسي في 1912/02/03م، و لتوضيح المراحل التي مر بها هذا التجنيد قبل صدور قانونه في شكله النهائي نورد أبرز

المحطات التي مر بها المشروع و هي:

---

1 محمد الصالح بجاوي ، م س ، ص 34.
2 عاشور شرفي ، م س ، ص 868.

- **1889م** : مناقشة القانون العسكري في الجزائر، و إصرار طومسون على تجنيد الجزائريين، و لكن العسكريين عارضوا الفكرة وربطوا بين التجنيس و التجنيد، إذ لا يمكن –حسبهم- فرض التجنيد على غير المجنسين. [1]

- **مرسوم 1903/04/07 م:** و الذي نص على استعمال المجندين الأهالي في مختلف فيالق الجيش و فصائله ، عكس ما كانوا عليه سابقا، إذ كانوا موجودين فقط في فرق القناصة و الصبايحية.

- **مشروع ميسيمي :** كان ميسيمي مقررا للميزانية الحربية لسنة 1908م و أكد أن الميزانية لم تعد قادرة على تمويل حاجيات الجيش و رواتبه، مما يجعل قضية التجنيد الإجباري ضرورة ملحة ، و ذكر أن بإمكان الأهالي تزويد الإدارة الاستعمارية بحوالي 10 ألاف جندي عوض 1700 الموجودة في الجزائر. [2]

- **مؤتمر المزارعين المنعقد بالجزائر** في مارس 1908 م: عبر فيه المستوطنون عن رفضهم المطلق لتجنيد الجزائريين، معتبرين أن المجندين الأهالي بعودتهم بعد التجنيد يصبحون أسوأ العمال الفلاحيين سيرة ، مما يستدعي التوقف عن تجنيدهم ، لأن ذلك يعود بالضرر على مصالحهم. [3]

- **بداية الإحصاء في الجزائر (1910م):** حيث أحصت الإدارة الاستعمارية 62518 شابا قابلا للتجنيد ، و هذا العدد لا يمكن تجنيده كله، و الاقتصار على 1560 جنديا بما يعادل نسبة 3.85% ،على أن يرتفع تدريجيا مع مرور الوقت ليصل إلى 46000 مجندا على مدى 10 سنوات. [4]

_ **1912/01/31 م:** صدر في هذا التاريخ منشور لتعديل شروط الالتحاق و نسبة المنح، حيث نص المنشور على تخفيض سنوات الخدمة العسكرية لتصبح ثلاث سنوات عوض 04 سنوات ، أما المنحة فتقدر ب 250 فرنكا فرنسيا. [5]

- **1912-02-03م:** صدور قانون التجنيد الإجباري في صفوف الأهالي عن طريق القرعة.

---

[1] توجد تقارير للضباط الفرنسيين حول الموضوع في أرشيف ما وراء البحار باكس اون بروفانس، العلبتان fonds G. G. A, 3h4- 3H3

[2] دراسة مطولة أجراها ميسيمي حول حتمية التجنيد الإجباري للجزائريين تحت عنوان : service militaire des indigènes بأرشيف ما وراء البحار، العلبة: 3H56

[3] شارل روبير اجرون , م س ، ص ص 724- 726 .

[4] شارل روبير اجرون ،م س ، ص 728 .

[5] Pensions militaires aux indigènes. Carton 3H19 A.N.O.M, Aix- en Provence.

- **24-02-1912م :** تلقى الحاكم العام ليتو(Lutaud) أوامر لتطبيق ما ورد في المنشورين بصفة فورية، و تم بالفعل تجنيد 2400 رجلا في سنة 1912م و الذين وزعوا على ثلاث فيالق [1].

2-5-1 ظروف صدور القانون :

تناقص تعداد الجيش الفرنسي: أمام تدهور العلاقات الأوروبية –الأوروبية، و خاصة بين الفرنسيين و الألمان، و السباق المحموم نحو التسلح، ظهرت أزمة نمو ديمغرافي لدى الفرنسيين مقارنة بخصومهم الألمان ، و زادت التصريحات الألمانية المستمرة في هذا الشأن تأثيرا على الفرنسيين ، حيث بدأ الألمان يتباهون بارتفاع عدد مواليدهم، و ما يوفره ذلك من قوة عسكرية مستقبلا أمام انخفاض عدد مواليد الفرنسيين، في إطار الحرب النفسية التي كان الألمان يشنونها على أعدائهم التقليديين الفرنسيين . و تخوف فرنسا من هذا التناقص كان وراء التعجيل بإصدار قانون التجنيد الإجباري، الذي يعوض لها هذا النقص، و يضمن لها على الدوام حاجتها من المقاتلين. [2]

_ التنافس الاستعماري على المغرب الأقصى :

لما انهزم المغرب الأقصى في معركة ايسلي في 14 أوت 1844م أمام فرنسا واضطر لتوقيع معاهدة لالا مغنية في1845/03/18م، ثم انهزم في حرب تطوان(1859م-1860م) أمام اسبانيا ووقع معاهدة تطوان عام 1860م، بدأ السباق بين الدول الأوروبية الاستعمارية للانفراد بهذا البلد ذي الموقع الاستراتيجي، و بدأ التنافس على أشده بين ألمانيا و بريطانيا و اسبانيا و فرنسا و ايطاليا، و أمام ضغط الانجليز بحكم الوجود البريطاني في جبل طارق منذ 1704 م و تركيز اهتمامهم على المغرب، اضطر هذا الأخير إلى توقيع معاهدة 1856م مع بريطانيا [3] ثم مع فرنسا في 1863م، و ترتب عن هذه المعاهدات امتيازات خطيرة للأوربيين، كانت لها انعكاسات اقتصادية و سياسية سلبية تمثلت في عجز تجاري كبير و تدهور العملة المحلية ، و ظهور فئات محمية غير خاضعة لمراقبة السلطان و لا تمسها الضريبة ، و فقدت الخزينة مواردها ، ثم جاء مؤتمر مدريد جويلية 1880م ، ليؤكد تلك الامتيازات و يفتح باب التنافس واسعا على المغرب .

---

1 شارل روبير اجرون ، م س ، ص 728.

2 عبد العزيز سليمان نوار و عبد المجيد نعنعي ، التاريخ المعاصر ، أوربا من الثورة الفرنسية إلى الحرب العالمية الثانية ، بيروت، دار النهضة العربية للطباعة و النشر و التوزيع ،2000 ، ص 231.

3 عبد القادر زمامة , من معركة ايسلي إلى معركة تطوان ، مجلة دعوة الحق ، العدد 321 ، أوت-سبتمبر 1996م ، منشورات مديرية الشؤون الإسلامية ، وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية – مطبعة الأمنية – الرباط .

- ازداد التنافس حدة بعد وفاة السلطان المغربي الحسن الأول سنة 1894م ، و خاصة مع بداية القرن 20م أين كثرت الفوضى في المغرب، و حاولت فرنسا إزاحة منافسيها عن طريق عقد اتفاقيات ثنائية مثل: اتفاقية 1902م مع ايطاليا التي أيدتها في احتلال ليبيا ، و 1904م مع بريطانيا التي اعترفت لها بموجبها بحمايتها على مصر ، و 1905م مع اسبانيا التي اتفقت معها على إعطائها منطقة الريف ، و جاء مؤتمر الجزيرة 1906م ليؤكد رجحان كفة فرنسا [1]. و برز المنافس العنيد ألمانيا الذي كاد يدخل معها في حرب سنة 1911م، بعد مهاجمته مدينة أغادير، و اضطرت فرنسا إلى إرضائه بجزء من مستعمراتها في الكونغو بناء على اتفاق 1911/11/04م .[2] و بقي على فرنسا بعد ذلك تنفيذ احتلالها ، فقررت إرسال حملة عسكرية لاحتلال فاس في أفريل 1911 م بقيادة موانييه ،[3] و لما فرضت حمايتها على المغرب في 1912/03/30م أصدرت مرسوما في 1912/04/08م لإنشاء الإقامة الفرنسية هناك، و هذه المغامرة الجديدة للفرنسيين، جعلتهم في أمس الحاجة إلى المزيد من القوات، فاحتلال بقية المناطق و تثبيت هذا الاحتلال يكلفهم قوات إضافية ، و لابد من توفيرها في حينها، دون انتظار ما يقدمه التطوع الإرادي ، و لن يتحقق ذلك إلا بالتجنيد الإجباري للجزائريين ، و قد تحمس "ميليران" وزير الحرب آنذاك للأمر كثيرا ، و اعتبره ضروريا جدا . [4]

خطر اندلاع حرب عالمية :

التنافس الاستعماري الذي تكلمنا عنه ، و اتخذنا المغرب الأقصى نموذجا له، زاد من توتر العلاقات بين الدول الأوربية، و ازدادت معه حمى التسابق نحو التسلح ، وولد ذلك انعدام الثقة بينها، و دفعها إلى التحالف مع بعضها البعض مكونة شبكة معقدة من التحالفات السياسية و العسكرية . فقد تشكل التحالف الأول سنة 1879م بين ألمانيا و إمبراطورية النمسا و المجر لمواجهة النفوذ الروسي في البلقان ، ثم توسع سنة 1882م بانضمام ايطاليا ليصبح تحالفا ثلاثيا، و لمواجهة التحالف الثلاثي وقعت بريطانيا عدة اتفاقيات منها : الاتفاق الودي مع فرنسا 1904م ، ومع روسيا 1907م، و أصبح الحلف يعرف بالوفاق الثلاثي .

---

[1] للاطلاع أكثر حول ما جرى في مؤتمر الجزيرة يوجد ملف حول المؤتمر في أرشيف ما وراء البحار بأكس اون بروفانس بفرنسا تحت عنوان : Conférence d'Algesiras 1905-1907، العلبة : 30H52

[2] فادية عبد العزيز القطعاني ، الحركة الوطنية المغربية 1912-1937م المجلة الجامعة ، العدد16 ، المجلد الأول ، فبراير 2014 منشورات كلية الآداب و العلوم ، جامعة بنغازي ، ليبيا، ص 45 .

[3] فرانسوا جورج دريفوس و آخرون ، موسوعة تاريخ أوربا من عام 1789 حتى أيامنا ، ج3، ترجمة حسين حيدر ، بيروت، لبنان، ط1، منشورات عويدات ، 1995 ، ص 346.

[4] شارل روبير اجرون ، م س ، ص 741.

و هذه التحالفات شكلت خطرا كبيرا على أوربا التي أصبحت على حافة قيام حرب أوربية كبرى، تتسع حتما لتصبح عالمية في ظل وجود مستعمرات خارج القارة ، و هو ما حتم على فرنسا استغلال الخزان البشري في مستعمراتها و خاصة الجزائر لمواجهة أي حرب محتملة ، و زاد من حتمية تجنيد أبناء الجزائر ضغط المستوطنين الأوربيين لاستغلال الأهالي في أية مواجهة عسكرية تكون فرنسا طرفا فيها. [1]

- تراجع نسبة المتطوعين من الأهالي في الوحدات العسكرية الفرنسية :

الظروف الاجتماعية عموما كانت الدافع الأساسي لانضمام الجزائريين إلى الجيش الفرنسي ، لكن حرب الإبادة التي شنتها القوات الاستعمارية على الشعب الجزائري و استعملت فيها المجندين ، زيادة على عدم وفاء الإدارة الاستعمارية بكل التزاماتها تجاه المجندين في الكثير من الحالات ، دفعت الكثير منهم سواء إلى الفرار من الجيش ، أو اللجوء إلى التمرد باستغلال أي فرصة مناسبة، مثلما حدث مع جنود الصبايحية الذين تمردوا على الجيش الفرنسي في جانفي 1871م بعد انهزام فرنسا في حربها مع بروسيا عام 1870م، و قتلوا ضباطهم الفرنسيين، [2] و بالمقابل قل كثيرا إقبال الشباب على الانضمام الإرادي للجيش ، و أصبح من الصعب إقناعهم ، رغم الإغراءات و التحفيزات التي كانت تروج لها الإدارة الاستعمارية [3] خاصة مع مطلع القرن 20م ، و حاجة فرنسا لبناء جيش قوي في إطار سعيها لتحقيق التوازن العسكري مع عدوتها التقليدية ألمانيا التي كانت تتربص بها و تهددها ، لذلك دفع الجزائريين إلى الانضمام للجيش لن يتم - حسب الضباط الفرنسيين - إلا عن طريق التجنيد الإجباري .

3-5-1 صدور قانون التجنيد الإجباري 1912 ومراسيمه :

شرعت السلطات الفرنسية في دراسة ملف التجنيد الإجباري للجزائريين قبل سنة 1912 م و بدأ التخطيط له سنة 1908م، و قدم ضباطها اقتراحات كثيرة حول كيفية التجنيد و الصعوبات التي يمكن مواجهتها أثناء العملية، خاصة في مجال الإحصاء و ضبط القوائم و مدى تقبل الأهالي لإلزامية التجنيد.[4] و بعد هذه الدراسات و التحضيرات أدرج قانون

---

[1] يحيى بوعزيز ، سياسة التسلط الاستعماري و الحركة الوطنية الجزائرية 1830-1954، الجزائر، دار البصائر للنشر و التوزيع ،2009، ص44.

[2] أبوالقاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية (1900-1930) ج 2، الجزائر، ط3 ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، 1983 ، ص 53 .

[3] من بين هذه التحفيزات : إعفاء المجندين من تطبيق قوانين الأنديجينا الزجرية عليهم ، إلغاء رخصة التنقل داخل الجزائر و مع فرنسا، إلغاء الكثير من المخالفات التي تستلزم دفع الغرامات، إحالة باقي المخالفات على قضاة الصلح بدلا من السلطات الإدارية... ينظر: يحيى بوعزيز، م.س ، ص 44 .

[4] هذه الدراسات موجودة في أرشيف ما وراء البحار بأكس اون بروفانس في شكل ملفات كبيرة تحت عنوان: études sur le recrutement des indigènes (Algérie-Tunisie)

التجنيد الإجباري ضمن جلسات البرلمان الفرنسي لتتم المصادقة عليه في 1912/02/03م، و نص على إلزام الجزائريين بتأدية الخدمة العسكرية بصفتهم رعايا فرنسيين [1] ، دون أن يأخذ في الاعتبار مواقف الجزائريين الرافضة للتجنيد، و نشر هذا القانون في الجريدة الرسمية "" المبشر "" يوم السبت 1912/03/02م [2]، و نص على تجنيد من يبلغ سن 18 سنة لمدة 03 سنوات كاملة ، على أن يبقى في الاحتياط بعد الخدمة لمدة 7 سنوات، و هو يحتوي على 30 مادة مقسمة في 04 أبواب كما يلي:

- الباب الأول : تضمن أحكاما عامة ، المادة الأولى منه تنص على تجنيد الأهالي المسلمين بصيغة الاختيار أو إعادة التجنيد.

- الباب الثاني : التأكيد على الأحكام الواردة في الباب الأول.

- الباب الثالث: يحتوي على ثلاث فصول ، تضم 23 مادة ، من المادة 03 إلى المادة 26

- الفصل الأول : و يتضمن 04 مواد (من03 إلى 06) و يتعلق بالاستدعاء.

- الفصل الثاني : و يشمل 05 مواد (من 07 إلى 11) و يتعلق بإحصاء الجزائريين.

- الفصل الثالث: 03 مواد (من 12 إلى 14) و يعين الأشخاص الذين يمكنهم الاستفادة من الإعفاء و التأجيل.

و أشار في هذا الشأن إلى الابن أو الحفيد الوحيد المتكفل بوالدته الأرملة، أو اليتيم الذي يعيل إخوته الصغار [3] .

- الفصل الرابع : تضمن سبع (7) مواد (من 15 إلى 21) و يتعلق بالقرعة ، و جمع الأشخاص.

- الفصل الخامس : خاص بالبديل أو إيجاد العوض ، و تضمنته المادة 22 ، كأن يدفع الغني مثلا المال للفقير مقابل تعويض ابنه ليجند بدلا منه ، شرط أن يكون هذا البديل قادرا على تأدية الخدمة العسكرية.

Z/G : Alg. Fonds G.G.A- العلبة : 3H61

[1] عبد الرحّمن بن العقون بن إبراهيم ، الكفاح القومي و السياسي من خلال مذكرات معاصرة ، الفترة الأولى (1920-1936) ج1، ط1 ،الجزائر، م. و. ك ، 1984 ، ص33.

[2] « Le Mobacher » N ͦ 5436, samedi 02 mars 1912, P01.

[3] ناصر بلحاج ، مواقف الجزائريين من التجنيد الإجباري (1912-1916م) ، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ المعاصر، المدرسة العليا للأساتذة ، بوزريعة ، الجزائر 2005، ص40.

- الفصل السادس : و يضم المادتين (23 و 24) ، و هو خاص بجمع الجنود ، و الذي لا يلتحق بالجيش حسب هذا الفصل في مدة 30 يوما بعد تعيينه في القرعة يعتبر متمردا.

- الفصل السابع : خاص بالمرتب و الجوائز، وهو ما تنص عليه المادة 25 ، حيث حددت المنحة ب250 فرنكا.

- الفصل الثامن : يتعلق بالأحكام الجزائية و تتضمنها المادة 26.

- الباب الرابع : و يحتوي على أربع مواد (من27 إلى 30) و يتعلق بالأحكام الخصوصية، حيث تحدد الامتيازات التي يحظى بها العسكريون القدامى ، و تنظيم الجنود.

1-5-4 تطبيق القانون : تم تكليف فرق بإحصاء الشباب الجزائري القابل للتجنيد ، و تنظيم القرعة و اختيار المجندين ، و هذه الفرق تكون مرفوقة بقوات عسكرية من الرماة و الصبايحية و المشاة لتفادي أية مخاطر قد تواجه هذه الفرق . بدأ تطبيق القانون في جوان 1912م بتحديد الولاية العامة و قيادة الجيش بالجزائر للعدد المطلوب للتجنيد ب2550 شابا لسنة 1912م، موزعة على مقاطعات الجزائر كما يلي :

- عمالة الجزائر: المسجلون البالغون 18 سنة: 8483- العدد المطلوب للتجنيد: 753 جنديا.

- عمالة قسنطينة: المسجلون البالغون 18 سنة: 13532 - العدد المطلوب للتجنيد: 1331 جنديا.

- عمالة وهران: المسجلون البالغون 18 سنة: 4707 - العدد المطلوب للتجنيد: 466 جنديا.

و لم تكن بداية تطبيق هذا القانون سهلة على الفرنسيين، إذ حدثت احتجاجات بالبرواقية بإقليم المدية ، و بدلس في ضواحي تيزي وزو كما امتنع الشباب عن الحضور للقرعة في أم البواقي و فر أغلبهم إلى الجبال ، ووقعت اضطرابات في تلمسان و ندرومة [1] .

6-1 الحروب التي أقحم فيها المجندون الجزائريون:

1-6-1 الحرب الفرنسية البروسية 1870م - 1871م :

[1] ناصر بلحاج ، م س ، ص 108

بدأت هذه الحرب من 19 جويلية 1870م إلى 10 ماي 1871م، في عهد الإمبراطورية الفرنسية الثانية بقيادة نابليون الثالث. و كانت فرنسا دولة عظمى لها مكانتها في أوربا ، بينما كانت بروسيا إمارة فتية تسعى لتوحيد ألمانيا من خلال محاولة استرجاع آخر مقاطعة كانت تحت السيطرة الفرنسية وهي الألزاس و اللورين . و تمكنت بروسيا من جمع جيش قوي قوامه 550 ألف جنديا لمواجهة الجيش الفرنسي الذي لم يكن عدد أفراده يتجاوز 500 ألف جنديا ، و كفاءتهم القتالية أقل مما يحظى به الجيش البروسي من تنظيم و حسن تدريب و تسليح . و رغم ذلك اندفع الفرنسيون وراء غرورهم ، اعتقادا منهم أنهم قادرون على تحطيم بروسيا لإعلان الحرب، و مباشرة بعد الإعلان تلقى اللواء الأول للرماة الجزائريين الأمر بتشكيل ثلاث فيالق حربية للمشاركة في القتال ، في حين كان اللواء الثاني في باريس منذ 4 جوان 1870م ، و صدرت إليه الأوامر بالتحرك نحو هاغنو(Haguenau) في شمال الألزاس، والتي وصلها في 29 جوان 1870م رفقة بقية الفيالق الجزائرية، ليتعدى بذلك عدد الجزائريين 2225 جنديا، لم يكن بينهم أي خيالة [1] . و أمام عدم تكافؤ القوى بين الطرفين، تمكن البروسيون من تحطيم الجيش الفرنسي ، و حصدت المدفعية البروسية المئات من الرماة الجزائريين الذين وضعوا في المقدمة ، رغم مقاومتهم بشجاعة و دون أي أمل في النصر ، و حتى الذين اختبأوا وراء الأشجار لحماية زملائهم المنسحبين من المعركة قضت على بعضهم الآلة العسكرية البروسية، و توفي آخرون منهم متأثرين بجروحهم لعدم تلقيهم الإسعاف.

وكانت الحصيلة حسب تقرير العقيد مورندي Morandy. 800 قتيل من الرماة الجزائريين، أي ما يقارب نصفهم الذي حضر معارك هذه الحرب [2]. و منها معركة ويسمبورغ في 04 أوت 1870م، و التي دفع فيها الجنود الجزائريون ثمنا باهضا لأنهم كانوا يهاجمون البروسيين بحماس دون مبالاة لمن يسقط منهم ، رغم أنها حرب لا تعنيهم.

1-6-2 حرب مدغشقر 1895م-1898م:

مدغشقر جزيرة في المحيط الهندي و هي رابع أكبر جزيرة في العالم تقع في أقصى الجنوب الشرقي لقارة إفريقيا، يفصلها عنها مضيق موزمبيق، تبلغ مساحتها الإجمالية 587,041كم^2

اهتم بها الفرنسيون منذ عام 1666م حيث وصلها فرانسوا كارون مدير شركة الهند الشرقية الفرنسية ، و تمكنت الشركة من إنشاء بعض الموانئ على الجزر القريبة منها و المعروفة اليوم ب (ريونيون ، و موريس) . و بقيت أطماع فرنسا تحوم حول الجزيرة

[1] محمد بجاوي ، المجندون الجزائريون، م س ، ص 168 .
[2] محمد بجاوي ، نفسه ، صفحة 168 .

إلى أن غزتها في عام 1883م و سيطرت على الساحل الشمالي، ووافقت بريطانيا على الحماية الفرنسية الكاملة على الجزيرة عام 1890 في إطار تقاسم مناطق النفوذ على القارة بعد مؤتمر برلين 1885/1884 م. و حتى تتمكن فرنسا من فرض هيمنتها الكاملة على الجزيرة حضرت تحضيرا جيدا لحملة الاحتلال، و خصصت اعتمادا ماليا معتبرا أقره قانون 1894/12/7م ، قدر ب65 مليون فرنك لتحضير هذه الحملة ،[1] و لكن المشكل الذي تخوف منه الفرنسيون هو الأرضية الصعبة للجزيرة، و مناخها الذي يصعب عليهم التأقلم معه [2] .

و ما يهمنا في هذه التحضيرات ما يتعلق بالجزائريين ، فقد تمكنت الإدارة الاستعمارية من تجنيد 7000 شاب من سكان منطقة القبائل لضمان الخدمات التي يحتاج إليها الجيش كنقل المعدات ، كما صدرت الأوامر لنقل الرماة الجزائريين الذين كانوا متحمسين كعادتهم لهذه الحرب ، ينشدون و هم متوجهون إلى الموانئ للمشاركة في القتال أنشودة تعبر عن لامبالاتهم بالمخاطر ، وترفع معنوياتهم .

من بعض مقاطعها : (النخبة و الرماة إلى الأمام ، نمشي جميعا من دون خوف - بالمفرقعات و المتفجرات سنصبح أسيادا في مدغشقر). [3]

وقد انطلق لواء الرماة نحو الجزيرة في 15 مارس 1895م، و كان يضم ثلاثة فيالق موزعة كما يلي: [4]

الفيلق الأول : و يتكون من كتيبتين و تم إنشاؤه في مدينة سيدي بلعباس .

الفيلق الثاني : و يتكون من كتيبتين أيضا ، تم إنشاؤه في أورليان فيل (الشلف حاليا) .

الفيلق الثالث : و يضم بدوره كتيبتين ، تم تكوينه في مدينة سكيكدة في 05 فبراير 1895م.

و حدد عدد أفراد كل كتيبة ما بين 200 إلى 225 جنديا. و لدفعهم إلى الاستبسال في القتال، خدمة لأهداف فرنسا في بسط نفوذها على الجزيرة ، أثار الجنرال "متزينجر" حماسهم (Metzinger)قائلا: "" الرماة الجزائريون لهم الحق في أن يفتخروا بالصفحات المشرقة لتاريخهم العسكري المجيد في فرنسا و الجزائر ، لقد كان لهم الفضل في نجاح عملياتنا العسكرية في مختلف بقاع العالم بفضل شجاعتهم، و قدرتهم الفائقة على تحمل الصعاب و

---

[1] Rapport du général Duchesne sur l’expédition de Madagascar 1895/1896, adressé le 25/04/1896 au ministre de la guerre. Imp. Berger-levraut et Cie, Nancy, juillet 1897, P14

[2] محمد بجاوي ، م س ، ص 173.

[3] محمد بجاوي ، نفسه، ص174 .

[4] نفسه ، ص 176.

المشاق"[1]. وصل الجنرال "ميتزنجر" بفرقه إلى ميناء ماجونغار في 1895/02/28م، و استعد الجنود للمواجهة بوضعهم في مقدمة الطوابير كالعادة، و لكن الذي حدث أن الأهالي سرعان ما فروا من المواجهة،[2] و تمكن الجزائريون من فتح الطريق نحو العاصمة " تناناريف "[3] و لم يبق أمام الفرنسيين سوى إتمام زحفهم .

أخذ الجيش طريق ماجونغا-أندريبا ، و كان على الجزائريين القيام بأعمال حفر و شق في الكثير من المناطق ليتمكنوا من نقل معداتهم ، و رغم ذلك كانوا أكثر صمودا في الوقت الذي مات فيه الكثير من الفرنسيين، منهم 90 أصيبوا بالحمى[4] .

و دخلوا أندريبا في 1895/08/20 م و فر من جديد المقاومون تاركين كميات كبيرة من الأرز و أسلحتهم، ثم واصلوا الزحف نحو تناناريف التي دخلوها في 1895/09/30م بعد مسافة 150 كلم كلفتهم إرهاقا شديدا .[5]

و أثبت الجزائريون من جديد في هذه الحرب ، رغم صعوبة التضاريس و خطورة المهمة، و طول المسافة إلى مدغشقر و ما يكلفه ذلك من عناء و إرهاق و أمراض كالذي حدث في المنطقة ، قدرات قتالية فائقة و صبرا و صمودا أدهش القادة العسكريين الفرنسيين أنفسهم ، و جعلهم يثنون عليهم في تقاريرهم العسكرية .

1-6-3 الحرب العالمية الأولى 1914م-1918م :

تضافرت عوامل عديدة كانت وراء قيام الحرب العالمية الأولى، وما حادثة اغتيال ولي عهد النمسا في 1914/07/28م، إلا فتيل أشعل هذه الحرب كسبب مباشر . أعلنت فرنسا التعبئة العامة ، و سارعت إلى تجهيز جيوشها دفاعا عن نفسها ضد عدوها التقليدي ألمانيا و حليفته : النمسا و المجر ، و من تبعهما فيما بعد ، فوضعت مخططا كان يقضي في البداية بأن ترسل إلى أراضيها ، زيادة على بعض الفيالق من الصبايحية و القناصة فرقتين من المشاة ، تضم تسعة فيالق من الزواف ، و 16 كتيبة من الرماة .

ولم يكن هذا المخطط ينطبق على 82 ألف رجل من جيش الاحتلال المرابط بالمغرب، و الذي يتكون في غالبيته من الجزائريين، و لكن حاجة الحرب جعلت أمر هذه البعثة غير

---

[1] نفسه ، ص 177 .

[2] Jules Poirier, conquête de Madagascar 1895-1896, édit. Henri Charles Lavauzelle, paris, 1902 p20.

[3] أونتاناناريفو أو تناناريف" : العاصمة السياسية لمدغشقر سنة 1895م، تقع على الهضبة الصخرية في القسم الأوسط للجزيرة ، بنيت في بداية القرن 17 ، و هي اليوم أيضا مركز اقتصادي و ثقافي و إداري هام في البلاد, ينظر : محمد بجاوي ، م س، ص 179

[4] Jules Poirier, op.cit. P17.

[5] Jules Poirier,ibid, P22.

كاف [1] ، و اضطرت فرنسا إلى تجنيد الكثير من الجزائريين لتعويض النقص و تقوية جيشها . ففي 27 جويلية 1914 م، أبرقت وزارة الحرب إلى الجنرال ليوطى بضرورة نقل القسم الأكبر من فرق النخبة إلى فرنسا ، و تم فعلا إرسال خمس فيالق من القناصة الجزائريين في المغرب تحت قيادة الجنرال ديت ، و فرقة من 13 كتيبة من الزواف و الرماة ، و فوج مختلط (زواف-رماة) يضم كتيبتين من الرماة الجزائريين ، وواحدة من الزواف التونسيين .

و ما أن اشرف شهر أوت على نهايته حتى كان عدد المجندين يقدر بالآلاف ، رمت بهم السلطات الاستعمارية في مقدمة المعارك على مختلف الجبهات كعادتها في الحروب السابقة ، و متجاوزة ما نص عليه قانون التجنيد الإجباري من شروط .[2]

و في 27 أوت 1914م تم نقل أعداد أخرى من المجندين الجزائريين ، بعد وصول الضابط " شاردوني " إلى الجزائر العاصمة لتحضير فرقة قوية لدعم المجهود الحربي في جبهات القتال ، و تمكن فعلا من جمع 42 كتيبة تم تجنيد أفرادها إجباريا، رغم المعارضة الشديدة لأهاليهم [3] و أرسل هؤلاء المجندون بدورهم إلى جبهات القتال ، و هناك أدت الفرق الجزائرية دورا بارزا ، و صمدت في كل المعارك التي أقحمت فيها ، و قاومت ببسالة كما حدث في معركة المارن [4]. فقد حاولت فرنسا رفع معنويات المقاتلين الجزائريين عن طريق رفع منحهم، وفق مرسوم 15 أكتوبر 1914م من 250 فرنكا التي نص عليها قانون التجنيد الإجباري إلى 400 فرنك ، و لكن رغم ذلك بقيت حالات الفرار و معارضة التجنيد مرتفعة ، خاصة لما وصلت أخبار من الجبهة، مفادها أن عددا كبيرا من الجزائريين قد قتل في معركتي شارلروا و المارن لوجودهم في مقدمة الجيوش الفرنسية [5] ، و تشير بعض الكتابات أن عدد الفارين من المجندين في الخمسة الأشهر الأولى في 1914م كان في حدود 237 ، 57 منهم لم يلق عليهم القبض ، اعتصموا بالجبال. هذا داخليا أما في جبهات القتال

[1] Gibert Meynier, l’Algérie révélée, la guerre de 1914-1918 et le 1er quart du 20e siècle, librairie Droze, Genève 1981 P259

[2] رابح لونيسي و آخرون , تاريخ الجزائر المعاصر (1989-1830) ج1 ، الجزائر، دار المعرفة ، 2006، ص213.

[3] حالة غليان شديدة عمت مناطق كثيرة من الجزائر اثر مباشرة السلطات الاستعمارية عمليات إحصاء الشباب القابل للتجنيد حيث أشارت تقارير الإداريين الفرنسيين إلى فرار الشبان إلى الجبال على غرار الونشريس ، الظهرة ، القبائل ، ايدوغ ، و المنطقة الكبرى في الجنوب القسنطيني لتتحول إلى حالة تمرد بدءا من سبتمبر 1914 في كل من تبسة ، خنشلة ، بلزمة ، بريكة ، بوسعادة ، ووصلت إلى غاية منطقة بني شقران ، و فرندة و حوض الشلف , ينظر: Gilbert Meynier , op.cit. , P280.
وأيضا : تقرير رئيس بلدية معسكر برونيي من 12 صفحة حول انتفاضة بني شقران مؤرخ في 1914/10/15م و نسخته الأصلية موجودة بأرشيف ما وراء البحار .

[4] المارن : إقليم فرنسي يقع في شمال شرق فرنسا , يسمى بالمارن نسبة لنهر المارن الذي يجري بالإقليم ، وقعت به معركتان الأولى ما بين 6-12 سبتمبر 1914 و كانت معركة هجومية قامت بها القوات الفرنسية و البريطانية على القوات الألمانية ، و الثانية من 7/15 إلى 6 أوت 1918 شاركت فيها قوات فرنسية و أمريكية و بريطانية و ايطالية ، و كانت مشاركة الجزائريين جد فعالة في المعركة الأولى.
ينظر: Meynier , ibid. P 260

[5] Gilbert Meynier, ibid. P 262

فقدر عدد الفارين ب2500 جندي جزائري كان من أبرزهم الملازم الحاج عبد الله، و تم استقبالهم في مركز ألماني سمي (الهلال) و عوملوا معاملة حسنة بهدف إقناعهم بالانضمام إلى الجيش العثماني .[1] و حتى ظاهرة التطوع قلت كثيرا بدورها ، اثر وصول أنباء المعركتين السالفتي الذكر ، بعدما كان معدله حسب الجنرال موانيي : 133 مجندا يوميا ، إذ أصبح الجزائريون متخوفين جدا على أبنائهم ، و يرفضون نقلهم للحرب ، و حتى ظاهرة العصيان بدأت تظهر في صفوف المجندين في جبهات القتال اثر ذلك ، و هو ما دفع الضباط الفرنسيين إلى ترهيبهم و معاقبتهم دون شفقة أو رحمة ، بما في ذلك الذين لم تصدر منهم أية حركة تمرد ، لدفعهم إلى عدم التفكير أصلا في العصيان .[2]

فالجنرال " بلان " في مقاطعة " تراسي لومون " في شمال فرنسا ، قائد الفرقة 73 كتب لمسؤوليه أنه أعدم بنفسه اثني عشر جزائريا من الرماة ، لم يمتثلوا لأمره .[3] و في 1914/12/15 م الجنرال دوربال (D’urbal) قائد الجيش الثامن ، يصدر أوامره بإخراج واحد من الرماة في كل عشرة دون سبب يذكر، و كتب على ظهورهم كلمة (جبان) و أمرهم بالتوجه صوب الألمان دون سلاح ، و إن لم يقتلهم الألمان يقتلون بسلاح زملائهم وفق أوامره ، حتى يثير في بقية زملائهم الرعب ، و يفرض عليهم الطاعة و الولاء . و أشار موانيي في تقريره أيضا أن التطوع توقف تماما مع نهاية نوفمبر 1914م و اضطرت فرنسا إلى التجنيد الإلزامي فقط .[4] و تشير بعض الدراسات أن الطريقة الوحيدة التي بقيت في هذه السنة هي (تجارة الجنود) التي عمد إليها بعض الأعيان في ظل انتشار الفقر في أوساط الجزائريين ، حيث كثيرا ما يضطر أحد الأفراد اليائسين من أحوالهم المتدهورة جدا إلى بيع نفسه إلى هؤلاء الأعيان بثمن معين وفق وزنه ، ليباع من جديد للإدارة الاستعمارية و ينقل إلى جبهات القتال [5].

ثم هناك ظرف آخر زاد من إصرار الاستعمار على تجنيد المزيد من الجزائريين ، يتمثل في قصف الغواصتين الألمانيتين للسواحل الجزائرية في أوت 1914م ، و الذي حاولت الإدارة الاستعمارية استغلاله لصالحها ، حيث طالب الحاكم العام شارل ليتو [6] الجزائريين

---

[1] G-Meynier, ibid. P279.

[2] ناصر بلحاج ، م س ، ص 5.

[3] Gilbert Meynier, op.cit. P. 275.

[4] Meynier,ibid. , P 279.

[5] ناصر بلحاج ، دور الدعاية العثمانية – الألمانية في رفض التجنيد الإجباري بالجزائر ، و الدعاية الفرنسية المضادة خلال الحرب العالمية الأولى (1914-1918) ، مجلة الواحات للبحوث و الدراسات ، العدد 03 ، 2008 ، منشورات جامعة غرداية . ص 17.

[6] شارل ليتو : ولد يوم 1855/11/15 في ماصون بفرنسا ، عين على رأس مدينة الجزائر في ديسمبر 1898 و لكن أحداث مارغريت (9 كلم عن مليانة) في 1901/04/26م و التي قتل فيها 06 أوربيين عجلت بسقوطه قبل إعادة تعيينه حاكما عاما على الجزائر من 1911/05/22 إلى 1918/01/29م.ينظر: Marc Olivier Gavois ,le tournant de 1899-1902 dans la maçonnerie en Algérie, Cahiers de la Méditerranée, № 72/2006,labo.de recherche de l’université de Nice, p.360.

بالذود عن (وطنهم الأم) فرنسا ، و فرض حالة الطوارئ ، و استنفر منابر المساجد للنداء للتجنيد ، و قد تجاوب معه الأئمة الرسميون، و خصصوا خطب الجمعة لدعوة الشباب للانخراط في صفوف الجيش، دفاعا عن (الحرية التي تمثلها فرنسا) كما ادعوا و ضد (الهمجية التي تمثلها ألمانيا) و كانوا يدعون لفرنسا بالنصر ، و يعتبرونها بلادهم الأم.[1] و جاءت مراسيم 1916م لتدفع بآلاف الجزائريين إلى الحرب، رغم استنكار الأهالي و زيادة حدة الانتفاضات (الأوراس ، الطوارق) بعد تلك التي عرفتها سنة 1914م (أخطرها ثورة بني شقران) ، فقد أصدرت وزارة الحرب بباريس مرسوم 1916/09/07م الذي يجيز للحاكم العام في الجزائر استدعاء كل الجزائريين المولودين عام 1890 و ما تلاها ، و البالغين سن 18 سنة فما فوق ، و يعني بهم الشبان الذين تم تعليق أسمائهم على قوائم الإحصاء منذ سنة 1909م شرط توفر الصحة الجيدة .[2] وبموجب هذا المرسوم تم تكليف الأعيان باختيار الشبان الذين يمكن تجنيدهم، مما تسبب في انتشار الرشوة، حيث أصبحوا يتقاضون الأموال و الذهب مقابل عدم تجنيد أبناء العائلات الغنية ، و كانت قوائمهم تتضمن أسماء أبناء العائلات الفقيرة فقط، ثم دعم هذا المرسوم في نفس الشهر بمرسوم آخر في 1916/09/14م يفرض التجنيد على العمال و كان ينص على ضرورة تجنيد 17500 عامل [3] و كانت الإدارة الاستعمارية تجند العمال من بين الشباب البالغين سن 18 سنة، و تنقلهم إلى فرنسا للعمل لمدة سنة واحدة قابلة للتجديد ، مقابل منحة قدرها 120 فرنكا،[4] يشتغلون في المصانع و الورشات الحربية و المزارع و المناجم و باقي القطاعات التي نقص فيها العمال، جراء تجنيد أغلبهم في الجيش للمشاركة في المعارك الدائرة بمختلف الجبهات ، و قد وصل عدد المجندين إجماليا -حسب الدكتور يحيى بوعزيز - إلى 400 ألف جزائري في ميادين القتال و لخدمة أغراض الحرب ، قتل منهم الآلاف.[5]

و قد قدر الأستاذ ناصر بلحاج عدد ضحايا الحرب من الجزائريين ب56 ألف قتيلا، و الجرحى: 82000 .[6] بينما لم يعترف الجيش الفرنسي إلا بحوالي 25711 قتيلا و 72035 جريحا ، زد على ذلك تيتم عشرات الآلاف من الأطفال، و ترمل آلاف النساء وتدهورت الأحوال المعيشية للسكان و انتشرت بينهم المجاعة بعد مصادرة الجيش لحبوبهم من مخازنهم الأمنية ، و شراء بقية منتجاتهم الفلاحية بأثمان زهيدة و مؤجلة الدفع ، و استخلاص ضرائب باهضة، و بالتالي عانى الجزائريون كثيرا من انعكاسات هذه الحرب سواء داخليا ، أو أولئك المجندون الذين نقلوا إلى جبهات القتال في ظروف كارثية.

[1] ناصر بلحاج ، دور الدعاية..، م س ، ص 09.
[2] مرسوم 1916/09/07، جريدة المبشر، العدد 5912، 1916/09/23 م.
[3] مر سوم 1916/09/14، المبشر، العدد5914، السبت 1916/09/30م.
[4] ناصر بلحاج ،دور الدعاية..، م س ، ص 15 .
[5] يحيى بوعزيز ، م س ، ص 44.
[6] ناصر بلحاج ،دور الدعاية..، م س ، ص 16.

2- التجنيد في تونس :

2-1 التجنيد العسكري في تونس قبل ح ع 1 :

خضعت تونس للحماية الفرنسية منذ توقيع الباي محمد الصادق على معاهدة باردو مع المفوض السامي الفرنسي الجنرال بريار في 12 ماي 1881م ، و قد أقر الباي بموجب هذه المعاهدة مسألة التجنيد لصالح فرنسا لمدة ثلاث سنوات.[1] و الواقع أن قضية التجنيد في تونس كانت مطبقة منذ ما قبل فرض الحماية الفرنسية ، حيث صدر قانون سنة 1857م ، عدل في 07-02-1860م ، أرسى أسس الخدمة العسكرية الإجبارية في البلد و قد نص على التجنيد الإجباري لمدة ثلاث سنوات مع بقاء المجند بعد تسريحه ضمن الاحتياط لمدة سبع سنوات .

و يخضع لهذا الإجراء جميع التونسيين المسلمين، و يعفى منه الشباب المتخرج من جامع الزيتونة بشرط إحضار شهادة تخرج تثبت ذلك .[2] و بالتالي فظاهرة التجنيد الإلزامي للتونسيين لم تكن مفاجئة لهم بعد المصادقة عليها من قبل الباي ، و مباشرة بعد إخماد عمليات المقاومة شرعت فرنسا في تجنيد الشباب التونسي ، إذ أصدرت قانون 31 ديسمبر 1882م و القاضي بإنشاء 12 وحدة عسكرية مختلطة من فرنسيين و تونسيين في القطاعات الثلاث : مشاة ، خيالة ، مدفعية ، كل وحدة تضم 10 ضباط فرنسيين ، 212 جنديا من المشاة منهم : 68 فرنسيا و 144 تونسيا، و 43 خيالا منهم 10 فرنسيين و 33 تونسيا ، و 44 رجل مدفعية فرنسيا . و العسكريون من الأهالي خاضعون طبقا لهذا القانون للقضاء العسكري الفرنسي ، و قد حددت مدة التجنيد بثلاث سنوات، و في ديسمبر 1883م أنشأت فرنسا حرسا بايلكيا بلغ عدد أفراده 500 مجند من المشاة و الخيالة و رجال المدفعية، تحت قيادة ثلاث ضباط فرنسيين، يتدرجون في الرتب من قائد كتيبة إلى نقيب و ضابط إداري.[3]
و عمليات التجنيد كانت تتم عن طريق القرعة التي تنظمها مكاتب الاعلامات ، و تشرف على مراقبتها لجنة مكونة من مدنيين و عسكريين ، و استثني من هذه العمليات بعض القبائل القاطنة في المناطق العسكرية الجنوبية، و التي شكلت فرقا من القوم، و تعاونت مع سلطات الحماية، و أثبتت ولاءها لها بفرض الطاعة على السكان للفرنسيين ، و مراقبة تحركاتهم و جمع المعلومات عنهم و تبليغها للإدارة الفرنسية ، إضافة إلى سكان المدن الكبرى كتونس العاصمة و سوسة و صفاقص و معهم اليهود و خريجوا الزيتونة ، مع

---

[1] Jules le Gac, la mobilisation des populations de l'Afrique du nord pour la libération de l'Europe, cahiers de l'orient N° 119, juin 2015, SED- Paris, P95.

[2] François Arnoulet, les tunisiens et la première guerre mondiale 1914-1918 revue de l'occident musulman et de la méditerranée (R.O.M.M) volume 38, année 1984/2, P47.

[3] François Arnoulet, ibid. P47.

الحفاظ على ظاهرة التعويض.[1] و سعيا للحفاظ على الأمن الداخلي ، أستغل التونسيون أيضا في وحدات الدرك بتجنيد 16 دركيا تونسيا لكل 72 دركيا فرنسيا، لتجنب أي حركة عصيان أو تمرد، و لم تستقر فترات التجنيد طيلة الحقبة التي سبقت الحرب العالمية الأولى على مدة زمنية محددة ، و لو أن ثلاث سنوات كانت الفترة الغالبة عموما ، ففي سنة 1884م انتقلت إلى أربع سنوات ، ثم تقلصت عام 1886م إلى سنتين، ثم عادت إلى ثلاث سنوات عام 1889م، طبقا لقانون 26 ديسمبر الذي فرض التجنيد على كل تونسي يتراوح سنه بين 19 و 21 سنة، ينفذ عن طريق القرعة أيضا بحضور شيخ البلد و القايد و المراقب المدني الفرنسي.[2]

و يحدد العدد المطلوب من المجندين - طبقا لهذا القانون- بمرسوم، و العدد هذا بقي طيلة السنوات التي سبقت قيام الحرب العالمية الأولى في حدود 4212 مجندا ،[3] و هو عموما ما يقارب نصف الأشخاص الذين يصلحون للتجنيد. و تضمن هذا القانون كالعادة أيضا طبيعة الأشخاص الذين يمكن إعفاؤهم وهم الطلبة، رجال الدين، الشيوخ، القياد، الحلفاء، و كل من يدفع ثمن التعويض المقدر بألف (1000) فرنك،[4] و طبعا هذا الثمن قابل للارتفاع في الفترات الصعبة كما حدث في سنوات 1914-1918م، و لم يهمل هذا القانون فتح مجال التطوع في الجيش، باستغلال الظروف الصعبة التي كان المجتمع التونسي يمر بها، على غرار بقية شعوب شمال إفريقيا التي كانت أوضاعها الاجتماعية مزرية ، خاصة و أن تونس عرفت منذ سنة 1900م مواسم فلاحية رديئة بسبب الجفاف و كثرت البطالة، و انخفض المستوى المعيشي إلى أدنى مستوى ، و أصبح الانخراط في الجيش أمرا محتما للعديد من الشباب. ورغم إقبالهم على التطوع أملا في تحسين وضعهم الاجتماعي إلا أن النسبة التي كانت تنتظرها إدارة الاحتلال لم تكن كافية ، و بدأت منذ سنة 1904م تعمد إلى الاحتياطيين لملأ ثكناتها العسكرية . و هذه الظروف، و في إطار السباق نحو التسلح و الذي أصبح السمة البارزة لأوربا منذ نهاية القرن التاسع عشر، أين ظهرت الأحلاف التي أزمت الوضع الدولي، دفعت فرنسا إلى العودة من جديد إلى قوانين التجنيد العسكري ، فأصدرت قانون 1910/04/13م و الذي نص على صفة التعاقد مع الجيش لمدة تتراوح بين ثلاث و خمس سنوات قابلة للتجديد، و كان على فرنسا أن تجمع أكبر عدد من المجندين لأنها كانت

---

[1] François Arnoulet, opcit. P47.

[2] Les tunisiens dans la grande guerre 1914-1918 une mémoire centenaire oubliée, par réalités online ,14 Nov. 2014

[3] Daniel Goldstein, libération ou annexion aux chemins croisés de l'histoire tunisienne1914-1922, édit maison tunisienne de l'édition, Tunis, 1978, P.162

ملاحظة : هذا العدد نفسه يحدده فرانسوا أرنوليه ب4112 جنديا ، و لم نتمكن من العثور على إحدى المراسيم التي سبقت الحرب للتأكد من العدد الصحيح . ينظر : François Arnoulet, op.cit. P47.

[4] Eric Deroo et Pascal le Pautremat, héros de Tunisie, spahis et tirailleurs d'Ahmed Bey 1er a lamine Bey 1833-1957 édit. Cérès, Tunis, 2005, P 40.

تحضر لإرسال حملة عسكرية لاحتلال فاس، و فرض الحماية على المغرب الأقصى بعدما تمكنت من إزاحة منافسيها عن طريق الاتفاقيات المبرمة معهم، وكان من المقرر إرسال هذه الحملة سنة 1911. [1]

و حتى تستغل الإدارة الفرنسية الشباب التونسي في تحقيق أهدافها التوسعية بشكل جيد ، قامت بأول إحصاء سكاني سنة 1911م أفضى إلى حوالي 1,7 مليون نسمة ، منهم 88 ألف ايطالي و 48 ألف فرنسي، [2] و بالتالي فكل المجندين حسب العدد السكاني سيكونون بين 18 و 45 سنة، و شارك التونسيون بدورهم مع الفرق الجزائرية في احتلال المغرب، و بقيت منهم عدة وحدات مرابطة بأراضيه إلى غاية قيام الحرب العالمية الأولى.

2-2 تطور عمليات التجنيد أثناء الحرب العالمية الأولى(1914م-1918م) :

بمجرد إعلان الحرب و ضعت البلاد في حالة طوارئ , و كان وزير الحرب في تونس جنرالا فرنسيا، و ما على الباي سوى إمضاء قرار التعبئة و مباشرة عملية التجنيد لصالح فرنسا. أول إجراء أتخذ كان استدعاء الدفعات السبعة الأخيرة من الاحتياطيين (1904م-1911م)، و هذه الإجراءات طبقت فقط على المسلمين التونسيين و اعفي منها اليهود [3] ثم صدرت عدة مراسيم تضمنت تفاصيل حول عملية التجنيد و المدة الزمنية المحددة منها : [4]

- **المرسوم البايلكي** : 1914/8/9م : و تضمن استدعاء احتياطيي 1901م-1902م -1903م و المسرحين من 1 جانفي إلى 1 أوت 1914م.

- **المرسوم البايلكي** : 1914/9/1م : ينص على استدعاء دفعة 1914م ، و حافظ على التعويض الذي تضمنه مرسوم 1902/11/5م لشباب دفعة 1914م إلى غاية 1914/08/10م.

- **المرسوم الفرنسي** : 1914/08/10م : نص على تجنيد التونسيين بصيغة التعاقد لكل مدة من الحرب ابتداء من سن 17 سنة، بينما قانون 1910/04/13م لم يسمح سوى بمدة 03، 04، أو05 سنوات.

- **قرار الإقامة الفرنسية** 1914/08/11م : تضمن إنشاء فرق إضافية من القوم تحت قيادة المراقب المدني في كل منطقة خاضعة لإشراف القايد.

---

[1] Julie le Gac, op.cit. P95.
[2] Eric Deroo, Pascal le Pautremat, op.cit. P74.
[3] Eric Deroo, Pascal le Pautremat, ibid. P 75.
[4] François Arnoulet , op.cit. P 48.

المرسوم البايلكي 12 سبتمبر 1914م : نص على إبقاء دفعة 1911م في الخدمة ، و السماح للمتعاقدين مع الجيش بتجديد عقودهم لمدة ثلاث سنوات أخرى ، و تطبيق عقوبات صارمة على الممتنعين عن التجنيد، و الفارين من وحداتهم العسكرية، و اعتبر هذه الحالات جريمة يعاقب عليها القانون ، و هو في الواقع يترجم الخوف من الانخراط في صفوف العصابات أو حركات التمرد و الانتفاضات . و فعلا لما وقعت حالات فرار من الجيش الاستعماري في عدة مناطق من تونس، وألقي القبض على الفارين تعرضوا لعقوبات قاسية، تراوحت بين الإبعاد إلى السجون الفرنسية مثل سجن سان نيقولا بمرسيليا و سجن ليون و السجون العسكرية بالجزائر، و قضاء محاكم عسكرية على آخرين بالإعدام أو الأشغال الشاقة ، مثلما حدث في بنزرت في نوفمبر 1914م بعد معارضة شباب مجندين لقرار نقلهم إلى الحرب فتم إعدامهم . [1]

مع بداية سنة 1915م تم استدعاء عشر دفعات أخرى من الاحتياطيين أمام النقص المسجل في عدد المتطوعين ، و حتى تدفع الشباب و تشجعهم على الالتحاق بصفوف الجيش ، عرضت الإدارة الفرنسية منحا جديدة على التونسيين تمثلت في: 200 فرنك كمنحة أولية ، و منحة سداسية ب 100 فرنك زيادة على العلاوات المساوية لتلك التي تمنح للفرنسيين. [2] و استمرت عملية التجنيد أيضا سنة 1916م، رغم تخوف السلطات الاستعمارية من حدوث انتفاضات في تونس على غرار تلك التي حدثت في الجزائر في هذه الفترة ، وتم تجنيد 5272 شابا إجباريا ، بينما بلغ عدد من عرضوا أنفسهم للتعويض و تم قبولهم و إرسالهم إلى جبهات القتال 2585 ، و هو عدد مرتفع نسبيا مقارنة بعدد المعوضين في السنوات التي سبقت هذا التاريخ ، و ربما يرجع ذلك إلى الظروف الاجتماعية الصعبة التي كانوا يعيشونها . و المجندون من الأهالي التونسيين كانوا يجمعون مع بقية إخوانهم في شمال إفريقيا في مراكز آرل(Arles)- ألاس(Alès)- طراسكون ، و بوكار(Beaucaire)، و هي كلها مناطق عانى فيها المجندون معاناة شديدة بإسكان غالبيتهم في كنائس قديمة مهجورة ، مهدمة ، دون ثياب كافية تقيهم البرودة و دون أغطية، و أعطي للكثير أسلحة تقليدية كانت وراء ارتفاع عدد الضحايا في أوساطهم

أمام الأسلحة المتطورة الألمان. [3] أما في سنة 1917م فقد تم تجنيد 10696 شابا، تقرر إجراء تدريباتهم العسكرية في تونس قبل نقلهم إلى فرنسا للزج بهم في جبهات القتال ، و قد سجلت - رغم المراقبة الشديدة ، و رغم الإجراءات الردعية - حالات فرار كثيرة من

[1] Mahmoud Abdelmoula, la Tunisie, le Maghreb pendant la grande guerre, l'impôt du sang. Tunisie. M.T.M 2007, P.82.

[2] François Arnoulet, op.cit. , P 49

[3] François Arnoulet,opcit. P 52

الجيش، [1] و تم إيقاف 100 فار منهم في نهاية هذه السنة ، نقلوا إلى سجن كوليور في الجنوب الفرنسي قرب الحدود الأسبانية، [2] و لما علم كليمانصو بعدد المجندين في هذه السنة اعتبره قليلا جدا، و طلب رفعه بتجنيد المزيد من التونسيين و التخلي عن التعويض و تخفيض عدد المعفيين ، و حدد العدد المطلوب ب12800 مجندا إضافيا، و بعد صعوبات كبيرة تم الوصول إلى 11500 شخصا تكونت منه 03 كتائب مختلطة . [3]

أما في سنة 1918م فقد سجل كالعادة نقص كبير في عدد المتطوعين، مما حمل الإدارة الاستعمارية إلى تجنيد كل شاب يتوفر على القدرة على القتال ، و حتى سند العائلة الذي كان يعفى سابقا في التجنيد تم استدعاؤه، ليصل عدد المجندين في هذه السنة إلى 13202 مجندا تونسيا. [4]

و عموما فقد وصل العدد الإجمالي للتونسيين المشاركين في الحرب العالمية الأولى إلى 80339 منهم **46251** مقاتلا: **-38251** مقاتلا في الجبهة الغربية على الأراضي الفرنسية و شكل منهم 21 فوج مشاة.**- 800** مقاتلا في الجبهة الشرقية ضد العثمانيين .

و بلغت الخسائر البشرية في صفوفهم: 35900 قتيلا، و هو عدد مرتفع مقارنة بعدد السكان البالغ سنة 1918م: 1,8 مليون نسمة. [5]

و بناء على عدد سكان كل دولة من دول شمال إفريقيا آنذاك ، تبدو نسبة مشاركة التونسيين مرتفعة مقارنة مع البقية إذ قدرت ب 3,9% من مجموع السكان، بينما كانت في حدود 3.5 % في الجزائر و أقل من 1 % في المغرب الأقصى .

3- التجنيد في المغرب الأقصى :

1-3 التجنيد الفرنسي للمغاربة:

1-1-3 التجنيد قبل ح ع 1 :

لم يكن التجنيد العسكري لأبناء المغرب الأقصى وليد الحرب العالمية الأولى إذ أن القوات الفرنسية تمكنت من ضم العديد من المغاربة ، كونت منهم عدة طوابير سنة 1908م اثر حملتها العسكرية على منطقة الشاوية . و لما وقع المغرب معاهدة الحماية مع فرنسا في 30

---

[1] Mahmoud Abdelmoula, op.cit. , P85
[2] François Arnoulet, op.cit. , P 50
[3] François Arnoulet, ibid. P 50.
[4] Eric Deroo et Pascal le Pautremat, op.cit. P 41.

[5] François Arnoulet, op.cit. P 48.

مارس 1912م حاول الجنرال ليوتي، الذي نصب مقيما عاما في 1912/04/08م ، إعادة تنظيم الجيش المغربي و لكن واجهته منذ البداية بعض الاضطرابات ، على رأسها انتفاضة فاس التي قام بها الجنود المغاربة، الذين كانوا يؤلفون جيش السلطان قبل سقوط المغرب ، كان من نتائجها مقتل 50 أوربيا [1] ، و بعد تهدئة الوضع و القضاء على الانتفاضة ألقي القبض على الكثير من الجنود و أودعوا السجون بينما فر البعض الأخر . و عمد ليوتي إلى تكليف مجموعة من الضباط بتكوين جيش يكون أكثر ولاء لفرنسا و للسلطان ، و فتح المجال للشباب الراغبين في الانخراط ، و لكن هؤلاء المنخرطين كانوا قليلي الخبرة العسكرية، مما دفعه إلى تجنيد أولئك الذين سجنوا من الجنود مقابل حريتهم، ووفر لهم التجهيزات الضرورية التي كانت تنقصهم .[2] و هذا التجنيد في الواقع لم يكن إجباريا في البداية لأن معاهدة الحماية السالفة الذكر لم تنص على ذلك، و إنما اقتصرت على فتح المجال للتطوع، و مجموع المغاربة الذين تطوعوا في الجيش الفرنسي كانوا يرغبون في الحصول على الأموال لتحسين ظروف عيشهم. [3]

2-1-3 التجنيد أثناء ح ع 1 و أهم المعارك التي أقحم فيها المغاربة:

لما اندلعت الحرب العالمية الأولى في 1914/07/28م كان على " ليوتي " أن يبعث جنودا إلى فرنسا لمؤازرة بلاده في حربها ضد ألمانيا و حلفائها ، و بالمقابل ضرورة تأمين المغرب بالقوات الكافية لتجنب أية حركات تمرد قد تظهر في البلاد إذا ما نقل القوات المرابطة بها ، و كان تحت تصرف " ليوتي " 85 ألف جندي ، أغلبهم من الجزائريين و التونسيين و من إفريقيا الغربية . و الذي توقعه حدث بالفعل ، إذ أعلنت عدة قبائل الجهاد ضد الفرنسيين في نوفمبر 1914م، متأثرة بالدعاية العثمانية المحرضة للمسلمين على ضرورة التخلص من الهيمنة الاستعمارية الغربية، عن طريق الثورات و استغلال ظروف الحرب العالمية الأولى ، و من هذه القبائل : الشلوح في سوس بالجنوب الغربي من المغرب ، ثوار زيان في الأطلس الأوسط ، سلحتهم ألمانيا بتواطؤ مع اسبانيا عن طريق ميناء طنجة، [4] و بالتالي هذا التحدي دفع الجنرال " ليوتي " إلى تجاوز بنود معاهدة الحماية و اللجوء إلى طريقة التجنيد الإجباري للمغاربة ، من جهة لإخماد هذه الانتفاضات و من جهة أخرى لتزويد فرنسا بحاجتها من المجندين ، و تمكن " ليوتي " من القضاء على هذه الانتفاضات بعد خسائر كبيرة تمثلت في فقدان 33 ضابطا من مجموع 43 شاركوا في القتال و 590 جنديا ، و لكن حرب العصابات بقيت مستمرة إلى غاية سنة 1917 م ،[5] و

---

[1] Abdelatif Fdil, l'engagement des marocains au cours du 1er conflit mondial entre histoire et représentations imaginaires, 11eme colloque international interdisciplinaire de Soréze, fév. 2014, Soreze-France- P04.

[2] Abdellatif Fdil, ibid. P5.

[3] Julie le Gac, op.cit. P96.

[4] Abdellatif Fdil, op.cit. P05.

[5] Abdellatif Fdil, ibid. P06.

كعادتها لجأت الإدارة الاستعمارية إلى تدعيم المجندين بعدد كبير من العمال الذين نقلوا إلى فرنسا، للعمل في مختلف القطاعات التي كانت تعاني نقصا كبيرا في اليد العاملة . و حتى يدفع الشباب أيضا إلى التطوع في صفوف الجيش الفرنسي أمر السلطان يوسف بأن تتضمن خطب الجمعة في المساجد الدعوة إلى مساندة فرنسا في الحرب ضد ألمانيا ، و ذلك ما اعتبره الفرنسيون مهما جدا، لأن هذه الدعوة أعطت الشرعية للدفاع عن فرنسا ، و تمكنت من جمع 13 كتيبة أرسلت إلى أراضيها يوم 1914/08/07، ثم 26 كتيبة أخرى في نهاية أوت ، و ضم المغاربة إلى الجيش 19 رفقة جزائريين و تونسيين، و فرقة أخرى منهم إلى الجيش السادس للجنرال مونوري، وقد شاركت 05 كتائب من المغاربة بمجرد وصولها إلى فرنسا في معركة المارن الأولى في بداية سبتمبر 1914. [1]

و أمام الخسائر الكبرى التي منيت بها هذه الكتائب تمت هيكلة ما تبقى منها في فوج واحد سمي (الرماة المغاربة)، أما بقية الفرق فقد وزعت على عدة كتائب منها: الأولى و الثانية و الثالثة و الرابعة و السادسة و الثامنة و التاسعة و الثانية عشرة ، الثالثة عشرة و الثانية و العشرون رماة ، الأولى مختلطة زواف - رماة ، الثالثة مختلطة، و الرابعة مختلطة أيضا زواف - رماة . و هذه الكتائب شاركت في معارك كثيرة منها :

- معركة شارلروا في بلجيكا من 21 إلى23 أوت 1914م، شاركت فيها الكتائب التالية : الثانية ، الثالثة ، الرابعة ، السادسة ، الثامنة ، و التاسعة رماة .

- معركة موز(Meuse) في شمال شرق فرنسا من 07 إلى 23 أوت 1914 ، شاركت فيها الكتيبتان 12 و 13.

- معركة قيزا الأولى(Guise) : 1914/08/29م في الشمال الأوسط من فرنسا ، شاركت فيها عدة كتائب مغربية و هي : الثانية ، الثالثة ، الرابعة ، السادسة ، الثامنة ، التاسعة رماة ، و الثالثة مختلطة زواف- رماة. [2]

كما شارك المغاربة في سبتمبر 1914م في معارك كثيرة [3] منها :- معركة الأورك في شمال شرق باريس بين 5-10 سبتمبر (الكتيبة الأولى).

---

[1] Gilbert Meynier, op.cit. P 259

[2] J.m.o du régiment de marche des tirailleurs marocains (batailles et compagnies) classes/sous série :26 N 857/2 à 9 SHD Vincennes.

[3] J.M.O du régiment de marche des chasseurs marocains, classes / sous série 26 N 857/1 SHD. Vincennes.

_ J.M.O, 2 régiment de marche des chasseurs marocains, classes/sous série 26N 857/3, SHD, Vincennes.

- معركة موران (Bataille des deux Morins) : (5-1914/9/9م) في الشمال (الكتائب المشاركة: 2،3،4،6،3 مختلطة ،9،8)

- معركة مستنقعات سان قوند(Marais de Saint- Gond) :(5-1914/9/9م) في الشمال : (الكتيبتان 12-13).

- معركة الأزن(Aisne): (من 13 إلى 1914/9/28) و شاركت فيها معظم الكتائب المغربية (1، 2، 3، 4، 6، 6 رماة-زواف، 12، 13، 8، 9 رماة، 1 رماة – زواف)

- معركة بيكاردي(Picardie) شمال باريس: 1914/09/30م (الرابعة مختلطة زواف-رماة)

أما المعارك المتبقية فسجلنا منها : معركة أرتوا (Artois) (17 , 19 ديسمبر) و شاركت فيها الكتيبة الأولى رماة - معركة الأيسار : (17-1914/10/31م) شاركت فيها الكتيبة الثامنة رماة في شمال فرنسا.

- معركة شامباني (Champagne) مارس 1915م (22 رماة) و بالنسبة للمعارك التي جرت في السنوات الأخرى و شارك فيها المغاربة مشاركة فعالة نذكر كنماذج :

- معركة ايبر(Ypres) : مشاركة الكتائب 7-8-9 رماة في نوفمبر 1914م

- معركة ايبر الثانية في أفريل 1915 م.

- معركة شامباني الثانية في سبتمبر 1915م

- معركة فردان في فبراير 1916م.

- معركة مالميزون في أكتوبر 1917 م.

- معركة السوم (جويلية – سبتمبر – نوفمبر 1916م)

- معركة تاردونوا في أوت 1918م .[1]

_ JMO , brigade de chasseurs indigènes marocains ; classes/ sous série 26 N 556 / 9

[1] يوجد الكثير من التفاصيل في جرائد العمليات بالنسبة لمشاركة المغاربة. ينظر أيضا:

- JMO de la 48eme division d'infanterie, sous série 26 N 361/1 à 6

- JMO de la 95 brigade d'infanterie sous série 26 N 523/6 à 8

- JMO de la 96 brigade d'infanterie, sous série 26 N 523/9 à 10.

وبالاطلاع على كل المعارك التي جرت خلال هذه الحرب ، نرى أن المغاربة سواء مجندين إجباريا أو متطوعين، كان لهم حضورهم القوي كبقية أبناء شمال إفريقيا الذين أقحموا في مقدمة جبهات القتال ، و بالمقابل كانت الخسائر البشرية في أوساطهم مرتفعة أيضا، حيث قدرت المشاركة المغربية بأكثر من 45 ألف مجند ، قتل منهم حوالي 25 % بما يقارب 15 ألف جندي .

2-3 التجنيد الاسباني للمغاربة :

1-2-3 فترة ما قبل حرب الريف :

تطبيقا لمضمون الاتفاقية الاستعمارية الموقعة بين فرنسا و اسبانيا في 1905م ، و بعد فرضها الحماية على المغرب تركت فرنسا المناطق المتفق عليها كمنطقة الريف، و ما دمنا نعالج قضية التجنيد فالاسبان لم يكونوا بمنأى عن هذه العملية ما دام هناك إقبال من السكان على الانخراط في صفوف جيشهم، تحت دافع الظروف القاهرة التي كان المغاربة يعيشونها على غرار باقي شعوب منطقة شمال إفريقيا، والكثير من القبائل سارعت - كما أسلفنا الذكر- إلى عرض خدماتها على المحتلين. إن تجنيد المغاربة في صفوف الجيش الاسباني يعود مباشرة إلى ما بعد مؤتمر الجزيرة، الذي مهد الأرضية لاتساع النفوذ الاسباني الفرنسي في المغرب قبل فرض الحماية، حيث عرفت فترة (1908م– 1911م) انخراط عدد كبير من الشبان المغاربة في صفوف الجيش الاسباني ، و ارتفع عددهم أكثر في السنوات التي تلت هذه الفترة ، و خاصة بعد قيام الحرب العالمية الأولى، أين سجلت حالات فرار كثيرة من الجيش الفرنسي في أوساط المتطوعين بسبب انخفاض أجورهم، مقارنة بزملائهم المتعاقدين مع الجيش الاسباني والتحقوا بهذا الأخير، كما لجأ الاسبان إلى تجنيد الفارين من الجيش المغربي بعد خضوعه للحماية الفرنسية سنة1912م و كونوا منهم جميعا : عشرين طابورا، [1] عشرة سرايا [2] ، وخمس عشرة مجموعة. [3] و ذلك ما يبين العدد المرتفع للمنخرطين في صفوف القوات الاسبانية في هذه الفترة التي عرفت تدهورا

- JMO de la 153 division d'infanterie, sous série 265 N 443/2 à 4.

- JMO de la de la 3 brigade du Maroc, sous série 26 N 555/4 à 6.

ملاحظة : جرائد العمليات التي تشمل الفترة الممتدة من 1907 إلى 1960 يمكن الاطلاع عليها في :

3H 314-331 journaux des marches et opérations (1907-1960).

[1] ورد في معجم المعاني الجامع أن كلمة طابور تعني: صف, و يقصد بها جماعة من العسكر يكون عددهم من 800 إلى 1000 أما الطابور الخامس فيطلق على جماعة من المواطنين، تساعد العدو في السر بالتجسس لصالحه.

[2] السرية: قطعة من الجيش ما بين 05 أنفس و 300 جنديا حسب ما جاء في قاموس المعاني.

[3] ماريا روزا مادارياغا , مغاربة في خدمة فرانكو ، ترجمة كنزة الغالي ، سلسلة ضفاف ،الرباط، ط 1، منشورات الزمن ، 2006 م ، ص 35 .

كبيرا في العلاقات الأوربية – الأوربية ، زيادة على الاضطرابات التي وقعت في اسبانيا و مهدت لقيام الحرب الأهلية الاسبانية (1936م – 1939م) .

2-2-3 حرب الريف (1921م – 1926م) و إقحام المجندين المغاربة:

قامت حرب الريف بزعامة عبد الكريم الخطابي ابتداء من سنة 1921 و مرت بمرحلتين أساسيتين : (الأولى 1921م–1925م) و كانت بين سكان الريف و اسبانيا ، و الثانية (1925م-1926م) و شهدت تحالفا فرنسيا اسبانيا للقضاء على الثورة . و كانت هذه الحرب نتيجة حتمية لاستعراض القوة من قبل الجنرال "فرنانديز" الذي كان يملك جيشا اسبانيا قوامه 60 ألف جنديا ، و كان يعتقد انه سيسحق الثوار في لحظات بناء على هذه القوة و اجتاح أراضي قبيلة آيت أورياغل، و لكن الذي حدث أن قبائل الريف و خاصة آيت توزني و آيت غنو و تمسامان ، و قبائل: الجبالة ، قمار ، الريف الأوسط و الريف الشرقي تحالفت مع هذه الأخيرة (أورياغل)، و نظم عبد الكريم جيشه الذي كونه من هذه القبائل، و هاجم القوات الاسبانية التي انهزمت في عدة معارك كان أخطرها معركة أنوال في 21 جويلية 1921م و التي فقد فيها الاسبان اثني عشر ألف جندي، و أسر ألفا (1000) آخرين . و قد أثرت هذه الهزيمة غير المنتظرة من كل الدول الغربية في الشعب الاسباني و حكومته ، و تسببت في انتحار الجنرال "فرنانديز" في 1921/03/22م و استولى الثوار على معدات حربية هامة تركها الجيش الاسباني . و يذكر أن الثوار عاملوا الأسرى معاملة قاسية ، و لما انسحب الاسبان من منطقة الريف ، كون فيها عبد الكريم جمهوريته في 1 فبراير 1922م.[1]

شهدت حرب الريف هذه – و هي بدون شك محطة مهمة في تاريخ المغرب – أيضا تجنيد المغاربة و استعمالهم ضد إخوانهم، و خاصة في مرحلتها الثانية التي تدخلت فيها فرنسا لقمع الثورة و القضاء على جمهورية الريف. فقد كانت هزيمة معركة أنوال مؤثرة جدا في الدول الاستعمارية التي كانت تروج لفكرة الرجل الأبيض الذي لا يهزم ، و خافت فرنسا من تأثير ذلك في شعوب مستعمراتها خاصة في شمال إفريقيا ، و ازداد قلقها بعد هجوم " الريفيين " على الجهة الخاضعة للنفوذ الفرنسي ، حينئذ تحالف المارشال بيتان مع الاسبان للإطاحة بعبد الكريم . [2]

و تحت تأثير الضابط الأمريكي ويلوغباي (Willoughby) الذي كتب عن حرب الريف بنبرة عنصرية معتبرا انهزام اسبانيا إنقاصا من حضارة الغرب و الرجل الأبيض، و طالب صراحة بسحق قبائل الريف، باستعمال الطيران و الدبابات و حرق القرى ، و تدمير

---

[1] William Dean, des américains dans la guerre du Rif, traduction de Valérie Coniart, revue historique des armées, n° 246, année 2007, P 46.

[2] William Dean, ibid. P 49.

مخازن الحبوب، و إبادة الحيوانات، و استعمال الغازات السامة ضد السكان ، لجأت الدولتان فعلا إلى قصف القرى بالطائرات بالاستعانة بطيارين أمريكيين ، و استعمال الغازات السامة و التي خلفت تأثيرات خطيرة على الأفراد مثل : حالات العمى و السرطان، [1] و حدث أن قامت في نفس فترة حرب الريف ثورة الدروز ، و كانت فرنسا تستعمل المجندين الجزائريين و التونسيين و مجندي إفريقيا الغربية و معهم المغاربة لمحاربة عبد الكريم الخطابي ، و كان عليها المواجهة في جبهتين ، و القوات الموجودة لديها غير كافية، فلجأت إلى التجنيد الإجباري للمغاربة لإشراكهم في حرب الريف . و قد أكد عبد الكريم الخطابي نفسه وجود المغاربة و التونسيين و الجزائريين في كل المعارك التي خاضها ضد الاستعمار، في رسالة أوردها محمد قنانش و محفوظ قداش في كتابهما " نجم الشمال الإفريقي. " [2] و بذلك يكونون قد حاربوا إخوة لهم في الدين ، كما حاربوا سابقا العثمانيين في الحرب العالمية الأولى ، و عبد الملك بن عبد القادر الجزائري لما قام بثورته في تازة عام 1915م و التي دامت إلى غاية 1924م، ليظهر مدى استغلال هذه الدول الاستعمارية لمجندي شمال إفريقيا في جميع حروبها، حتى و لو كان ذلك على حساب إخوانهم .

3-2-3 الحرب الأهلية الاسبانية و تجنيد المغاربة :

عمدت الإدارة الاسبانية إلى تجنيد المغاربة في صفوف قواتها قبل الحرب الأهلية الاسبانية و ذلك في سنة 1934م، حيث قامت انتفاضة عمال المناجم في أستورياس بالشمال ، و قد ترك المغاربة أثرا سيئا في نفوس الرأي العام المحلي الاسباني اثر القسوة التي عومل بها عمال المناجم من قبل الجنود المغاربة ، و كان ذلك أول استغلال لهؤلاء المجندين داخل الأراضي الاسبانية قبل قيام الحرب الأهلية الاسبانية عام 1936 .[3]

و في 1936/07/17م اشتعلت نيران هذه الحرب الأهلية بين الجمهوريين و الوطنيين نتيجة الانقلاب على الجمهورية، و الذي قام به مجموعة من الضباط بقيادة الجنرال"مولا " في الشمال، و الجنرال "فرانكو" في المغرب، و الجنرال " يانو " في أندلسيا، و جنرالات آخرين، واثر هذا الانقلاب انقسمت اسبانيا إلى"قومية" بقيادة الانقلابيين، و " جمهورية " بقيادة الجبهة الشعبية التي كانت تضم الاشتراكيين و الجمهوريين و الشيوعيين . و قد استمرت هذه الحرب إلى 1939/04/01 م، و في 1936/07/19 م وصل الجنرال فرانكو إلى تطوان بالمغرب لقيادة جيش إفريقيا باتجاه اسبانيا، و قد عمل على تجنيد المغاربة في صفوف جيشه للمشاركة في الحرب الأهلية، و اعتمد على القياد نظرا لولائهم الكبير له في تجنيد أكبر عدد من الشبان المغاربة ، حيث كان لهؤلاء القياد دور كبير في دفع كل قبيلة

---

[1] William Dean, ibid. P49.

[2] محمد قنانش و محفوظ قداش ، نجم الشمال الإفريقي ، وثائق و شهادات لدراسة الحركة الوطنية الجزائرية، الجزائر، ط 2 ، ديوان المطبوعات الجامعية ، 1994 ، ص26 .

[3] ماريا روزا ، م س ، ص 35 .

إلى إمداد فرانكو ب 500 مجندا ، و فرض التجنيد الإجباري على 17000 شاب ، و بلغ عدد المتعاونين معه من أفراد عدة قبائل مغربية حوالي 8000 رجل. [1] ثم وصل عدد المجندين في جيش فرانكو مع نهاية سنة 1937م إلى حوالي 65 ألف جندي . و كان هذا الانخراط الكبير للمجندين المغاربة في صفوف جيش فرانكو راجعا إلى عدة عوامل أهمها : الجفاف الذي عرفه المغرب ما بين 1934م – 1935م و انعكاساته على الوضع المعيشي للسكان، و ارتفاع الراتب الشهري الذي عرضه فرانكو مقارنة براتب المجندين في الجيش الفرنسي، [2] تقديم وعود للمغاربة بمنحهم قطعا أرضية في الأندلس و مورسيا و فالنسيا بعد الانتصار.

و بفضل هذا الانخراط الواسع للجنود المغاربة، تمكن فرانكو من تكوين طابور اللفيف الأجنبي الذي أشرك فيه زيادة على المغاربة، المرتزقة الايطاليين و الأمريكيين ، و لعب هؤلاء المجندون دورا أساسيا في تقوية القدرات القتالية لفرانكو، [3] و لكن الخاسر الأكبر في هذه الحرب هم المغاربة الذين فقدوا عددا كبيرا من الجنود، لدفعهم إلى الجبهات الأمامية للقتال تأسيا ببقية القوى الاستعمارية، و التي استغلت المجندين من الأهالي في أخطر المعارك الاستعمارية و في الحرب العالمية الأولى .

ثانيا : التجنيد العسكري في غرب إفريقيا :

1- التجنيد العسكري في فترة ما قبل الحرب العالمية الأولى :

كانت فرنسا تضم مع مستعمراتها ما يقارب 100 مليون نسمة، و معنى ذلك أن هذه الخزانات البشرية التي كانت تحت تصرف الفرنسيين ستضمن لهم احتياطيا ضخما من الجنود، سواء في توسعاتهم الاستعمارية ، أو في حالة قيام أي حرب تهدد إمبراطوريتهم . و حسب الجنرال " مانجان " فقد تمت في إفريقيا الغربية عمليات تجنيد واسعة دون قوانين تنظمها، و قد شارك المجندون تبعا لذلك في الحملات التوسعية الفرنسية ، و في معارك ما قبل الحرب العالمية الأولى [4] و أطرت عمليات التجنيد القوات البحرية التي جمعت في صفوفها الكثير من الوثنيين، في الوقت الذي ركزت فيه القوات البرية على اختيار المسلمين لثقتها الكبيرة فيهم، بما يضمن ولاءهم و تضحياتهم في سبيل فرنسا، [1] و بقيت

[1] ماريا روزا ، نفسه، ص 108 .
[2] ماريا روزا ، نفسه ، ص 109 .
[3] ماريا روزا ، نفسه ، ص 165 .
[4] Antier Chantal. Le recrutement dans l’empire colonial français 1914-1918, revue : Guerres mondiales et conflits contemporains N.230, 2008/ 2, édit. P.U.F. Paris, PP 23-36.

هذه العمليات سائدة بهذه الطريقة إلى أن جاء الجنرال فيدارب إلى السنغال كحاكم عام سنة 1854م .

و على ضوء عدم قدرة قواته على التأقلم مع المناخ الاستوائي و الأمراض ، طالب بتشكيل " الرماة السنغاليين" على شاكلة الفرق الجزائرية لمواصلة احتلال غرب إفريقيا ، و صدر مرسوم إمبراطوري في 1857/07/21م بالسماح بالتجنيد لإنشاء هذه الفرق الجديدة ، و بذلك ظهرت إلى الوجود فرقة مكونة في البداية من السنغاليين ، ثم عممت لتشمل مجندين من عدة دول في إفريقيا الغربية مثل : مالي ، غينيا ، ساحل العاج و الداهومي (بنين) ، موريتانيا و النيجر. و قبل الترويج لفرقته الجديدة ، قام فيدارب بشراء العبيد من أسيادهم و ضمهم إلى هذه الفرقة، لتستمر ظاهرة التجنيد في سنة 1884م بجمع عدد كبير من المجندين، كون منهم فوجا أصبح في سنة 1900م أول فوج للرماة السنغاليين. و في نفس السياق قام الجنرال أرشينار بتجنيد الأفارقة لما لاحظ صلابتهم في المعارك ، و جند فرقا من السود فقط لفتح طريق من النيجر إلى تومبوكتو، و توقفت عمليات التجنيد مؤقتا في سنة 1895م بسبب ضغط المعمرين الذين كانوا يرون في هذا التجنيد استنزافا لليد العاملة و تهديدا لمصالحهم .

وعن طريق الاستعانة بهؤلاء المجندين احتلت فرنسا مدغشقر عام 1895م بمشاركة الجزائريين أيضا ، و بقوا بهذا البلد إلى غاية 1905م لتثبيت الهيمنة الفرنسية ، كما تمكنت من فرض سيطرتها على مناطق واسعة من غرب إفريقيا، و التي كونت منها فيدرالية إفريقيا الغربية الفرنسية سنة 1895م و عاصمتها داكار ، بمساحة إجمالية تقدر ب 4,7 مليون كلم^2 ، و تضم سبع مستعمرات هي : السنغال ، موريتانيا ، السودان الغربي (مالي) ، النيجر ، غينيا ، ساحل العاج و الداهومي (بنين)[2] .

لم يعد التجنيد إلا في سنة 1898م بعد وقوع حادثة فاشودة في السودان مع الانجليز، أين كادت الحرب أن تندلع بين الطرفين، مما يجعل فرنسا ملزمة بتجنيد المزيد من الأفارقة تستعملهم في أي صدام مستقبلا، و كان من أبرز المتحمسين لتجنيد الأفارقة الضابط "مانجان" [3] . ففي سنة 1900م أعلن عن فكرة (القوة السوداء) لتعزيز قدرات الجيش الفرنسي، و في عام 1910م عاد هذا الضابط من جديد ليؤكد على ضرورة الاعتماد على الأفارقة في الحروب و النزاعات لقدرتهم على الصمود ، و بدأ يلح على ضرورة إصدار

---

[1] Benjamin Leroy, les troupes de marine en Afrique à la fin du 19ème siècle, revue historique des armées, N. 247, 2007, PP 116-117.

[2] Hubert Deschamps, histoire générale de l'Afrique noire de 1800 à nos jours, T2, P.U.F paris ,1971 P. 382.

[3] Marc Michel, colonisation et défense nationale, le général Mangin et la force noire, revue : guerres coloniales et conflits contemporains, N. 145 janv.1987, PP.29-30.

قانون للتجنيد في إفريقيا السوداء ، و صدر قرار إحصاء كل الشبان السنغاليين لتأدية الخدمة العسكرية في 31 جانفي 1911م، و تضمن هذا القرار تسجيل كل من بلغ سن 18 سنة إلى 28 سنة بغية استدعائهم للفحص و التجنيد. [1] و صادق البرلمان على ضرورة تجنيد فرقتين من السنغاليين للقضاء على الانتفاضات في الجزائر ، كما أصدرت فرنسا مرسوم 1912م و الذي حدد أربع سنوات خدمة إجبارية للسنغاليين ، على أن تكون أعمارهم بين 20 و 28 سنة ، و ذلك ما ساعد فرنسا على رفع أعداء المجندين، [2] على أن تعوض هذه الفرق السوداء المجندين الجزائريين في ثكنات الجزائر، في حالة نقلهم إلى أوربا للقتال في حرب محتملة. و قد ذكر "مانجان" في هذا المجال أن القوات الإفريقية تشكل احتياطيا لا ينضب ، و مصدره ليس في متناول الأعداء (يقصد الألمان) .و أصبح للمجندين حضور قوي سواء في إفريقيا الغربية أو في شمال إفريقيا، من خلال مساهمتهم في تثبيت جذور الاحتلال بالمستعمرات الفرنسية و الدفاع عن فرنسا في حروب كبرى . [3]

2- التجنيد العسكري أثناء الحرب العالمية الأولى(1914م-1918م) :

سبق للإدارة الاستعمارية – كما أسلفنا الذكر – تجنيد عدد كبير من شباب إفريقيا الغربية سواء في عهد "فيدارب" الذي كون " الرماة السنغاليين "، أو " مانجان " الذي دعا من خلال كتابه (القوة السوداء) إلى تجنيد المزيد من الأفارقة تحسبا لأي نزاع محتمل في القارة الأوربية، في ظل التوتر الكبير في العلاقات الأوربية، و خاصة بين فرنسا و ألمانيا ، و لذلك كانت هناك كتائب كثيرة من الرماة السنغاليين منها: كتيبتان في الجزائر ، 13 كتيبة في المغرب، و واحدة في مدغشقر. و تجنيد الأفارقة كان يتم وفق ما نص عليه مرسوم 7 فبراير 1912م عن طريق الاختيار المباشر، ما دامت سجلات الحالة المدنية منعدمة، و طريقة الاختيار المباشر للأشخاص كانت تتم بتحديد العدد المطلوب من قبل الإدارة الاستعمارية لرؤساء المقاطعات، و الذين يأمرون شيوخ القرى بإحضار الأفراد حسب العدد المطلوب لتجنيدهم تلقائيا دون قرعة ، و يوجه المعنيون عن طريق القطار إلى محطة دكار العاصمة الفيدرالية لإفريقيا الغربية الفرنسية ، و منها تتكفل مديرية النقل البحري بنقلهم إلى فرنسا . وورد أيضا في هذا المرسوم أن المجندين الأفارقة يمكنهم إكمال مدة الخدمة العسكرية المحددة بأربع سنوات خارج تراب المستعمرة [4] ، و لما قامت الحرب العالمية الأولى عام 1914م نشط الإداريون و الأعوان المكلفون بالتجنيد ، و شيوخ القبائل و الأعيان و الشرطة الأهلية، و حتى أعضاء الإرساليات التنصيرية في حث الأهالي على قبول التجنيد في صفوف الجيش الفرنسي، محاولين إقناعهم بأن فرنسا تمثل

[1] قرار إحصاء الشبان السنغاليين: 1911/1/31 العلبة: 3G2/142
ضمن الملف : 14 Miom 742 بأرشيف ما وراء البحار بأكس أون بروفانس، فرنسا .
[2] Gilles Manceron, Marianne et les colonies, la découverte, paris, 2003, P. 154.
[3] Albert Adu Boahen, Histoire générale de l'Afrique : l'Afrique sous domination coloniale 1880-1935 édition : les presses de l'Unesco- Paris, 1987, P 317.
[4] Eugène – Jean Duval, l'épopée des tirailleurs sénégalais édit. L' harmattan – paris, 2005, P40.

الحرية و المساواة، و تدافع عن الحضارة ضد ما سموه بالبربرية الألمانية [1] ، و نجحت الإدارة الاستعمارية فعلا في إنشاء ما يزيد عن 60 كتيبة من الأفارقة سنة 1914م منها : 35 كتيبة من السنغاليين ، و تسعة من الملغاشيين ، و فرقة من الصبايحية السنغاليين [2] ، أغلب أفرادها أخذوا عنوة من مزارعهم ليجدوا أنفسهم في الثكنات العسكرية، متوجهين لحرب لا تعنيهم، و كان مجندوا غرب إفريقيا كغيرهم من أبناء المستعمرات في الموعد لمواجهة القوات الألمانية و حلفائها في مقدمة الجبهات دفاعا عن فرنسا .

ففي 1914/09/17م أرسلت الوحدات القتالية المتدربة إلى فرنسا , و فور وصولها أقحمت في معركة نوايون (Noyon) في 1914/09/21م، أما الوحدات التي تنقصها الكفاءة و التجربة فقد نقلت إلى شمال إفريقيا لقمع الانتفاضات، و تكون مشاركتها في الحملات الفرنسية على السكان فرصة للتدرب على القتال، و من ثم توجه إلى جبهات الحرب و تقحم بدورها في المعارك الكبرى سواء في أوربا أو في أسيا الصغرى ، و أصبحت هذه القوة السوداء تحت قيادة صاحب فكرتها " مانجان " منذ عام 1916م [3]

و أمام ضغط الحرب و الخسائر البشرية المرتفعة في أوساط المجندين، ازدادت حاجة فرنسا للمزيد من الفرق العسكرية الإفريقية. و إلى غاية سنة 1917م تمكنت من تجنيد 50 ألف جندي من أبناء إفريقيا الغربية ، شاركوا في الكثير من المعارك الخطيرة ، مثل : معركة ايبر (Ypres) و ديكسمود (Dixmude) 1914م، و معركة طريق السيدات (Chemin des Dames) في مقاطعة الأزن (l’Aisne) أفريل 1917 م، و التي فقد فيها المجندون الأفارقة 7000 فرد من مجموع 16500 مشارك في المعركة ،[4] كما شاركوا في معركة رامز سنة 1918م . و قد أدى النائب السنغالي "بلاز ديان" الذي أصبح محافظا ساميا للحكومة ، مكلفا بالتجنيد ، دورا هاما في إقناع سكان إفريقيا الغربية بالقتال إلى جانب فرنسا ، ووعدهم بتحقيق المساواة بينهم و بين الفرنسيين في الحقوق المدنية، و إلغاء القوانين التي تكرس التفرقة العنصرية ، مقابل استجابتهم لضريبة الدم ، كما وعد كل من يستجيب لنداء التجنيد بميداليات عسكرية و راتب مهم، و بالمواطنة الفرنسية . و هذه الوعود مكنته فعلا من تجنيد 63 ألف جندي من إفريقيا الغربية ،[5] رغم معارضة المعمرين الذين رأوا في العملية حرمانا لهم من اليد العاملة ، و بنفس الموقف الذي واجه به السكان في شمال إفريقيا ظاهرة التجنيد الإجباري و خاصة في الجزائر ، خرج سكان إفريقيا الغربية في انتفاضات عديدة في العديد من المناطق مثل : قبائل " لوبي " في جنوب غرب

[1] Marc Michel, op.cit. P. 37
[2] Colonel Jean Révol, histoire de l’armée française, paris, Larousse, 1929, p.222.
[3] Marc Michel, op.cit. p 231 .
[4] Jean Yves le Naour, dictionnaire de la grande guerre ; Larousse, paris, 2008, p70.
[5] Chantal Antier Renaud, les soldats des colonies dans la 1ere guerre mondiale, édit. Ouest- France, Rennes, France, 2008, P38.

فولتا العليا ، و " ديداس " في جنوب ساحل العاج ، و قبائل " الهولي " في الداهومي ، و الذين قاموا بانتفاضتين: الأولى في 1914م و الثانية بين 1915/08/22م و 1916/02/15م، و قبائل "باريبا" شمال الداهومي عام 1916م، و الذين دمروا الجسور و قطعوا خطوط التلغراف ، و لم تنته انتفاضتهم إلا بقتل زعيمهم " بيوغيزا " إضافة إلى انتفاضات أخرى متفرقة، و قد ساعدت عودة بعض المجندين بزيهم العسكري على الهدوء النسبي لهذه الاضطرابات بداية من سنة 1917 م[1] .

و بالموازاة مع هذه الانتفاضات، عرفت الفرق الإفريقية حالات فرار كثيرة، و قد حاولت السلطات الاستعمارية إلقاء القبض على الفارين، و قرارات البحث الصادرة ضدهم تدل على ارتفاع عددهم، و هي مؤرخة من سنة 1907م إلى سنة 1918م و لكن غالبيتها أثناء الحرب العالمية الأولى. [2]

و عموما فقد شارك من أبناء غرب إفريقيا في هذه الحرب المدمرة حوالي 200 ألف مجند دفاعا عن فرنسا، منهم أكثر من 135 ألف في أوربا، قتل منهم 30 ألف جندي و الكثير من المجندين عادوا إلى بلادهم جرحى أو معطوبين و مشوهين .[3]

موقف الطريقة التجانية من قضية التجنيد في شمال و غرب إفريقيا :

أولا : موقف الطريقة من التجنيد في شمال إفريقيا :

1- موقف الطريقة من التجنيد في الجزائر :

قبل الحديث عن المواقف التجانية من باقي قضايا الاستعمار في الجزائر ، و منها قضية التجنيد التي تكلمنا عنها كثيرا حتى نظهر خطورتها على المجتمع الجزائري ، لابد من التفريق بين المواقف الرسمية للطريقة من خلال زاويتيها الكبيرتين : عين ماضي و تماسين و مواقف بعض مقدميها في مناطق متفرقة من التراب الوطني ، لأن بناء حكم ما انطلاقا من طرف واحد قد يبعدنا عن الحقيقة التي نتوخاها من خلال هذه الدراسة .

نقطة انطلاقنا - في البداية - في البحث عن هذه المواقف ركزت على الكتابات الأجنبية سواء في شتى المؤلفات التي تناولت بالدراسة الطريقة التجانية ، أو في المجلات و الدوريات التي وردت فيها مقالات عديدة حول مختلف المواقف التجانية من هذه القضايا و

---

[1] Hubert Deschamps, op.cit. P .387

[2] ملف واحد تفحصناه حول قرارات البحث عن الفارين من فرق إفريقيا الغربية يتضمن عشرات القرارات ضمن أرشيف ما وراء البحر بأكس أون بروفانس رقمه 3G2/142 الأسطوانة 96 تحت عنوان : (déserteurs sénégalais).

[3] Marc Michel, op.cit. P 230.

منها التجنيد ، ثم اتجهنا إلى وثائق الأرشيف الفرنسي، و التي كانت في معظمها تقارير[1] حول نشاطات هذه الطريقة في إطار مراقبة الطرق الصوفية عن بعد ، و تتبع مواقف الطريقة من الاستعمار الفرنسي. ففي مجال التجنيد تظهر هذه التقارير المواقف الرسمية للطريقة ، و المؤيدة لتجنيد الشباب الجزائري في الحرب العالمية الأولى بصفة خاصة بعد صدور قانون التجنيد الإجباري سنة1912 م، ونفس المواقف أظهرتها الكتابات الأجنبية بل أن بعض الكتابات بالغت في وصف شيوخ الطريقة بالخضوع التام لإرادة الاستعمار، و هو ما جعلنا نقف موقفا حذرا من بناء حكم نهائي، لأن القائمين على شؤون الطريقة و مريديها يفندون تفنيدا قاطعا ما ورد في هذه الكتابات ، و يعتبرونها محاولة من رواد المدرسة الاستعمارية تشويه سمعة الطريقة التي تجاوزت حدود الجزائر.

بقي الاطلاع على الوثائق التجانية أمرا ضروريا ، و كان لنا أن حصلنا على بعض الوثائق من أرشيف ما وراء البحار بفرنسا ، و هي رغم قلتها تظهر المواقف بوضوح . هذه الوثائق تظهر مواقف مؤيدة ، و يبدو أنها وثائق أصلية موقعة من طرف شيوخ زاويتي عين ماضي أو تماسين، و على كل وثيقة الختم الرسمي للزاوية. حينئذ المواقف الظاهرية للشيوخ آنذاك كلها متعاطفة مع الاستعمار الفرنسي، و تدعو إلى نصرة فرنسا و الذود عنها و تثني عليها ، معددة مناقبها و (انجازاتها) في الجزائر، و لكن هل تعبر هذه المراسلات على الرؤية الحقيقية للتجانية تجاه الاستعمار ؟ أم أنها تندرج فقط في نطاق المهادنة للاستعمار ما دام هو الغالب و المهيمن و القوي، خاصة و أن الطريقة التجانية - حسب بعض الدراسات المحلية - كانت تنشر فكرة القدرية بين الجزائريين، و ذلك ما يظهر في تصريح مقدم زاويتها في الزيبان و واد سوف الحاج علي عندما اشتكى لديه الأتباع من تصرفات أعوان الإدارة الفرنسية بعد فرض رقابة مشددة عليهم خلال الحرب العالمية الأولى، و قد ورد في هذا التصريح : **"** إن الله هو الذي منح الجزائر للفرنسيين و جعلهم مسيطرين عليها ، لذلك ابقوا في سلام معهم ، و لا تسيئوا إليهم **"**. [2] و هذه الفكرة هي التي تجعلنا - ربما - نميل إلى فرضية المهادنة في انتظار تغير الظروف التي عبر عنها بالقوة و السيطرة من جانب الاستعمار.

1-1 المواقف الرسمية (شيوخ الزوايا التجانية الكبرى بالجزائر) :

أورد "مينيي" في كتابه حول ظاهرة التجنيد في الجزائر أن التجانيين سبقوا الحكومة الفرنسية في دعوتهم الجزائريين للتجنيد دفاعا عن فرنسا ، هذه الطريقة - كما قال - و بعد معاداتها للأمير عبد القادر كانت جد متعاونة مع الاستعمار ، و أعلنت التعبئة في كل

---

[1] التقارير حول الطريقة كثيرة جدا في أرشيف ما وراء البحار و لا يمكن إدراجها كلها ضمن هذه الدراسة , و قد ركزنا في الملاحق على البعض منها . العلب التي تضمنت هذه التقارير في أكس بفرنسا هي: 16H fonds GGA
وخاصة: 16H44 – 16H45 – 16H46 – 16H50 -16H52 – 16H53.

[2] -ناصر بلحاج ، دور الدعاية العثمانية الألمانية ، م.س ، ص 11 .

زواياها للدعوة لمساندة فرنسا، و خاصة في الزوايا الكبرى : عين ماضي، تماسين و قمار . و منذ الإعلان عن التعبئة العامة بادر زعيمها سي علي بن سي أحمد إلى إرسال برقية ولاء للجنرال موانيي ، و جال في منطقة الأغواط، و ساعد سريا عائلة فرحات على تجهيز فرقة من القوم للمشاركة في القتال دفاعا عن فرنسا ، و بعث رسالة يحثهم فيها على الولاء لفرنسا و مساعدتها ، كما طلب منه الجنرال " ليوتي " ذلك في نوفمبر 1914م، و نفس التأييد و الولاء أبدته بقية الزوايا الكبرى كتماسين و قمار . و يؤكد "مينيي" من خلال كتابه هذا أنه اعتمد على الوثائق في استنباط هذه المواقف و بناء هذه الأفكار . [1]

و توالت الكتابات عن المواقف المؤيدة لفرنسا في حربها الكبرى ، و دعوة التجانيين الجزائريين للانخراط في صفوف الجيش الفرنسي ، و خاصة ما ورد في مجلة العالم الإسلامي التي كانت تنشر كل رسائل التأييد لفرنسا ، سواء من التجانيين أو غيرهم ، و سنقتصر هنا على مواقف التجانيين فقط و منها :

1-1-1 : وصية الشيخ محمد الكبير بن الشيخ محمد البشير بن أحمد التجاني لمريديه في جميع البلدان [2] :

و ردت هذه الوصية في مجلة العالم الإسلامي بخط يد الشيخ محمد الكبير و معها ترجمة بالفرنسية ، بدأها بتذكير مريديه في جميع البلدان بالحدث البارز الذي عرفته البشرية آنذاك و هو قيام الحرب العالمية الأولى و أطرافها ، مثنيا على فرنسا و معددا بعض المزايا التي (جلبتها) للجزائر : الحقوق ، العدل .. واصفا إياها بالإنسانية ، و ذاما ألمانيا واصفا إياها بالتجبر و الوحشية و الكبرياء ، كما أبدى اندهاشه من دخول تركيا الحرب، و استدرك ذلك بالإشارة إلى أن حكامها من حركة تركيا الفتاة و لا يعرفون للإسلام معنى ، و باعوا بلادهم لإمبراطور ألمانيا ، و كيف أن الجزائريين لا يزالون يتذكرون مآسيهم مع الأتراك مما يستدعي معاداتهم، و اغتنم الفرصة لحث المسلمين و المريدين التجانيين على مساعدة فرنسا بتجنيد أبنائهم في هذه الحرب ، و بأموالهم لقتال أعداء المسلمين - كما قال - وختم هذه الوصية بالدعاء لفرنسا بالنصر .

---

[1] Gilbert Meynier, op.cit. P. 270.

[2] Les musulmans français et la guerre, adresses et témoignages de fidélité des chefs musulmans, in : revue du monde musulman T29, année 8 - déc.1914, publiée par la maison scientifique du Maroc, édit. Ernest Leroux, Paris, PP 196-198.

2-1-1 : نداء الشيخ علي شيخ زاوية عين ماضي التجانية لأحباب طريقته في العالم الإسلامي : [1]

بعد تأسفه على دخول تركيا الحرب ضد فرنسا، معتبرا أن لهذه الأخيرة فضلا على تركيا (يقصد بذلك حرب القرم -1856/1853م- التي تدخلت فيها فرنسا و بريطانيا إلى جانب تركيا ضد روسيا) ذم الأتراك باسم التجانيين ، و ذكر الجزائريين (بمفاسدهم) في الجزائر أثناء وجودهم بها، و طلب منهم معاداتهم مستشهدا بقول الرسول صلى الله عليه و سلم (اتركوا الترك ما تركوكم)، و ارتأينا أن ننقل مقطعا مما ورد في النداء كما ورد لتوضيح الموقف، فقد جاء فيه : "و اعلموا أيها الأحباب أننا لم نزل ، و لن نزال متعلقين بأذيال دولتنا الفرنسوية القوية ، صاحبة الفضل و الفضائل .. شاكرين نعمها العظيمة ، و مزاياها الجسيمة التي لا تعد و لا تحصى ، فهي أمنا الحنينة ذات الرأفة و الشفقة ، و يجب علينا معاشر المسلمين أن نعينها بنفوسنا و أموالنا و أولادنا على عدوتها ألمانيا ، و حليفتها النمسا و تابعتهما تركيا، و ندعو لها آناء الليل و أطراف النهار بالفوز و الانتصار.. فأوصيكم أيها الأحباب في إتباع هذا المسلك الذي فيه خيركم... ""

3-1-1 : نداء الشيخ محمود بن محمد البشير لأحباب الطريقة التجانية أينما كانوا :2

هذا النداء عبارة عن رسالة طويلة كتبها الشيخ محمود لمريدي الطريقة التجانية، بدأها كمن سبقوه بالدعاء لفرنسا قائلا : " أول ما سنفتتح به هذه الرسالة هو الدعاء من صميم الفؤاد، و من سويداء القلب لدولتنا الفرنسوية القوية التي زرعت في هذه البلاد الجزائرية بشائر الخير، حتى عاش المسلمون تحت ظل رايتها المنصورة أحسن عيش .. " ثم ذكر بدوره بإعلان الحرب من ألمانيا على فرنسا و اعتبره (إفناء النور والعدل و نصر الجور و الاغتصاب)، وراح يذم ألمانيا و تركيا حليفتها و يدعو عليهما بالدمار والخراب، و ختم رسالته بقوله : " أما نحن فمسلكنا بين ، فإننا ندافع عن دولتنا الفرنسوية العزيزة إلى آخر رمق ، و نقاتل أعداءها حيثما كانوا و كيفما كانوا .. و إننا نحبكم يا معشر الأحباب أن تكونوا من ذوي البصائر والعبرة، الذين يميزون بين الخبيث والطيب و الغث والسمين. ""

4-1-1 : نداء السيد محمد البشير نجل الشيخ محمد التجاني شيخ زاوية تماسين لجميع مقاديمه و أحباب طريقته : [3]

النداء الوحيد الذي ورد بشكل قصير في ديسمبر 1914م، أي في الأشهر الأولى لقيام الحرب العالمية الأولى، تحدث فيه عن ألمانيا (الظالمة) و تعديها على الدولة الفرنسية (المحبوبة) و اعتبر الأتراك قد انخدعوا بدخولهم الحرب إلى جانب ألمانيا و

---

[1] Les musulmans français et la guerre, ibid. PP. 190 - 192.

[2] Les musulmans français et la guerre, opcit-. PP 202- 204.

[3] Les musulmans français et la guerre, ibid. P 208.

ذمهم على ذلك ، و اعتبرهم قد خرجوا عن دائرة الإسلام ، و ختم نداءه بتوضيح موقف التجانيين قائلا : " و نحن لا نعرف دولة غير دولة فرنسا ، فإننا نخدمها بالقلب و القالب منذ استيلائها على هذا الوطن ، و الحق أنها لم تسع إلا فيما فيه خير البلاد و العباد، من نشر لواء العافية و العمران، و احترام الدين و قهر الظالمين، و نصرة الضعيف على القوي و إقامة العدل، فإننا كلنا لدولتنا العظيمة بأموالنا و أنفسنا، و أولادنا قائمون على صافة الجد في الدفاع عنها، عازمين على قتال أعدائها أينما كانوا و حيثما وجدوا داعين لها بالنصر.."و في هذا النداء وضوح تام للموقف من التجنيد بنفس ما بدر من الشيوخ التجانيين السابقين .

5-1-1:نداء السيد محمد العروسي شيخ زاوية قمار لسائر مقاديمه وأحباب طريقته: [1]

نداء وجهه في نفس الفترة (بداية الحرب العالمية الأولى) و بدأه بدوره باستنكار دخول تركيا الحرب ضد فرنسا، و ركز على ضرورة التمسك بمودة فرنسا و الدفاع عنها حيث ورد عنه قوله : " أما نحن فلا نفرط في محبة دولتنا فرنسا العظيمة ، و لا في إعانتها على أعدائها بأولادنا ، يدخلون في جيوشها يقاتلون العدو مع إخوانهم الفرنسيين ، و نحن كلنا مستعدون برجالنا و أموالنا و كل عزيز لدينا للزحف على العدو إن دعتنا فرنسا لذلك، فارحين باغتنام الفرصة لمجازاتها بالخير على إحسانها الفائض علينا منذ القديم إلى يومنا هذا ، و إننا نوصيكم أيها الأحباب بالاقتداء بنا، و لا شك أنكم تفوزون بالخير في الدارين ببركة الغوث التجاني. "

6-1-1 : تصريح المفتي المالكي سي بن ناصر محمد أرزقي :

ورد هذا التصريح في كتاب : جون ميليا (الجزائر و الحرب) في نوفمبر 1914م و قد أشار المؤلف إلى المفتي على أنه تجاني، و لذلك ارتأينا إدراج موقفه ضمن هذه الدراسة حيث ذم تركيا، و طالب الجزائريين بالقتال مع فرنسا قائلا : " إننا نقدر تضحيات فرنسا و دورها العظيم في العالم الإسلامي، و تركيا التي استجابت لرغبات مؤسسها المجرم قامت بعمل جبان.. و ارتكبت خطأ جسيما ستدفع نتائجه.. إنها ضد الإرادة الإلهية، قاوموا في طريق الله ضد كل من يلحقون بكم الضرر. "" [2]

و نحن نورد هذه المواقف التجانية من قضية التجنيد في الحرب العالمية الأولى، نؤكد بأننا بحثنا كثيرا عن مواقف للطريقة التجانية بخصوص قانون التجنيد الإجباري و تجنيد الجزائريين طبقا لهذا القانون قبل الحرب الكبرى ، و لكن ما عثرنا عليه كان يجسد مواقف عامة من فرنسا تصب في تأييد سياستها و الثناء عليها دوما ، دون الإشارة مباشرة إلى مثل هذه الإجراءات، رغم ما حدث من معارضة للتجنيد الإجباري من خلال الانتفاضات و

[1] Les musulmans français et la guerre , opcit. P 212.
[2] Jean Melia, l'Algérie et la guerre 1914. 1918, librairie Plon, 4ème édition, paris, 1918, P. 226.

الثورات التي شملت مناطق واسعة من الجزائر ، و بقيت كل المراسلات الرسمية للطريقة في نطاق التعاون و مؤازرة الإدارة الاستعمارية.

و قد حاولنا إثبات ذلك في الملاحق من خلال إدراج المراسلات المختلفة لشيوخ الطريقة في نفس الفترة التاريخية،و التي عرفت إقبال الاستعمار على استغلال أبناء الجزائر في توسعاته و حروبه الاستعمارية . و الحق يقال إن شيوخ التجانية لم يكونوا وحدهم المؤازرين للإدارة الاستعمارية، و الواقفين إلى جانبها في الحرب العالمية الأولى، بل حتى شيوخ طرق أخرى دعوا فرنسا إلى تجنيد المزيد من الجزائريين للدفاع عنها، و اعتبروا هذا العمل أيضا ردا (لجميل فرنسا و أفضالها) . و قد أوردت نفس المجلة السابقة (مجلة العالم الإسلامي) في عددها الخاص في ديسمبر 1914م نداءات هؤلاء الشيوخ و منهم(للمقارنة فقط) :

_ نداء شيخ الطريقة الرحمانية بزاوية طولقة عمر علي بن عثمان، و الذي دعا فيه لمساعدة فرنسا و الدفاع عنها بإرسال الشباب إلى جبهات القتال . [1]

_ نداء السيد المختار بن الحاج محمد شيخ الرحمانية بزاوية الهامل: قدم فيه نفس الدعوة للقتال إلى جانب فرنسا .[2]

_ نداء السيد محمد الصغير بن الشيخ مختار , شيخ الرحمانية بزاوية أولاد جلال : أثنى فيه على فرنسا و ذم ألمانيا و تركيا ، و دعا للقتال في صفوف القوات الفرنسية كأقل ما يرد به الجزائريون (جميل) فرنسا . [3]

_ نداء أحمد بن الحسني الوزاني إلى مقاديم و إخوان الطريقة الطيبية، يسأل فيه الله أن يطيل بقاء فرنسا في الجزائر ، و يدعو لها بالنصر ...[4]

و هكذا فالكثير من شيوخ هذه الطرق وقفوا في خندق واحد مع التجانيين دفاعا عن فرنسا و لكن الفرق الوحيد أن هؤلاء الشيوخ كانوا يمثلون زوايا فرعية ، عكس شيوخ التجانية الذين كانوا يمثلون المواقف الرسمية للطريقة لأنهم يمثلون مقري الخلافة : عين ماضي و تماسين ، و ذلك لا يعكس بأية حال مواقف الكثير من مقاديم الطريقة و مريديها، و شيوخ بعض الزوايا الفرعية، الذين كانت مواقفهم بعيدة عن المواقف الرسمية هذه، و لذلك حاولنا الإشارة إليها بمفردها دون ربطها باتجاهات الزوايا الكبرى و شيوخها.

---

[1] Les musulmans français et la guerre, op.cit. P. 222.
[2] Ibid. P 216.
[3] Ibid. P226.
[4] ibid. P. 236.

2-1 مواقف بعض المقدمين وشيوخ الزوايا الفرعية:

1-2-1 موقف زاوية تلمسان :

كانت زاوية تلمسان منذ دخول الاستعمار الفرنسي أرض الجزائر متمردة على الإدارة الاستعمارية ، حتى أن هذه الأخيرة منذ سقوط تلمسان عام 1842م و هي حذرة جدا من زاويتها التجانية حسب التقارير التي وجدناها في أرشيف ما وراء البحار . لقد وقفت هذه الزاوية موقفا صارما من قضية التجنيد، و حثت الشباب على التمرد و الفرار إلى المناطق الجبلية، أو الهجرة إلى الخارج و عدم قبول التجنيد في صفوف القوات الاستعمارية ، حتى أن شيخ الزاوية التجانية بعين ماضي أحمد بن محمد بن أحمد التجاني ، و أمام الخطر الذي أصبحت تشكله زاوية تلمسان ، اضطر إلى التبرؤ من وكيلها مولاي يعقوب في رسالة بعثها إلى الحاكم العام، يعلمه فيها بخلع هذا المقدم من منصبه، حتى يبرئ ذمته مما يقوم به هذا الأخير من تحريض للشباب و السكان على التمرد على الإدارة الاستعمارية .[1] و حتى نوضح أكثر مواقف زاوية تلمسان بهذا الخصوص أوردنا بعض الوثائق منها:

- وثيقة متابعة للطاهر بن بوالطيب وكيل زاوية تلمسان تحت رقم 811 .

- وثيقة معلومات عن وكيل الزاوية، زود بها الإدارة الاستعمارية الشيخ أحمد عمار التجاني تحت رقم 312 موجهة إلى الحاكم العام، مؤرخة في 1880/06/29م.

_ وثيقة متابعة المسمى حمو بن عطار أحد مريدي زاوية تلمسان أثناء عودته من الجزائر العاصمة، رقمها 11258 بتاريخ 1880/03/13م

_ وثيقة معلومات حول أحد مريدي الزاوية ، المسمى دريس بن علي ، ألقي عليه القبض في الأغواط و هو يحمل رسالة. و هي نماذج فقط توضح دور الزاوية في مناهضة خطط الاستعمار و سياسته ، و توجد العشرات من هذه الوثائق في أرشيف ما وراء البحار ، لا يتسع المجال لإدراجها كلها في هذا الحيز من الدراسة .

2-2-1 : موقف الشيخ عبد الحليم بن سماية :

يعتبره جون لويس تريو مقدما للطريقة التجانية بالعاصمة في كتابه الذي ألفه رفقة دافيد روبنسون (التجانية طريقة مسلمة تغزو إفريقيا) [2]

---

[1] الرسالة عبارة عن شكوى من الشيخ احمد عمار شيخ زاوية عين ماضي إلى الحاكم العام بخصوص مولاي يعقوب الذي يصفه بالمجرم، و هي مؤرخة في 22 شوال 1298 م / الموافق لسنة 1881م، أدرجناها ضمن الملاحق وهي مأخوذة من العلبة: 16H46 تحت عنوان: affaires des Tidjania de Tlemcen (Moulay Yacoub)

2 Jean louis Triaud et David Robinson, la Tijaniyya, une confrérie musulmane à la conquête de l'Afrique, paris Karthala, 2000.

و ابن سماية خصص له الدكتور أبو القاسم سعد الله عدة صفحات من كتابه (الحركة الوطنية الجزائرية ، الجزء الثاني) يتحدث فيها عن دوره الهام في النهضة العربية بالجزائر و نشر التعليم العربي، و أهميته في كتلة المحافظين، و دعوته للجامعة الإسلامية و غيرها من نشاطاته، و لكن ما يهمنا هنا موقفه من التجنيد الإجباري في الجزائر .

فقد عارض عبد الحليم بن سماية قضية الخدمة العسكرية الإجبارية في الجيش الفرنسي، وحدث أن نظم اجتماع في الجزائر العاصمة سنة 1911م في إطار الحملة المنظمة ضد التجنيد الإجباري ، كتب محضره عمر بن قدور المحسوب على التجانية أيضا ، و نقل هذا المحضر -حسب أبي القاسم سعد الله - في جريدة (الحضارة) العثمانية، أشار إلى جرأة عبد الحليم بن سماية ، و كيف تكلم باسم الحاضرين أمام رئيس البلدية الفرنسي ، و أكد أن الجزائريين يرفضون رفضا قاطعا هذا التجنيد ، حتى و لو عوضتهم فرنسا بالحقوق السياسية التي قبلتها جماعة النخبة ، لا شيء سوى أن المسلم لا يمكنه مخالفة دينه، و الموت من أجل كافر.[1]

2- موقف الزوايا التجانية في تونس التجنيد :

لم تظهر مواقف صريحة من الزوايا التجانية و لا من غيرها تجاه التجنيد في فترة ما قبل الحرب العالمية الأولى ، و لما اندلعت هذه الحرب عام 1914م بدأ التنافس بين مختلف الطرق لاكتساب رضا السلطات الاستعمارية ، و بالتالي فمعظم هذه الطرق ساعدت الاستعمار بدفع أتباعها إلى القتال، و حث الأهالي على الانضمام إلى الجيش الفرنسي، و منها على سبيل المثال الزاوية الرحمانية بتونس، و التي كان على رأسها الشيخ ألأزهاري بن مصطفى بن عزوز الذي جمع خيوله للاستعمار، و تكفل بالدعاية لصالحه، و قلدته فرنسا وسام الشرف الفرنسي .[2] و نحن لما أوردنا هذا المثال ، أردنا أن نتجنب انفراد الزوايا التجانية بخاصية الولاء للسلطات الاستعمارية في حربها الكبرى ضد ألمانيا و حلفائها ، فالتجانية في تونس لم تكن وحدها في الميدان .

و من أبرز زواياها التي جهرت بولائها، و بذلت كل جهودها في سبيل حشد الدعم البشري و المادي للاستعمار الفرنسي : زاوية بوعرادة و شيخها المنوبي . فقد بادر هذا الأخير بمجرد قيام الحرب إلى كتابة رسالة ولاء، يدعو فيها بالنصر و التمكين لفرنسا جاء فيها " نسأل الله العزيز الديان الحفظ و الأمان لعساكرنا في كل مكان.. و لدولة الألمان يعوقهم الزمان في العساكر و الحال و الأبدان ".[3] كما بذل المنوبي ، لما فر بعض المجندين من الجيش الفرنسي ، جهودا كبرى في البحث عنهم، و إعادتهم إلى فيالقهم في بنزرت و

---

[1] أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج 2 (1900- 1930) الجزائر، ط3، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، 1983، ص 157.

[2] التليلي العجيلي، الطرق الصوفية و الاستعمار الفرنسي بالبلاد التونسية 1881 – 1939 ، المجلد2 , منشورات كلية الآداب بمنوبة 1992،ص 97 .

[3] نفسه ، ص 183.

غيرها من المدن خدمة لفرنسا و تقربا منها، عساه ينال الحظوة و المكانة التي كان يطمح إليها. و بلغت مطامحه حد المجازفة بابنه في هذه الحرب، و كتب في هذا الشأن رسالة إلى المقيم العام يعلمه بتجنيد ابنه، نورد مقتطفات منها حيث جاء فيها: " إن ابني الوحيد الشريف محمد التجاني تطوع بأمر مني لقتال الأعداء(الألمان)، إذ أن أعداء فرنسا هم أعداؤنا، فهو بذلك الوحيد من كل المشايخ، الوحيد من الأشراف، الذي عبر بطريقة ممتازة عن الولاء و التعلق الدائم بفرنسا، و ذهب يمنح دمه و حياته للدفاع ضد العدو المشرك.. " [1] و دعا الضباط و الجنود و الأهالي إلى الدفاع عن فرنسا ضد الألمان الذين وصفهم بالمكر و الخداع و الشر، بينما وصف الفرنسيين بالأمة الكريمة ، و هذا الثناء هو نفسه الثناء و المدح الذي لاحظناه عند شيوخ الزوايا التجانية الكبرى بالجزائر، وما يثبت ارتباط زاوية بوعرادة نفسها بزاوية تماسين وجود عدة تقارير بأرشيف ما وراء البحار بأكس تتطرق إلى زيارة شيوخ تماسين لهذه المنطقة بتونس في إطار مراقبة فرنسا للطرق الصوفية .

و للتعبير أكثر عن موقف هذه الزاوية من التجنيد العسكري أثناء الحرب العالمية الأولى نورد ما كتبه ابن المنوبي هذا محمد الشريف ، لما سرح من الجيش لأسباب صحية، في رسالة بعثها إلى وزير الإعلام الفرنسي بباريس جاء فيها:" لما اندلعت الحرب سنة1914م كان لأبي من العمر سبعون سنة ، و كنت ابنه الوحيد ، و رغم أني معفى من الخدمة العسكرية ، فان أبي أمرني بالالتحاق بالجبهة ، كما نصح بالخضوع لفرنسا ، و شجع الانخراط في الخدمة العسكرية ، و أمر العائلات بأن يرجعوا بأنفسهم أبناهم الفارين إلى فيالقهم، لقد كان لي من العمر 22 سنة..و تم إجلائي..على اثر نزلة رئوية ألمت بي, و بعد 11 شهرا قضيتها في المستشفى وقع تسريحي من لجنة الإعفاء، وخلال فترة النقاهة.. طلب مني الجنرال سارفيار زيارة المستشفيات التي يوجد بها المسلحون للرفع من معنوياتهم وتشجيعهم على العودة إلى الجبهة، لقد تكلمت في كل مكان لصالح فرنسا.. "

و قد ثبت من خلال الأرشيف الفرنسي أنه فعلا التحق بصفوف الجيش الفرنسي على رأس الفرقة الرابعة للصبايحية، حيث لازالت سجلات مداولات المجلس البلدي لمدينة بيلي (Bully) شرق فرنسا بمقاطعة الرون تحتفظ بتقرير عن وصول محمد الشريف التجاني إلى المدينة، لما كان متجها بفرقته إلى الشمال، للمشاركة في المعارك التي كانت جارية للسيطرة على هضبة اللورات . و صادف وصوله بتاريخ 16 ماي 1915م انعقاد اجتماع المجلس البلدي لمدينة بيلي، و أوقف رئيس البلدية ادموند دوبومون (Edmond Debeaumont) مؤقتا هذا الاجتماع ، و استقبل محمد الشريف التجاني و رحب به ، و اغتنم هذا الأخير الفرصة للكلام أمام الأعضاء مبديا سعادته بهذا الاستقبال، و ذكرهم أن

[1] التليلي العجيلي، م س ، ص 184 .

قدومه إلى فرنسا للقتال ليس معناه إضافة رقم جديد، بقدر ما يكون لحضوره دفع معنوي للتجانيين و المسلمين لقتال الأعداء الذين يريدون تدمير (وطنه الغالي) فرنسا، و طلب في الأخير مصافحة كل عضو من أعضاء المجلس البلدي، ثم انصرف مع فرقته ليكمل طريقه .[1]

3- موقف التجانية في المغرب من التجنيد :

المغرب كان حديث العهد بالحماية لما اندلعت الحرب العالمية الأولى(1914م- 1918م) حيث فرضت عليه يوم 30 مارس 1912م ، و هي ما تعرف بمعاهدة فاس التي تنازل بموجبها السلطان عبد الحفيظ عن السيادة لفرنسا . و في نوفمبر من نفس العام وقعت اتفاقية أخرى بين فرنسا و اسبانيا، حصلت بموجبها هذه الأخيرة على منطقة الريف في شمال المغرب، و افني على الساحل الأطلسي في الجنوب الغربي ، و منطقة طرفاية جنوب نهر درعة، و بقيت طنجة منطقة دولية . و أنشئت الإقامة الفرنسية في المغرب و عين على رأسها الجنرال ليوتي الذي اتبع إستراتيجية العنف، لإخماد الانتفاضات التي قامت ضد النفوذ الفرنسي و الاسباني . في خضم كل هذه الأحداث اكتفت الزاوية التجانية بالتأييد للإدارة الاستعمارية، في ظل الخضوع التام للسلطان يوسف الذي خلف أخاه مولاي عبد الحفيظ ، و حتى و لو أرادت الوقوف في وجه الاستعمار لما كان لها ذلك ، لأن وجودها بالمغرب مرتبط بوقوف سلاطين المغرب إلى جانبها منذ تأسيس زاوية فاس عام 1800 م، و لذلك فإرادة الزاوية من إرادة السلطان . و لما اندلعت الحرب العالمية الأولى بادر السلطان يوسف إلى الدعوة للقتال إلى جانب فرنسا، في نداء مؤرخ بتاريخ 15 نوفمبر1914م، و حث الجنود المغاربة الموجودين في ميادين الحرب على الاستبسال في القتال ضد من سماهم أعداء الإنسانية و الحرية و المدنية، و دعاهم إلى الصمود، معبرا عن افتخاره بنا يقوم به الجنود المغاربة في هذه الحرب ، واصفا الألمان بالمغترين و المتجبرين ، و من والاهم كالعثمانيين بالمغفلين ، و دعا عبر هذا النداء بقية الشباب المغربي إلى أن يحذوا حذو إخوانهم المشاركين في قتال الألمان.[2] وتبعا لهذا النداء لم يكن بإمكان الطرق الصوفية ، و في مقدمتها الطريقة التجانية التي كان سلاطين المملكة من أتباعها الوقوف عكس إرادة السلطان، و لذلك سجلنا الموقف الوحيد للخليفة علي التجاني بالمغرب لما قامت الحرب العالمية الأولى، حين أوصى مريديه و معهم المغاربة و تجانيي إفريقيا الغربية بضرورة التصالح مع فرنسا، و الوقوف إلى جانبها، و عدم التشويش عليها في هذه الحرب، و هذه الوصية أخذ بها الشيخ مالك سي في توجيه ندائه لأتباعه.[3]

---

[1] أرشيف بلدية بيلي (bully)، سجل المداولات بتاريخ 1915/05/16 م .

[2] Les musulmans français et la guerre, op.cit. P 304

[3] Ibid. PP 106-110

ثانيا : موقف الطريقة من التجنيد في غرب إفريقيا :

لقد سبق للحاج عمر الفوتي أن وقف في وجه الاستعمار الفرنسي، حاربه و أوقف توسعه في غرب إفريقيا لمدة من الزمن و أفشل خططه، إلى أن انتهت مسيرته النضالية بوفاته سنة 1864 م . و رغم إتمام أبنائه لهذه المسيرة إلا أنهم عجزوا عن الحفاظ على الدولة التجانية التي أسسها والدهم ، و قد جاء من بعده شيوخ آثروا مهادنة الاستعمار على مقاومته و تعاونوا معه ، عسى ذلك يخدم طريقتهم و يسمح لهم بمد نفوذها في غرب إفريقيا و خدمة الإسلام ، و قد اكتسب هؤلاء الشيوخ شهرة واسعة ، فكيف كان موقفهم من قضية التجنيد ؟

إن تصريحاتهم بخصوص الاستعمار تعبر عن مواقفهم من قضاياه دون البحث عن موقف من قضية ما بالتحديد. فهذا الشيخ إبراهيم نياس يصرح قائلا : " فرنسا عرفت كيف تحول الفوضى إلى أمن ، و قضت على النزاعات و جلبت العدالة. " [1] و نسب للشيخ مالك سي في نفس الفترة قوله : " سعادة فرنسا هي سعادتنا "" [2] و حتى يتضح موقف التجانية من قضية التجنيد و خاصة في الحرب العالمية الأولى، ركزنا على مواقف أبرز الشيوخ التجانيين و هم على التوالي :

1- الشيخ الحاج مالك سي :

الشيخ مالك سي لم يكتف بالدعوة إلى القتال في صفوف الجيش الفرنسي-حسب الباحثة أدريانا بيغا- بل وصل به الأمر إلى إرسال ابنه "" أحمد سي "" إلى جبهة القتال في هذه الحرب ، و قتل ابنه هذا في معركة فردان (فبراير 1916م) ، و جمع أيضا التبرعات لصالح ضحايا الحرب، و كان دوما يدعو للجنود المشاركين في القتال إلى جانب فرنسا بالنصر [3].

في ديسمبر 1914م كان قد أصدر نداء إلى أتباعه في مناطق عديدة مثل: كاجور، باول، ديولوف ، سالوم ، بدأه بتهدئة الخواطر، و نصح أتباعه بعدم الخروج عن السلطة الفرنسية حتى و لو قامت ببعض التجاوزات ، و ذكر بدورها (المشرف) فيما قدمته للأفارقة من أمن و حضارة ، و دعا للفرنسيين بالنصر ، و طلب ضرورة شكرهم و عدم المجازفة وراء من (يغررون) بهم لمعاداتهم و ختم نداءه قائلا : " الله هو الذي وهب لنا هذه الأمة المنتصرة للحفاظ على استقرارنا و هي قوية، و من أعلنوا عليها الحرب منهزمون لا محالة "". [4]

---

[1] Adriana Piga, op.cit. P172

ورد هذا التصريح أيضا في جريدة العالم الإسلامي, عدد خاص R.M.M. 1915, P132, 1915

[2] Ibid. 143.

[3] Ibid. p 180 .

[4] Les musulmans français et la guerre, op.cit. PP. 106-110.

و في سنة 1916م عاد الحاج مالك سي ليذكر بمواقفه تجاه فرنسا ووقوفه إلى جانبها في الحرب العالمية الأولى، عن طريق رسالة بعثها إلى الحاكم العام ورد فيها : " فاني أنا كاتب هذه الرسالة الحاج مالك سي لم أزل و لا أزال في تعظيم دولتنا الفخيمة ، عمر الله فرنسا و الجمهورية، و أعلى قواتها و شوكتها أمين . " [1]

و هذه التضحيات كلها، و هذه المواقف المناصرة لفرنسا ، كان أتباعه يعتبرونها مجرد مهادنة للاستعمار حتى يستمر في إصلاحاته و دعوته الدينية دون ضغوط من الإدارة الاستعمارية .

2 – الحاج عبد الله نياس (مقدم التجانية بكولخ) :

جدد ولاءه للحكومة الفرنسية و للأمة الفرنسية (العظيمة) كما سماها ، و اعتبرها أقوى أمم أوربا بعدالتها ، و التي يتحتم على الأفارقة محبتها ، و بعد أن عدد مزاياها كما هو معهود لدى غالبية التجانيين (القضاء على الهمجية - حمل أنوار الحضارة - تخليصهم من الاستبداد و الفوضى - مناصرة الضعيف - مساعدة الفقير) ، طالب بضرورة الدفاع عنها و حث الشباب على التجنيد في صفوف قواتها قائلا : " وجب على الجميع الدفاع عنها في ساحة القتال، و الموت في سبيلها ." و ختم رسالته قائلا: " لن نذق طعم الحياة قبل انتصار فرنسا،" و دعا لها بالنصر . [2]

و في سنة 1916م بعث برسالة أخرى إلى مسؤولي الإدارة الفرنسية ، يدعو لفرنسا بالنصر ، و في هذه المرة، بعد ذم الألمان أدرج الإسلام في قضية الحرب ، و كأن هذه الحرب هي حرب المسلمين على أعدائهم حيث ورد في رسالته : " في هذه الحرب الألمان لن يتمكنوا من هزيمة الإسلام ، و لا من شراء ذمم المسلمين، عدا الأتراك الذين ليس لديهم شيء من الإسلام ... " [3]

3- الشيخ عبده كان :

في عام 1914م أثنى على فرنسا من خلال رسالة بعثها إلى مسؤوليها، و جدد ولاء التجانيين بعبارات: (نحن عيالكم و حمال كرامتكم و تابعوا أوامركم ، ندفع إليكم نفوسنا..) و ذم الأتراك ووصفهم بناكري الجميل، الذين كادت روسيا تدمرهم لولا الفرنسيين، ووعد فرنسا بالدعم و المساعدة و دعا لها بالنصر. [4]

و من هنا تتضح المواقف العامة للتجانيين من قضية التجنيد عموما، و مشاركة الأهالي في الحرب العالمية الأولى التي كانت تمثل أخطر مرحلة عرف فيها التجنيد أقصى حد له، و

[1] Les musulmans français et la guerre 1915-1916, revue du monde musulman, tome 33, P 14.
[2] Les musulmans français et la guerre, (R.M.M- T29), op.cit. P 130.
[3] Les musulmans français... (R.M.M- T 33), op.cit. P 23.
[4] Ibid. P 23.

دفع الاستعمار بأعداد كبيرة من الشباب للموت في حرب لا تعنيهم و لا تعني الإسلام في شيء، و رغم ذلك وقفوا إلى جانب الاستعمار، بل ودعوا الشباب إلى التجنيد بقوة، دفاعا عن فرنسا التي (أتتهم بالحضارة و المدنية)، و حتى ولو اعتبروا هذه المواقف مهادنة للاستعمار فيبدو أنها مبالغة في ترضيته .

الفصل الثالث
قضية التعليم في شمال و غرب إفريقيا
و موقف الطريقة التجانية منها

- ✓ **التعليم الاستعماري في شمال و غرب إفريقيا**

- شمال إفريقيا:

1- الجزائر

2- تونس

3- المغرب الأقصى

- غرب إفريقيا:

1- وضعية التعليم قبل الاستعمار

2- وضعية التعليم أثناء الفترة الاستعمارية

- ✓ **موقف الطريقة التجانية من قضية التعليم في شمال و غرب إفريقيا**

- شمال إفريقيا:

1- الجزائر

2- تونس

3- المغرب الأقصى

يكتسي التعليم أهمية كبرى في إرساء جذور الإستعمار في المستعمرات التي يمتد إليها نفوذه، حيث يعمل على غرس لغته، ونشر ثقافته بين السكان كوسيلة ناجعة في إخضاع هؤلاء السكان. وكان الإستعمار الفرنسي قد أدرك أهمية التعليم وأثره العميق على الفرد منذ زمن بعيد، لما وطئت أقدامه أرض إفريقيا، في إطار التنافس مع بقية الدول الإستعمارية على اقتسام مناطق النفوذ في القارة، وراح يستعمله على نطاق واسع لإخضاع شعوب مستعمراته، كما هو الحال في شمال وغرب إفريقيا موضوع دراستنا، ويوليه العناية الفائقة تزامنا مع استعمال القوة العسكرية، وتمكن في عدة مناطق من تكوين إطارات محلية تحمل فكرا أوربيا، أصبحت تنوب عنه في إخضاع أهل موطنها وتحقيق أهداف هذا الاستعمار مما يترجم خطورة التعليم الاستعماري، الذي ما زالت مخلفاته سائدة إلى اليوم في جل المستعمرات- إن لم نقل كلها- وأولها لغته التي يعتبرها البعض (إرثا تاريخيا). وسنحاول من خلال هذا الفصل إظهار هذه الخطورة لنرى إن كانت الطريقة التجانية بالخصوص على وعي تام بها، وكيف كانت مواقفها من هذا التعليم بدءا بشمال إفريقيا وانتهاء بغربها.

أولا- قضية التعليم في شمال و غرب افريقيا :

أ- التعليم الفرنسي في شمال إفريقيا:

الجزائر: 1-1- موقف الإستعمار من التعليم الإسلامي في الجزائر :

رغم كل ما كتب عن العهد العثماني بالجزائر بأقلام إستعمارية، وصفته بالعهد المظلم، وعهد التخلف، وغيرهما من الصفات التي يبررون بها استعمارهم لبلادنا، محاولين إيصال فكرة حمل فرنسا لمشعل المدنية والحضارة إلى الجزائر، إلا أن بعض الفرنسيين أنفسهم، وعلى رأسهم "دوماس" يعترفون بأن التعليم الابتدائي كان أكثر انتشارا في الجزائر قبل

الغزو الفرنسي، وكان جل السكان يعرفون القراءة والكتابة، وكان لجميع القبائل معلم مدرسة قبل هذا الإحتلال.[1]

ووعيا منه بخطورة التعليم الإسلامي على مستقبل وجوده بالجزائر، وعلى مخططاته الهادفة إلى ضرب الهوية الوطنية، استهدف هجومه الأول المؤسسة التعليمية، بتدمير المدارس والمؤسسات التي يرتبط بها هذا التعليم كالمساجد والزوايا والكتاتيب، ونفي الكثير من العلماء خارج البلاد، وتحويل بعض المساجد إلى كنائس، مثل جامع كتشاوة الذي أصبح كنيسة القديس فيليب سنة 1832م، وأخرى إلى ثكنات أو إسطبلات أو مخازن، سعيا منه إلى نشر الأمية والجهل، وكرس اللغة الفرنسية كلغة رسمية في التعليم والإدارة.

وكان التعليم بالنسبة لهذا الاستعمار أنجع وسيلة لإذابة الجزائريين في الكيان الفرنسي العام، وسلخهم من دينهم ولغتهم ، ومن حضارتهم العربية الإسلامية واجتثاثهم كما وقع لمسلمي الأندلس منذ قرون، أي أنه كان يهدف من وراء التعليم- كما يقول عبد العزيز شهبي- إلى (ربط الجزائر سياسيا وإداريا بفرنسا وهضمها روحيا وثقافيا ولغويا).[2]

وبمصادرة الأوقاف يكون الاستعمار الفرنسي قد قضى على المؤسسات التعليمية الاسلامية، لأن هذه المؤسسات كانت تحصل على حاجياتها للاستمرار في مهمتها التربوية من موارد هذه الأوقاف، زيادة على التبرعات التي عرف بها الجزائريون.[3]

وكانت الإدارة الاستعمارية تسعى إلى إقامة مدارس فرنسية تنافس المؤسسات الإسلامية -إن بقي فيها شيء- ظاهرها تعليم (شعب متخلف) ونقل المدنية والحضارة إليه ،والقضاء على التعصب الذي (يتصف به) ولكن هدفه الحقيقي ضرب الشخصية الوطنية، ودمج المجتمع الجزائري في المجتمع الفرنسي خدمة للوجود الاستعماري.[4]

---

[1] آسيا بلحسين رحوي، وضعية التعليم الجزائري غداة الإحتلال الفرنسي، مجلة دراسات نفسية وتربوية، العدد 07 - ديسمبر 2011، مخبر تطور الممارسات النفسية والتربوية، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، ص59.

[2] - عبد العزيز شهبي، م.س، ص44.

[3]- شارل روبير آجرون، الجزائريون المسلمون وفرنسا، م.س، ص582.

[4] - جمال قنان، التعليم الأهلي في الجزائر في عهد الاستعمار (1830- 1944) ، طبعة خاصة ، الجزائر، دار هومة ،2007م ، ص13.

2-1- أهم المراحل التي مر بها التعليم الفرنسي في الجزائر :

مر التعليم الفرنسي في الجزائر منذ عام 1830 م بعدة محطات نحاول اختصارها في النقاط التالية :

1-2-1- فترة الحكم العسكري 1830م-1870م:

عرفت تبني تعليم مزدوج في البداية: فرنسي، عربي بغية تحقيق الهدف الإدماجي الذي أشرنا إليه سابقا، وأول مدرسة افتتحت سنة 1833م بالعاصمة، سميت بمدرسة التعليم المتبادل، خصصت لتعليم الأطفال الأوربيين واليهود، ثم ظهر ما يسمى بالتعليم العمومي والذي تدرس فيه:اللغة الفرنسية، الكتابة، الحساب، واللغة العربية. وأول مدرسة تم فتحها في هذا النمط التربوي كانت المدرسة العربية الفرنسية بالعاصمة سنة 1836 م وهي خاصة بالذكور، وفتحت أخرى بعنابة سنة 1837 م لمنافسة التعليم العربي الاسلامي بالزاويا، ثم كانت أول مدرسة للبنات في الجزائر العاصمة عام 1845م. وقد بلغ عدد التلاميذ الجزائريين بهذه المدارس إلى غاية سنة 1844م سبعة مقابل 100 تلميذ أوربي[1] وهو ما يعكس نفور الجزائريين من هذه المدارس التي كانوا يرون فيها خطرا على أبنائهم وعقيدتهم، خاصة لما أعطي حق الإشراف على العديد من هذه المدارس للمنصرين الذين كانوا يسعون لتنفيذ مخططاتهم التنصيرية .

وكانت كل المدارس الفرنسية في الجزائر تركز فيما تقدمه من دروس على عظمة فرنسا، وعظمة قوتها العسكرية وغناها، بمعنى أن على الأهالي أن يحسوا أن الفرنسيين أقوياء، وتسودهم الروح الإنهزامية حتى يعتبروهم الأسياد الممتازين الذين يعيشون تحتهم في أمان،[2] ولكن هذا الهدف فشل ولم يتحقق لأن القليل فقط هو من التحق بهذه المدارس، وبقي الجزائريون أوفياء لتعليمهم الإسلامي، حتى ولو إضطروا إلى الإبتعاد إلى المناطق النائية، بعيدا عن مراقبة الإستعمار وضغوطاته.

---

[1] - آسيا بلحسين رحوي، م.س، ص62.

[2]- Paul Bernard, Les écoles indigènes devant l’opinion publique, Adolphe Jourdan, Alger 1897. P14.

وطيلة فترة الحكم العسكري بالجزائر، تواصل فتح المدارس المشتركة بمعظم المدن الجزائرية وخاصة في المدن الكبرى كوهران، العاصمة، عنابة، و قسنطينة[1].

وكان قرار 06 أوت 1850م قد نص على إنشاء ست مدارس عربية/فرنسية في كل من: الجزائر العاصمة، وهران، قسنطينة، عنابة، البليدة، مستغانم، يشرف عليها حاملون لشهادة الكفاءة لتعليم اللغة العربية مع مساعدة بعض الجزائريين، ليصل عدد هذه المدارس سنة 1851م إلى 223 مدرسة مدعمة من طرف الإدارة الإستعمارية[2]، ثم جاء مرسوم 1850/09/30م الذي نص على إنشاء المدارس الحكومية الثلاث: تلمسان، قسنطينة، والمدية، وحولت بعد ذلك إلى العاصمة عام 1859 م لإبعاد الجزائريين عن التعليم الإسلامي، و ما يشكله من خطورة على الإستعمار و مخططاته ، وهو ما أكده دوطوكفيل بنفسه في تقريره الذي ورد فيه "لقد تركنا المدارس تتهاوى، وشتتنا المحاضر، فانطفأت الأنوار حولنا.. ومعنى ذلك أننا تركنا مجتمع المسلمين في حالة من الجهل والوحشية، أكثر من تلك التي كان عليها قبل أن يتعرف علينا"[3]

فبموجب مرسوم 1850/07/14 م تم بناء 40 مدرسة إبتدائية في ظرف 24 سنة تقريبا (1850-1873) بمعدل مدرستين في كل سنة.

أغلقت معظمها بعد إنتفاضة المقراني سنة 1871م، ثم أغلقت نهائيا عام 1883م، أمام ضغط المعمرين الذين كانوا يرون في تعليم الأهالي سلاحا ضد الإستعمار، فقد إتخذوا من هذه الثورة ذريعة لإظهار تذمرهم من السياسة التعليمية، وقاموا بحرق معهد الفنون والحرف والمدرسة العربية الفرنسية بتيزي وزو.[4]

ونحن نتكلم عن خطورة هذا التعليم، وخطورة هذه المؤسسات التي كانت الإدارة الإستعمارية تسابق الزمن لإنشاء المزيد منها في الجزائر، قد يبدو طرحنا لهذه القضية لدى البعض مجانبا للحقيقة، إعتقادا منهم أن الإستعمار قدم فعلا بنوايا التمدين، لذلك ولتوضيح هذه النوايا الإستعمارية نورد ما جاء على لسان "فيلمان" رئيس مكتب الشؤون السياسية في

---

[1] - شارل روبير آجرون، م.س، ص35.

[2] -مراد بوتليليس، تطور التعليم في الجزائر من 1830م إلى 2001م، مذكرة ماجستير في الديمغرافيا الاقتصادية والاجتماعية، كلية العلوم الاجتماعية، قسم الديمغرافيا، جامعة وهران، 2014م.

[3] شارل روبير أجرون، م .س، ص582.

[4] مراد بوتليليس، م .س، ص52.

باريس سنة 1846 م حيث يقول: "إن الداعي لكل هذه الجهود هو إعداد رجال يساعدوننا من خلال نشاطهم مع بني جلدتهم على تغيير المجتمع العربي ، وفق متطلبات حضارتنا"[1]

1-2-2- فترة الحكم المدني منذ سنة 1871م:

وبمجيء الحكم المدني، تم إلغاء المدارس المشتركة (الفرنسية/العربية)، وبدأ الإهتمام بالمدارس الحكومية العلمانية، خاصة وأن جول فيري لعب دورا أساسيا في وضع هذا النظام التربوي الجديد إبتداء من سنة 1882م، وقد ترسخت لدى الفرنسيين بعد تجربة المدارس المشتركة التي لقيت معارضة شديدة من قبل المعمرين، قبل التفكير في إنشاء هذه المدارس اللائكية الجديدة، فكرة نلخصها في ثلاث نقاط أساسية هي:[2]

- الأهالي غير قابلين لأي نمو أو تقدم، وأي مجهود يبذل لتعليمهم مرهون بالفشل .
- التعليم المهني هو الوحيد الذي يمكن أن يتناسب مع طبيعة الأهالي.
- التعليم الذي يقدم للأهالي بنفس طريقة المدارس الأكاديمية الفرنسية يقود إلى تخرج متمردين وثوار.

ووضعوا تصورا لطبيعة ما يمكن تقديمه من دروس للأهالي، ولو أن هذا المضمون كان يعطى بعضه أيضا في المدارس المشتركة السابقة، أساس هذا التصور أن الأهالي يؤمنون بفكرة أن الإسلام سيسود العالم وأن (رجل الساعة) سيأتي يوما لوضع حد لوجودهم المؤقت، ولذلك كما يتصورون، يجب طمس هذا (الخطأ) وأن يوضحوا لهم طبيعة فرنسا كما هي : غنية بزراعتها، مزدهرة بصناعتها وتجارتها، قوية بجيوشها وأساطيلها.[3]

- قانون 1882/03/28م وإقرار إلزامية التعليم:

ولتنظيم التعليم في هذه المرحلة الجديدة في ظل الحكم المدني صدر قانون 12 جوان 1881 م المتعلق بمجانية التعليم ، ثم بعده قانون 28 مارس 1882م المتعلق بإلزاميته والذي نظمت مواده التعليم الإبتدائي كمايلي:[4]

---

[1] ايفون توران، م .س، ص80.

[2] P.Bernard, op.cit, p 06

[3] P. Bernard, ibid, P 17.

[4] آسيا بلحسين رحوي، م.س، ص64.

- المادة الأولى: التعليم الإبتدائي يشمل: التربية الأخلاقية والمدنية، القراءة، الكتابة، اللغة الفرنسية، تاريخ فرنسا وجغرافيتها، بعض مفاهيم القانون والإقتصاد والسياسة والفيزياء والرياضيات.

- المادة الثانية: يوم الراحة: الأحد، يسمح فيه لإعطاء تعليم ديني للأطفال خارج إطار المدرسة.

- المادة الرابعة: التعليم الإبتدائي إجباري للأطفال الذين تفوق أعمارهم ست سنوات للجنسين.

- المادة السادسة: تمنح شهادة التعليم الإبتدائي بعد إجراء إمتحان عمومي إبتداء من 11 سنة.

وبذلك أصبح التعليم الذي يخضع له الجزائريون ذا طابع فرنسي، يشرف عليه معلمون فرنسيون، وتم تجاهل تاريخ الجزائر، والتركيز فقط، كما أسلفنا الذكر، على عظمة فرنسا ومجدها.

إن ما نفهمه من المادة الرابعة من هذا القانون، المتعلقة بإجبارية التعليم للجنسين، ذكورا وإناثا ممن يفوق سنهم ست سنوات، أن الإدارة الإستعمارية حريصة كل الحرص على توفير مقاعد دراسة لكل الجزائريين ممن بلغوا سن التمدرس القانونية، ولكن الواقع يؤكد أن الجزائريين، حتى ولو أقبلوا على هذه المدارس ، و اقتنعوا بأهميتها ،فإنهم لن يجدوا أماكن تنتظرهم .و في هذا الإطار يؤكد محمد العربي الزبيري أن كل الأطفال الفرنسيين في سن الدراسة كانوا يقبلون في المدارس، ويدرسون المناهج المطبقة في فرنسا ذاتها، أما الأطفال الجزائريون، فيخصص لهم مقعد واحد لكل خمس ذكور، ومقعد واحد لكل 46 فتاة، أي 07% فقط لهم فرصة الدراسة، بالإضافة إلى من يعجزون عن مواصلة دراستهم بسبب الفقر.[1]

وإذا أضفنا إلى هذا التضييق على تعليم الجزائريين في هذه المدارس، ظاهرة تشديد الرقابة على التعليم الإسلامي في الزوايا والمساجد والكتاتيب، نتيقن من الهدف الذي كانت الإدارة الإستعمارية تسعى إلى تحقيقه ،وهو تحويل الجزائريين إلى أميين، ويزول إستغرابنا في

---

[1] محمد العربي الزبيري، تاريخ الجزائر المعاصر، ج1، منشورات إتحاد الكتاب العرب، دمشق ، سوريا ،1999م.

ظل هذا الواقع، إذا عرفنا أن نسبة الأمية مع مطلع القرن 20م فاقت 20% في صفوف الأهالي.

وحتى في هذه الظروف الصعبة التي ميزت تمدرس أبناء الجزائريين، سجلنا إستياء المستوطنين من جديد ومعهم شيوخ البلديات من هذا النظام التربوي ، وأعلنوا رفضهم لبناء مدارس لمن سموهم (جماهير الصعاليك) من الأهالي، وعللوا ذلك بكثرة التكاليف، وسعي الأهالي لتحقيق الجزائر العربية.[1]

في فاتح فبراير 1885 م صدر مرسوم لإنشاء ما يسمى بالمدارس الرئيسية والمدارس التحضيرية، ودعم بمرسوم آخر في 30 أكتوبر 1886 م والذي صنف المدرسة الإبتدائية إلى أصناف هي:[2]

- المدارس التحضيرية وأقسام الطفولة
- المدارس الإبتدائية الرئيسية
- مدارس التكوين المهني

وكل هذه الأصناف لها نفس الهدف: إدماجي لتكريس الذوبان التام في الكيان الفرنسي واستغلالي لإبقاء الجزائريين في خدمة المعمرين، بتوفير اليد العاملة في شتى الحرف التي يحتاجون إليها، عن طريق مؤسسات التعليم المهني التي أنشأها الإستعمار في العديد من المناطق، والتي سنشير إليها بالتفصيل رفقة المدارس الرسمية لاحقا.

وهذه المؤسسات كانت تستقبل التلاميذ الذين يتراوح سنهم بين 15 و16 سنة، بينما يتراوح سن التمدرس في المدارس الإبتدائية بين 06 إلى 12 أو 13 سنة، وبعد هذه السن يعودون إلى ذويهم لمساعدتهم في أعمالهم، لأنه نادرا ما يتجاوز الطفل الجزائري المدرسة الإبتدائية ويستمر في دراسته في المستويات العليا، وللتوضيح أكثر، نورد أمثلة عن نتائج تمدرس التلاميذ الجزائريين في التعليم الإبتدائي في بعض المقاطعات التي اخترناها من الغرب الجزائري إلى غاية سنة 1896م[3].

---

[1] يحي بوعزيز، التسلط الإستعماري والحركة الوطنية الجزائرية 1830م-1954م،الجزائر، دار البصائر للنشر والتوزيع، 2009م ، ص43.

[2] آسيا بلحسين رحوي، م.س، ص65.

[3] P. Bernard, op.cit, P24.

مازونة: من 105 تلميذا أنهوا دراستهم بالمدرسة منذ تأسيسها، كانت النتيجة كمايلي:

- 47 فلاحا (بستاني، عامل يومي، خماس).

- 36 راعي حيوانات

- 03 عمال مقاهي

- 09 تجار

-07 قناصة (جنود)، ثلاثة منهم ضباط صف

- 03 معلمين

مستغانم: من 236 تلميذا أكملوا دراستهم الإبتدائية كانت النتيجة كما يلي:

- 133 عاملا فلاحيا

- 31 راعي حيوانات

- 29 قناصا أو صبايحيا منهم 07 ضباط صف

- 39 قاضيا إسلاميا

- 04 معلمين

وحتى نعطي لمحة واضحة حول تطور قضية التعليم الفرنسي، إرتأينا إعطاء بطاقة موجزة حول أهم المؤسسات التي أنشئت في الجزائر، والتي ظهر فيها ما يسمى بالتعليم اللائكي.

3-1- المدارس الفرنسية في الجزائر منذ عام 1830 م

1-3-1- مدارس إقليم الجزائر:[1]

- مدرسة الجزائر للذكور:

ظهرت في 1836/10/10م باسم إعدادية الذكور، كانت تقدم دروسا في اللغة العربية من طرف لويس برينيي (Louis Bresnier)، تحولت هذه الإعدادية إلى ثانوية في أكتوبر 1848م، أخذت إسم ثانوية بيجو فيما بعد سنة 1857م، كانت تابعة لوزارة الحرب إلى غاية سنة 1871م حيث تحولت إلى ثانوية الجزائر، وأشرف على تسييرها نيقولا بيرون

[1] Alain Messaoudi, Op.cit. PP 18-23.

(Nicolas perron) من1857م إلى 1863م تم جاك أوغسطين شاربونو (Jacques Augustin Cherbonneau) من 1863م إلى 1871م، وطاقمها التربوي كان يتكون من ثلاثة أساتذة هم: أوغست فرانسوا ماكويل، جاك ليرون، وأوجين فايسات، وأنشئ بها قسم للغة العربية سنة 1863م كان يشرف عليه إلى غاية 1867 م أوكتاف هوداس.

- **ثانوية البنات لمدينة الجزائر:** دشنت في عام 1903م، وأخذت سنة 1941م إسم: ثانوية ديكارت وبعد الاستقلال سميت: ثانوية عمر راسم. أشرفت على إدارتها كل من:

- جان ديرايو (Jeanne Desrayaux) من 1911م إلى 1914م
- حليمة بن عابد 1929م
- السيدة ديراند (Mme Durand) سنة 1941م
- أليس بارمونتييه (Alice parmentier) من 1941 م إلى 1943م
- أليس بارمونتييه 1947م-1953م.

- **الثانوية الفرنسية الإسلامية للبنات بمدينة الجزائر:** أسست سنة 1956م في مكان مدرسة الجزائر (Medersa D'Alger)، ثم تحولت إلى القبة، وهي تحمل حاليا إسم: ثانوية حسيبة بن بوعلي، أشرفت على إدارتها عام 1960م حليمة بن عابد زوجة عاشور.

- **مدرسة تكوين المعلمين بمقاطعة الجزائر:** (Ecole Normale d'instituteurs du département d'Alger)

تم افتتاحها سنة 1856م بضاحية مصطفى العليا، مع ملحقة تطبيقية لا تضم سوى أقسام فرنسية ، ضمت الدفعة الأولى في السنة الأولى: 10 طلبة منهم ثلاثة مسلمين، ومنذ سنة 1882م تم تخصيص حصص لتكوين معلمين من الأهالي، بعد خضوعهم لمسابقة خاصة إلى غاية سنة 1928م، وبعد حدوث إنزلاق أرضي، حولت المدرسة في سنة 1888م إلى بوزريعة، والدراسة كانت تتم فيها في ثلاث سنوات . وفي سنة 1891م أضيفت السنة الرابعة لتكوين معلمين في الفرنسية لتدريس الأهالي.

- **مدرسة تكوين المعلمات بمقاطعة الجزائر** : (Ecole Normale d'institutrices du département d'Alger)

أفتتحت في سنة 1876م بمليانة، ولم تكن تضم أية مسلمة، ثم نقلت عام 1946م من مليانة إلى بن عكنون في مدينة الجزائر قرب ثانوية الذكور.

مدارس مدينة البليدة: ظهرت بها عدة مدارس أهمها:

- **إعدادية البليدة:** تم إفتتاحها سنة 1879م، وفي سنة 1942م تحولت إلى ثانوية بإسم ثانوية ديفيرييه (Duveyrier) وبعد الإستقلال أخذت إسم ثانوية إبن رشد.

- **إعدادية البنات:** أفتتحت سنة 1925م، ثم تحولت إلى ثانوية بإسم ثانوية جون دي لافونتان (Jean de la Fontaine) وبعد الاستقلال أخذت إسم "الفتح".

- **مدرسة مدينة بوفاريك** :وهي عبارة عن إعدادية للذكور تحولت فيما بعد إلى ثانوية، وهي تحمل حاليا إسم (ثانوية إبن تومرت)

مدرسة مدينة المدية: تأسست عام 1879م، وفي سنة 1942م أخذت إسم : إعدادية محمد بن شنب.

مدرسة مدينة مليانة: تأسست سنة 1878م.

مدرسة مدينة تيزي وزو: كانت خاصة بالذكور، ظهرت سنة 1943م.

1-3-2. مدارس إقليم قسنطينة[1]: من أبرز مدارسها :

مدرسة قسنطينة:

تم إفتتاحها قرب مسجد سيدي الكتاني سنة 1851م كان يشرف على إدارتها: الشاذلي بن عيسى. وفي عام 1884 م تم تعيين سعيد بن داود لتدريس القواعد واللغة العربية، محمود بن شاذلي لتدريس الفقه ولويس أريب لتدريس اللغة الفرنسية، والمترجم العسكري قسطنطين صوناك (Constantin Sonneck) (1882م-1888م) لتدريس الجبر والتاريخ والجغرافيا، لما توفي بن شاذلي خلفه أدولف دوكلاصاتني (1888م- 1907م)، موتيلنسكي، ومن أبرز من درسوا بها في هذه الفترة منذ تأسيسها إلى غاية بداية القرن 20م:

- روميو: (Roumieux) للغة الفرنسية وكان راتبه 1000 فرنك.

---

[1] Alain Messaoudi, op.cit, PP 23-28.

- العموشي: لمراجعة دروس الفرنسية، وصل راتبه إلى 500 فرنك

- موتيلنسكى: لتدريس الفرنسية، التاريخ، الجغرافيا والجبر.

- محمود بن شاذلي: لتدريس العلوم الإسلامية، براتب قدره 3000 فرنك

- المجاوي: لتدريس اللغة العربية براتب قدره 2200فرنك.

- لويس أريب: لتدريس التنظيم الإداري.

وفي نهاية القرن 19م عين أساتذة آخرون منهم: إبن الموهوب، شارل سان كالبر، وأنطوان فرانسوا بيريي (Antoine François Perrier) وبعد وفاة موتيلنسكى عام 1907م عين شارل سان كالبر مديرا لهذه المدرسة إلى غاية سنة 1914م.

وفي ماي 1914م خلفه على رأس الإدارة ألفريد دورنون (Alfred Dournon) إلى غاية 1938، وكانت المدرسة تكون 50 طالبا. أما في ديسمبر 1938م وبعد إحالة دورنون على التقاعد، عين موريس فوندن هيدن مديرا إلى غاية 1950م أين تحولت هذه المدرسة إلى ثانوية فرنسية- إسلامية، وبعد الإستقلال أخذت اسم ثانوية حيحي المكي.

- إعدادية بلدية قسنطينة:

تم إفتتاحها سنة 1858م في وسط المدينة، أشرف على إدارتها جاك أوغست شاربونو إلى غاية سنة 1863م، ثم خلفه غوستاف ريشبي (1863م-1870م) وكانت هذه الإعدادية بدورها تقدم حصصا في اللغة العربية ،و في سنة 1867م دعمت هذه الإعدادية بفتح إعدادية أخرى آخذت إسم: الإعدادية العربية- الفرنسية والتي نقل إليها قسم من تلاميذ الإعدادية الأولى. كان يدير هذه الإعدادية ضابط عسكري هو مكسيميليان أوبلين إلى غاية سنة 1870م، تم خلفه إيميل نيراند (1871م)، خصص بها قسم للغة العربية تحت إشراف لويس ماكويل، تحولت إلى ثانوية عام 1876م.

- ثانوية البنات:

تم افتتاحها سنة 1911م أمام المدرسة الجديدة، وفي 1942م أخذت اسم ثانوية لافران (Lycée Laveran) وبعد الإستقلال أصبحت تعرف بثانوية الحرية.

- مدرسة تكوين المعلمين:

تم إنشاؤها سنة 1878م، وكانت تضم تلاميذ من الأهالي بعد خضوعهم لمسابقة خاصة، كانت تخصص حصصا للغة العربية، كان يديرها محمد مجدوب بن قلفاط إلى غاية سنة 1921م، ثم أشرف على إدارتها بعده بول رايمبولت (Paul Raimbault) إلى غاية سنة 1937م ثم حاييم أبولكير حتى سنة 1953م.

- **مدرسة باتنة:**وهي المدرسة الإبتدائية التي أفتتحت سنة 1929م ، وتحولت بعد ذلك إلى إعدادية ،عين مديرا لها في البداية جوزيف تكاوان.

- **إعدادية عنابة:** أنشئت في عام 1873م ثم تحولت إلى ثانوية باسم: سان أوغسطين سنة 1942م.

- **إعدادية بجاية:** تم إنشارها عام 1928م.

- **إعدادية فيليب فيل (سكيكدة حاليا):**

كانت إعدادية للذكور، أنشئت سنة 1880م، ثم أصبحت ثانوية منذ سنة 1887م وأخذت إسم: ثانوية دومينيك لوسياني.

-اعدادية سطيف:

أنشئت عام 1873م، أصبحت خاصة بالمستوطنين فقط منذ عام 1924م، وفي سنة 1942 م أخذت اسم أوجين ألبارتيني، ليتحول إسمها بعد الإستقلال إلى ثانوية أمحمد القيرواني.

1-3-3- مدارس اقليم وهران:[1]

- **إعدادية وهران:** أنشئت هذه الإعدادية سنة 1846م وتحولت إلى ثانوية سنة 1887م وأخذت إسم لاموريسيير سنة 1942م، وحاليا تعرف بثانوية باستور. كل أساتذتها كانوا أوربيين إلى غاية سنة 1906م أين عين بها جزائريون منهم: محمد بن عبد الرحمان (1906م-1937م)، يوسف بلجربة (1911م-1912م)، أحمد العيمش (1912م-1913م)، بلقاسم تجيني (1937م-1938م)، عبد القادر محداد (1926م-1946م) ثم (1947م-1956م)، ثم (1960م-1961م)، الشيخ بوعمران (1957م-1959م) طاهر زيتوني (1959م-1960م)، بن علي صغير (1959م-1960م) ثم يحي صماش (1960م-1961م).

---

[1] Alain Messaoudi, les arabisants et la France, Op.cit, PP28-35.

- **الثانوية الصغيرة (Petit lycée)**: أنشئت عام 1922م.

- **إعدادية البنات**: أنشئت عام 1909م، تحولت إلى ثانوية ستيفان غزال عام 1942م، وهي تعرف حاليا بثانوية "الحياة"

- **مدرسة تكوين المعلمين**: أنشئت عام 1933م.

- **مدرسة تكوين المعلمات**: أنشئت عام 1909م.

- **إعدادية تلمسان**: انشئت عام 1902م، وخصص فيها قسم للغة العربية، في عام 1942م أخذت إسم "دوصلان" (De-Slane).

- **إعدادية الذكور بمعسكر**: أنشئت سنة 1927م تعاقب على إدارتها كل من:

- بيار كونيون (Pierre Counillon) (1927م-1928م)

- هنريات تبول (Henriette Teboul) 1929م (رتبته الأصلية :أستاذ).

- سفير البودالي 1939م-1940 م(رتبته الأصلية: معلم منتدب)

- أحمد بوشيخي 1956م-1961 م(رتبته الأصلية: معلم منتدب).

- عبد القادر قرمالة 1958 م(مدرس منتدب)

- **مدرسة البنات بمعسكر**: أنشئت عام 1919م، من أبرز أساتذتها:

- يمينة لعراب: مدرسة آداب ولغة عربية (1919م-1939م)

- السيدة بواكس (Mme Boex) معلمة منتدبة (1939م-1940م).

- السيدة أبركان (1950م)

- أحمد بوشيخي (1951م-1956م).

- **إعدادية مستغانم**: تم إفتتاحها سنة 1879م، تحولت إلى ثانوية باسم روني باسي (René Basset) سنة 1942 م وهي تعرف الآن بثانوية زروقي. أول مدير أشرف عليها هو ألبار ديستري (Albert déstrées) (1879م-1884م) ثم مونويار (Menouiard) إلى غاية 1887م، ثم هيلار إينيوري (Hilaire Ignoret) (1896م-1902م) ثم :

- دوكان (Doukan) 1911م.

- موريس بن شمول (Maurice Benchemoul) (1911م-1915م)

- عبد القادر محداد 1922م.

- ألبار قاتو (Albert Gateau) (1926م-1927م)

- فرناند ريف (Fernand Riv) (1928م-1932م)

- أحمد طاهر (1939م-1944م)

- **مدرسة الذكور بمسغانم:** أنسئت عام 1913م، كان أحمد طاهر يشرف على إدارتها أيضا بين 1943م و1944م.

- **مدرسة الإناث بمستغانم:** أنشئت بدورها عام 1913م أشرف على إدارتها موريس بن شمول (1913م-1915م) ثم الآنسة غريغوار سنة 1927م، ثم السيدة بودان (Mme Bodin) (1927م-1956م).

- **إعدادية سيدي بلعباس:** تم إفتتاحها عام 1922م، وفي عام 1942 م أصبحت ثانوية بإسم لابيرين (La Perrine) أشرف عليها، لويز لابوتيار (1922م-1923م)

ثم: أوجين ريشار (Eugène Richert) (1928م-1929م)

ثم: عبد القادر عزة (1929م)

ثم: شاسان (Chassaing) (1930م-1938م)

ثم: سفير البودالي 1939م.

ثم: أحمد بوشيخي: من جانفي 1943 م إلى نهاية 1951م.

- **مدرسة الذكور بسيدي بلعباس:** ظهرت سنة 1919م، عينت مديرة لها: جان بال (Jeanne Bel)

ثم: بيير كونيون (1923م-1927م) وبعده: جون مارسيل (Jean Marcel)

ثم مارفان قازينييه (Marfaing Gasinier) إلى غاية سنة 1941م.

- **مدرسة الإناث بسيدي بلعباس:** تم إفتتاحها سنة 1914م، أشرفت عليها في بداية إنشائها الآنسة قوقنهايم ثم جان بال (1919م-1920م) التي أصبحت تشرف على المدرستين في وقت واحد (مدرسة الذكور ومدرسة الإناث).

ورغم هذا الكم الهائل من المدارس ومؤسسات التكوين المهني فإن حظ الجزائريين منها كان قليلا، ولم يتجاوز عدد التلاميذ المتمدرسين بها إلى غاية سنة 1890م نسبة 1,9% من مجموع الأطفال في سن الدراسة ، ونفس الشيء بالنسبة للمرحلة الثانوية التي لم يزد تلاميذها قبل سنة 1900م عن 84 تلميذا.[1]

أما مع حلول القرن 20 فقد ازداد التضييق على تعليم الجزائريين في المدارس الفرنسية بضغط من المعمرين، ومقاومة تدريس اللغة العربية والضغط على أصحابها بواسطة إصدار القوانين.

4-1 - القوانين و المؤتمرات الاستعمارية المتعلقة بالتعليم:

1-4-1 قانون 24 ديسمبر 1904م، وشروط فتح المدارس الإسلامية:

أمام الضغط الإستعماري المتواصل على تمدرس أبناء الجزائريين، رأى الجزائريون ضرورة التكفل بقضية التعليم بأنفسهم، دون انتظار ما تجود به السلطات الإستعمارية، فظهر ما يسمى بالتعليم الحر، والذي يعتبر بدوره حلقة من حلقات النضال ضد الاستعمار، وسياسة التجهيل التي يمارسها ضد الشعب الجزائري. ووعيا فيه بخطورة هذا التعليم الإسلامي على مخططاته، لجأ الإستعمار إلى إفشاله وضربه في المهد، فأصدر هذا القانون الذي يمنع كل جزائري من فتح مدرسة خاصة لتعليم اللغة العربية وبقية العلوم الإسلامية دون رخصة من عامل العمالة أو الضباط العسكرين في المناطق العسكرية، وقد أخضع منح هذه الرخصة لمجموعة من الشروط هي:

- أن يقتصر تعليمه على تحفيظ القرآن دون غيره.
- ألا يقوم بشرح آياته، وخاصة التي تتحدث عن الجهاد.
- ألا يدرس تاريخ الجزائر وجغرافيتها، وتاريخ وجغرافية العالم العربي والإسلامي.
- أن يكون مخلصا للإدارة الإستعمارية، ويخضع لأوامرها مهما كان شأنها.

---

[1] يحي بوعزيز، م.س، ص43.

- يحظر على هذه المدارس بعد فتحها أن تستقبل الأولاد الذين هم في سن الدراسة أثناء ساعات التعليم في المدارس الفرنسية.[1]

ويضيف هذا القانون تحذيرات للمخالفين لهذه الشروط بغية دفعهم إلى التمسك بها، ويتحقق بذلك هدف الاستعمار، ومن هذه التحذيرات: يجوز لنفس السلطة أن تسحب رخصة التعليم لأجل معين أو نهائيا من المعلمين الذين يرتكبون مخالفات ، من شأنها أن تمس بحسن السلوك والأخلاق، كما يجوز لها أن تأمر بإغلاق هذه المدارس بصورة تأديبية.[2]

فالاستعمار الذي وضع ضمن مخططاته تجهيل الشعب الجزائري، وقطع الصلة بينه وبين أصالته، دعمه المعمرون بدورهم بمطالبهم المستمرة بإبعاد الجزائريين عن كل ما من شأنه إنارة عقولهم، وتنمية أفكارهم وإبقائهم عبيدا في أيديهم، ولجأوا هذه المرة إلى عقد مؤتمر للضغط على حكومتهم لتنفيذ مخططاتهم، وجاء هذا المؤتمر بعد أربع سنوات فقط من إصدار القانون المذكور آنفا.

1-4-2 مؤتمر الكولون 1908/03/21م:

لاحظ المعمرون أن التعليم الإبتدائي يشكل خطرا كبيرا على مصالحهم الإقتصادية، لحرمانهم من اليد العاملة الرخيصة الأمية والقادرة على القيام بكل الأعمال الصعبة ، وأمام إقرار الإدارة الإستعمارية إلزامية التعليم لأبناء الأهالي ، سارع المعمرون إلى عرقلة هذا التعليم، وقرروا توحيد الجهود.

لذلك دعا "الحزب الإستعماري" (Le parti colonial) الذي كان يضم منتخبين في شتى المجالس، ومثقفين ورجال أعمال، وأعيان أوربيي الجزائر، وكلهم من غلاة الإستيطان والإستغلال، إلى عقد مؤتمر لمناقشة قضية تعليم أبناء الأهالي، وقد إنعقد هذا المؤتمر في الجزائر العاصمة بتاريخ 21 مارس 1908م.

لاحظ المؤتمرون أن تعليم الأهالي إذا طبق فعلا سيكون نكسة على السكان الأوروبيين ومستقبل الوجود الفرنسي بالجزائر، ولذلك طالب المؤتمر في النهاية بـ:

- إلغاء التعليم الإبتدائي للأهالي

[1] - يحي بوعزيز، نفسه، ص60

[2] - محمد لحسن فضلاء، المسيرة الرائدة للتعليم العربي الحر بالجزائر، ط 1، الجزائر، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، 1999م، ص18.

- تخصيص القروض للتعليم الفلاحي التطبيقي، وتعيين معلمين فرنسيين للإشراف عليه.

وهذه التوصيات إعتبرها مدير التعليم الفرنسي بالجزائر جونمار (Jeanmaire) ضربة لمشروعه الخاص بالمدارس الأهلية، وقدم إستقالته يوم 1908/11/05م خاصة لما نعت المعمرون هذه المدارس بإسم (المدارس الأكواخ) (écoles gourbis)[1].

وكان من نتائج هذا التضييق على تعليم الجزائريين في هذه الفترة أن إنخفضت نسبتهم كثيرا في المدارس الفرنسية ، والإحصائيات التالية توضح ذلك:

- 1914م: 47263 تلميذا بنسبة 5% من بين 800 ألف طفل متمدرس.

-1922م: 60644 تلميذا بنسبة 6% من بين 900 ألف طفل متمدرس[2].

أما في المرحلة الثانوية فلم يزد عدد التلاميذ بين سنتي 1900م و1914 م عن 150 تلميذا.

وفي التعليم العالي، لم يتجاوز المتخرجون من جامعة الجزائر 34 طالبا يحملون البكالوريا سنة 1914م.[3]

لهذا السبب بادر الجزائريون بعد الحرب العالمية الأولى إلى النضال من أجل إصلاح وضعية التعليم وتمكين الجزائريين من مقاعد دراسية، والمطالبة برخص لفتح المدارس لتعليم أبنائهم، واهتموا بإنشاء هذه المؤسسات التعليمية، وإنعاش الزوايا من جديد في القرى والمدن، للعودة لممارسة نشاطها في تقديم تعليم عربي إسلامي، يصون هويتهم وشخصيتهم ويحافظ على دينهم ولغتهم، وقد نادى بهذه المطالب بالخصوص بعد الحرب الأمير خالد ثم العلامة عبد الحميد بن باديس.

أمام تبلور فكرة تعليم عربي حر منذ العشرينات من القرن 20م عادت فرنسا من جديد لتضييق الخناق على التعليم العربي بقراراتها وقوانينها، وهذه المرة أصدرت قانونا أعتبر أخطر قانون في عرقلة التعليم العربي وهو قانون شوطان 1938م.

---

[1] -Suzanne Cervera, une approche des mentalités coloniales et indigénophiles en Algérie à la veille de la guerre de 1914-1918 à travers un discours de distribution des prix, S.D.P07

[2] يحي بوعزيز، م.س، ص43.

[3]- يحي بوعزيز، نفسه، ص43.

3-4-1 قانون شوطان (Chautemps)* 1938/03/08م:

هو قانون أصدره رئيس الحكومة الفرنسية شوطان في 1938/03/08م ، والذي يمنع تعليم اللغة العربية في المدارس والمساجد على أساس أن اللغة العربية لغة أجنبية.[1] وهو الذي وقفت له جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، كما وقف له حزب الشعب بالمرصاد مذكرين شوطان بمن الأجنبي :الفرنسي الذي أتى بلغته الفرنسية من وراء البحار، أم الجزائري العربي المسلم الذي وجدت معه لغته العربية في أرضه التي اعتبرها الإستعمار أجنبية عنها.

وهكذا يظهر أن الإستعمار كان حريصا جدا على أن يكون التعليم سلاحا لإخضاع الجزائري وليس لترقيته وتطوره.

2- تونس:

1-2 التعليم في تونس قبل الحماية الفرنسية:

قبل إنتصاب الحماية الفرنسية على تونس، كانت البلاد التونسية تتوفر على تعليم تقليدي يدرس في الكتاتيب وأصبح يدرس بعد ذلك في الزيتونة، المسجد الجامع في تونس، وفي سنة 1840م كان يوجد إلى جانب التعليم العسكري تعليم مدني ذو طابع أوربي، ثم تأسس منذ سنة 1875م المعهد الصادقي، وهذه المؤسسات التي تم إنشاؤها حديثا كانت تقدم ما يسمى "العلوم الدنيوية" مثل: الرياضيات، الفيزياء، الأدب، التاريخ، إلى جانب المواد القديمة كالفقه و التوحيد[2]، وكانت هناك عدة إجراءات هدفها تطوير التعليم في تونس وتمكينه من تخريج إطارات إدارية كفأة، والتحضير للمهن الحرة، ولهذا الهدف بالذات

---

* كاميل شوطان: رجل سياسي فرنسي ولد في باريس بفرنسا يوم 1885/02/01م، خريج كلية الحقوق، تقلد عدة مناصب منها عضو في المجلس البلدي لتور (1912م)، نائب في الجمعية الوطنية (1919م) ثم نائب من جديد (1928م-1934م) ثم عضو في مجلس الشيوخ عن مقاطعة لوار (1934م-1940م)، وزير دولة 1934 م ثم رئيس حكومة من جوان 1937 إلى مارس 1938م، وأثناء الحرب العالمية الثانية كان من الموالين لحكومة فيشي، في نوفمبر 1940م إتجه إلى الو.م .ا و بقي بها إلى عام 1944م اين انتقل إلى شمال إفريقيا، أدخل السجن لأسباب سياسية عام1947 م ولما أطلق سراحه عاد إلى الو.م.أ التي توفي بها في 1963/07/01م. ينظر Gérard Boulanger, à mort la gueuse ! Comment Pétain liquida la république à Bordeaux les15.16.17 juin 1940, Calmann-Lévy 2006.pp 97- 98

[3]- محمد لحسن فضلاء، م.س، ص18. ينظر أيضا: يحي بوعزيز، م.س، ص61.

[2] Noureddine Sraieb, l’idéologie de l’école en Tunisie coloniale 1881-1945, Revue du monde Musulman et de la Méditerranée 1993, n. 68, P 239.

أنشئ المعهد الصادقي، بينما المدرسة المتعددة التقنيات لباردو والتي ظهرت منذ سنة 1838م، كان عليها تكوين إطارات مرتبطة بالفنون العسكرية كما هي مطبقة في أروبا ولهذا السبب تم إدراج مواد جديدة كلف بتدريسها ضباط أوربيون، وخاصة الإيطاليين والفرنسيين، هذه الإنجازات جميعها كانت تجسد الرغبة في الإصلاحات التي كان يريدها المثقفون ورجال الدولة، بالموازاة مع ما كان يجري في عدة ولايات من الإمبراطورية العثمانية وفي مقدمتها مصر وتركيا. والهدف المتوخى من كل هذه الإصلاحات في مجال التعليم هو تدارك التأخر الذي وصلت إليه الدول الإسلامية مقارنة بأوربا، وبالتالي فالنظام التعليمي الذي كان سائدا قبل الحماية كان ناجحا وفعالا، وخاصة منه التعليم الديني الإسلامي، عكس ما روجته فرنسا حول الوضع التعليمي في تونس من تدهور وتخلف، شأنها شأن ما روجت له أيضا في الجزائر بعد فرض سيطرتها عليها.

2-2- التعليم في تونس أثناء فترة الحماية الفرنسية:

2-2-1- إستراتيجية التعليم الفرنسي في تونس وأهدافه :

لما فرضت فرنسا حمايتها على تونس عام 1881م، كان جول فيري وزيرا للتعليم في فرنسا، وعرض أفكاره بخصوص النظام التعليمي الذي يتصوره في تونس، مذكرا أنه من غير المجدي إنشاء مؤسسات تعليمية قد تعرقل جهود الكادينال لافيجري، أو مؤسسات تنصيرية تمارس نشاطها في تونس، وعرض فكرة إنشاء مؤسسات تعليمية لائكية،[1] ولكن الغرض من هذه اللائكية ضرب الإسلام في تونس ومنع تدريس كل ما له علاقة به، ومهما أعطى من مبررات فإن النوايا في هذا المجال واضحة، والهدف واحد وهو نفس الهدف الذي سعت لتحقيقه فرنسا في الجزائر ألا وهو سلخ شعوب شمال إفريقيا قاطبة عن هويتها و شخصيتها العربية الإسلامية.

وفي نفس السياق الذي رأينا فيه الإستراتيجية المطبقة في مجال التعليم لتحقيق مخططات الإستعمار الرامية إلى غرس الروح الإنهزامية لدى التونسيين، ودفعهم إلى الإيمان بقوة فرنسا ومجدها، حتى يبقى الفرنسي، في نظر التونسيين، السيد الذي يجب أن يطاع ويخضع

[1] Noureddine sraieb, op.cit, P240.

له الجميع، وبالمقابل إستغلال طاقات وقدرات هذا الشعب، رأى جول فيري أن الوسيلة السياسية والحضارية الأكثر أهمية من الوسيلة العسكرية، لدفع هذا الشعب إلى قبول سيادة الفرنسيين، هي المدرسة الفرنسية الخاصة بالمسلمين، والتي يتولى فيها معلمون عرب تدريس اللغة الفرنسية للعرب[1]، ليكونوا أكثر إقناعا للتونسيين من الفرنسيين، ما داموا يثقون فيهم كعرب، أكثر من الأجانب.

وبالموازاة مع التعليم العام، رأى جول فيري ضرورة إنشاء مدرسة للتعليم المهني، موجه لفرنسة الطبقة المتوسطة التجارية والصناعية، بتكوين: محاسبين، عمال، مهندسين مدنيين صغار، أعوان للبريد والخطوط الحديدية.. والأمر لا يتعلق، كما قال جول فيري، بمدرسة إبتدائية يدرس فيها التلاميذ القراءة والكتابة، ولكن مدرسة يقصدها تلاميذ في سن الحادية عشرة سنة، ويسجلون من التلاميذ الذين يدرسون بالمدرسة الصادقية أو المدارس التنصيرية، ولهم كفاءة في اللغة الفرنسية ومواد أخرى كالجغرافيا والرسم الخطي والحساب.

مدة الدراسة بهذه المدرسة المهنية تصل إلى 05 سنوات، ومناهجها هي نفس المناهج المطبقة في فرنسا، ويضاف إليها مواد أخرى خاصة بالأشغال العمومية، أو الصناعات المحلية، كصناعة الزرابي والأصباغ:[2] وكان جول فيري يهدف من وراء هذه المدرسة إلى:

- فرنسة الشعب التونسي عن طريق اللغة الفرنسية التي تقود التعليم الموجه ليس فقط للتونسيين المسلمين، ولكن أيضا للسكان الأوربيين غير الفرنسيين القاطنين بتونس، والذين تريد فرنسا إدماجهم لتقوية مركزها.

- تقديم تعليم مهني لهؤلاء السكان، يسمح بتوفير اليد العاملة المؤهلة للمؤسسات العمومية الخاصة التي تستقر بتونس.

وكان التونسيون يعتقدون في البداية أن فرنسا بقدومها إلى تونس ستنتشر في بلادهم القيم التحررية التي عرفوها عنها منذ ثورة 1789م، وتبنى المثقفون إصلاحا ثقافيا دعوا من خلاله إلى مطابقة العلوم الغربية مع حاضر العالم الإسلامي ، ولكن الفرنسيين كانوا يرون فكرة أخرى، غير الفكرة التي كان يهدف إليها المثقفون التونسيون، حيث ظهرت في سنة

[1] Noureddine sraieb, opcit, page.240
[2] Noureddine sraieb, ibid, P240.

1896م ما يسمى بالجمعية الخلدونية بإيعاز من المقيم العام: "روني مينيي" والذي كان يريد إصلاح التعليم الإسلامي عن طريق إدخال المناهج الفرنسية، بمعنى: محاولة ربط التعليم الإسلامي بالنزعة الغربية، والقضاء على جوهره وهو الدين الإسلامي.

وادعى مينيي أن فرنسا تريد بهذا الإصلاح إستكمال عملها الحضاري في تونس عن طريق الترقية الفكرية والأخلاقية للشعب التونسي.[1]

وتدعيما للأفكار التي روج لها جول فيري، عرض بدوره "جوسران" المكلف بالشؤون التونسية، بعد مهمة قام بها في تونس، أفكاره واقتراحاته حول التعليم الذي يجب أن يعطى للتونسيين، من خلال مذكرة مؤرخة في فبراير 1882م جاء فيها: "ليس هناك الآن وسيلة مهمة لإدماج العرب التونسيين- في حدود الإمكانيات- غير تعليمهم لغتنا، وهذا رأي كل من يعرفهم جيدا، لا يمكننا الإتكال على الديانة لتحقيق هذا الإدماج، لأنهم لا يعتنقون أبدا المسيحية، ولكن بأخذهم لغتنا، كم هائل من الأفكار الأوربية ستتسرب إليهم رغما عنهم، التجربة أثبتت ذلك، ففي إطار إعادة تنظيم تونس، الجانب الأكبر يجب أن يعطى للتعليم"[2]

وبنفس طريقة جول فيري "جيسران"* يقترح عدم المساس بالتعليم التنصيري، بل يطالب بالدعم المالي لمدارس الفتيات والذكور، التي يسيرها الآباء والأخوات، أين يبقى تعليم الأهالي الإنشغال الرئيسي لهذه المؤسسات، رغم أن التونسيين لا يقبلون عليها كثيرا إلا للضرورة، حيث يعتبرونها تقدم لهم أفكارا وعادات تختلف عن هويتهم، كما يلتقون فيها باليهود الذين ينفرون منهم. و"جيسران" يعتبر العرب الذين يشكلون الأغلبية في تونس أذكياء، ولهم قدرة خارقة على الفهم، ومنصاعون أيضا، لا يخالفون أمرا، مما يسمح

---

[1] نور الدين سرايب، ممارسات ثقافية وجمعنة سياسية، المثال التونسي، ترجمة محمد غالم، مجلة إنسانيات، المجلة الجزائرية في الأنثروبولوجيا والعلوم الإجتماعية، العدد 08، السنة 1999م،مركز البحث في الأنثروبولوجيا و العلوم الإجتماعية ،وهران ،ص15.

[2] N.Sraieb, op. cit, P241.

* جول جيسران (Jules Jusserand)، دبلوماسي فرنسي، ولد في 18 فبراير 1855 م بليون، درس بجامعة ليون ثم واصل دراسته العليا بباريس، دخل السلك الدبلوماسي سنة 1876م، عين قنصلا في لندن سنة 1878م، وبعد مدة قضاها بتونس لما خضعت للحماية الفرنسية، عاد إلى لندن سنة 1887م كعضو في السفارة الفرنسية، في 1890م عين سفيرا في كوبنها جن وفي 1902م نقل إلى واشنطن أين تزوج أمريكية تدعى "إليزا ريشاردز" توفي في منزله بباريس في 1932/07/18م، ينظر: Robert.J.Young, « Interrogating » Modernity : bureaucrats, Historians and French ambassador Jules Jusserand, Journal of historical Biography, volume 05, Spring 2009, university of the Fraser- Valley, British columbia, Canada pp 23-47.

للفرنسيين بالإنتفاع من قدراتهم لو استطاعوا تحويل هذه القدرات لصالحهم عن طريق التعليم الفرنسي.[1]

ولتعليم أبناء الأهالي التونسيين، يقترح "جيسران" تعيين معلمين جزائريين لتعليم اللغة الفرنسية، بينما يتكفل معلموا القرآن من التونسيين بتعليمه للصغار المسلمين، كشرط هام لنجاح هذا التعليم في تونس، والهدف حسب رأينا، هو محاولة نشر الإعتقاد بأن المدرسة الفرنسية محايدة، وليست منافسة للنظام التربوي التقليدي، وتفادي أيضا الرفض الذي تواجه به من قبل التونسيين إذا وجدوا جزائريين يشرفون على تعليمهم.

2-2-2 لويس ماكويل والنظام التعليمي في تونس:

لما سيطرت فرنسا على تونس، وحتى تتمكن من التحكم كلية في دواليب الحكم، أرغم الباي على القيام بإصلاحات إدارية وقضائية ومالية، كانت فرنسا تراها ضرورية، تحولت بموجبها جل الصلاحيات الهامة إلى المقيم العام، وكان من بين أعضاء الطاقم الحكومي الجديد مدير، برتبة وزير للتعليم العام، عين بمرسوم بايلكي بتاريخ 06 ماي 1883م، إنه الفرنسي لويس ماكويل الذي أنشأ مع بول كمبون اللجنة الفرنسية للتعليم في تونس، وعقدت هذه اللجنة أول اجتماع لها في 1883/07/21م، لوضع السياسة التربوية الجديدة في تونس وتنظيم النظام التربوي في هذه المحمية الجديدة[2]، ولم يكن إختيار ماكويل صدفة لتسيير النظام التربوي في تونس، بل كان ذلك تطبيقا لما ورد في إقتراحات "جول فيري" و"جيسران" فماكويل معرب، من مواليد الجزائر، له خبرة في التدريس، حيث سبق له أن درس بالمدرسة الفرنسية العربية بقسنطينة، ثم الجزائر العاصمة، كما عين على رأس منبر اللغة العربية بوهران، وسبق له العمل كمفتش لمدرسة تلمسان، وبالتالي فتكوينه العربي، وتجربته الكبيرة في التدريس في المدارس العربية الفرنسية أهلته لهذا المنصب، حتى أن البعض قال عنه إنه حفظ القرآن في مدارس المسلمين وبطريقتهم، ودرس النحو وفق منهجيتهم، وليس حفظه القرآن الكريم إلا وسيلة للقدرة على التأثير فقط.

---

[1] N.Sraieb, Op.cit, p241.

[2] Claude Cortier, conquête par l'école et réalités du « terrain » quelques aspects de l'action de l'alliance française dans le bassin méditerranéen (1883-1914) revue : documents pour l'histoire du Français, volume 27 /2001, édit : Société internationale pour l'histoire du Français, paris, P13.

وقد واصل ماكويل منذ تعيينه على رأس مديرية التعليم مسيرته لتطوير النظام التعليمي بما يخدم المصلحة الفرنسية وحرص على ألا يعطي التونسيين تعليما متطورا، وقد ازداد عدد المدارس في عهده بشكل مستمر، ففي سنة 1889م إرتفع عددها من 24 مدرسة سنة 1883م إلى 69 مدرسة[1].

وحرص ماكويل على تعليم الأهالي، ليس من باب ترقيتهم وتطوير المجتمع التونسي، فقد كان دائما يردد أن تنوير التونسيين بالتعليم إنما هو في مصلحة الفرنسيين، والحظ الأوفر يكون في التفاهم مع رجال متعلمين أكثر من الأميين، وأكد أيضا أن هذا التعليم يجب أن يكون مهنيا فقط، وقد أسس ماكويل مدارس عربية- فرنسية يعطى فيها التعليم بالعربية والفرنسية، منهجها يرتكز على التعليم الإبتدائي الفرنسي فيما يتعلق بالمواد المقدمة باللغة الفرنسية، يضاف إليها تعليم بالعربية الدارجة للأطفال ذوي الأصل الأوربي، بينما الأطفال التونسيون، يقرأون القرآن واللغة العربية، وفي الوقت الذي يشرف فيه معلمون تخرجوا من مدارس التكوين في فرنسا أو في تونس على تدريس اللغة الفرنسية، يتكفل بتدريس اللغة العربية مؤدبون ومدرسون من الكتاتيب أو من الزيتونة، ولم تظهر مدرسة خاصة إلا في سنة 1894م وهي ما تسمى (المدرسة العصفورية) التي أصبحت فيما بعد مدرسة تكوين معلمي العربية[2].

في سنة 1909م أصبحت تابعة للمدرسة العليا للأساتذة، مدة الدراسة بها خمس سنوات، تدرس فيها عدة مواد منها:القرآن الكريم، اللغة العربية (كتابة، قراءة، نحو، أدب)، القانون، الحساب، التاريخ والجغرافيا وأخيرا اللغة الفرنسية. وكان إنشغال الهيئة المشرفة على هذه المدرسة هو كيفية تكوين مدرسين من الأهالي، قادرين على تعليم الصغار التونسيين بالفرنسية وبالعربية، لأن أصلهم كعرب وتونسيين يعطي المصداقية لهذا التعليم، وهو كما ذكرنا نفس الطرح الذي سعى إليه جول فيري وجيسران لما إقترحا جزائريين للتعليم في تونس، وقد لقي ماكويل مساندة في إستراتيجيتة التربوية هذه من طرف شخصيات دينية وسياسية تونسية.[3]

---

[1] N.Sraieb, Op.cit, P242.
[2] N.Sraieb, ibid, P 244.
[3] N.Sraieb, ibid, p 244.

وكان من بين هذه الشخصيات الدينية شيخ الإسلام الذي أبدى له عبارات التأييد، والتي ذكرها ماكويل كما هي في تقريره إلى رئيس الجمهورية بتاريخ 02 فبراير 1885م، حيث ورد فيها:

"إنني حريص على أن يدرس أبنائي اللغة الفرنسية لأنه- في وقتنا الحالي- ليس لنا الحق أن نتخيل ماذا يحدث في البلدان المجاورة، وبالخصوص في أوربا، ولغتكم بطبيعة الحال هي التي علينا تعلمها، أما بالنسبة لمسلمي تونس، فسيتعودون على حضوركم، ولا ينظرون نظرة سوء للجهود التي تبذلونها، عاملوهم بعدالة، إحترموا معتقداتهم، تجنبوا معاقبتهم بإجراءات تعسفية، أو غير ملائمة، يمكنكم الوصول بسهولة إلى غزوهم معنويا"[1] ولا يبدو أن هذا الغزو المعنوي، الذي ورد في عبارات الشيخ المساندة لماكويل، حسب تقريره، سيصل إلى كافة طبقات الشعب التونسي، لأن قلة فقط من أبنائه إلتحقت بهذه المدارس أغلبها في العاصمة تونس، ومقنين ومناستير على الساحل التونسي. وحتى إقبال هذه الفئات كان بداعي الحصول على مناصب عمل، لأن تعلم اللغة الفرنسية أصبح ضروريا لأي منصب إداري أو غيره، أما في المناصب الداخلية فنسبة ضئيلة جدا قبلت هذا التعليم وأرسلت أبناءها إلى المدارس الفرنسية، حتى أن بعض المدارس بقيت فارغة كما هو الحال في الرأس الطيب الذي لم يسجل أي تونسي في مدرسته منذ تأسيسها سنة 1890م لأن أعيان المنطقة عارضوا التعليم بها.[2]

وفي الوقت الذي عارضته مختلف الطبقات الريفية ، رغم تشجيعات الفرنسيين بتقديم منحة لكل مؤدب يبعث تلاميذه إلى المدرسة الفرنسية لتعلم اللغة الفرنسية، فقد أيدته الطبقات المثقفة التي درست في المدرسة الصادقية أو ثانوية كارنو بتونس، ولجأت مديرية التعليم إلى الضغط على الأولياء لإرسال أبنائهم إلى هذه المدارس وتهديدهم بعقوبة السجن إن رفضوا ذلك.

أما المثقفون التونسيون فقد تجمعوا في حركة التونسيين الشباب التي تأسست عام 1907 م وواصلوا دفاعهم عن التعليم المزدوج والمدرسة العربية الفرنسية التي أسسها ماكويل

---

[1] N.Sraieb, op.cit, P 245
[2]-N.Sraieb, ibid, P 245.

وأصبحوا يشاركون في كل ندوة أو مؤتمرلإسماع صوتهم وتقديم مطالبهم ، ومن ذلك مؤتمر شمال إفريقيا بباريس.

2-2-3- مؤتمر شمال إفريقيا حول التعليم في تونس 1908م.

مع بداية القرن 20م صارت مسألة تعليم التونسيين من القضايا التي إزداد إهتمام المثقفين التونسيين بها، وأصبحوا يدعون إلى تعميم التعليم الإبتدائي العصري ، وتشجيع الشباب التونسي على متابعة التعليم الثانوي والتعليم التقني، وطبعا هؤلاء المثقفون كانوا ميالين إلى الإنصهار في المجتمع الفرنسي، وهم من درسوا في المدرسة الصادقية أو المدارس الفرنسية، وقد حرصوا على المشاركة في أي مؤتمر يناقش قضية التعليم في تونس، وكان لهم ذلك في مؤتمر شمال إفريقيا، الذي كانت تنظمه بصفة دورية جمعية الإتحاد الإستعماري الفرنسي، التي أنشأتها مجموعة من التجار الفرنسيين سنة 1893م لتشجيع فرنسا على الإستمرار في سياسة التوسع والاستعمار.

إنعقد مؤتمر شمال إفريقيا حول التعليم بالبلاد التونسية في باريس بين 06 و10 أكتوبر 1908م وسبقه مؤتمر آخر بمرسيليا من 06 إلى 09 سبتمبر 1906م، وكلاهما كان حول التعليم لكن المؤتمر الثاني كان أكثر معارضة لتعليم التونسيين من الأول. برز في هذا المؤتمرمثقفان تونسيان بدفاعهما عن التعليم الإبتدائي العصري هما عبد الجليل الزاوش وخير الله بن مصطفى، ولكن ممثل المعمرين بالبلاد التونسية "كارنيار" إعترض بشدة على مطالب المثقفين التونسيين خلال الجلسة الثانية للمؤتمر، المنعقدة في صبيحة 09 أكتوبر 1908م والتي كانت برئاسة روني ميي (René Millet) المقيم العام السابق بتونس[1] وبالمقابل طالب بتعليم مفيد للأهالي، فما دامت تونس بلدا زراعيا - كما قال في تدخله - التعليم الذي يجب أن يعطى للتونسيين، لابد أن يكون موجها لتكوين عمال فلاحين، يكونون بواسطته قادرين على كسب عيشهم، والقصد من ذلك أن يكونوا دوما في تبعية لأسيادهم

---

[1] Compte rendu des travaux du congres de l'Afrique du nord (Paris du 6 au 10/10/1908 publié par M.CH, Dépincé (Secrétaire général du congres) Tome II (questions indigènes, enseignement, justice, institutions religieuses) pp.48-60.

المعمرين، ولا يتحررون أبدا من إستغلالهم في العمل الفلاحي كأيدي عاملة رخيصة ومهانة.

وقد أنشئت مدارس كثيرة منذ فرض الحماية الفرنسية على تونس، ولكن إستفادة التونسيين منها كانت محدودة سواء لمعارضة المعمرين، كما لاحظنا في هذا المؤتمر الإستعماري، أو بسبب تخوف التونسيين من هذه المدارس.

4-2-2- أهم المدارس الفرنسية التي أنشئت بتونس في عهد الحماية:

كانت بداية لويس ماكويل بتخصيص قسم لتدريس اللغة العربية سنة 1884م في تونس العاصمة عهد به إلى ماريوس دلماس (Marius Delmas) لفترة (1884م-1910م)، تتوج الدراسة به بشهادة عليا في اللغة العربية، وفي سنة 1913م أدمج هذا القسم في المدرسة العليا للغة والأدب العربي (ESLLA) والتي أشرف على إدارتها وليام مارسي.[1] ثم توالى إنشاء المدارس ومنها"[2].

- معهد **الدراسات العليا التونسية** (IHET)، أنشئ عام 1945م وكان مديره: ليون بارشي (Léon Bèrcher)

- **ثانوية كارنو** (Lycée Carnot) تم فتحها سنة 1890م وأشرف على إدارتها عدة مدراء منهم:

- ألبار ديتري (Albert Destrées) 1890م-1912م
- غابريال ميرات (Gabriel Mérat) 1918م-1927م.
- لويس صوتون (Louis sotton) 1934م
- ألبار غاتو (Albert Gateau) 1934م-1935م
- أحمد بن حمودة 1938م-1941م

- **الإعدادية الصادقية بتونس:** تأسست سنة 1892م، أول من أشرف عليها ماريوس دلماس

- **المدرسة الإستعمارية للزراعة** (Ecole Coloniale d’Agriculture) ظهرت سنة 1899م، أشرف عليها في البداية غوري (Goury) وهو أستاذ محاضر في اللغة العربية.

---

[1] Alain Messaoudi, op.cit. P36.
[2] Alain, Messaoudi, ibid. P36.

- **ثانوية البنات (ثانوية أرمان فاليار)** (Lycée Armand Fallières) ظهرت سنة 1936م، وكان على رأسها مارغريت غراف (Marguerite Graf)

وهذه عينات من المدارس الفرنسية التي أنشئت بتونس العاصمة، اتخذناها كنماذج لأنها كانت من أكبر وأبرز المدارس التي لعبت دورا كبيرا في محاولة ربط المجتمع التونسي بالفكر الغربي، وتهيئته أيضا لتقديم الخدمات التي يسعى إليها المعمرون.

3- المغرب الأقصى :

3-1- التعليم بالمغرب قبل الحماية المزدوجة :

لم يكن التعليم في المغرب الأقصى- كبقية دول إفريقيا- وليد الإحتلال الأجنبي، وإنما منذ الفتح العربي الإسلامي للبلد في القرن السابع الميلادي، وانتشار الإسلام ومعه اللغة العربية، وقد إزدهر ما يسمى "التعليم التقليدي" الذي يعتمد على القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف إزدهارا كبيرا، خاصة منذ تأسيس جامعة القرويين سنة 859م، والتي أصبحت مقصد كل طالب علم في العلوم الإسلامية، وتخرج منها فطاحل العلماء. ويمكننا الإشارة في مجال التعليم الإسلامي الذي كان منتشرا قبل الحماية الفرنسية- الإسبانية على المغرب،إلى ثلاث مستويات تمثل ثلاث مراحل هي: الإبتدائي، الثانوي، والتعليم العالي. فالأول تتكفل به المدارس القرآنية ، والثاني المدارس التعليمية الإسلامية :(المدرسة) في المدن والزوايا في الأرياف، والثالث تمثله جامعة القرويين وملحقاتها.[1]

3-1-1- المدارس القرآنية :

كانت تستقبل الأطفال ما بين 05 و06 سنوات، وكانت موجودة تقريبا في جميع مناطق البلاد ، وإرسال الأبناء من قبل الأولياء إلى هذه المدارس كان يعتبر واجبا دينيا، يعهد بالطفل إلى معلم المدرسة القرآنية (الفقيه) الذي لابد أن تتوفر فيه بعض الشروط مثل: المعرفة التامة للقرآن، ومعرفة أحكام الصلاة، والرأفة، وحسن السلوك والمعاملة الجيدة

---

[1] Rèdouane Bey Boumèzrag, La politique scolaire du Maroc à l'égard du dualisme culturel, thèse de doctorat 3e cycle de sciences de l'éducation 1e Partie : l'enseignement au Maroc pendant la période coloniale, sous la direction de Guy Avanzini, université lumière- Lyon 2 1983, PP 6-7.

للأطفال. معلم القرآن يتقاضى نصيبا من المال، يدفعه الأولياء نظير عمله هذا، ويكون أسبوعيا يوم الأربعاء ويسمى (الرباعية)، والتلميذ في هذه المدارس مطالب بحفظ القرآن دون تفسير، وبعد إتمام الحفظ كله ومعرفة كتابته دون أخطاء، يمنح درجة (طالب) ويمكنه مواصلة دراسته في المدرسة في المدينة أو في الزاوية بالقرية.

3-1-2- المدارس التعليمية (المدرسات) والزوايا الطرقية :

في بعض الأحيان يمر الطالب مباشرة من المدرسة القرآنية إلى جامعة القرويين دون المرور بهذه المدارس، وبالتالي دورها كان ضئيلا، أما الزوايا فلعبت دورا هاما في نشر الإسلام بشمال إفريقيا وفي التعليم (ونقصد بذلك الزوايا السنية: زوايا العلم والقرآن وليس زوايا الشعوذة والكسب المادي على حساب المجتمع) حيث كانت مراكز مهمة ، تخرج منها أجيال من المتعلمين تعليما إسلاميا أساسه القرآن الكريم وبقية العلوم الإسلامية، وكانت الدراسة بهذه الزوايا تتم في شكل حلقات، يلتف من خلالها الطلبة حول شيخهم الذي يقدم لهم الدرس، ودور هذه الزوايا لم يتغير لا من حيث المنهج ولا من حيث المحتوى أثناء مرحلة الحماية.

3-1-3- التعليم العالي وجامعة القرويين:

إنفردت جامعة القرويين بالتعليم العالي في المغرب في فترة ما قبل الحماية، وكانت إحدى المراكز الثلاثة الكبرى للإشعاع الثقافي الإسلامي رفقة جامع الزيتونة بتونس والأزهر بالقاهرة بمصر، وكانت مقصد الكثير من مثقفي شمال إفريقيا، وعرفت ازدهارا كبيرا في القرن 14 و15م، أين درس بها علماء مواد تلك الحقبة كالتاريخ، الفلسفة، الفقه، الرياضيات، الطب، وغيرها.. وقد تأسست هذه الجامعة- كما أشرنا إلى ذلك سابقا- سنة 859م من طرف إمرأة هي بنت قيرواني بفاس.[1] ولكن هذه الجامعة قل دورها بعد فرض الحماية الفرنسية على المغرب سنة 1912م، بسبب الضغوط الإستعمارية الممارسة على التعليم الإسلامي، ولم يبق ضمن مناهجها سوى بعض المواد مثل الفقه والنحو حتى أنه في سنة 1925م طاقمها التربوي لم يعد مركزا فقط على التعليم، وأصبح مدرسوها يمارسون

[1] Redouane Bey Boumèzrag, op.cit, p07.

مهام أخرى كالقضاء والإفتاء، وكان طلبتها ينقسمون إلى فئتين: طلبة فاسيون يعيشون مع ذويهم في فاس، وطلبة من خارج فاس يعيشون داخل بعض المؤسسات الوقفية.

2-3- التعليم بالمغرب أثناء فترة الحماية (1912م-1956م) (التعليم العصري)

بدأت الإدارة الاستعمارية تهتم بأمور التعليم في المغرب الأقصى منذ فرض الحماية عليه سنة 1912م، وشرعت في تنظيمه وفق ما يخدم مصالحها إلى أن اكتملت تصوراتها حول النظام التربوي الذي يمكن تطبيقه في المغرب، وكان الإحتلال الفرنسي يرى في التعليم، كما رأينا في الجزائر وتونس، الميدان الخصب الذي يكرس من خلاله وجوده ويحافظ به على هيمنتة وإخضاعه للسكان، مطبقا سياسة التفرقة حتى في مجال التعليم بين المغاربة أنفسهم من جهة، وبينهم وبين المعمرين من جهة ثانية، ولم يكن تعليما هدفه التمدين وترقية المجتمع، بقدرما كان تعليما هدفه تهيئة السكان لخدمة الاستعمار من خلال تعليمهم حرفا يحتاجها المعمرون، وهو ما سنوضحه أكثر في الفقرات اللاحقة.

1-2-3- المراحل التي مر بها التعليم العصري في فترة الحماية:

سنركز في هذه الفقرة على مرحلتين أساسيتين تم فيهما إرساء أسس التعليم العصري، وإكتمل فيهما تطبيق كل الإجراءات التي رآها الفرنسيون ضرورية لتحقيق أهدافهم وهما:

أ- المرحلة الأولى: 1912م-1920م: عرفت هذه المرحلة تأسيس الإقامة العامة بالمغرب و تعيين الجنرال ليوطي في 01-11-1912م كمقيم عام،و بقرار في نفس اليوم صدر في الجريدة الرسمية تم إنشاء "مصلحة التعليم" التي عهد بها إلى "لوث"* (Loth).[1]

وبعد توقف مؤقت بسبب اندلاع الحرب العالمية الأولى سنة 1914م، أنشئت في 1915/11/23م مديرية التعليم تحت إشراف "غاستون لوث" دائما، وأنشئت لجنة تعليم

* غاستون لوث (Gaston Loth): مؤرخ فرنسي من مواليد 1866/11/20م، سبق له أن شغل منصب مفتش أكاديمية بتونس سنة 1903م ثم أستاذ بالمعهد العلوي بين 1908-1913م، ولما فرضت الحماية على المغرب الأقصى نقل إليه ليشغل منصب مدير التعليم من 1912م إلى 1919م، توفي في 14-03-1949م وخلف الكثير من المؤلفات التاريخية والمقالات والخرائط، من هذه المؤلفات: تونس :تاريخها، مدنها، أثارها وأحياؤها القديمة، 1903م

- تاريخ تونس من الأصول إلى أيامنا هذه 1898م.
- السكان الإيطاليون في تونس والجزائر 1905م.

ينظر:: Mark-I-Choate, identity polities and political perception in the European settlement of Tunisia, in : French colonial history, vol 8 /2007 , P101.

[1] Redouane Bey Boumezrag, opcit. P15

تحت رئاسة المقيم العام "ليوطي"، هذه اللجنة إجتمعت في أكتوبر من نفس العام لتحديد الأسس العامة لسياسة تعليم الأهالي، ومن هذه الأسس تمخضت فلسفة التعليم الإستعماري بالمغرب والتي طبقت إلى غاية 1956م تاريخ استقلال المغرب. والأهداف التي سطرت من طرف هذه اللجنة هي:[1] - الحفاظ على التعليم الإبتدائي الأوربي والإسرائيلي وترقيته.

- وضع خطة تتعلق بالتعليم المهني الموجه للمغاربة المسلمين.
- ضمان تعليم اللغة العربية لتوظيف مترجمين يحتاجهم الإحتلال. وهذا الهدف كان أول ما سعى ليوطي لتحقيقه ، إذ سارع إلى تأسيس مدرسة عليا للغة العربية.

وفي ديسمبر 1919م عوض "غاستون لوث" بجورج هاردي المفتش السابق للتعليم في إفريقيا الغربية، وصديق ليوطي، والذي كانت وجهة نظره تتلخص في أن المدرسة الاستعمارية يجب أن تكون مفتوحة فقط للنخبة من الأهالي الذين يمكن للإدارة الاستعمارية أن تستفيد منهم في تسيير هياكلها.[2]

وفي فبراير 1920م أنشئ مكتب تعليم المغاربة وأشرف عليه لويس برينو (Louis Brunot[*]) ثم أنشئت مديرية التعليم العام (DIP) بموجب مرسوم 1920/07/26م.

ب- المرحلة الثانية (1920م-1936م):

اتخذت مديرية التعليم العام مدينة الرباط مقرا لها وأصبحت تضم أربع مصالح هي:

- مصلحة التعليم الابتدائي الأوربي الإسرائيلي: هذه المصلحة تشرف على المدارس التي يتعلم فيها الأطفال الأوربيون واليهود، والتي أنشئ معظمها مع دخول المغرب تحت الحماية الفرنسية، سواء مدارس مختلطة تجميع الفرنسيين واليهود، أو مدارس خاصة باليهود فقط،

---

[1] Redouane Bey Boumezrag, opcit. P15

[2] Isabelle surin, les sociétés coloniales à l’âge des empires 1850-1960 Atlande 2012, P349.

[*] لويس برينو(Louis Brunot) :كان من طلبة المدرسة العليا للأساتذة ببوزريعة بالجزائر العاصمة ، حصل على شهادة الليسانس رفقة ثلاثة جزائريين هم : صوالح محمد، بن سديرة بلقاسم ، و عمر بوليفة ، ثم حصل على شهادة الدكتوراه . أصبح برينو فيما بعد مديرا للتعليم الأهلي بالمغرب ،ثم مدير معهد الدراسات العليا المغربية بالرباط.ينظر: Cinquantenaire et historique des écoles normales d’Alger – Bouzareah, chapitre 2.

وبعض هذه المدارس كانت موجودة في المغرب منذ ما قبل الحماية كتلك التي أنشأها اليهود سنة 1862م[1]. وكانت كل هذه المدارس بعد الحماية ممولة من طرف مديرية التعليم العام.

التعليم في هذه المدارس كان يعطى بالفرنسية للأطفال الذين يتراوح سنهم بين أربع وست سنوات، يسجلون بمدارس تسمى مدارس الأمومة (Ecoles de Maternité)، والذين يتراوح سنهم بين 06 و14 سنة في المدارس الأوربية، وهؤلاء يتم تحضيرهم لامتحان الدخول للإعداديات والثانويات وشهادة التعليم الابتدائي.

- **مصلحة التعليم الثانوي الأوربي**: يتضمن هذا المستوى سبع سنوات دراسة، ويتوج التعليم بالثانويات التابعة لهذه المصلحة بشهادة البكالوريا التقليدية أو الحديثة أو التقنية، والأساتذة الذين يؤطرونها فرنسيون.

- **مصلحة التعليم الإسلامي**: تضم فرعين: التعليم الابتدائي والتعليم الثانوي.

- **التعليم الابتدائي**: يعطى للصغار المغاربة المسلمين بالفرنسية، وجزء قليل منه بالعربية في المدارس الحضرية والريفية، ومدارس الفتيات المسلمات، وقد ادعت سلطات الحماية أن ذلك راجع فقط إلى نقص المعلمين ذوي الكفاءة في اللغة العربية، وركزت المناهج التربوية كثيرا على المواد الأوربية، وقليل فقط ترك للتربية الإسلامية، رغم تأكيدات الإدارة الاستعمارية أنها ستفتح الأبواب للأطفال المغاربة لدخول المدارس الفرنسية بمجرد اكتساب قسط من المعارف يؤهلهم للدراسة مع أبناء الفرنسيين. وبقيت تخصص الحجم الساعي الأكبر للفرنسية أمام العربية، ولم يكن هناك أي وجود للتعليم القرآني في المناهج التربوية، والذي كان يعطى فقط خارج هذه المدارس[2].

- التعليم الثانوي: تقدم هذا التعليم ثانويات إسلامية ويتضمن ثلاثة فروع: فرع حديث يحضر للبكالوريا المسماة (المغربية) وفرع فلاحي خاص بإعداد الشباب وتأهيلهم كأعوان فلاحين، وفرع مهني، يحضر الشباب لأكتساب المعارف الخاصة بشتى الحرف.

- **مصلحة التعليم التقني**: وجد التعليم التقني منذ إنشاء مديرية التعليم، ولكنه لم يخضع إلى أي مصلحة خاصة به إلا في سنة 1945م، وهذه المصلحة كانت تتكفل بالتوجيه المهني.

---

[1] Redouane Bey Boumezrag, op.cit P16.

[2] R.Gaude Froy- Demombynes, L’œuvre Française en matière d’enseignement au Maroc, édit. P.Geutner, Paris 1928. P74.

أما التعليم العالي فكان مقتصرا على الرباط والدار البيضاء، ويمثله معهد الدراسات العليا المغربية، ومركز الدراسات العليا العلمية، وكان يقتصر على الأوربيين، وحتى ما أصبحوا يسمون بالنخبة المثقفة ثقافة غربية، لم يسعفهم الحظ للدراسة في مؤسسات التعليم العالي الفرنسية بالمغرب، ودرس معظمهم في المدرسة العليا ببوزريعة بالجزائر العاصمة من أمثال: بونيفاس من الدار البيضاء، نهليل من الدار البيضاء أيضا، وبن عابد من الرباط، وكلهم أصبحوا إطارات في المغرب،[1] وأصبحوا يطالبون فيما بعد بتطبيق التعليم الفرنسي على أبناء المغرب من الأهالي كما سنرى بعد ذلك، وقد حرص "ليوطي" على توفير أجود الإطارات مثلما هو عليه الحال في فرنسا لهذه المؤسسات، حتى يحصل أبناء المعمرين على نفس المستوى التعليمي الذي يقدم لأقرانهم في الوطن الأم.[2]

3-2-2 أبرز المدارس الفرنسية التي ظهرت بالمغرب زمن الحماية:[3]

سنقتصر هنا على أهم وأشهر المؤسسات التي ظهرت بالمغرب في هذه الفترة ومنها:

-المدرسة العليا للغة العربية واللهجات البربرية بالرباط: أنشئت في 1912/11/15م لتلقين الموظفين والضباط الشباب معلومات حول الأوساط المغربية، وقد كلفت بتكوين مترجمين مدنيين ابتداء من سنة 1913م، مدة التكوين سنتان، كما كانت تمنح شهادات تكوين في العربية والبربرية للمستمعين الأحرار الذين كانوا يحضرون بأعداد كبيرة من أبناء المعمرين،و في سنة 1915م أعيد تنظيمها لتقدم تعليما ممنهجا ومتخصصا، واستدعي للتدريس بها أحد خريجي مدرسة بوزريعة (صامويل بيارناي) لتدريس العادات والتقاليد البربرية، وكومبانا لتدريس التشريع المغربي، وروفل للإجراءات الإدارية، وهنري برونو لتدريس الشريعة الإسلامية وغيرهم...

- معهد الدراسات العليا المغربية بالرباط:

أنشئ سنة 1920م، تم تنظيمه في شكل مديريات دراسات وعددها ثمانية وفي 1925م-1926م تأسست مديريات جديدة خاصة بالتوجيهات في البحث العلمي، وكان قد دعم بمجلة

---

[1] Cinquantenaire et historique des écoles normales d'Alger, op.cit. Chapitre 3.
[2] Carnets de documentation sur l'enseignement dans la France d'outre-mer, carnet N°4 Maroc, imprimerie nationale, paris 1945, P37.
[3] Alain Messaoudi, op.cit, pp 38-44.

(Hesperis) منذ سنة 1921م، وهذا المعهد كان يتكفل بمهمتين أساسيتين:- تطوير البحث العلمي- وضمان دروس عامة لعدد كبير من الناس، حتى أنه في سنة 1932م التحق به أكثر من 700 طالب، وبعض المستفيدين من المنح كانوا يتابعون دراستهم في المعهد لتحضير شهادة الكفاءة في الترجمة، ويتعهدون بخدمة الدولة لمدة 05 سنوات، وقد استمر المعهد في نشاطه إلى غاية سنة 1956م.

- ثانوية غورو بالرباط:

كانت إعدادية بنفس الإسم منذ سنة 1918م تاريخ إنشائها، ثم تحولت إلى ثانوية سنة 1924م، أخذت بعد الاستقلال إسم ثانوية الحسن الثاني، كان أول مدير لها بقاسم تجيني (1918م-1919م) ثم (1920م-1926م) ثم سوفار علوش Sauveur Allouche)) (1926م-1932م)

- ثانوية البنات بالرباط: أصبحت بعد الاستقلال تحمل اسم ثانوية لالا عائشة.

- الإعدادية الإسلامية مولاي يوسف:

أنشئت في فبراير 1916م على أنقاض المدرسة الأهلية وكانت تضم معلمين فرنسيين، مساعد ومعلم قرآن، مر أبرز المدرسين بها: محمد بن عبد السلام، صالح الرباطي، التهامي بن المعطي العربي الرباطي، وفي 1920م أنجزت بها عدة أقسام جديدة لتكوين أهالي ليصبحوا معلمين.

- الإعدادية الإسلامية مولاي إدريس بفاس: تأسست سنة 1914م، أول مدير أشرف عليها هو: ألفريد بل (Alfred Bel) في مجال تكوين الأهالي، ثم خلفه لويس برينو (Louis Brunot) بين 1915م و1920م، والمعروف بنظرتة السلبية تجاه تعليم أبناء المغرب، والتي تظهر بوضوح من خلال تقريره الذي عرضه أمام المؤتمرين في المؤتمر الاستعماري حول التعليم في المستعمرات، والذي سنشير إليه لاحقا، وهذه الإعدادية بقيت تمارس نشاطها إلى غاية سنة 1955م أين أسندت إدارتها إلى عربي هو السيد بارودي.

- **إعدادية مكناس:** تم افتتاح هذه الإعدادية سنة 1919م، ثم تحولت إلى ثانوية عام 1927م، وأخذت اسم "ثانوية بويميرو (Poeymirau)، وبعد الاستقلال أصبحت تسمى ثانوية لالا أمينة.

- **إعدادية مانجان** (Mangin): تحولت إلى ثانوية وبعد الاستقلال أخذت اسم ثانوية بن عباد.

- **ثانوية الذكور بالدار البيضاء:** أسست منذ عام 1914م ولم تدرس بها اللغة العربية.

كما تم افتتاح أقسام ومدارس أخرى في العديد من المدن المغربية كما هو الحال في وجدة وطنجة، ولكنها أقل أهمية مقارنة بتلك التي ذكرناها في هذا الملخص حول المؤسسات التعليمية في المنطقة.

وعموما فإن قبول التلاميذ من أبناء الأهالي كان محدودا جدا بهذه المدارس، وانحصر في الغالب في أبناء الأعيان، ووفق شروط سياسية محددة وخاصة الثانويات التي يمر من خلالها التلاميذ إلى شهادة البكالوريا التي تضمن الاستمرار في الدراسة بالتعليم العالي، وظهرت بعض الفروع التي أصبح الأعيان يتهافتون على تسجيل أبنائهم بها في حالة حصولهم على البكالوريا كالطب والهندسة والمحاماة، وأصبحت البرجوازية المغربية منذ سنة 1927م تدير ظهرها للثقافة العربية الإسلامية، وتسعى لتسجيل أبنائها في هذه المدارس الفرنسية التي تضمن لهم هذه التخصصات، وكان من أولى شروط الالتحاق بها : الإخلاص للسياسة الفرنسية- ضرورة اجتياز امتحان الالتحاق- وجوب التحلي بحسن الأخلاق، ورغم تنفيذ هذه الشروط بقيت إدارة الحماية تعرقل انضمامهم لهذه المدارس بحجة أخرى هي أنهم ليسوا جديين في دفع حقوق التمدرس بانتظام[1].

والجدول الموالي يوضح مدى النقص الكبير في تعداد التلاميذ الأهالي في هذه المدارس الفرنسية، رغم التحسن الطفيف بين سنتي 1928م، 1929م من حيث العدد:

المؤسسات	1928	1929
ثانوية فاس	02	01

[1] R.Gaudefroy- Demombynes, op.cit, P141.

ثانوية مكناس	05	06
ثانوية غورو بالرباط	09	11
ثانوية ليوطي بالدار البيضاء	08	15
إعدادية وجدة	18	35
المدرسة الصناعية والتجارية بالدار البيضاء	05	06
المجموع	47	74

عدد التلاميذ المغاربة المسجلين في المدارس الفرنسية بين سنتي 1928م-1929م.[1]

3-2-3- مؤتمر ما بين المستعمرات حول تكيف التعليم مع المستعمرات وأراضي ما وراء البحر وتقرير لويس برينو حول المغرب:

أ- انعقاد المؤتمر بباريس:

أمام اختلاف أوضاع المستعمرات الفرنسية، و تضارب الأهداف بين النخب المثقفة المحلية وحكام المستعمرات، وعدم ارتياح السلطات الاستعمارية لأنماط التعليم المقدمة، وتخوفها من نتائج عكسية لما تخطط له في المستعمرات، تم تنظيم مؤتمر يجمع أعضاء مديريات التعليم العمومي في كل المستعمرات الفرنسية بباريس، لدراسة موضوع تكييف التعليم مع المستعمرات وأراضي ما وراء البحر، وذلك ما بين 25 و27 سبتمبر 1931م، تحت رئاسة جورج هاردي المدير السابق للتعليم بالمغرب، وعضو أكاديمية العلوم لما وراء البحر. وفي جلسة الافتتاح طالب هاردي من كل مشارك توضيح الإجراءات المتخذة في مقاطعته لتنظيم التعليم الخاص بالسكان المحليين، والإصلاحات والتغييرات الممكن إجراوها لتكييف التعليم مع عادات وأوضاع هؤلاء السكان[2]. وظاهريا يبدو أن هذا المؤتمر يريد أن يخرج بحلول لمشاكل تعليم أبناء الأهالي وضمان تمدرسهم في أحسن الظروف، ولكنه في الواقع كان

[1] L .Brunot, Note confidentielle au sujet des élèves marocains faisant des études dans des établissements scolaires destinés à des européens 11.10.1929, P04.
[2] Pascale Barthelemy, l'enseignement dans l'empire colonial Français : une vieille histoire ? Revue Histoire de l'éducation N° : 128/2010- Lyon, pp 5-28.

مؤتمرا استعماريا هدفه توحيد الإجراءات في كل المستعمرات الفرنسية بما يجعل التعليم يحقق الاحتلال الفعلي ويخضع السكان للرجل الأبيض الذي يجب أن ينظر إليه دوما كسيد، بينما يبقى الأهالي أيدي عاملة تؤهل عن طريق التعليم لتقديم خدمات راقية لهؤلاء (الأسياد)، وهو ما تضمنه بوضوح تقرير لويس برينو الذي مثل المغرب في هذا المؤتمر.

ب- تقرير لويس برينو حول التعليم في المغرب:[1]

حاول برينو خلال مداخلته بهذا المؤتمر اقناع المؤتمرين بتجربته التربوية، وبدرايته الواسعة بشؤون الأهالي في المغرب وما يناسبهم من تعليم، بدأها بالإشارة إلى تشبع المثقفين من الأهالي بالمناهج المميزة المطبقة في فرنسا، ومطالبتهم بتطبيقها في المدارس المخصصة للأهالي، أو السماح بانضمامهم إلى المدارس الفرنسية، اعتقادا منهم-كما قال- بأنها ستوصلهم إلى المساواة مع الفرنسيين، ويصبحون مثلهم أقوياء وأغنياء.

وهذه القوة هي التي يتخوف منها الاستعمار ويسعى بكل قواه إلى عرقلتها، وهو ما أشار إليه برينو في هذا التقرير حينما ربط مفهوم التعليم عند الأهالي بالتسليح ليوحي للمؤتمرين بأن التعليم أساس تخرج مناضلين وثوار، وبالتالي لابد من تكييفه بما يبعد عن الأهالي هذه النزعة ويبقيهم في دائرة الخضوع وخدمة الاستعمار، حتى أنه ذهب بعيدا في تفسيره لاستيعاب الأهالي للحضارة الغربية، حينما أشار إلى أنهم فهموا حضارتهم بشكل غريب وبعيد عن مبادئها العامة مما خلق لديهم اضطرابات، سيكون المجتمع ككل فرنسيين وأهالي ضحية لها، ولهذا السبب طالب بضرورة إبقاء التعليم في شكله المهني بالنسبة للأهالي لأنه يتناسب مع فكرهم وأوضاعهم، فلا يمكن كما قال (أن نلبسهم ثوبا خيط على مقاسنا)، وعدد في النهاية أصناف المؤسسات التي أنشئت في المغرب وطالب بتعميمها على المستعمرات لأنها كما قال، متكيفة مع الوضع الداخلي للمستعمرة، وهي:

- المؤسسات الإسلامية: لاستقبال أبناء البرجوازية الحضرية أو الريفية تقدم تعليما ثانويا عربيا.

[1] Rapport de louis Brunot, chef de service de l’enseignement au Maroc, au congres inter colonial de l’enseignement dans les colonies et les pays d’outre- mer sur : l’adaptation de l’enseignement dans les colonies- 25-09-1931 édit : Henri- Didier- paris 1932 pp34-39.

- الإعداديات البربرية: موجهة للسكان البرابرة لأنهم يحتاجون إلى تعليم يتناسب مع حالتهم الاجتماعية .

- مدارس أبناء الأعيان: تستقبل تلاميذ من أبناء الأعيان كما هو الحال في المؤسسات الإسلامية، ولكنهم أصغر سنا من تلاميذ هذه الأخيرة، يشكلون المرحلة الابتدائية.

- المدارس الحضرية: تستقبل أبناء الشعب، تقدم تعليما ابتدائيا، يوجه بعده التلميذ إلى المدارس المهنية.

- المدارس المهنية: تكون حرفيين لهم دراية في الرسم والحساب، وراح برينو يتهم أبناء الأهالي بنقص الذكاء، وأن هذه المدارس تعاني كثيرا في تكوينهم ليوهم الكل بالفروقات الموجودة في المستوى الفكري بين الأهالي والأوربيين، ويرسخ فكرة عدم قابلية الأهالي للتعليم العصري.

ب- التعليم الفرنسي في غرب إفريقيا:

1- وضعية التعليم قبل الاستعمار:

إفريقيا القارة ومنها إفريقيا الغربية، التي صنفها الغرب كقارة متخلفة، والواجب يقتضي من أوربا المتمدنة أن تنقل حضارتها إلى شعوب القارة غير المتحضرة، عرفت أزهى فتراتها في ظل الإسلام. فقد انتشرت بها اللغة العربية مع انتشار الإسلام، واعتنى ملوكها ورؤساؤها وأمراؤها بالتعليم والاستعانة بالعلماء في فهم أمور الدين وتطبيق الشريعة وفروعها، من خلال استقدام العرب، حتى نبغ فيها عدد كبير من العلماء المحليين على يد العلماء العرب، وألفوا الكثير من المؤلفات، وأصبحت اللغة العربية، لغة الكتابة، ولغة القراءة، ولغة التعليم والتربية، ولغة التاريخ والتشريع.[1]

ففي السنغال وموريتانيا مثلا كنموذجين لدول غرب إفريقيا الأكثر شهرة في ما يسمى "بالدارات" (الكتاتيب القرآنية) كان التعليم الإسلامي مزدهرا، وكان هناك ارتباط وثيق بين أبناء السنغال وعلماء شنقيط (موريتانيا)، حيث يبدأ الطالب بحفظ القرآن الكريم ثم يوجه إلى علماء آخرين لدراسة المواد الدينية مثل:التفسير والفقه، وقد يبعث إلى موريتانيا لدراسة

[1] آدم عبد الله الإلوري، لباب الأدب، قسم الشعر، لاغوس، مطبعة الثقافة الإسلامية، أغيغي، ط2، 1979، ص234.

المواد اللغوية والدينية إلى جانب علم التصوف. وبعودة الطلبة المتخرجين من موريتانيا، أو تخرج الطلبة داخل السنغال، انتشرت الكتاتيب في كل مكان، كان أشهرها: دارات (فوتاتورو)، ومدرسة (بير) في إقليم كاجور جنوب مدينة سان لويس بالسنغال، والتي تخرج منها الكثير من العلماء،[1] أما المنهج المقرر في هذه الكتاتيب فكان يشمل:[2]

- تعليم القراءة: وينقسم إلى: تهجي السور القصيرة في القرآن الكريم بدراسة أسماء الحروف (الصوامت) بعربية مختلطة بالولوفية، ثم تهجي نفس السور بدراسة أصوات الحروف (الصوائت).

- القرآن الكريم: يقرأه التلميذ ويحفظه عن ظهر قلب، ثم يتعلم الأصول الخمسة للإسلام، الشهادتين، الصلاة، الصوم، الزكاة، الحج.

- تفسير القرآن الكريم: بدراسة تفسير الجلالين، السيوطي، وجلال الدين المحلي، ثم تفسير عبد الله بن عمر البيضاوي ثم تفسير مدارك التنزيل للنسفي.

- الحديث: دراسة ألفية جلال الدين السيوطي، وصحيحي البخاري ومسلم.

- الأصول الفقهية: وتشمل دراسة الورقات لأبي المعالي الجويني.

- الفقه: ويشمل دراسة ألأخضري، ثم متن العشماوية، ثم المرشد المعين على الضروري في علوم الدين لابن عاشر الفاسي الأندلسي، ثم المقدمة لأبي الحسن عبد الله بن ناصر الدين المصري الشاذلي، ثم منظومة ابن رشد، ثم الرسالة لابن أبي زيد القيرواني، ثم أقرب المسالك، ثم المختصر للشيخ خليل بن إسحاق، ثم تحفة الحكام لابن عاصم.

- التصوف: ويشمل دراسة مؤلفات الغزالي، والحكم لابن عطاء الله.

- النحو: وفيه تتم دراسة كتاب: الأجرومية لابن أجروم الصنهاجي، ثم ملحمة الإعراب للحريري، ثم لامية الأفعال لبدر الدين بن مالك، ثم المقدمة الكوكية لمورجح كمبة الكوكي السنغالي، ثم الألفية لابن مالك الأندلسي، ثم كتاب، الإحمرار للمختار بن بون.

---

[1] محمد جوف، كتاتيب القرآن في السنغال بين الماضي والحاضر، كتاب فاس توري نموذجا، مداخلة في إطار: المؤتمر العالمي للقرآن الكريم ودوره في بناء الحضارة الإنسانية، تنظيم: جامعة إفريقيا العالمية بالخرطوم، السودان، 20 محرم 1433هـ 15-17 ديسمبر 2011م،(مطبوع) ص88.

[2] محمد جوف، نفسه، ص ص89-91.

- الأدب والبيان: وفيه يدرس: الجوهر المكنون للأخضري الجزائري، ومقصورة ابن دريد، والدالية لليوسي، والمعلقات السبع، وقصائد في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم لمحمد البوصيري مثل: البردة، الهمزية، والجوهر المكنون، وعقود الجمان.

- العروض: ويشمل دراسة الدائرة الشفية في العروض والقافية على بحر الطويل لعلي الخزرجي، ثم سراج طالب العلوم العربي، لابن عبد الله المساري، ثم ميزان الذهب لأحمد الهاشمي.

- المنطق: وفيه يدرس: متن السلم لعبد الرحمن الاخضري.

إضافة إلى الجغرافيا والحساب وعلم النجوم، وبذلك لما يتخرج الطالب من هذه الكتاتيب يكون قد تبحر في مختلف العلوم، وقد أتينا بهذه الإشارات المختصرة لنثبت مدى الإزدهار الذي وصل إليه التعليم الإسلامي في منطقة غرب إفريقيا، ومدى تمسك سكان المنطقة به لأنه يضمن لهم الحفاظ على شخصيتهم الإسلامية، ويحمي أبناءهم من كل ما يبعدهم عن دينهم وهويتهم، حتى أن تعليم القرآن في إفريقيا الغربية عموما كان مقدسا لدى السكان، فالآباء لم يكونوا يترددون في وضع سلاسل في أرجل أبنائهم إذا لاحظوا لديهم تقصيرا في حفظه، ولا تفك إلا إذا حفظوا القرآن الكريم حفظا تاما.[1]

وهكذا حققت الثقافة الإسلامية في ظل هذا الاهتمام الكبير تطورا كبيرا أدهش ساسة الاستعمار لما قدموا إلى المنطقة، وجعلهم يدركون أن إخضاع هذه الشعوب ليس بالأمر السهل، وأنه لابد من أخذ ذلك بعين الاعتبار في مخططاتهم الاستعمارية.

2- وضعية التعليم أثناء الفترة الاستعمارية:

2-1- الإستراتيجية التربوية الاستعمارية خلال القرن 19م:

لما وصل الاستعمار إلى غرب إفريقيا، وجد أن الطبقة المثقفة هي المسلمة، لأن الإسلام يحث على قراءة القرآن وتعلم اللغة العربية، ومبادئ الفقه، وكان هناك فقهاء أفارقة يقومون بدورهم بتعليم أبناء المسلمين على نفس المنهج الدراسي في الجامعات الإسلامية وقد لاحظنا ذلك في منهج التعليم بالكتاتيب سابقا، واعتبر ذلك خطرا كبيرا يهدد وجوده، وجب

[1] محمد جوف، م،س، ص92.

عليه مقاومته، وكان أول عمل قام به الجيش الاستعماري هو تدميره جل المراكز الثقافية التي كانت تشكل مصادر الثقافة الإسلامية واللغة العربية في غرب إفريقيا.[1]

وقد وظف الاستعمار كل وسائله للقضاء على هذا التعليم الإسلامي المزدهر في المنطقة، بدءا بمحاربة وعرقلة نشاطات الكتاتيب القرآنية وباقي المؤسسات الإسلامية، فقد بادر الحاكم العام الفرنسي للسنغال "لويس فيدارب" إلى إحراق الجامعة الإسلامية بمدينة "بير" بعد تدميرها، ثم أصدر قرارات قاسية منها :

- قرار22-06-1852م الخاص بمراقبة التعليم الإسلامي و تشديد الخناق على المدارس الإسلامية، إدراكا منه لأهمية التعليم الإسلامي و دوره في عرقلة ما سماه (المهمة الحضارية لفرنسا.)

- قرار01-10-1857م و الذي نص على ضرورة الحصول على رخصة لفتح أي مدرسة، ووضع شروطا صعبة للاستفادة من هذه الرخصة على غرار ما شهدناه في الجزائر منها:[2]

- توجيه طلب إلى الحاكم العام الفرنسي.

- أن يكون مقدم الطلب من أهل سان لويس، أو سكنها لمدة 07 سنوات.

- ضرورة خضوع مقدم الطلب لامتحان تشرف عليه لجنة يشكلها الحاكم العام لاختبار قدراته العلمية.

- ضرورة الحصول على شهادة حسن السيرة والسلوك من بلدية المدينة.

- أن يرفع بعد فتحه المدرسة، إذا نجح في الامتحان، تقريرا شهريا إلى الحاكم العام يتضمن عدد تلاميذه، أسماءهم وأعمارهم.

- أن يرسل تلاميذه كل يوم إلى الدروس المسائية الفرنسية التي كانت تشرف عليها الإرساليات المسيحية.

---

[1] Abu Bakr Ismail Muammad Miga, la culture et l’enseignement Islamiques au soudan occidental de 400 à 1100H, sous les empires du Ghana, du Mali, du Songhay, édit. Nouvelle imprimerie du Niger- 2003, P182.

[2] Henri Sène, le livre et l’écrit de langue arabe dans la société sénégalaise ,des origines au début du 20e siècle ,thèse de doctorat 3e cycle en sciences de l’information et de la communication, sous la direction de Robert Estivals, université de Bordeaux 3,1982,p298.

ثم أضيف شرطان آخران هما:

- ضرورة عدم قبول مدرس اللغة العربية تلاميذ أعمارهم بين 06 و15 سنة أثناء ساعات الدراسة في المدارس الفرنسية العمومية.

- ضرورة حصول كل مدرس على شهادة تثبت حضور تلاميذه دروسا في الفرنسية في مدرسة ما.[1]

وأمام هذه الإجراءات القاسية والصعبة التنفيذ، كان على الشيوخ الابتعاد عن أنظار ومراقبة الإدارة الاستعمارية باللجوء إلى المناطق البعيدة والصعبة التي يتعذر على أعين الاستعمار رصدها، لمباشرة نشاطهم في التعليم حيث يتبعهم تلاميذهم ويستقرون معهم. وهي حلول تسمح على الأقل بأخذ قسط من التعليم الإسلامي يبقى محدودا مقارنة بما كان عليه الوضع قبل الاستعمار.

ووفق هذه الشروط منحت الرخص لست وعشرين معلما لفتح مدارس قرآنية تحت إشراف ومراقبة الإدارة الاستعمارية منها 20 مدرسة في سان لويس، واعتبر فيدارب كل مدرسة تفتح دون موافقة السلطات الاستعمارية مخالفة يعاقب عليها القانون، وبالتالي يقدم أصحابها أمام العدالة لمعاقبتهم.

وبالموازاة مع هذه المدارس الأهلية الخاضعة لمراقبة صارمة، أنشأ فيدارب مدرسة خاصة بالأسرى بموجب قرار أصدره في 1861/03/05م، أغلقت بعد ذلك سنة 1871م ثم أعيد فتحها سنة 1892م وتمت إعادة هيكلتها وفق قرار 1893/05/27م لتأخذ اسم (إعدادية أبناء القادة والمترجمين)[2].

وكانت مهمتها ضمان التعليم لكل أبناء القادة والأعيان الذين يمارسون مهاما لدى الإدارة الاستعمارية، وبالتالي كانت ترمي لتكوين نخبة مفرنسة من الأهالي، يكون لها وزن في المجال السياسي والثقافي أمام الطبقة المثقفة الإسلامية، ولكن ذهاب لويس فيدارب سنة 1865م أوقف عدة مشاريع كان قد خطط لها، والعديد من المدارس الإسلامية أغلقت أبوابها أمام الضغط الاستعماري المتزايد.

---

[1] محمد بمبا أنجاي، أضواء على السنغال، دار التوزيع والنشر الإسلامية، ط 1، القاهرة، مصر، 1994، ص ص 23-24.

[2] Henri Sène, op.cit, P298.

وحسب بيان قدمه محافظ شرطة سان لويس في 1867/05/28م لم يبق من 26 مدرسة التي حصلت على الرخصة في عهد فيدارب سوى 09 مدارس، 05 في سان لويس، و04 في وات ندار.[1]

- في 28-02-1870م صدر قرار جديد لتنظيم المدارس الإسلامية من طرف الحاكم العام فاليار (Valière) الذي رأى أن إجراءات فيدراب لم تكن فعالة، وتضمن قراره هذا إجراءات أكثر تشددا، بإخضاع هذه المدارس الإسلامية إلى المراقبة الإجبارية التي يتولاها ما يسمى بالمكتب الثاني لمديرية الداخلية وأرك مدير الداخلية نفسه في لجنة إختبار إمكانيات ومؤهلات مدراء المدارس الإسلامية في اللغة الفرنسية.[2]

وكل هذه الإجراءات المتشددة لم تعط ثمارها في الميدان، ولم تمكن لا من القضاء على الثقافة الإسلامية، ولا من انتشار الثقافة الفرنسية في أوساط الأهالي، وذلك باعتراف مدير الشؤون السياسية نفسه في بيان 1879/04/14م، والذي أشار فيه إلى أن قرار 1870/02/28م لم يحقق النتائج المرجوة من طرف الإدارة الاستعمارية، وكان تطبيقه صعبا للغاية.[3] وكل الإجراءات التي وضعها فيدارب ومن خلفه، إنما كانت تهدف إلى إدماج التعليم القرآني واللغة العربية في النظام التربوي الفرنسي، وفشل الإدارة الاستعمارية، في نظرنا، في تحقيق أهدافها يرجع أساسا إلى تجذر الإسلام في مجموع مناطق السودان الغربي، وتمسك السكان بديانتهم الإسلامية دراسة وتطبيقا، كان سدا منيعا في وجه انتشار الأفكار الأوربية واللغة الفرنسية، ومقاومته لهذه التيارات كانت شديدة، ولذلك لم تتمكن الإدارة الاستعمارية أن تحقق الفعالية التي خططت لها من خلال محاربة التعليم الإسلامي أو محاولة نشر اللغة الفرنسية. وربما - في نظرنا أيضا- أن النجاح الوحيد الذي حققته كان بعض مظاهر الغزو الفكري، الذي مس السكان دون قصد منهم، بسبب مكر رجال الكنيسة الذين أشركهم الاستعمار في تنفيذ مخططاته، وهذه المظاهر تتمثل في: تغيير الأسماء العربية دون أن يتفطن هؤلاء السكان إلى أنها من مكائد الاستعمار، حيث أصبح الناس

[1] Henri Sène, opcit, p299.

[2] Arrêté du 28 Février 1870 relatif aux écoles musulmanes, bulletin administratif du Sénégal N°2 Février 1870, P74.

[3] Henri Sène, op.cit, P300.

يطلقون على مواليدهم أسماء تتصل بالآلهة التي كانوا يعبدونها في الجاهلية، وكانوا يعتقدون أنهم منحدرون منها مثل: أوغن* وشنغو** ومازال إلى اليوم الكثير من سكان يوربا*** يردفون هذه الأسماء بأسمائهم على أنها أسماء أجدادهم.[1]

هذا الفشل الذريع الذي منيت به الإدارة الاستعمارية طيلة القرن 19م فيما يتعلق باستعمال سلاح التعليم لإخضاع السكان وإبعادهم عن دينهم، جعلها تغير إستراتيجيتها في المجال التربوي مع حلول القرن 20م، حيث لجأت إلى مجموعة من التدابير علها تصلح ما فشلت فيه التجارب السابقة.

2-2 الإستراتيجية التربوية الاستعمارية خلال القرن 20م :

شهد القرن 20م تغيرا في إستراتيجية الإدارة الاستعمارية في المجال التربوي، مع التركيز دوما على فكرة المهمة الحضارية لفرنسا اتجاه مستعمراتها، وأنشأت تعليما رسميا، ولم تعلن كما سبق، محاربتها العلنية للإسلام، بل عمدت إلى تكوين نخبة مفرنسة تكون في خدمة فرنسا.

وهذه الإستراتيجية بدأ التحضير لها مع نهاية القرن 19م، ففي سنة 1897م، في أمرية بعثها الحاكم العام شودييه (Chaudié) إلى حكام الأقاليم يقول فيها:

"أقول لكم اليوم: إني أولي أهمية كبرى لتنمية التعليم العام، ونشر اللغة والأفكار الفرنسية لتحسين سير المدارس.. اشترطوا الأعيان ليرث أبناؤهم مهامهم، فيكونوا أول دفعة تتخرج كمعلمين، على أن نفهمهم أنه في مدة ليست بالبعيدة، لا يمكن لأحد الحصول على المسؤولية إن لم يكن قادرا على الكلام بالفرنسية، وفهم الأوامر والتوجيهات التي تقدم له دون وسيط، أعيان المقاطعان، والنبلاء مدعوون لإرسال أبنائهم الذين يبدو عليهم الذكاء والقدرة على خلافتهم إلى هذه المدارس. ونحن نؤكد للعائلات وكل السكان أن التعليم المقدم لأبنائهم لا

* أوغن: معناه إله الحديد.ينظر: موسى عبد السلام مصطفى أبيكن،الغزو الفكري الاستعماري على التراث العربي الإسلامي في غرب إفريقيا، مجلة القسم العربي ، العدد 2014/21 جامعة بنجاب –لاهور- باكستان،ص 107.

** شنغو: معناه إله الرعد. ينظر، نفس المرجع، ص107.

***يوربا : إمبراطورية واسعة، تمتد من جنوب نهر النيجر إلى حدود بينوي، وتشمل بلاد بنين إلى المحيط الأطلسي حتى فانتي وأشانتي، كانت عاصمتها مدينة أويولي ويحمل ملكها لقب: "الأفن" ومعناه صاحب القصر الملكي، ينظر، نفس المرجع، ص107.

[1] آدم عبد الله الإلوري، الإسلام والتقاليد الجاهلية، القاهرة، مطبعة المدني، ط2، ص ص 144، 145.

يمس بالمعتقدات الإسلامية، وأننا نقدم أيضا دروسا بالعربية، وفي القرآن، مقرونا باللغة الفرنسية."

وفعلا، ابتداء من سنة 1903م أتخذت عدة تدابير من قبل الإدارة الاستعمارية لتطبيق هذه الإستراتيجية منها:

- مرسوم 1903/11/24م: ينص على تنظيم التعليم في المستعمرات وأراضي إفريقيا الغربية الفرنسية، وهو لا يندرج في إطار سياسة تربوية فعالة، وإنما موجه أساسا إلى تكوين إطارات بسيطة من الأهالي، ويبقى في حدود مناهج التعليم الابتدائي، أصدر هذا المرسوم الحاكم العام الجديد الذي خلف شودييه، وهو الجنرال "روم" (Roume) الذي أعطى للتعليم صبغة لائكية ضنا منه أنه بهذه الصفة الحيادية، سيتمكن من جذب أكبر عدد ممكن من الأهالي للمدارس الفرنسية. وأصبح التعليم الابتدائي طبقا لهذا المرسوم مجانيا ولكن مناهجه تختلف عن المناهج المطبقة في فرنسا، كما أنه ليس إجباريا،[1] هدفه الأساسي الوصول إلى التحكم في اللغة الفرنسية، وتعليم الكتابة والقراءة والحساب، والكتب المستعملة كانت مجرد كتب مدرسية لا تسمح بإتقان القراءة، وبالتالي فالهدف الواضح من هذا التعليم ليس تطوير المستوى الثقافي لسكان المستعمرات، ولكن لتلقينهم بعض المعارف الأولية فقط.

ولما عين وليم بونتي حاكما عاما على إفريقيا الغربية سنة 1908م عرض ما يجب أن يكون عليه التعليم حيث حدد له هدفين:

الهدف الأول: أن يكون الوسيلة الأكثر فعالية في مهمة فرنسا الحضارية، بفرض هذه الفكرة على الأهالي ودفعهم إلى تحسين شروط حياتهم، والهدف الثاني: أن يكون قابلا للتطبيق ليساهم في تنمية المستعمرات اقتصاديا.[2] بمعنى أنه لا ينتظر من هذا التعليم غير ما يخدم الاستعمار، حتى ولو تحسنت شروط حياتهم، إنما ليستغل قدراتهم فيما يفيد هذا الاستعمار.

وقد أكد ذلك في خطابه الافتتاحي بمجلس حكومة إفريقيا الغربية الفرنسية قائلا:

---

[1] Henri sène, op.cit. P302.

[2] Bayet Marie-Laurence, l’enseignement primaire au Sénégal de 1903 à 1920 in : Revue de pédagogie, volume 20-1972 éditions : Ecole Normale supérieure, Lyon, p35.

"ثقوا بأنه ليس في تفكيري مضاعفة المؤسسات التي تقدم شيئا آخر غير تعليم ابتدائي بسيط، نعلم الأهلي لغتنا، ليقرأها ويكتبها، مع شيء من الحساب، ومفاهيم الأخلاق وهذا يكفي الآن، وهذه المعطيات يمكنه أخذها في مدارس يسيرها معلمون من الأهالي."[1] وهذه العبارات في حد ذاتها تدل على الإستراتيجية المطبقة في المجال التربوي من طرف الإدارة الاستعمارية، وهي إستراتيجية لا تتجاوز تعليم الأهالي كيفية نطق اللغة الفرنسية وكتابتها وفهم ما يقدم لهم من أوامر، وتطبيق ما يطلب من أعمال، وحتى وإن فلتت مجموعة من الأهالي من أبناء الأعيان والبرجوازية المحلية من الحواجز الاستعمارية، فلا ينتظر منها غير الذوبان التام في الكيان الفرنسي وخدمة أهدافه وتنفيذ مخططاته.

وفي مرسوم أصدره بونتي سنة 1913م بناء على تزايد أعداد المتمدرسين في المدارس الفرنسية، طالب بضرورة أن يكمل التعليم ما وصل إليه الاحتلال العسكري للمستعمرات وأن يكون هذا الدور على عاتق المدرسة.[2] وهي نظرة تعكس نواياه الحقيقية في توسيع رقعة الاحتلال، مستمدة من طبيعته كعسكري شارك في العديد من الحملات التوسعية الاستعمارية بين 1890-1893م.[3]

ورغم إعادة تنظيم التعليم في إفريقيا الغربية منذ سنة 1903م، وإدراج تعليم اللغة العربية والتعليم الديني و لو في نطاق محدود، ورغم إدعاء الإدارة الاستعمارية عدم المساس بالإسلام، فإن محاربتها له لم تتوقف، ولجأت هذه المرة إلى تشديد المراقبة على الكتب والدوريات المطبوعة بالعربية والتي توزع بالمنطقة، متخذة عدة إجراءات منها:

منع إدخال وتوزيع هذه المطبوعات التي اعتبرتها ذات طابع عدائي لفرنسا، لكن ذلك لم يمنع أبدا توزيع هذه المطبوعات، وبقاء الثقافة الإسلامية صامدة باستمرار حركة التأليف خاصة في تيواوين، بير،و طوبا على يد علماء درس معظمهم في جامعات شمال إفريقيا.

وقد أشار بول مارتي، مدير الشؤون الإسلامية سنة 1912م إلى أن المسلمين رغم الحصار والضغوطات الممارسة على التعليم الإسلامي، قد تمكنوا من تأسيس 1700 مدرسة قرآنية

---

[1] Bayet Marie- Laurence, opcit, p36.
[2] Henri sène, op.cit, p304.
[3] Carine Eizlini, le bulletin de l’enseignement de l’A.O.F, une fenêtre sur le personnel de l’enseignement public expatrié en A.O.F (1913-1930) Education, université René Descartes. Paris V2012, p 39.

يدرس بها 11451 تلميذا منهم 695 تلميذا يدرسون أيضا بالمدارس الفرنسية التي انتشرت بدورها في معظم مناطق غرب إفريقيا.[1]

3-2- أبرز المدارس الفرنسية في غرب إفريقيا:

ركزنا هنا على المدارس التي كان لها دور بارز في النشاط التعليمي والتي أعطاها الاستعمار العناية الكبرى لتحقيق الأهداف المنتظرة في مجال التعليم، ومن أهمها:

- مدرسة كايدي (Kaédi): أول مدرسة تظهر في موريتانيا سنة 1898م، حاول من خلالها الفرنسيون نشر نفوذهم ولكنهم وجدوا صعوبة كبرى في إقناع البيض من سكان موريتانيا لإرسال أبنائهم إليها، ولم يسجل بها سوى السود، جمعوا من عدة مناطق، 28 من بوسيا (Bosséa)، 20 من تولدي والمناطق المجاورة ليصل العدد الإجمالي إلى 48 تلميذا.[2]

- مدرسة بوغي (Boghé)بموريتانيا 1912م: في سنتها الأولى، لم يتعد عدد التلاميذ 22 تلميذا، لكن في سنة 1913م وصل العدد إلى 55 تلميذا وزعوا على قسمين، أشرف على إدارتها في البداية "دياوار صار" تحت إشراف المفتش آرنو (Arnaud).

- مدرستا منطقة الترارزة بموريتانيا 1912م: أنشئت مدرستان في منطقة الترارزة في هذه السنة، الأولى في مدردرة والثانية في بوتيليميت، وحسب تقرير الضابط موري (Mouret) في 1913/09/08 م وصل عدد تلاميذ هاتين المدرستين إلى 19 تلميذا في مدردرة – 38 تلميذا في بوتيليميت، وكلهم ذكور، من أبناء الأعيان.[3]

- مدرسة مغاما وسليبابي في جنوب موريتانيا 1927م: عرفتا صعوبة كبرى في تسجيل التلاميذ، وكان أولياؤهم يتحججون بحجج كثيرة ليمتنعوا عن إرسال أبنائهم، في مقدمتها الوضع الاجتماعي الصعب، وحاجتهم لمساعدة أبنائهم. وهذه المدارس عموما تقدم تعليما هدفه نشر اللغة الفرنسية ولا يصل الأهالي من خلاله إلا لشهادة لتعليم الابتدائي.

---

[1] Paul Marty, Jules Salenc, les écoles maraboutiques du Sénégal, la medersa de Saint Louis, paris, édit. Ernest Leroux, 1914, P25.

[2] Hassan Kébé, inter culturalité et intertextualité dans l'œuvre littéraire d'Ousmane Moussa Diagona, Thèse de Doctorat, université paris- est (2012), p 223.

[3] Hassan Kébé, ibid. 224.

- مدرسة تومبوكتو بمالي 1911م: كانت مدرسة مخصصة للمسلمين تدرس فيها العربية إلى جانب اللغة الفرنسية، أشرف على إدارتها بين 1911م و1920م أحمد حمودة.[1]

- مدرسة سان لويس بالسنغال: تأسست عام 1910م وكان يشرف عليها عند افتتاحها: أحمد سيد حمودة قبل أن ينتقل إلى تومبوكتو سنة 1911م، أغلب تلاميذها كانوا من أبناء المعمرين.[2]

- مدرسة التعليم التقني العالي بغوري (جزيرة بداكار) بالسنغال 1918م: متخصصة في التعليم التقني الموجه إلى تكوين مهنيين، كان يشرف عليها جول سالونك (Jules Salenc).

- ثانوية فان فولن هوفن (lycée van vollenhoven) بداكار (السنغال) تأسست سنة 1950م وكانت تابعة لأكاديمية بوردو، معظم تلاميذها أوربيون وقلة فقط من الأهالي، مديرها: سيمون دالماس. وهي حاليا تسمى ثانوية لمين قاي (lamine Gueye).[3]

ثانيا ـ موقف الطريقة التجانية من التعليم الفرنسي في شمال وغرب إفريقيا:

أ- شمال إفريقيا:

1- الجزائر:

رغم ما تذكره الكثير من الكتابات عن مهادنة التجانيين للاستعمار الفرنسي، إلا أن الطريقة كانت واعية بمكائد الاستعمار ولعبت دورا مهما في الحفاظ على مقومات الأمة الجزائرية كغيرها من الطرق الصوفية الأخرى[4]، رغم محاصرة الاستعمار لهذه الطرق بالمدرسة الفرنسية التي أراد من خلالها أن يبطل مفعول التعليم الإسلامي، خاصة وأن الكثير من المدارس أنشئت قرب الزوايا لتضييق مجال نشاطها.

ومهما قيل عن الزوايا التجانية، فقد كانت لها رسالة سامية تتمثل في المحافظة على الإسلام وتعليمه ومحاربة الآثار التنصيرية والإدماجية للتعليم الفرنسي من خلال دورها التربوي

[1] Alain Messaoudi, Op.cit, p45.
[2] Alain Messaoudi, Ibid. p45
[3] Alain Messaoudi, Ibid. P45
[4] طيب جاب الله، دور الطرق الصوفية والزوايا في المجتمع الجزائري، مجلة معارف، العدد 14- أكتوبر 2013، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة البويرة، ص142.

والتركيز على تعليم القرآن الكريم والعناية بشتى العلوم الشرعية واللغوية، وقد اشتهرت في هذا المجال أكثر زاويتا قمار وعين ماضي.

1-1- نشاط الزوايا التجانية في مجال التعليم :

زاوية قمار عرفت أول مدرسة نظامية، تقدم فيها مختلف العلوم بطريقة تنافس المدارس النظامية الفرنسية[1]. وحتى تضمن مفكرين وعلماء يقودون حركة الإصلاح والتعليم لإنقاذ المجتمع من مخاطر الاستعمار، أرسلت الزاوية الكثير من الشباب إلى جامعة الزيتونة لينهلوا من علومها الدينية واللغوية، ويعودوا إلى بلدهم لتأطير المدارس القرآنية التي دأبت الطريقة على فتحها في مختلف الجهات، ولم تكتف زاوية تماسين وزاوية قمار بإرسال البعثات إلى تونس، بل عمدتا إلى جلب علماء من هذا البلد المجاور للتدريس مثل: الشيخ محمد القاني السائحي الذي كان شاعرا وعالما متمكنا، متنور العقل، متأثرا بحركة النهضة والإصلاح.[2] كما جلبتا من المغرب: الرحالة المغربي، الشيخ سعيد الدوكالي، والشيخ عثمان النفطي و غيرهم من العلماء و الفقهاء. لقد أثر عن الشيخ الحاج علي التماسيني مقولته الشهيرة التي لا يزال يرددها مريدوا زاوية تماسين إلى اليوم : "اللويحة و المسيحة والسبيحة" والتي كان يعني بها العلم والعمل والعبادة. وقام بتأسيس مدرسة قرآنية بتماسين تعني بتدريس القرآن الكريم وعلوم الشريعة من فقه، وحديث، وتفسير، وعلوم اللغة العربية وغيرها من العلوم. واقتداء بالإمام التماسيني، دأب شيوخ الطريقة على تشجيع العلم وجلب العلماء والفقهاء والأدباء وتقريبهم، سواء في تماسين أو قمار أو عين ماضي لتنشيط الحركة العلمية، ونبغ بعض خلفاء الطريقة في شتى العلوم، وأصبحوا يشاركون في التدريس ومنهم:

- الخليفة محمد حمة (1844م-1912م) الذي كان يدرس الفقه بزاوية قمار وابنه الخليفة سيدي البشير (1861م-1918م) و الذي كانت له بدوره مساهمة في التدريس بالزاوية،[3]و الشيخ محمد الصغير التجاني، الذي كان يدرس الفقه والتفسير والحديث والنحو والصرف في زاوية عين ماضي،[1] زد على ذلك فإن معظم علماء التجانية لم يكتفوا بالتربية الشفوية،

---

1 بن سالم بالهادف، دور الزاوية التجانية بقمار في نهضة سوف والأمصار، الملتقى الدولي الثاني للطريقة التجانية بقمار، الوادي، الجزائر 6؟5؟4. نوفمبر 2008، مطبعة الوليد، الجزائر، ص144.

2 الغالي بن لباد، الزوايا في الغرب الجزائري، التجانية والعلوية والقادرية، دراسة أنثروبولوجية، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في الأنثروبولوجيا، إشراف أد. سعيدي محمد، 2009/2008، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، ص171.

3 بن سالم بالهادف، م.س، ص150.

بل أضافوا إليها التأليف في مختلف التخصصات، ولم يقتصر هذا التأليف على التصوف بل شمل ميادين عديدة منها: التفسير والحديث والفقه[2].

وحتى يساهموا في الحفاظ على الثقافة الإسلامية من الانقراض الذي كان الاستعمار يسعى لتحقيقه من خلال مدارسه ومدارس الإرساليات التنصيرية، دعم التجانيون نشاطهم في التدريس والتأليف بعمل آخر لا يقل أهمية عن النشاطين السابقين، وهو نسخ المخطوطات، حتى تبقى زواياهم عامرة بالمؤلفات، يطلع عليها كل من يقصد هذه الزوايا لتوسيع معارفه تحصينا للأفراد من الوقوع في فخ مكائد الاستعمار، وأصبحت نتيجة هذا النشاط زواياهم زاخرة بالمخطوطات، وخاصة زاوية عين الماضي.

2-1- طبيعة التعليم في الزوايا التجانية:

حرص التجانيون خلال الفترة الاستعمارية على تقديم نوعين من التعليم، في إطار سعيهم إلى إيصال الثقافة الإسلامية إلى كل الناس الذين يقصدون زواياهم على اختلاف طبقاتهم متعلمين وأميين، صغارا وكبارا، وهذان النوعان هما:**1-2-1- التعليم الشعبي:**

ويخص عامة الناس، غرضه ترشيد العامة وتذكيرهم بمبادئ دينهم وتعليمهم هذه المبادئ، بالتركيز على تدريس الفقه، والحديث النبوي الشريف، والتفسير، ثم أضيف إلى هذه العلوم، مواد أخرى كالتصوف وأصول الدين والسيرة النبوية، وهو يقام في مساجد الزوايا، وفي عدد من الأماكن الأخرى التي تتسع لمثل هذه الدروس الجماعية، كما هو الحال في المقر الجديد الذي أسسه الخليفة الرابع للإمام التماسيني، محمد حمه في زاوية قمار والذي يعرف باسم (الدار الخضراء)، وكانت هذه الدروس تؤطر من قبل عدة علماء وفقهاء من أمثال الخليفة المذكور محمد حمه (1844م-1912م)، ومحمد العروسي وأخيه سيدي العيد، والحاج علي بالقيم القماري، ومحمد اللقاني الطيباتي وغيرهم.[3]

2-2-1 التعليم القرآني:

يتعلق بتعليم القرآن وتحفيظه، إضافة إلى تعليم اللغة العربية كتابة وقراءة، وبعض مبادئ الشريعة الإسلامية كتعليم الصلاة، وكان هذا النوع من التعليم يقام في الكتاتيب التابعة

---

[1] إبراهيم بن محمد الساسي العوامر، الصروف في تاريخ الصحراء وسوف، تعليق الجيلالي بن إبراهيم العوامر، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1977، ص32.

[2] عبد الرحمن طالب، الشيخ أحمد التجاني ومنهجيته في التفسير والفتوى والتربية، الجزائر، الجاحظية 1999، ص35.

[3] السعيد عقبة، جوانب من الحياة الفكرية بالزاوية التجانية بقمار، الملتقى الدولي الثاني للطريقة التجانية بقمار أيام 4.5.6 نوفمبر 2008م، قمار، الوادي، الجزائر (مطبوع)، ص152.

للزوايا التجانية وخاصة الزوايا الكبرى: قمار- تماسين، وعين ماضي، والتي تفتح باكرا وتستقبل تلاميذها مع طلوع الفجر[1]، وغالبا ما كان هذا التعليم يعطى للأطفال مادون سن السادسة ويتلخص المنهج التعليمي لهذا النوع بالزوايا التجانية في المظاهر التالية:

- تعليم الخط والكتابة أولا ثم المرور إلى تحفيظ القرآن الكريم باستعمال اللوحة، وهذه اللوحة عبارة عن قطعة خشبية ملساء، يكتب عليها بقلم من القصب باستعمال حبر مصنوع من صوف الغنم، بعد حرقه على النار ومزجه بالماء داخل زجاجة، وتكون طريقة إزالته بالماء والصلصال.

- من تقاليد الدراسة في الزاوية (حفاظا على التقاليد الإسلامية): لبس العباءة ووضع العمائم

- تحلق التلاميذ في شكل دائرة أمام المدرس، لعرض ما حفظوا واحدا تلو الآخر.[2]

ولما يتمكن التلميذ من حفظ القرآن والكتابة الصحيحة، يرتقي في المستوى، ويصبح بإمكانه استعمال المصحف الشريف لمراجعة القرآن الكريم، وحتى يصبح للطريقة التجانية قوة تمكنها مع باقي الطرق الصوفية الوقوف في وجه التيارات الاستعمارية، الهادفة إلى اقتلاع الجزائريين من جذورهم الإسلامية، سعت إلى توحيد جهودها مع هذه الطرق خلال النصف الأول من القرن 20، لتظهر جمعية علماء السنة في 13-09-1932م، وضمت زيادة على الطريقة التجانية كلا من الرحمانية، القادرية، العلوية والشاذلية برئاسة الشيخ المولود الحافظ الأزهري[3]، ولو أن هذه الجمعية دخلت في صراع مع جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ولكن محمد السعيد الزاهري أحد أعضاء جمعية العلماء كان قد نوه بالشيخ أحمد التجاني وبالشيخ محمد العيد التجاني بعده، معتبرا إياهما من رجال الإصلاح، ومن الغيورين على الإسلام الصحيح البعيد عن البدع، وقد رأينا ذلك فيما سبق.

2- تونس:

عرفت تونس الطريقة التجانية بفضل الجهود التي بذلها الشيخ إبراهيم الرياحي في الترويج لمبادئها بعد أن تلقاها عن الشيخ علي حرازم برادة، وقد ذكر ذلك بنفسه حين قال: "الحمد

[1] علي غنابزية، دراسة تاريخية لمناهج تعليم القرآن الكريم بين الماضي والحاضر (مجتمع وادي سوف نموذجا) مجلة البحوث والدراسات، العدد 04، يناير 2007،جامعة الوادي ، ص75.

[2] الغالي بن لباد، م.س، ص170 .

[3] طيب جاب الله، م،س، ص143.

لله الذي من علينا بالإجتماع مع شيخنا العالم الهمام، رأس العارفين- سيدي علي حرازم، فأخذنا عنه والمنة لله الطريقة التجانية.. في أواسط جمادى الأولى عام 1216هـ"[1] وطبعا هذا التاريخ الهجري يقابله في التاريخ الميلادي سنة 1801.

ولما سافر إلى المغرب الأقصى سنة 1804م التقى بالشيخ أحمد التجاني وأذن له في تلقين أوراد الطريقة ونشرها في تونس، ومنذ ذلك التاريخ بدأت الزوايا التجانية تنتشر في البلاد بعدما كانت هناك في البداية زاوية واحدة تلك الواقعة في نهج حوانيت عاشور،[2] حتى بلغت بتونس العاصمة وحدها خمس زوايا هي: زاوية زقوم، ترونجا، رياحية، قمارة، وباب المنارة، وقد أدت زاوية تماسين دورا بارزا في انتشار هذه الزوايا قبل فرض الحماية الفرنسية على تونس عام 1881م وذلك عن طريق الهدايا والأموال المقدمة لبنائها.

دور الزوايا التجانية في تونس لا يقل في المجال التعليمي عما سجلناه في الجزائر، إذ سعت بكل ثقلها إلى نشر التعليم الإسلامي وعرقلة مخططات التغريب التي كانت تهدف إليها المدارس الفرنسية في البلاد، خاصة في عهد جول فيري وجوسران الذين سعيا بكل قوة لإدماج التونسيين، دون الاتكال على التنصير وحده، وإعطاء كامل الاهتمام للتعليم الفرنسي أملا في تحقيق هذا الهدف.

لذلك، وبسبب إستراتيجية المهادنة التي طبقتها الطريقة التجانية مع الاستعمار الفرنسي حصلت على تسهيلات كبرى، مقارنة ببقية الطرق الصوفية التي كانت إدارة الحماية تتخوف منها، و كنتيجة لهذه التسهيلات ازداد عدد الزوايا التجانية، وتوسع انتشارها لتشمل عدة مدن، رغم المنافسة الشديدة من الطريقة السنوسية التي روجت لفكرة عمالة الطريقة للإستعمار للقضاء على نفوذها، ومن هذه المدن:

بنزرت، قرينالة، مجاز الباب، سوق الأربعاء، باجة، الكاف، سوسة، تالة، القيروان، قفصة، قابس وغيرها.. ليصل عدد أتباعها عام 1891م إلى حوالي 40 ألف مريد.[3]

---

[1] عمر الرياحي، تعطير النواحي، م س، ص12.
[2] التليلي العجيلي، م س، ص44.
[3] الأخضر لطيفة، الإسلام الطرقي، دراسة في موقفه من المجتمع و من القضية الوطنية،تونس، ط1، دار سيراش للنشر، 1993م، ص53.

3- المغرب الأقصى:

يعود انتشار الطريقة التجانية في المغرب إلى عهد الشيخ أحمد التجاني منذ حلوله بفاس سنة 1798م، وقبول السلطان مولاي سليمان طلبه الاستقرار بالمغرب، بعد أن استجار به من ظلم الأتراك،[1] ونجح الشيخ أحمد التجاني في إقناع السلطان بالانضمام إلى طريقته، وفي بناء أكبر زاوية بفاس كانت منطلقا لزوايا أخرى شملت معظم مناطق المغرب. وهذه الظروف مكنت الطريقة التجانية من إكتساب قوة كبيرة هناك رغم المنافسة التي لقيتها من الطريقة الدرقاوية والطيبية وطرق أخرى، واستمر عدد أتباعها في التزايد حتى بعد وقوع المغرب الأقصى تحت الحماية المزدوجة سنة 1912م.

منذ تعيين المقيم العام الجديد الجنرال ليوطي في المغرب سنة 1912م، وهو يسعى للحد من نشاط التعليم الإسلامي، فعين مدراء للتعليم العام، معروفين بتشددهم تجاه التعليم العربي الإسلامي وخاصة ما يلقى في الزوايا ومنها الزوايا التجانية، بل حاولوا الحد من نفوذ جامعة القرويين نفسها، والتي تضاءل دورها كثيرا أثناء فترة الحماية، ومن هؤلاء المدراء "لوث" ثم "جورج هاردي" ثم "لويس برينو" الذين كانوا يتخوفون كثيرا من هذا التعليم الذي كانوا يرونه بمثابة سلاح، قد ينهي يوما الوجود الفرنسي في البلاد، ولذلك استمر نشاط الزوايا التجانية في مجال التعليم تدريسا للقرآن الكريم وتحفيظه، وتعليم اللغة العربية وبعض المواد الدينية الأخرى كالحديث والسنة النبوية ولكن بشكل محدود، في ظل المراقبة الشديدة للاستعمار الفرنسي وخضوع السلطان نفسه للمقيم العام الفرنسي.

ب- غرب إفريقيا:

رغم ما بذله ساسة الإستعمار من جهود في مجال التعليم لاستغلال شعوب غرب إفريقيا بالموازاة مع شعوب بقية المستعمرات وإفراغهم من هويتهم وثقافتهم الإسلامية، إلا أن هذا التعليم الاستعماري واجهه تحد أكبر من جانب مسلمي المنطقة وفشل فشلا ذريعا في تحقيق كل الأهداف التي سطرها، فالبار صارو (Albert Sarraut) وزير المستعمرات لما قال: "إن تثقيف الأهالي هو ضمان لواجبنا، لكن هذا الواجب يتناسب بصفة متزايدة مع فوائدنا

[1] أحمد الأزمي، الطريقة التجانية في المغرب والسودان الغربي خلال القرن 19م، ج1، المغرب، دار فضالة– المحمدية، 2000 م ، ص 116.

الإدارية والعسكرية والسياسية الأكثر بديهية"،[1] كان يهدف إلى هذا الاستغلال وهذا الإدماج باستغلال التعليم على أوسع نطاق، دون أن يضع في حسبانه خصوصيات مجتمعات غرب إفريقيا الثقافية والاجتماعية.

فسكان غرب إفريقيا قاوموا هذا التعليم بمضاعفة عدد المدارس الإسلامية، وبالحركات الدعوية، وبالإقبال الكثيف على الثقافة الإسلامية رغم المضايقات الشديدة من قبل الاستعمار، وهو ما سنراه في العديد من المناطق التي نتخذها نماذج لهذا الرفض كموريتانيا والسنغال.

1- موريتانيا:

اعتبر الموريتانيون التعليم الفرنسي أداة تربوية عدائية، تمس بالقيم الروحية وبأصالة المجتمع الموريتاني، وأظهروا تمسكهم الشديد بالتعليم الإسلامي، ومنع أغلبهم أطفالهم من الإقبال على المدارس الفرنسية التي اعتبروها وسيلة ممهدة للتنصير، وكانوا يرون قبول التعليم الفرنسي قبولا لثقافة الفرنسيين ومعتقداتهم، وذلك ما يتناقض مع مبادئ الدين الإسلامي[2]، وهذا حال كل مسلم غيور على دينه، كما اعتبروا المدرسة الفرنسية مكانا للضياع والإنحراف الديني،[3] مما دفعهم إلى الإبتعاد عنها، حتى أن العديد من المدارس الاستعمارية بقيت مهجورة ولم يلتحق بها أحد.

هذا الرفض للإلتحاق بالمدارس الفرنسية والتخوف منها أقلق السلطات الاستعمارية كثيرا، حيث لا يعقل أن تبقى مؤسسات أنفقت في سبيل إنجازها مبالغ مالية ضخمة، وفوق ذلك خطط لها أن تشارك بمجهودها التربوي بقية القطاعات لخدمة الأهداف الإستعمارية، ويكون في النهاية حالها الفشل. وهذا القلق جسده حاكم دائرة أدرار في موريتانيا لما بعث بتقريره إلى الوالي والذي جاء فيه: "أكرر أنه من غير المجدي ألا نفعل شيئا، بانتظار حسن إرادة

[1] Albert Sarraut, la mise en valeur des colonies Françaises, Paris, Payot, 1923. P95.

[2] محمد الراضي ولد صدفن، الاستعمار الفرنسي وآثاره في موريتانيا، عصور الجديدة، العدد 12/11، 2014/2013، جامعة وهران، ص278.

[3] محمد الراضي ولد صدفن، نفسه، ص278.

الأهالي في إرسال أبنائها طواعية إلى المدرسة، فمنذ عشرين سنة، لم يكن بمقدور أي من حكام الدائرة تحقيق أي شيء في هذا المجال"[1].

وعلى أساس هذا الفشل الذي منيت به المدارس الفرنسية، تقرر غلق عدة مدارس، خاصة في المناطق التي يقطنها سكان موريتانيا البيض والذين كان يطلق عليهم (البيضان).وهؤلاء هم الذين انتشرت بينهم أكثر التعاليم التجانية، وأصبحت زواياهم مقصد الكثير من الناس ينهلون منها شتى العلوم اللغوية والدينية، مما أبعدهم عن المدارس الفرنسية وخاصة في الزوايا التجانية الحافظية التي كانت امتدادا لحركة الحاج مالك سي المتوفي في السنغال عام 1922م، هذه التجانية الحافظية التي كان من أبرز رموزها الشيخ أباه ولد عبد الله، الذي اتبع بدوره إستراتيجية المهادنة حتى يتمكن من نشر نفوذ التجانية بين الناس وخاصة عن طريق التعليم، وقد أثمرت جهوده نجاحا كبيرا في هذا المجال، مقارنة بالفرع التجاني الحموي الذي اتبع إستراتيجية القوة والعنف عن طريق الشيخ الشريف أحمد حماه الله، والذي جاهر الاستعمار بمناهضته للمدارس وحث الناس على مقاطعتها، وبدأها بنفسه بمنع أبنائه من الالتحاق بها، مما جعل الاستعمار يشدد عليه الرقابة إلى أن تم نفيه خارج البلاد.

والمسلمون الموريتانيون نفروا منها وصمموا على عدم إرسال أبنائهم إليها، وبالتالي كثرت نفقاتها دون فائدة تذكر، وحتى مدارس الأعيان التي أدرجت السلطات الاستعمارية ضمن مناهجها التعليم الإسلامي، ولو في نطاق محدود، لجلب أبنائهم إليها، ظلت شاغرة ولم يلتحق بها إلا القليل، خوفا على ديانتهم الإسلامية[2] لأنهم كانوا يدركون جيدا أن سهام هذه المدارس موجهة أساسا إلى الإسلام والتعليم العربي.

لم يستثن الإستعمار، وهو يروج لأفكاره ويعمل على جر أفراد المجتمع الموريتاني عن هويته ومعتقداته، المرأة المسلمة من خططه ضمن المدرسة حيث خصص عدة مدارس للفتيات، عله يتسرب إلى المجتمع من خلال المرأة لأنه يدرك أن التأثير على المرأة معناه التأثير على الأسرة ، و من خلال الأسرة المجتمع برمته، و لكن الذي حدث أن المرأة بدورها وقفت مدافعة عن أبنائها، ممتنعة ومعارضة لانخراطهم في هذه المدارس. وظل

---

[1] محمد الراضي ولد صدفن، م س ، ص278.
[2] محمد الراضي ولد صدفن، نفسه، ص279.

تعليم البنات بدون جدوى، حتى أن بعض الموريتانيين حرموا الالتحاق بهذه المدارس بإصدار فتاوى في هذه الشأن، مفادها أن الطفل يحتاج منا تثبيته على الفطرة التي خلق عليها، ومادام قد خلق في وسط مسلم فيجب على والديه تعليمه العقيدة الإسلامية الصحيحة حتى يشب عليها ويتحصن من كل التأثيرات التي قد تبعده عن دينه، وربطوا منع الإلتحاق بالمدارس الفرنسية بهذا التثبيت على الفطرة.

وهكذا بقي المجتمع الموريتاني، رغم الضغوطات، ورغم كل الدسائس الإستعمارية للقضاء على هويته وعلى شخصيته الإسلامية، محافظا على عقيدته، متمسكا بتعليمه الإسلامي، صامدا أمام كل غزو فكري، بل ومساهما بماله في إنشاء مراكز إسلامية عرقلت كل الجهود الاستعمارية للنيل من هذا المجتمع المسلم.

2- السنغال:

السنغال قبل الغزو الاستعماري، كانت أرضا خصبة للإسلام، ومع الإسلام انتشرت اللغة العربية والكتابة، وأصبح معظم أفراد المجتمع متعلمين، حتى أن البارون "روجي" (ROGER) الذي كان قائدا وحاكما على السنغال وملحقاتها بين 1821م و1827م والذي كان شاهدا على البدايات الصعبة للمدرسة الفرنسية بالمنطقة، أكد في تقرير له سنة 1827م أنه في ضاحية والو* (Waalo) وجد السكان يعرفون العربية قراءة وكتابة، حتى في المناطق الريفية، أحسن مما يعرف عندهم الفرنسيون الفرنسية كتابة وقراءة رغم أنها لغتهم الأصلية.[1] وذلك يؤكد مدى إلتفاف السنغاليين حول الإسلام والاهتمام باللغة العربية باعتبارها لغة القرآن، فكيف لهذا الشعب الذي تربى على الإسلام قرونا أن تؤثر عليه مدرسة وتبعده عن عقيدته في فترة قصيرة ! ذلك مالا يمكن تصوره إلا لدى ضعاف العقيدة والذين يمكنهم التحول عن ديانتهم وهويتهم لأسباب مادية بسيطة قد يضمنها لهم الاستعمار.

لقد برز في السنغال علماء كبار ذاع صيتهم في كامل إفريقيا الغربية، وتمكنوا من نشر التعاليم التجانية في مناطق واسعة منها، ووقفوا في وجه كل الحملات الاستعمارية الإدماجية والتنصرية، كان من أبرز هؤلاء العلماء: الحاج عمر بن سعيد الفوتي، الحاج

---

* ضاحية والو تقع في وسط دلتا نهر السنغال في الشمال الغربي.

[1] Henri sène, op.cit, P135.

مالك سي، عبد الله نياس، إبراهيم نياس، حفيد الحاج عمر: سعيد النور بن النور التل وغيرهم من تبحروا في شتى العلوم، وأقاموا المدارس الإسلامية للذود عن الإسلام ونشر الثقافة الإسلامية في مناطق زرع فيها الاستعمار مدارسه لتكون الهجوم الأول على الإسلام وأهله في إفريقيا الغربية.

2-1- الشيخ عمر بن سعيد الفوتي السنغالي ودوره التربوي:

يعتبر الشيخ عمر بن سعيد الفوتي رائد التجانية الأول، فهو مجاهد كبير وداعية شهير، ولد عام 1796م بحلوار قرب بودور بفوتاتورو شمال السنغال، نشأ وترعرع في كنف والديه، حفظ القرآن الكريم على يد والده الشيخ سعيد بن عثمان وكان عمره آنذاك 12 سنة، هو الابن الرابع لوالده، كان أبوه عالما، متصوفا، وأمه سخنة أدمة من عائلة مشهورة بالعلم والتقوى[1]، وقد برع الشيخ عمر في العلوم الشرعية واللغوية حتى أصبح داعية للإسلام، ولما التقى ببعض المقدمين التجانيين تأثر بهم، وأخذ عنهم الطريقة، ولما حج التقى بخليفة الشيخ أحمد التجاني في الحرمين: محمد الغالي سنة 1828م وصاحبه لمدة ثلاث سنوات، ثم رجع إلى إفريقيا، وبدأ دعوته الدينية فالتف حوله عدد كبير من السكان وبدأ جهاده ضد الوثنيين ثم ضد الاستعمار، وجهاده هذا سنخصص له حيزا هاما ضمن الفصل المقبل الخاص بالمقاومة.

فبالإضافة إلى جهاده، كان الشيخ عمر بن سعيد شديد الاهتمام بالعلم، ولما غزا الفرنسيون أراضي السنغال وأخذوا يتوسعون في المنطقة، ولاحظ كيف اعتنى الاستعمار بتشييد المدارس لتكون أداة للغزو رفقة الإحتلال العسكري، من خلال السيطرة على الفكر وتسهيل إخضاعه بعد إفراغه من عقيدته، فتح بدوره مدارس للتعليم، تخرج منها أئمة وعلماء[2].

وكان من بين تلاميذه: الشيخ المختار بن وديعة الله، ومحمد بن عثمان مؤلف كتاب (حسم الجدال). ووعيا منه أيضا بما للكتاب من أهمية في نشر الثقافة الإسلامية أمام المد الثقافي الغربي، اهتم الشيخ عمر بالتأليف، وقد ترك لنا مؤلفات عديدة من أهمها:

[1] Fernand Dumont, L’anti-Sultan ou Al-Hajj Omar Tal du Fouta combattant de la foi (1794-1864) Nouvelles éditions Africaines- Dakar Abidjan, 1979, P07.

[2] عبد الباقي مفتاح، أضواء، م س، ص247.

- سيوف السعيد في أهل الله كالتجاني على رقبة الشقي الطريد الجاني، مطبوع على الحجر، رقم 1/2135 الخزانة العامة بالرباط- عدد أوراقه 51، بدون تاريخ، عدد فصوله: 11.

- رماح حزب الرحيم على نحور حزب الرجيم: منشور في جزأين، على هامش كتاب جواهر المعاني، وله أهمية كبرى في نشر الطريقة التجانية.

- إفادة الطائفة الإنسية والجنية: مخطوط صغير الحجم، جاء جوابا على سؤال ورد للشيخ عمر بن سعيد،هدفه جلب أكبر عدد من السكان إلى الطريقة التجانية.

- المقاصد السنية لكل موفق من الدعاة إلى الله من الراعي و الرعية: به 55 ورقة، رتبه على سبع مقاصد لابد للداعية مراعاتها، مما يبين حرصه على أهمية اختيار الدعاة ممن تتوفر فيهم الشروط الضرورية لنشر تعاليم الطريقة وبالتالي نشر الإسلام.[1]

كما وردت له تآليف أخرى منها: سفينة السعادة، أرجوزة في العقائد، أجوبة المسائل، الفتاوى في الفقه، كتاب التقيد، عاديات المذنبين في الدعوة والإصلاح والإرشاد- النصر المبين، كتاب ما وقع في جملة الحوادث، رسائل إلى بعض الحكام والعلماء، كما ترك عدة قصائد شعرية من أهمها: تذكرة الغافلين في قبح إختلاف المؤمنين، وعظ أهل فوت، وقصيدة تذكرة المسترشدين التي كتبها في روضة مسجد النبي صلى الله عليه وسلم.[2] وهو ما يدل على أن الشيخ عمر بن سعيد ليس مجاهدا بسلاحه فحسب بل رجلا مصلحا،مجاهدا بتعلمه وبتعليمه في سبيل يقظة أهله ومسلمي بقية مناطق غرب إفريقيا من مخاطر الاستعمار.

وهو الهدف الذي ركز عليه محمد عبد اللطيف في وصفه للشيخ عمر بن سعيد، والذي اعتبره نضالا هاما ومريرا في نفس الوقت، لا يختلف في أهميته عن العمل العسكري في سبيل إعادة الإسلام إلى نقاوته الأولى، حيث قال:

---

[1] أحمد الأزمي، م س، ص194.

[2] عبد الباقي مفتاح، م س، ص248.

"كان هدفه (الحاج عمر) تنقية الإسلام في السودان الغربي من كل ما علق به من شوائب، ووضع حد للوثنية التي بدأت تنتشر من جديد، وقام ببناء العشرات من المساجد والمدارس القرآنية في كل أرجاء المنطقة التي امتدت إليها حركته الإصلاحية"[1].

ونفس الرأي وجدناه عند المؤرخ السنغالي "إبادر تيام" الذي يرى أن الحاج عمر كان وراء إيقاظ الهمم من خلال خلق وعي بالمقاومة، واعتبار مقاومة الاستعمار وجها من وجوه الجهاد في سبيل العقيدة.[2]

وبقي الحاج عمر يناضل على جبهتين في سبيل عقيدته إلى أن توفي سنة 1864م، وواصل بعده هذا النشاط الإصلاحي المبني على الوعظ والإرشاد والتدريس مجموعة أخرى من العلماء الذين سبق التمهيد بهم في هذا المبحث.

2-2- الشيخ الحاج مالك سي ودوره في التعليم والتربية الروحية:

ولد لحاج مالك سي سنة 1855م، بدأ دراسة القرآن وعمره 10 سنوات في مسقط رأسه على يد الشيخ "نقاني كا" (NGAGNE KA)، وختمه في سن 18 سنة على يد الشيخ "أبو بيتاي"، في الفوتا، درس بعده الفقه والتفسير على يد الشيخ "مورسين كان" ثم على يد "سان موسي ندياي" ثم على يد "مودوباتشو" قرب لوغا. أنهى مرحلته التعليمية الأولى في سن 25 سنة، درس الأدب والنحو على يد الشيخ الحاج أحمدو ندياي لمدة عامين، كما تعلم على يد عدة علماء الفقه من جديد، وتعمق فيه من أمثال: أحمدو واد في صاكال، وماسيلا ماني في كاجور سنة 1885م.[3]

وهذا المشوار الطويل الذي حظي به الشيخ مالك سي يلخص خصوصيات النظام التربوي الإسلامي الذي كان سائدا في السنغال وبقية مناطق غرب إفريقيا.

بنيت نظرة الشيخ مالك سي للاستعمار على تفادي الصدام معه واعتماد نهج الإصلاح، فأسس المدارس الإسلامية وساهم في توعية الجماهير ليتمكن المسلمون في السنغال وبقية مناطق غرب إفريقيا من التصدي للمخططات الفرنسية، وكان يرى أن جهاد

---

[1] علي محمد عبد اللطيف، إفريقيا العربية، نشر جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، بنغازي- ليبيا 1998م، ص ص 157-158.

[2] إبادر تيام، الحاج عمر الفوتي تال و الاستعمار أو شهيد المقاومة،مجلة المغرب الإسلامي، العدد 04، 2003، ص13.

[3] Henri sène, Op.cit, p147.

الحاج عمر بن سعيد جلب عداء فرنسا للتجانية، وأن الاستمرار فيه لا يجلب إلا الدمار للمسلمين، لذلك وجبت تهدئة الأمور، والتركيز على النشاط التعليمي والتوعوي في ظل مهادنة الاستعمار، والحاج مالك سي كان- حسب مارتي- أكثر ثقافة وعلما في المستعمرة وفتح زاوية يدرس بها 150 طالبا ينحدرون من مناطق مختلفة من السنغال، وكانوا يدرسون بالزاوية : القرآن الكريم، الفقه، الأدب، النحو والتفسير. وزاويته هذه كانت مهتمة بالتكوين حتى أن المئات من معلمي القرآن تخرجوا منها، وأصبح لهم بدورهم نصيبهم في مجال التدريس، وبالمقابل قام الشيخ مالك سي بإنشاء عدة مراكز ثقافية هامة في كل من تيواوين، طوبا، ويدي، نقيقيلوني، غانغال، لوقا، كوكي، بير، دار الخير، وهي المراكز التي كان لها نشاط هام في نشر الثقافة الإسلامية[1].

هذا الانتشار الواسع شمل مناطق أخرى خارج السنغال كما هو الحال في ترارزا بموريتانيا، وكان لمالك سي، زيادة على هذا النشاط الهام في زاويته وبقية المراكز التي أنشأها، دور في التأليف، وكان يكتب بلغة عربية فصيحة، وكانت محاربة الجهل ومواجهة الإستعمار ركنين أساسيين في إستراتيجية الشيخ مالك سي وأعطى العلم مكانة رفيعه، وكان يرى أن التصوف بدون تعلم لا يصح، وأفضل ما ركز عليه العلوم الشرعية التي اعتبرها واجبة، ولذلك كثرت مراكزه- كما رأينا سابقا- وكانت مراكز علمية وثقافية وأماكن عبادة في نفس الوقت.[2] وقد أبلى الشيخ مالك سي بلاء حسنا في هذه المواجهة الثقافية و خاصة في مجال التأليف إلى أن توفي بالسنغال سنة 1922م. ولقيمتها العلمية والثقافية، طبع له في تونس حوالي 26 مؤلفا كما طبعت له كتب أخرى في بيروت وفاس، سواء لدى سفره إلى بلدان شمال إفريقيا أو إلى بلدان المشرق العربي أو عن طريق التجار العرب الذين كانوا يمارسون تجارة الكتب في المستعمرة.[3]

3-2- الشيخ عبد الله نياس (1840م-1922م) و دوره التربوي:

من مواليد مدينة "إينياسين"بناحية بلغي في جلف سنة 1840م، واسمه الكامل هو، عبد الله بن محمد بن مدمب بن بكر بن محمد الأمين بن ساتيورو بن صمب بن الرضى، وكثير من

[1] Henri sène, opcit, p217.

[2] محمد عثمان صالح، دور الطرق الصوفية في نشر الاسلام في افريقيا، م،س، ص479.

[3] Henri sène, opcit, P172.

النسابين رفعوا نسب الرضى إلى عقبة بن نافع، وكان عبد الله من كبار علماء التجانية، عالما متضلعا، ومجاهدا كبيرا، حفظ القرآن على والده وأخذ علوم الشريعة عن مختار إنجاي وآخرين، وأخذ الطريقة التجانية من خاله إبراهيم تيام كلي، ثم اتجه إلى مدينة كولخ واستقر في منطقة "طيبة"، وتتلمذ عليه عدد كبير من علماء القرن العشرين وفي مقدمتهم أبناؤه: محمد الخليفة نياس، وإبراهيم نياس، ومحمد زينب نياس، عين قاضيا شرعيا لدى البطل السنغالي تمسير مابا، وعينه أحمد سكيرج أحد كبار علماء التجانية، نائبا وممثلا له في السنغال.[1]

وقد حارب الشيخ عبد الله أولا الفرنسيين بالتعاون مع أحد المناضلين التجانيين في جنوب السنغال: مابادياخو، ودعم روابطه بشيوخ التجانية بحجه عام 1887م ومروره بفاس التي جدد فيها انخراطه في الطريقة ، كما قوى روابطه بزاوية عين ماضي، وعاد إلى فاس عام 1903م أين التقى بالشيخ سكيرج، وربط علاقات قوية مع الحاج مالك سي، وكان مطاردا من قبل الفرنسيين بسبب عدائه الشديد للإستعمار ومواقفه المتصلبة منه.[2]

وكان عبد الله نياس معلما بارزا، برع في تدريس معظم العلوم الدينية، في الوقت الذي تكالب فيه المنصرون على تنصير المجتمع السنغالي المسلم، وانتشرت المدارس الفرنسية تنشر الأفكار الغربية وتحارب العقيدة الإسلامية، وقد عمل كل جهده لتكوين أفراد متعلمين متحصنين ضد الغزو الفكري الأوروبي، عرف بمقاطعته للمدارس الفرنسية وكان أول واحد يرفض انضمام أبنائه لهذه المدارس، وارتبطت شخصيته بمقاومة ثقافية صلبة بعد أن ترك السلاح ضد الاستعمار ملازما لتدريس القرآن الكريم، ومؤسسا للمدارس، ونشر العلم وتأليف الكتب، والدعوة إلى الله، ومقاطعة ثقافة المستعمر، وقد ترك لنا عدة مؤلفات أهمها[3]:- الأجوبة المفخمة في الصدقة للميت.

- الدلائل المحكمة.
- مطهر القلوب ومبين الهداية للخطوب من العطية.

---

[1] معجم البابطين لشعراء العربية في القرنين 19 و20، عبد الله نياس (1263هـ-1341هـ) (1922-1846م).

[2] Jean louis Triaud, L'Afrique occidentale et centrale, op.cit, p423.

[3] سيس جورتي، السنغال والثقافة الإسلامية، دار شمس للمعرفة والطباعة والنشر والتوزيع ، دار السلام، تنزانيا-1989م ، ص103.

- تنبيه الناس على شقاوة ناقضي بيعة أبي العباس.

وهذا النضال جلب للشيخ عبد الله نياس الكثير من المضايقات من قبل الاستعمار، وظل مطاردا إلى أن تمكن الشيخ مالك سي من التدخل لصالحه لدى سلطات الاستعمار، وسمح له بالعودة إلى السنغال سنة 1910م.[1]وتوفي في كولخ سنة 1922م.

2-4- الشيخ إبراهيم نياس والمقاومة الثقافية :

ولد الشيخ إبراهيم نياس في "طيبة انياسين" سنة 1318هـ/ 1900م، وهي قرية بإقليم سين سالوم، قريبة من كولخ في السنغال، بحوالي 58 كيلومترا. كان اسم قريته "ته، به" باللغة الولوفية ومعناها (من سئم ترك) وهو الذي بدله إلى طيبة اقتداء بطيبة الرسول صلى الله عليه وسلم، نشأ في بيت علم ودين وزهد- كما لاحظنا في تعريف والده عبد الله- فأسرته توارثت الإهتمام بالقرآن الكريم أبا عن جد، والدعوة إلى الله، والجهاد في سبيل نشر العلم، ولذلك لا نستغرب إن رأينا الشيخ إبراهيم نياس من فطاحل العلماء، وشيخا للإسلام.

درس الشيخ إبراهيم نياس عن والده عبد الله القرآن الكريم وحفظه قبل العاشرة من عمره،[2] كما لازمه في دراسة بقية العلوم حتى أصبح من مشاهير العلماء في عصره. تصدر للإفتاء بعد وفاة والده، ومارس التعليم وكان واسع المعرفة، دقيق الفهم، قوي الذاكرة، جيد الحفظ، وحصوله على إجازات علمية من عدة جهات دليل على مستواه العلمي الرفيع، مثل إجازة الشيخ أحمد سكيرج، والشيخ محمد عبد الحي بن أبي المكارم عبد الكبير الحسيني الحسني الإدريسي الكتاني، وإجازته من شيخ الأزهر عبد الله بن الطيب وغيرهم كثيرون.

2-4-1- نشاط الشيخ إبراهيم نياس في مجال التعليم زمن الاستعمار:

الشيخ إبراهيم نياس كان بدوره من مهادني الاستعمار الفرنسي، لأنه كان يرى أن عداء السلطات الاستعمارية لن يجلب للإسلام إلا المضايقات، ويعرقل إنتشاره، ويدمر مؤسساته، ولذلك بنيت إستراتيجيته على العمل في هدوء مركزا على التعليم والدعوة إلى الله، وتوحيد المسلمين، وعلى رأسهم مريدي الطريقة التجانية في معظم مناطق غرب إفريقيا كالسنغال

[1] Jean Louis Triaud et David Robinson, La Tidjania, op.cit, p 12.

[2] عيسى صغير حسن ، م س، ص08.

وموريتانيا، والنيجر ونيجيريا، وحثهم على التمسك بالعقيدة الإسلامية، والتعاون فيما بينهم حتى يفوت على الاستعمار فرصة تحقيق مخططاته الرامية إلى التفرقة والتنصير والقضاء على الشخصية الإسلامية لشعوب المنطقة.

لقد عني الشيخ إبراهيم نياس كثيرا بالتعليم وفي مقدمته تدريس القرآن الكريم، فقد أنشأ مدارس قرآنية كثيرة لتدريسه وتحفيظه، وكان نظامها الدراسي موزعا على فترتين:

- صباحية بين السادسة والواحدة ظهرا للمتقدمين في الدراسة، وبين الثامنة ومنتصف النهار للصغار المبتدئين.

- مسائية للكبار المتقدمين في الدراسة: من الثالثة إلى الخامسة: إسماع ما تم حفظه من القرآن الكريم، ثم قراءة دروس جديدة بعد المغرب وإلى غاية العاشرة ليلا.

وكان الشيخ إبراهيم يقوم بنفسه بالتدريس في البداية، يعلم القرآن الكريم والعلوم الشرعية ولكن فيما بعد، ولكثرة مهامه أسند التعليم إلى علماء بارزين كالسيد الرباني الموريتاني وأحمد توري السنغالي، والحاج أست نياس، دون إهمال مراقبة المدارس بنفسه[1]، وحتى يغرس العقيدة الإسلامية في نفوس المسلمين ويوسع انتشار الإسلام، كان ينظم حفلا كل سنة في زاويته بكولخ يخصصه لختم القرآن، ويوجه الدعوة إلى حفظته في كل مناطق غرب إفريقيا ويتم ختم القرآن في ثلاثة أيام بما يزيد على 1000 ختمة، ثم ينهي الحفل بمحاضرة حول القرآن الكريم مما يشجع الناس على الإجتهاد في حفظه، ونشاطه هذا في مجال التربية والتعليم مكنه من مد التجانية إلى غاية شمال نيجيريا وغانا بعد السنغال.[2]

كما أنشأ الشيخ إبراهيم نياس عدة مجالس تعليمية يدرس بها كبار خريجي مدارسه، من مستوياتها:

- **المستوى الأول:** يخص التلاميذ الذين أنهوا دراسة القرآن الكريم، ويرغبون في دراسة مبادئ الشريعة الإسلامية واللغة العربية، وله فرعان: فرع خاص بالمواد الشرعية (توحيد، فقه...) وفرع خاص بالمواد اللغوية (نحو، صرف، أدب، نصوص).

- **المستوى الثاني:** وهو التعليم العالي: يتولى فيه الشيخ تدريس الطلبة، تارة أمام بيته فوق المنصة، وتارة في غرفته، وتارة في المجلس، أي أن مجلس المستوى الثاني ينتقل حيث

---

[1] عيسى صغير حسن ، م س، ص147.

[2] Alexander Knysh, op.cit, p255.

يوجد الشيخ، تنظم فيه الدراسة في شكل حلقات بعد صلاة العصر في غير شهر رمضان، أما في هذا الشهر فتعقد بعد صلاة الظهر، تدرس فيه الكتب الشرعية المتعلقة بتفسير معاني القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، والسيرة النبوية، والفقه المالكي، والتصوف الإسلامي وخاصة ما تعلق بكتب الطريقة التجانية كمنية المريد، لابن بابا العلوي الموريتاني، وجواهر المعاني للشيخ علي حرازم برادة، كما تدرس في هذا المستوى أيضا كتب النحو والصرف، والأدب والنصوص، والبلاغة، والمنطق[1].

2-4-2- طريقة التدريس عند الشيخ إبراهيم نياس:

- في تفسير القرآن الكريم: تعتمد على تفسير القرآن الكريم بالقرآن والحديث، يراعي الوضوح والدقة في التفسير وعدم التكرار.

- في باقي المواد: حتى ولو استعمل طريقة التلقين في باقي المواد كالقصائد الشعرية أو النصوص الأدبية، فإنه كان يتوقف عند كل شطر أو عبارة، ويحللها تحليلا دقيقا ويبرز الخصائص الفنية لهذه القصائد أو النصوص، كما يقف على أسرارها، دون أن يغفل كل ما يتعلق بصاحب القصيدة أو النص، وذلك ما كان يؤثر كثيرا على الحاضرين ويشد انتباه تلاميذه، كما اتسمت دروسه بروح الفكاهة، مع النقد البناء.

وكلما تخرج على يديه أحد تلاميذه أعطاه إجازة في التدريس، ولم يكن يفرق في تعليمه بين الذكور والإناث، حيث اعتنى أيضا بتعليم المرأة وخاصة القرآن الكريم لأنه كان يدرك تماما أن المرأة إن سلمت من دسائس الاستعمار وتأثيراته، سلم المجتمع كله.[2]

3-4-2- آثار الشيخ إبراهيم نياس:[3]

تميز الشيخ إبراهيم نياس بغزارة تآليفه في جميع الفنون، مما أغلق الأبواب أمام الاستعمار في جلب الشباب إلى مدارسه، حيث إلتف الناس حوله ينهلون من معارفه، سواء التي يلقيها على مستمعيه في دروسه ومجالسه، أو من مؤلفاته التي أثرى بها زاويته في كولخ وطبعت في كل مكان، وسنختصر هنا هذه المؤلفات لأنها كثيرة جدا ومنها:

- في أدب الرحلات: - تذكرة في كانوا، د.ت.

---

[1] عيسى صغير حسن ، م س، ص ص 152-160.

[2] عيسى صغير حسن ،نفسه، ص160.

[3] نفسه، ص ص 26-32.

- الرحلة الحجازية الأولى، 1936م.

- رحلة كوماشي (غانا)، د.ت

- رحلتي إلى موريتانيا، 1952م.

- نفحات الملك الغني في السياحة في أرض بمكوو غيني، د.ت.

- نيل المغاز بالعودة إلى أرض الحجاز 1951م.

في التصوف الإسلامي:أ في النثر:- إفادة المريد في الإجابة عن أسئلة محمد بن محمد العيد.

- التقاط اللؤلؤ المكنون في بيان السر المصون.

- الأنوار السطع.

- البيان والتبيين عن التجانية والتجانيين.

- تحقيق المعاني في سنية الورد التجاني.

- تنبيه الأذكياء في كون الشيخ أحمد التجاني خاتم الأولياء.

- السر الأكبر والنور الأبهر.

- كاشف الإلباس عن فيضة الختم أبي العباس.

ب. النظم: - روح الأدب- روح الحب في مدح القطب.

- طيب الأنفاس في مدح الختم أبي العباس.

- النور الرباني في مدح السيد أحمد التجاني.

في السيرة والمدائح النبوية: - أكسير السعادات في مدح سيد السادات.

- أوثق العرى في الاستغاثة بمدح سيد الورى.

- تيسير الوصول إلى حضرة الرسول.

- سلوة الشجون في مدح النبي المأمون.

- شفاء الأسقام في مدح سيد الأنام... -

في الفقه والفكر الإسلامي: ألف حوالي 15 كتابا، نذكر بعضها للإفادة ومنها:

- بحث في ثبوت رؤية الهلال.

- تبصرة الأنام في أن العلم هو الإمام.

- تعدد الزوجات في الشريعة الإسلامية.

- رفع الملام عمن رفع وقبض اقتداء بسيد الأنام.

- نجوم الهدى في كون نبينا أفضل من دعا إلى الله...

في المراسلات: - إفريقيا للإفريقيين.

- جواهر الرسائل.

- زيادة الجواهر.

- الضاد لخالدة.

- العقد النفيس.

- الدعوة الإسلامية اليوم...

في النحو والصرف: - تحفة الأطفال في حقائق الأفعال

وهكذا يظهر أن الشيخ إبراهيم نياس عالم متبحر في شتى العلوم، استغل سعة علمه وغيرته على الإسلام والمسلمين لمحاربة الاستعمار ودسائسه، بالقلم وبالعلم والتوعية والتوجيه وأفسد على الاستعمار كل مخططاته، ولما عجز هذا الأخير عن إيقاف نشاطه، ولم يجد أي مبرر لذلك، اكتفى بإفساد سمعته بالافتراءات والتشويهات عسا ذلك يبعد عنه من التفوا حوله، ومن يتبعون نهجه في كل مناطق غرب إفريقيا، وبعد نشاط حثيث ونضال مرير في سبيل الحفاظ على العقيدة الإسلامية وتوحيد المسلمين وإصلاح شؤونهم، توفي الشيخ إبراهيم نياس سنة 1975م بكولخ بالسنغال.

5-2- الشيخ سعيد النور التال (سيدو نورو التال) و دوره التربوي:

ولد حوالي 1873م، وهو حفيد الشيخ عمر بن سعيد الفوتي، تبحر بدوره في شتى العلوم الشرعية والأدبية واللغوية، وأتقن عدة لغات، ولازم صحبة الشيخ مالك سي مدة عشرين سنة، وتزوج إحدى بناته، وأخذ عنه الطريقة التجانية، وأجازه فيها، وخلفه بعد وفاته سنة 1922م. قام الشيخ سعيد النور بخدمات جليلة كالدعوة إلى الإسلام، ومقاومة كل ما كان يروج له الاستعمار، واشتهر بدوره بغزارة وكثرة تآليفه التي نذكر البعض منها وهي:

- بغية الملتمس وجذوة المقتبس.

- سلم الرقاة في شرح الورقات.

- نصيحة الإخوان في إمامة أهل آخر الزمان.

توفي الشيخ سعيد النور التل سنة 1980م بعد أن أنعم الله على بلدان غرب إفريقيا بالاستقلال الذي ناضل من أجله كثيرا رفقة بقية الشيوخ التجانيين.

وهكذا، وإن تباينت مواقف التجانيين من قضايا أخرى كالتجنيد الإجباري أو المقاومة، فإن جهودهم كانت واحدة في مجال التعليم الذي أولوه العناية الفائقة، بعد أن اتخذ الاستعمار المدرسة كسبيل للتسرب إلى مجتمعات غرب إفريقيا أو شمالها، حيث لم نجد أي اختلاف بين الشطرين في رؤيتهما للتعليم كأساس للحفاظ على العقيدة الإسلامية، وتحصين الشعوب الإسلامية في المنطقة ضد كل المحاولات الاستعمارية الرامية إلى محاربة الإسلام في داره وتنصير مجتمعات المنطقة، سعيا لمحو هذه الكيانات الإسلامية وضم أراضيها إلى الإمبراطوريات الاستعمارية واستبعاد شعوبها.

الفصل الرابع

قضية المقاومة في شمال و غرب افريقيا

و موقف الطريقة التجانية منها

- ✓ السيطرة الاستعمارية على بلدان شمال و غرب إفريقيا

1- السيطرة الاستعمارية على بلدان شمال إفريقيا

أ- الجزائر

ب- تونس

ت- المغرب الأقصى

2- التنافس الاستعماري على غرب إفريقيا

- ✓ الطريقة التجانية و إشكالية المقاومة في شمال و غرب إفريقيا

- شمال إفريقيا:

1- الجزائر

2- تونس

3- المغرب الأقصى

- غرب افريقيا:

1- المقاومة المسلحة

2- المقاومة السلمية

قضية المقاومة :هي قضية أخرى من قضايا الاستعمار ،فرضت وجودها على البعض ممن يؤمنون بحتمية الجهاد ضد الاستعمار الدخيل الذي يحارب المسلمين، و يحاول طمس هويتهم و عقيدتهم، و سلبهم أراضيهم و استعبادهم، و استبعدها البعض الآخر ممن غلبهم اليأس، و انحطت معنوياتهم، أو فضلوا المصالح الخاصة و الولاء للاستعمار. و كان من نتيجة الاختلاف في وجهات النظر و المواقف تفكك وحدة الشعوب الخاضعة للاستعمار في المنطقة وضعفها، و تمكن هذا الاستعمار من إطالة أمد احتلاله لهذه البلدان. و حتى تتضح المواقف التجانية كان علينا المرور على كيفية خضوع هذه البلدان للاستعمار.

أولا : السيطرة الاستعمارية على بلدان شمال و غرب افريقيا.

أ- السيطرة الاستعمارية على بلدان شمال افريقيا:

1- الجزائر:

1-1 الاحتلال الفرنسي للجزائر:

لم يكن التفكير الفرنسي في غزو الجزائر واحتلالها وليد القرن 19م، ففكرة الاحتلال قديمة ترسبت في أذهان الفرنسيين منذ عهد لويس الرابع عشر ملك فرنسا (1638م-1715م) الذي كان يهدد الجزائر باستمرار، وخاصة بعد تعاظم حركة الجهاد البحري التي أزعجت أوربا كثيرا، وأرسلت حملات عسكرية عديدة (لتأديب) دايات الجزائر و منها حملة 1664م على مدينتي جيجل و الجزائر ، و حملتي 1682م و 1683م على الجزائر و شرشال. نابليون بونابرت(1769م-1821م) كان بدوره يسعى لاحتلال الجزائر، و لكن ظروف فرنسا الداخلية شغلته عن تنفيذ مشروع الاحتلال .فقد بعث جاسوسه بوتان [1] عام 1808م ووضع خطة الإنزال بسيدي فرج ،و جمع معلومات حول تحصينات مدينة الجزائر و مدفعيتها. بدأ مهمته في 24-05-1808م و أنهاها في 16-07-1808م، وكان قد اقترح إرسال حملة عسكرية لاحتلال الجزائر في مدة لا تتجاوز شهرا ، على أن تكون في شهر ماي ، و عدد أفرادها بين 35 ألف إلى 40 ألف عسكري.[2]

لقد وجهت فرنسا أنظارها للجزائر لعدة اعتبارات منها: -خصوبة أراضيها وغزارة إنتاجها من الحبوب – موقعها الاستراتيجي باعتبارها بوابة إفريقيا- كنوزها المالية بحي القصبة و

1- فانسان ايف بوتان: ولد في 1772م في لورو قرب نانت، تم اغتياله في أوت 1815م بسوريا، كان عقيدا في الجيش الفرنسي في سلاح الهندسة خلال عهد الإمبراطورية الأولى . قام بعدة عمليات في مجال الجوسسة في شمال إفريقيا، منها واحدة في الجزائر سنة 1808م، و مخططه هو الذي أعتمد في تنفيذ حملة 1830م لاحتلال الجزائر. ينظر:- André Micaleff,petite histoire de l'Algérie 1830-1962, comment formez-vous le futur ? édit. L'harmattan, paris 1998, p.29.

2-André Micaleff, ibid. p 29.

التي يمكنها أن تنهي تماما الضائقة المالية التي كانت تعاني منها فرنسا، وزاد تصميمها على احتلالها بعد أن تمكنت الأساطيل الأوربية من تحطيم الأسطول الجزائري في معركة نافارين بجنوب اليونان عام 1827م، حيث أصبحت السواحل الجزائرية مكشوفة وأدركت فرنسا أن الجزائر لم يعد بمقدورها الدفاع عن سيادتها، وحتى تكتسب فرنسا تأييد الدول المسيحية أعطت غزوها صبغة دينية واعتبرته دفاعا عن النصرانية ورغبة في نشر هذه الديانة في أوساط السكان، حيث جاء على لسان "دي كلارمون تونير" وزير حربية فرنسا مخاطبا ملكه: "لقد أرادت العناية الإلهية أن تتأثر حمية جلالتكم للقضاء على ألذ أعداء النصرانية، ولعله لم يكن من باب المصادفة أن يدعو لويس التقي لكم لتنتقموا للدين والإنسانية، وربما يسعدنا الحظ لننشر المدنية بين السكان الأصليين، وندخلهم في النصرانية" [1].

قد يكون ذلك من باب التمويه فقط، فكليرمون تونير نفسه بعث تقريرا إلى الملك شارل العاشر سنة 1827م يعدد فيه المنافع التي يعود بها احتلال الجزائر على فرنسا و منها: السهول الغنية و الخصبة – الغابات الكثيفة التي تستغل أخشابها في بناء السفن – الجبال الغنية بالملح و حدد كنوز الجزائر في القصبة ب 150 مليون فرنك ذهبا ، و اعتبر هذه الكنوز حلا لجميع مشاكل فرنسا المالية خاصة و أنها لم تتمكن من دفع مرتبات أعضاء وسام الشرف منذ سنة 1815م، كما ذكر الملك بعجز ميزانية الجيش التي وصلت إلى 192.823.000 فرنكا سنة 1827م، و أن مرتب الجندي انخفض من 38109 فرنكا عام 1820م إلى 37118 فرنكا عام 1827م، كما ارتفعت نفقات الألبسة ب 1539000 فرنكا و اعتبر الحملة على الجزائر ضرورية ، و أن مفاتيح الجزائر في يدهم-كما قال-[2]

و تأكيدا لما ورد في هذا التقرير ذكر المؤرخ "ميشو" عام 1849م صراحة أن غزو كنوز الجزائر هو العامل الرئيسي لحملة الجزائر عام 1830م، بعيدا عن الانتقام لضربة المروحة و قدر هذه الكنوز بأكثر من 350 مليون فرنك ، و أن "لويس فيليب"ملك فرنسا هو الذي استحوذ على أكبر حصة من هذه الأموال .[3] وهي الحقيقة التي توصل إليها فيما بعد مارسيل ايميريت سنة 1952م اثر دراسة قام بها، بعد الاطلاع على الوثائق الأرشيفية لسنتي 1830-1848م، و أكد أن المقتصد "فلاندين (Flandin) الذي كلف من قبل كلوزيل بالتحقيق ، أورد أن مبالغ مالية ضخمة وجهت إلى جهات مختلفة ، و لم تظهر في مصرف باريس و لما تكلم عنها في وسائل الإعلام ، حكم عليه بالسجن لمدة سنة مع غرامة مالية ب 3000 فرنك و تعويض عن الأضرار، و لما طفحت الحادثة مجددا سنة 1848م و عاد

---

[1] -اسماعيل أحمد ياغي ،م س ، ص 126.

[2] -Clermont Tonnerre, rapports au roi Charles X sur l'état de l'armée, rapport du 14/10/1827(48pages).

[3] -Louis Gabriel Michaud, biographie ou vie publique et privée de Louis –Philippe d'Orléans, ex roi des français, depuis sa naissance jusqu'a la fin de son règne-bureau de biographie universelle-Paris 1849, pp 341-343.

فلاندين للكلام عنها ، كلف "بياتري"(Piétri) بالتحقيق و كانت النتيجة أن الأموال وزعت بين عدة أطراف منها "لويس فيليب" بحوالي 80 مليون فرنك ،"دينييه" المقتصد الرئيسي وقت دخول الحملة القصبة: بضعة ملايين ، "فيرينو" الآمر بالصرف : نفس الشيء، و الجنرال تولوزي أيضا بضعة ملايين ،علما أن الثلاثة كانوا يشكلون اللجنة التي كلفها دي بورمون بجرد أموال القصبة بعد تسليمهم المفتاح من قبل مقتصد الداي حسين ، و بقيت هذه المعلومات سرا إلى غاية سنة 1952م. و من هنا يظهر أن فرنسا لم يكن يهمها لا ضربة المروحة و لا الأسرى المسيحيين و لا قضية القرصنة أو غيرها بقدر ما أغرتها كنوز الجزائر ، و بالتالي مبرر المروحة كان وسيلة للإقناع لا غير.

1-1-1 حادثة المروحة وبداية التحضير لتنفيذ الاحتلال 1827م.

في يوم عيد الفطر بتاريخ 1827/04/27م ذهب القنصل الفرنسي "دوفال" لتهنئة الداي حسين على عادة القناصل بهذا العيد، وكانت فرصة للداي ليسأله عن قضية الديون التي بعث بشأنها إلى ملك فرنسا عدة مراسلات ولم يتلق الرد، وكان رد القنصل مهينا للداي أمام مجلسه الكبير، مما أثار غضب الداي ولوح عليه بمروحة كانت بيده، فكانت هذه الحادثة الفرصة الثمينة التي كانت تنتظرها فرنسا منذ أمد بعيد لتحقيق أطماعها التوسعية في الجزائر.

لقد اعتبرت فرنسا هذا الحادث إهانة للشرف الفرنسي وهددت بالانتقام و فرضت حصارا بحريا على الجزائر امتد من 1827م إلى 1830م، رغم الاتصالات المكثفة لتسوية المشكلة سلميا وخاصة من طرف الدولة العثمانية ،تلك الاتصالات التي لم تعد مجدية أمام النوايا المبيتة للاحتلال، و بعد تهيئة الأجواء الداخلية بإيهام الرأي العام المحلي بضرورة الانتقام للشرف الفرنسي، و تهيئة الرأي العام الأوربي بالرغبة في وقف القرصنة و تخليص المسيحيين من مصدر القلق، قررت الحكومة الفرنسية في 30 يناير 1830م إرسال حملة ضد الجزائر.[1]

بدأت التحضيرات بجمع كل مستلزمات الحملة في مدينة طولون بالجنوب الفرنسي و منها: 103 سفينة حربية، 400 سفينة نقل تحمل 38 ألف جندي، 3000 مدفع،وعين قائدا لها الماريشال "دي بورمون"[2]. أبحرت هذه الحملة باتجاه الجزائر في 25 ماي 1830م،توقفت لمدة أسبوع للراحة في بالما من 03 إلى 10جوان 1830م ثم انطلقت من جديد لتصل إلى ميناء سيدي فرج يوم 13 جوان 1830م ، وتقررت عملية الانزال في اليوم الموالي (14 جوان)، و بعد قتال مرير ضد الجزائريين تمكنت القوات الفرنسية من التقدم بعد معركة

[1]-أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج 2، (1930-1900م) ط3، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، 1983م-ص 15.

[2]- Eugene Plantet, les consuls de France à Alger avant la conquête 1579-1830, messageries Hachette, Paris 1930, p 38.

سطاوالي إلى سيدي خالف ، أين دارت معركة أخرى في 24 جوان أجبرت فيها القوات الجزائرية على التراجع ، ثم استولت على حصن الإمبراطور في 04 جويلية و تقدمت نحو العاصمة ،فاضطر الداي حسين إلى توقيع معاهدة عرفت باتفاق الجزائر في 1830/07/05م[1]، والذي بموجبه فقدت الجزائر سيادتها ، و انتهى الوجود العثماني بها بعد فترة دامت أكثر من ثلاثة قرون.

2-1-1 بنود اتفاق الجزائر 1830/7/5م.

تضمنت وثيقة المعاهدة المبرمة بين الكونت دي بورمون قائد الحملة الفرنسية، والداي حسين البنود التالية:

- يسلم حصن القصبة وجميع الحصون الأخرى التابعة للجزائر، وكذلك ميناء هذه المدينة إلى الجيوش الفرنسية هذا الصباح على الساعة العاشرة حسب توقيت فرنسا.

- يتعهد قائد جنرالات الجيش الفرنسي بأنه يترك لسمو داي الجزائر حريته، وكذا جميع ثرواته الشخصية.

- الداي حر في الانسحاب مع أسرته وثرواته الخاصة إلى المكان الذي يعينه، وسيكون هو وكامل أفراد أسرته تحت حماية قائد جنرالات الجيش الفرنسي وذلك طيلة المدة التي يبقاها في الجزائر، وستقوم فرقة من الحرس بالسهر على أمنه وأمن أسرته.

- يضمن قائد الجنرالات نفس المزايا ونفس الحماية لجميع جنود الميليشيا.

- تبقى ممارسة الديانة المحمدية حرة كما أنه لن يقع أي اعتداء على حرية السكان من جميع الطبقات، ولا على دينهم وأملاكهم وتجارتهم وصناعتهم ونسائهم. إن قائد الجنرالات يتعهد بشرفه على تنفيذ كل ذلك.

- يتم تبادل هذه الاتفاقية قبل الساعة العاشرة من هذا الصباح، وبعد ذلك مباشرة تدخل الجيوش الفرنسية إلى القصبة ثم إلى جميع حصون المدينة.

في المعسكر المخيم قرب الجزائر[2] يوم 1830/7/5 .

إمضاء الكونت دي بورمون

ختم حسين باشا داي الجزائر

---

[1] -Abel Hugo, France pittoresque, ou description pittoresque, topographique et statistique des départements et colonies de la France t3, 1835, p 258.

1-مكان توقيع الاتفاق كان يعرف بجنان رايس حميدو قبل أن يتحول إلى مقر قيادة دي بورمون مؤقتا سنة 1830م ، و قد سماه الفرنسيون "فيلا المعاهدة" و هو يقع حاليا في مقاطعة الأبيار.ينظر:ناصر الدين سعيدوني، دراسات و أبحاث في تاريخ الجزائر-الفترة الحديثة و المعاصرة-ج 2 الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1988، ص 145.

وبتوقيع هذه المعاهدة بدأ عهد الاحتلال الفرنسي الذي دام قرنا واثنين وثلاثين سنة، عرف فيها المجتمع الجزائري القهر والقمع والإبادة والتجهيل ومحاولات التنصير، ومصادرة أراضيه، وتفقيره، واستغلاله في الحروب الاستعمارية، والتنكر لجميع حقوقه، و لم يعن ذلك استسلام الشعب الجزائري لقدره ، بل قاوم الاستعمار إلى غاية استرجاع سيادته و حريته.

2-1 المقاومة الوطنية ضد الاستعمار الفرنسي:

بعد توقيع معاهدة 05 جويلية 1830م نهض الشعب الجزائري في كامل مناطق التراب الوطني في ثورات شعبية تواصلت طيلة القرن 19م، واستمر بعضها في بداية القرن 20م و الفرنسيون أنفسهم اقتنعوا أن الجزائريين لن يستسلموا للاستعمار حتى و لو أبيدوا كلهم، فقد ورد عن أحد الضباط قوله:"إن القبائل لا تقدر لا السلم و لا الازدهار الفرنسيين لأنه لا شيء ينسيهم ذكرى الاستقلال الكامل الذي تمتعت به مدة قرون." و عن ضابط آخر سنة 1871م قوله:"وجدنا أنفسنا و سنجد أنفسنا أثناء وقت طويل إزاء شعب لا يتحمل إلا بمشقة سيطرتنا، و هو يلتمس كل الوسائل و يغتنم كل المناسبات ليتحرر. إن الشعب في الانتظار و لو كان متظاهرا بالخضوع، هناك كلمات تهتز لها البلاد كلها، و كلما تظهر له القومية و الإسلام و الأرض المقدسة التي يجب تطهيرها من الكفار إلا و تجده مستعدا للكفاح."[1]

فكلما هدأت مقاومة قامت أخرى و هذا ما يعاب على هذه المقاومات التي لو اتحدت جميعها لتمكنت من التأثير على الوجود الاستعماري بالبلاد، و لربما كانت نهايته على أيدي ثوارها في بدايته مثلما وقع في ثورة التحرير الكبرى و كان من أبرز هذه المقاومات:

-مقاومة أحمد باي 1836-1848م و شملت منطقة قسنطينة .

-مقاومة الأمير عبد القادر 1832-1847م و شملت شمال الجزائر و خاصة الجهة الغربية و الوسطى.

-مقاومة محمد بن عبد الله الملقب "بومعزة" 1845-1847م بالشلف و الحضنة و التيطري

- مقاومة الزعاطشة 1848-1849م في ضواحي بسكرة و الأوراس بزعامة بوزيان.

-مقاومة الأغواط و تقرت 1851-1857م بقيادة الشريف محمد بن عبد الله بن سليمان.

- ثورة القبائل من 1851 إلى 1857م بقيادة لالا فاطمة نسومر و الشريف بوبغلة.

2- الجيلالي صاري و محفوظ قداش، المقاومة السياسية 1900-1954م، الطريق الإصلاحي و الطريق الثوري ، الجزائر ، المؤسسة الوطنية للكتاب ،1987،ص 14

-ثورة أولاد سيدي الشيخ 1864- 1880م بواحة البيض و جبل عمور و تيارت بقيادة سليمان بن حمزة.

- مقاومة المقراني 1871-1872م بكل من برج بوعريريج ، مجانة، سطيف ، تيزي وزو، ذراع الميزان، سور الغزلان.

- مقاومة الشيخ بوعمامة 1881-1883م و شملت عين الصفراء،تيارت، سعيدة..

-- مقاومة الطوارق 1916-1919م بالهقار، جانت، ورقلة بقيادة الشيخ أمود.

- مقاومة بني شقران 1914م .

- مقاومة الأوراس 1916م.

و سنركز من كل هذه المقاومات على مقاومة الأمير عبد القادر ، ليس لتفضيلنا إياها على البقية و لكن لارتباطها بالمواقف التجانية من المقاومة، حيث كانت المقاومة الوحيدة التي حاولت جر الطريقة التجانية إلى الاشتراك بالقوة في الجهاد ضد الاستعمار، ووصل الأمر إلى حدوث صدام مسلح بين الطرفين كانت نتائجه لصالح الاستعمار.

مبايعة عبد القادر بن محي الدين لقيادة المقاومة:

أمام الزوال القانوني للوجود العثماني بالجزائر ، و أمام شيوع الفوضى و الاضطرابات في الجزائر اجتمع في ضواحي معسكر زعماء قبائل بني هاشم ، بني عامر [1]،البرجية،[2]و تقرر إسناد القيادة إلى الشيخ محي الدين لمحاربة الفرنسيين ، و لكن لكبر سنه و عجزه عن الاستمرار في تحمل هذه المسؤولية ، خاصة و أنه قاد المجاهدين في عدة معارك ضارية من 1830الى 1832م مثل خنق النطاح الأولى و الثانية و رأس العين و غيرها، اقترح على الحاضرين ولده عبد القادر ليبايعوه أميرا لقيادة المقاومة،و كان عبد القادر قد أظهر شجاعة نادرة في المعارك الأولى ضد الفرنسيين.[3]

و سكان غريس يعرفون جيدا خصال عبد القادر و شجاعته و علمه و ورعه، ولذلك تقدموا كلهم لمبايعته تحت شجرة الدردارة في غريس في البيعة الأولى بحضور القاضي و المفتي في 27نوفمبر 1832م.[4]و تضمن نص البيعة الخطوط العريضة لما هو مطلوب من الأمير

1- -بنو عامر: مجموعة من الأهالي تضم 26 بطنا (حوالي 7315 خيمة) موزعة على المناطق التي تشمل حاليا ولاية سيدي بلعباس ،كانوا يتكونون من 5150 فارسا ، 4330مشاة، وبعد ضعف قوة الأمير، هاجروا إلى المغرب، معظمهم قتلوا من طرف سلطان المغرب. ينظر:
Robert Thintoin, colonisation et évolution des genres de vie dans la région ouest d'Oran 1830-1885, Paris 1943, pp 113-130.

2-البرجية: قبيلة تقيم على بضع كيلومترات جنوب معسكر عند سفح جبل سيدي بلقاسم · ينظر: محمد العربي الزبيري ، الكفاح المسلح في عهد الأمير عبد القادر، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، 1982، ص 38.

- محمد السنوسي، الرحلة الحجازية ، تحقيق علي الشنوفي ، ج 1، تونس، الشركة التونسية للتوزيع ،1976، ص181.

- محمد السنوسي ، نفسه ، نفس الصفحة.[4]

عبد القادر، و في مقدمتها: توحيد القبائل، و استتباب الأمن، و نصرة دين الله بالجهاد ضد الاستعمار الدخيل ، و منحت هذه البيعة الأمير عبد القادر الصفة الشرعية السياسية للدفاع عن الجزائر ، ثم بويع للمرة الثانية في مسجد سيدي حسان بمعسكر في 04 فبراير 1833م.

وبمقتضى هذه البيعة أصبح جميع السكان مطالبين بالاشتراك في الجهاد، و شرع الأمير من جهته في قيادة المقاومة، و من جهة أخرى في بناء أجهزة الدولة. فهو لم يقم بهذا الدور على أساس انتمائه للطريقة القادرية ، أو كرجل قاد جهة معينة في مقاومته للاستعمار ، بقدر ما كان ذلك بناء على بيعة شرعية أوجدت واقعا جديدا ، يتمثل في بيعته كأمير بما يتوافق مع المرحلة التي ظهرت فيها حتمية الجهاد.

2- تونس:

1-2 خضوع تونس للحماية الفرنسية:

أ- الأوضاع الممهدة للحماية:

تونس: أصغر أقطار شمال إفريقيا مساحة، تتميز بموقع جغرافي ممتاز، حيث تشرف على البحر الأبيض المتوسط من جهتين: الشمالية والشرقية، وقريبة من أوربا، لا يفصلها عنها سوى مضيف صقلية، وهي الجارة الشرقية للجزائر، ومعنى ذلك أن الجزائر التي احتلتها فرنسا سنة 1830م لابد أن تكون آمنة من جهة الشرق، ويستدعي ذلك احتلال تونس، مما جعل فرنسا تخطط لتحقيق هذا الهدف، وتسعى لاستغلال كل فرصة تتاح لها لتحويلها إلى ذريعة تسيطر بها على البلاد.

هذه الفرص حققها لها بايات تونس، بدءا بتورط الباي أحمد الذي حكم البلاد بين (1839م-1856م) في الترف والتبذير، كبنائه قصر المحمدية بنفقات مالية باهضة، وهو صورة مصغرة لقصر فرساي بفرنسا، والذي انبهر به لما زارها وحاول تقليده.[1] وكثرت نفقاته أيضا على حساب الشعب، في إصلاحات أخرى أوقعت البلاد في أزمة مالية خانقة، زادها حدة سلب أموال الخزينة من طرف مساعديه، كوزير ماليته (مصطفى خزندار)، وصهره محمود عباد الذي فر بدوره إلى فرنسا بأموال طائلة. نفس الظاهرة عرفتها تونس في هذا

---

[1] إسماعيل أحمد ياغي و محمود شاكر، تاريخ العالم الإسلامي الحديث والمعاصر، ج2، قارة إفريقيا، دار المريخ،الرياض، المملكة العربية السعودية،2008م، ص94.

عهد الباي الجديد محمد باي (1855م-1859م) حيث سار على منوال أخيه السابق[1]، وزاد في فتح أبواب تونس للنفوذ الأجنبي بإصداره "عهد الأمان" للأجانب سنة 1857م، والذي تضمن 11 مادة كلها في صالح هؤلاء الأجانب: تعترف بحقوقهم، وأمانهم على أحوالهم وكرامتهم وأعراضهم، والمساواة بينهم وبين أهل البلاد.. ثم جاء أخوه محمد الصادق (1859م-1881م) والذي عرف عهده سقوط تونس تحت الحماية الفرنسية سنة 1881م.

في هذه الفترة، رغم بعض الإصلاحات التي قام بها وزيره خير الدين، كتعديل عهد الأمان، وإصدار دستور 1861م، و الذي انبثق عنه تشكيل مجلس استشاري من 60 عضوا لمدة 05 سنوات، والفصل بين السلطات القضائية والتنفيذية والتشريعية، إلا أنها جاءت متأخرة، وعرفت تونس صعوبات عديدة كتراكم الديون. وهذه المتاعب اضطرت رئيس المجلس الكبير خير الدين باشا إلى الاستقالة، وعلق العمل بالدستور سنة 1864م، وتشكلت لجنة دولية مالية ضمت ممثلين عن تونس، فرنسا، مالطة، و ايطاليا برئاسة ممثل تونس خير الدين الذي استقال أيضا، وهذه الظروف زادت من عزم فرنسا على احتلالها، وجاءت مشاكل الحدود لتعطي الحجة لفرنسا في حشد قواتها العسكرية لتنفيذ خطتها الاستعمارية والسيطرة على تونس.[2]

ب- البحث عن الذرائع وتنفيذ الاحتلال:

اتخذت فرنسا قرارها النهائي بغزو تونس في فبراير 1881م، وبقي لها فقط البحث عن ذريعة لتبرير تدخلها في الأراضي التونسية. كانت أولى الحجج مطالبة الجالية الفرنسية في تونس حكومتها في 1881/03/14م بالتدخل لحماية حقوقها وأموالها،[3] ثم جاءت مشكلة الحدود التونسية- الجزائرية لتشكل الذريعة المباشرة، حيث استغلت فرنسا اشتباكا وقع على الحدود، توغلت إثره قبائل تونسية داخل الأراضي الجزائرية[4] في 1881/04/14م ليكون

---

1 إسماعيل أحمد ياغي و محمود شاكر، م س، ص95.

2 محمد عصفور سلمان، الحماية الفرنسية على تونس عام 1881 والموقف العثماني والأوربي منها، مجلة ديالي للبحوث الإنسانية، العدد 56- 2012، كلية التربية للعلوم الإنسانية، جامعة ديالي العراق، ص441.

3 نيقولا زيادة، تونس في عهد الحماية من 1881م إلى 1934م، معهد الدراسات العربية العالية، القاهرة، 1963، ص132.

4 توغل مايقرب من 300 شخص من قبائل بني خمير إلى داخل حدود الجزائر للثأر لأحد أفراد قبيلتهم، وهو ما جعل الفرنسيين يحملون الباي مسؤولية الحادث للضغط عليه ودفعه إلى قبول الحماية، ينظر: نيقولا زيادة، نفسه، ص132

مبررا لاحتلال تونس، مشجعة في ذلك من أطراف أوربية في مقدمتهم بسمارك الألماني الذي صرح في أوائل عام 1878م للسفير الفرنسي قائلا:" إن الكمثرى التونسية قد نضجت و قد حان وقت قطافها ، و إن عناد الباي ، و عدم المجاملة هو العامل الأساسي في نضج المسألة، و ستفسد هذه الفاكهة أو تسرق إذ تركتموها على الشجر لمدة طويلة ."كما أن انجلترا أعلنت بدورها قبل مؤتمر برلين 1878م أن تونس امتداد طبيعي لمنطقة النفوذ الفرنسي، وأيدت فرنسا لاحتلالها مقابل التأييد الفرنسي لبريطانيا في احتلال قبرص.[1]

بنيت خطة التدخل على أساس ردع القبائل المتسببة في الحادث[2]- ظاهريا- وبذل جول فيري رئيس وزراء فرنسا آنذاك، والذي كان متحمسا أكثر لهذا الإحتلال، جهودا كبرى لتحقيق أمنيته، حيث تمكن من إقناع البرلمان الفرنسي لتخصيص اعتماد مالي للغزو، وفشل باي تونس محمد الصادق في حل المشكل وديا، كما فشلت الدولة العثمانية في إقناع فرنسا بالتراجع عن قرارها.

حشدت فرنسا قواتها على الحدود التونسية رغم احتجاجات الباي محمد الصادق، ورغم سعي الدولة العثمانية لإقناع الدول الأوربية بحقوق الباب العالي في ولاية تونس، ورفضت فرنسا التفاوض لحل المسألة، لأن هذه الفرصة مناسبة لتحقيق أطماعها التوسعية في المنطقة. وفي 1881/04/24م اخترقت قوات من الجيش الفرنسي الأراضي التونسية واحتلت الكاف وطبرقه.[3] واستمرت القوات الفرنسية في التوغل داخل الأراضي التونسية فاحتلت مدينة بنزرت أمام صمت الدول الكبرى بل وتواطئها، ثم وصل الجنرال "بريار" قائد فليق بنزرت إلى الجديدة في 1881/05/11م، وفي صبيحة اليوم الموالي طلب القنصل الفرنسي "روسطان" من الباي مقابلة الجنرال "بريار" على بعد ثلاثة أميال من مدينة باردو، وقرأ عليه نص مشروع المعاهدة، وأمهله أربع ساعات للتوقيع عليها، واضطر الباي التوقيع عليها في حدود الساعة التاسعة من مساء يوم 1881/05/12م، وبذلك أصبحت تونس خاضعة للحماية الفرنسية.[4]

1- إسماعيل ياغي و محمود شاكر، م س ، ص 98

2- الحبيب تامر، هذه تونس، منشورات مكتب المغرب العربي، مطبعة الرسالة، 1948، ص26.

3 -نيقولا زيادة، م.س، ص133. .

4 - عبد الحميد مسعود الجزائري، ثورات المغرب العربي وكفاحه، الجزائر، تونس، مراكش، دار الجامعة للطباعة، القاهرة، د.ت، ص ص73-74.

ت- معاهدة باردو وبنودها: (1881/05/12م)

معاهدة باردو الموقعة بين الجنرال "بريار" كممثل عن فرنسا والباي محمد الصادق أسست عهدا جديدا بتونس هو عهد الحماية الفرنسية، حيث أعطت حق الإشراف المالي والخارجي والعسكري في تونس لفرنسا التي يمثلها مقيم عام، افتك كل الصلاحيات من الباي وبقيت له فقط سلطة التشريع والإدارة، ولكن قراراته لن تكون نافذة إلا بموافقة المقيم العام وأول مقيم عين بتونس كان "تيودور روستون" لفترة (1881م-1882م).

تضمنت معاهدة باردو (أو ما تسمى: معاهدة قصر سعيد) عشرة بنود[1] حاولنا اختصارها في النقاط التالية:

- حصول فرنسا على حق تنظيم الشؤون المالية
- ضمان فرنسا حقوق الدائنين لتونس
- ضمان فرنسا دفع الديون المترتبة عن تونس
- العلاقات الخارجية التونسية تتكفل بها فرنسا
- ضمان فرنسا تنفيذ الاتفاقيات التي أبرمتها الدولة التونسية مع الدول الأوربية.
- تعهد فرنسا بمساعدة باي تونس وحمايته.
- تتولى فرنسا تمثيل تونس ورعاية مصالحها في الخارج.
- يلتزم باي تونس بعدم عقد أي اتفاق مع أية دولة أخرى إلا بالرجوع إلى فرنسا للحصول على موافقتها.
- فرض غرامة مالية على القبائل التي ترفض الإتفاق، وتتولى حكومة الباي تنفيذها.
- تعهد حكومة الباي بمنع تهريب الأسلحة والذخائر الحربية إلى الجزائر.

2-2 موقف الشعب التونسي من الاحتلال الفرنسي لتونس:

أمام التوغل الفرنسي في الأراضي التونسية واحتلالها، لم يقبل الشعب التونسي الخضوع والاستسلام ونهض يقاوم الاحتلال، وقد شملت المقاومة تقريبا جل مناطق البلاد التونسية.

---

[1] Aziz Abdulla Madllum, Bismarck's Diplomatic Policy and competition Towards the German colonies in Africa, Thesis submitted to the university of st clements, part of the requirements of the Ph.D in political science, university of st clements international- Izmir-Turkey. Department of political science- 2011- P15.

- ففي الشمال: يرجع العديد من الباحثين استسلام الشعب التونسي في البداية للفرنسيين، وتمكينهم من دخول العديد من المناطق بدون مقاومة كبنزرت مثلا والكاف، إلى تأثير بعض الطرق الصوفية التي آثرت التعاون مع الفرنسيين على المقاومة. ولكن مناطق أخرى، تصدى سكانها للاستعمار وقاوموه ومنها:

- الشمال الغربي: مناهضة قبائل الخمير للاحتلال الفرنسي، وتطوع الشباب من أولاد بوسعيد والحوامدة، وأولاد عمر لمواجهة الفرنسيين الذين لم يتمكنوا من السيطرة على المنطقة إلا بعد قنبلتها[1]. وتكفلت فروع أخرى من هذه القبائل بقطع الطريق عن الفرنسيين القادمين من الجزائر، ولم تنسحب إلا بعد أن منيت بخسائر كبيرة.[2]

- تمرد قبائل مقعد وهذيل ومهاجمتها لسفينة حربية فرنسية غرقت في عرض الساحل التونسي، ونهبوها وأسروا من فيها وذلك يوم 1881/04/28م،[3] ولم تتمكن فرنسا من إخضاع هذه القبائل إلا في شهر جوان 1881م.

- اندلاع المقاومة في جندوبة حيث اشترك فيها أولاد سالم والشياحية وعمدون، ودارت معارك عنيفة بين الطرفين التونسي والفرنسي، منها معركة سهل بوسالم في 1881/04/30م، والتي لم ينهزم فيها التونسيون إلا بعد وصول تعزيزات للقوات الفرنسية.[4]

- الوسط والوسط الغربي:

انعقد اجتماع بين 15 و20 جوان 1881م بجامع القيروان، ضم ممثلين عن عدة قبائل لوضع خطة موحدة لمقاومة الفرنسيين، واتفقوا أولا على إرسال ثلاثة مبعوثين إلى السلطان العثماني لمعرفة موقفه من الاحتلال الفرنسي لتونس، وثانيا على عقد اجتماع آخر في سبيطلة يجمع عددا كبيرا من القياد والمشايخ، وأعيان قبائل ماجر، والفراشيش والهمامة وورتان وأولاد عيار، وجلاص لمناقشة طرق مقاومة الاستعمار.[5] وفعلا انعقد هذا الاجتماع

---

[1] التليلي العجيلي، م.س، ص125.
[2] نفسه، ص125.
[3] نفسه، نفس الصفحة.
[4] - التليلي العجيلي، م س ، ص126
[5] - نفس المرجع، ص128.

في 19 أوت 1881م، ونتج عنه قيام انتفاضة جرت أحداثها في هذه المنطقة ومن أبرز معاركها:

- معركة حيدرة: 1881/10/17م: شاركت فيها قبائل ماجر والفراشيش والزغالمة بمجموع ألفي خيال ومشاة تحت قيادة محمد بن يونس والحاج الحراث، ضد القوات الفرنسية بقيادة (فورجمول) خلفت عشرات القتلى في صفوف الثوار من بينهم القائد محمد بن يونس إلى جانب عدد من الجرحى.[1]

- معركة الروحية: 1881/10/23م، شارك فيها أولاد مهنة بقيادة فرحات بن علي بن سعيد، والفوايد بقيادة الحاج علي بن عبد المالك، أولاد عيار وونيفة، والفراشيش، وجلاص، وورتان والهمامة والزغالة، وقد خلفت 25 قتيلا وعددا كبيرا من الجرحى.[2]

- معركة كدية الحلفاء: هي المعركة الأخيرة، وقعت في 1881/10/25م، وكانت معركة عنيفة استبسل فيها الثوار لكنهم فقدوا فيها 150 قتيلا.

وهذه المقاومات تظهر مدى رفض التونسيين للاستعمار وتصميمهم على المقاومة رغم عدم تكافؤ القوى بين الطرفين،و قد أطرتها بعض الطرق الصوفية في مقدمتها الرحمانية و القادرية ، عن طريق زواياها التي كانت تنتشر في هذه المناطق مثل زاوية سيدي أمحمد بن عمار في جبل سمامة بمنطقة الجريد، وزاوية سيدي عمر السماتي الرحمانيتين وزوايا ابن عزوز الرحمانية كذلك في القصرين وتالة، وزوايا ماجر القادرية... وهذه القبائل رغم أنها تدرك أنها ضعيفة ولا يمكنها رد عدوها، فإن واجب الجهاد هو الذي حركها، ومن هذا المنطق أردنا أن نمهد لموضوعنا بمعرفة مواقف شرائح الشعب التونسي من مقاومة الاستعمار، حتى نضع موقف الطريقة التجانية في الميزان، من حيث مشاركتها أو اعتراضها على المقاومة، وأسباب كل ذلك. وواجب الجهاد الذي حرك هذه القبائل كان منطقه اعتبار الاعتداء الفرنسي غزوا نصرانيا يجب مقاومته مهما كانت التضحيات، فكيف كانت نظرة التجانيين؟ ذلك ما سنعرفه بعد رصد كل مظاهر الحراك الشعبي ضد هذا الاستعمار.

[1] - التليلي العجيلي، م س، ص 128.
[2] نفس المرجع ، نفس الصفحة.

- مقاومة صفاقس: واجهت توغل الاستعمار الفرنسي بقوة رغم تفوق القوات الفرنسية، ولم تنته مقاومتها إلا بعد قصف الفرنسيين للمدينة في جويلية 1881م، إضافة إلى شراء ذمم العائلات النافذة في المدينة، والتي كان بإمكانها أن تشكل خطرا على الاستعمار، مثل عائلة محمد ظافر المدني الذي كانت له علاقة حسنة مع السلطان العثماني عبد الحميد، وكانت له زاوية على رأسها ابن أخته محمد بن عبد الله، وكانت هذه العائلة مهيأة أكثر لتنظيم المقاومة، لكن السلطات الاستعمارية سارعت إلى احتوائها بتقديم 15000 فرنك لعائشة أخت محمد ظافر المدني، (تعويضا لها عن الأضرار التي لحقت ببيتها بعد القصف.)[1] وهي في الواقع شراء ذمة لا أكثر، وإلا كيف نفسر الإنعام على أخت محمد ظافر بهذه المبالغ في الوقت الذي فرضت فيه الإدارة الاستعمارية غرامة حربية على سكان صفاقس، قدرت في البداية بعشرة ملايين فرنك، ثم خفضت إلى ستة ملايين، وصودرت معظم ممتلكات السكان بعد عجزهم عن دفع الغرامة.

- مقاومة الجنوب:

كان سكان الجنوب من الذين رفضوا مهادنة الاستعمار والخضوع له، رغم وجود العديد من الزوايا الطرقية التي نصحتهم بضرورة هذه المهادنة لعدم تكافؤ القوى، لكن السكان تمسكوا بالجهاد، وراهنوا كثيرا على وصول المدد العثماني لهم، واستماتت قبائل الجنوب في الدفاع، وزادهم صمودا وصول أنباء يوم 1883/06/16م عن تحضير الشيخ الحفناوي بن عبد الحفيظ، شيخ الرحمانية في منطقة تمغزة للجهاد ضد الاستعمار، وعن تكبد الفرنسيين خسائر كبيرة في قصر مدنين، ومسارعتهم إلى إرسال تعزيزات عسكرية إلى قابس لإيقاف تقدم الأتراك.[2]

والذي وقع إثر توقيع الباي لمعاهدة الحماية أن حركة المقاومة اشتعلت أكثر في الجنوب وخاصة في قابس، أين تزعمها "علي بن خليفة" الذي حاول أن يجمع كل المقاومين تحت قيادته، وانضم إليه بنو بوزيد بعدما كانوا من أشد معارضيه لما كان ممثلا للباي، لأنه أعلن

1 التليلي العجيلي، م س، ص138.
2 التليلي العجيلي، نفسه، ص145.

الثورة باسم الجهاد.[1] ولكن الذي حدث أن كل قبيلة أرادت أن تكون تحت قيادة أحد منها وبالتالي تشتتت جهود المقاومة، وضعفت بنفس الشكل الذي لاحظناه في الجزائر، وكانت المقاومة مضطرة إلى مواجهة جيش فرنسي قوي يفوقها عددا وعدة، مما جعلها تعجز عن الاستمرار في الثورة.

أمام هذه الظروف توقفت المقاومة، وهاجر الكثير من أفرادها خارج البلاد ليصل عدد اللاجئين التونسيين إلى حوالي 120 ألف لاجئ.[2] ولما عجزت المقاومة المسلحة عن طرد المحتل، ومع نهاية القرن التاسع عشر ظهرت الحركة الوطنية في تونس في شكل حركة إسلامية، قام بها طلبة درسوا في جامعات الغرب، تزعمها في بداية (علي أبو شوشة) الذي أصدر جريدة (الحاضرة)* التي كانت تنادي بتقوية الروابط مع الجامعة الإسلامية، ثم ظهر علي باش حمبة** بعد عامين، وأسس حزب المقاومة وأصدر جريدة التونسي الناطقة بالعربية والفرنسية، وبعد قيام ثورة تركيا الفتاة عام 1908م غير الحزب اسمه ليصبح حزب (تونس الفتاة) وتكفل الشيخ عبد العزيز الثعالبي برئاسة تحرير النسخة العربية من جريدة التونسي، وأيد نضال الليبيين والجزائريين آنذاك، كما أيد الثورة التي عرفتها تونس عام 1911م بسبب محاولة مد خط حديدي عبر مقابر المسلمين والتي قمعها الاستعمار بقوة، وحل حزب تونس الفتاة، ونفي علي باش حمبة و الثعالبي اسطنبول.

حاول الثعالبي بعد الحرب العالمية الأولى إحياء الحزب والدفاع عن القضية التونسية في مؤتمر الصلح بباريس عام 1919م، كما قدم وفد عن الأعيان إلى المقيم الفرنسي مطالب تتعلق بالإصلاحات، ثم أسسوا حزب الدستور الحر التونسي.

---

[1] محمد فروة، المقاومة المسلحة في تونس خلال القرنين 19 و20، منشورات المعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية التونسية، أعمال الندوة السابعة، نوفمبر 1993، تونس، 1995، ص58,

[2] التليلي العجيلي، م،س، ص145.

* جريدة الحاضرة، جريدة تونسية، صدر أول عدد منها في 02 أوت 1888م واستمرت في الصدور إلى غاية سنة 1911م، أصدرها علي بوشوشة (أصله جزائري من جيجل)، رفقة مجموعة من المثقفين التونسيين، تولت الخوض في جميع المواضيع التي تهم البلاد، وكان يوم الثلاثاء، موعد صدورها الأسبوعي.

** علي باش حمبة: (1918-1857) من مواليد تونس، درس بالصادقية ثم بباريس وحصل على شهادة ليسانس في الحقوق، مارس مهنة المحاماة بتونس، أنشأ مع عبد العزيز الثعالبي جريدة التونسي عام 1907م، نفي إلى اسطنبول سنة 1912، وتولى عدة مناصب بالدولة العثمانية، توفي سنة 1918م وكان من أبرز رواد ودعاة الجامعة الإسلامية. ينظر: محمد بودينة، مشاهير التونسيين، ط2، دار سيراش للنشر، تونس، 1992، ص354.

ظلت الحركة الوطنية في تونس تتطور شيئا فشيئا إلى أن عرفت مطالب أكثر جرأة خلال الحرب العالمية الثانية وبعدها، ونضالا تطور إلى الاستقلال الذي حصلت عليه البلاد سنة 1956م.

3- المغرب الأقصى:

1-3- خضوع المغرب الأقصى للحماية:

أ- التنافس الاستعماري على المغرب الأقصى:

ظل المغرب مستقلا عن العثمانيين في شمال إفريقيا، فهو الوحيد الذي لم تطأه أقدام العثمانيين الذين كانوا متواجدين في بقية بلدان المنطقة. وبحكم موقعه الاستراتيجي ازدادت حوله الأطماع الأجنبية، خاصة مع ازدهار الثورة الصناعية في دول غرب أوربا وحاجتها الماسة للثروات الطبيعية واليد العاملة، للحفاظ على نموها وتطورها الاقتصادي.

التكالب الأوربي على المغرب بدأ حول الحصول على الإمتيازات لتوسيع النفوذ والتمهيد للاحتلال، حيث ترسم كل دولة امتيازاتها بتوقيع معاهدات تضمنها وتدعمها مستقبلا،[1]وقد حصلت خمس دول هي: فرنسا، بريطانيا، اسبانيا، إيطاليا وألمانيا على امتيازات واسعة في المغرب منها: حرية الاستيطان، ضمانات الأمن والتنقل والتجارة، والخدمات المختلفة المقدمة من الحكومة المغربية[2].

ومن هذه الامتيازات الخطيرة: حصول اسبانيا على حق قضائي يخضع فيه المدعي لمحكمة المدعى عليه في التقاضي، أي أن المغربي إذا اشتكى اسبانيا لدى القضاء، ملزم بالخضوع للقضاء الاسباني في بلده، وازداد الضغط على المغرب منذ مؤتمري فينا 1815م وإكس لاشابيل 1818م، بعد استجابته لإنهاء الجهاد البحري وتوقيع المزيد من المعاهدات مع الدول الأوربية، والتي تسمح بتدخل هذه الدول في شؤون المغرب مثل معاهدة 1856 م

---

[1] فادية عبد العزيز القطعاني، الحركة الوطنية المغربية (1912-1937)، المجلة الجامعة، العدد 16- 2014 ، المجلد الأول، جامعة الزاوية، ليبيا، ص03.

[2] أفا عمر، التجارة المغربية في القرن 19، البنيات والتحولات (1830-1912)، الرباط مكتبة دار الأمان، 2006، ص36.

التي تعطي الحق لبريطانيا في حماية رعاياها وحتى المغاربة الذين يعملون لديهم[1] وذلك في عهد السلطان سليمان.

في عهد السلطان عبد الرحمن (1822م-1859م) إزداد المغرب ضعفا وخاصة بعد الأزمة المالية التي عرفتها البلاد سنة 1825م نتيجة الجفاف، وازداد تدخل الأوربيين في شؤونه وأمام هذا الوضع حاول إصلاح أوضاع بلاده، وتقويتها اقتصاديا وإداريا وسياسيا. واستمرت حركة الإصلاح أيضا في عهد السلطان حسن (1873م-1894م) لاسترجاع قوة المغرب ومكانته التاريخية، ولكن فرنسا التي كانت تحتل الجزائر منذ 1830م وتونس منذ 1881م لا يمكنها أن تترك المغرب يسترجع عافيته، وهي تحاول استكمال مشروعها الاستعماري لبناء إمبراطورية على حساب شمال إفريقيا.[2]

ب- انفراد فرنسا بالمغرب:

بدأ التوتر في العلاقات الفرنسية المغربية منذ عهد السلطان عبد الرحمن (1859-1822)، لما طلب سكان تلمسان الإنضمام إلى مملكته ليتخلصوا من الاستعمار الفرنسي، ولما قبل السلطان بيعتهم، وعين على المدينة ابن عمه سليمان واليا، أنذره الفرنسيون وطالبوه بعدم التدخل في شؤون الجزائر، وهددوه بقصف طنجة، واضطر السلطان إلى سحب قواته من تلمسان[3]. ثم عادت الأزمة لتتجدد بعد تأييد السلطان للأمير عبد القادر في ثورته ضد الاستعمار، وخاصة لما لجأ الأمير إلى المغرب عندما إزداد عليه الضغط الفرنسي، ليجمع قواه ثم يعود للمقاومة، وقامت القوات الفرنسية بالهجوم على وجدة، وأقامت مركزا عسكريا في لالا مغنية على الحدود الجزائرية المغربية، وطلبت منه طرد الأمير، ولما حشد المغرب قواته على الحدود مع الجزائر، قامت معركة بين قوات المغرب والقوات الفرنسية، انتهت بهزيمة الجيش المغربي في وادي سلي غرب وجدة في 14 أوت 1844م، وقصفت فرنسا أيضا ميناء طنجة، و اضطر المغرب إلى إجراء مفاوضات معها انتهت باتفاقية طنجة في

---

[1] عبد العظيم رمضان، الغزوة الاستعمارية للعالم العربي وحركات المقاومة، القاهرة، دار المعارف، 1985، ص ص 161-162.

[2] أمحمد مالكي، الحركات الوطنية والاستعمار في المغرب العربي، ط2، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ص100.

[3] أمحمد مالكي، نفسه، ص102.

1844/09/10م ثم تلتها اتفاقية لالا مغنية في 1845/03/18م[1]، وبذلك تمكنت فرنسا من عزل المغرب عن المقاومة الجزائرية من جهة، وزادت من إذلاله وضعفه من جهة أخرى تمهيدا لبسط نفوذها عليه، حيث لم يعد بإمكان المغرب حماية أراضيه ولو من جيش أوربي صغير، وازداد بذلك النفوذ الأجنبي في البلاد، فحتى اسبانيا اغتنمت فرصة ضعفه، وطلبت من السلطان محمد بن عبد الرحمن توسيع حدود سبتة المحتلة واحتلت مدينة تطوان، ورضخ المغرب لمطالبها بعقده صلحا معها سنة 1861م، وفرضت عليه غرامة لم يقدر على دفعها إلا بعد الاقتراض من بريطانيا.

في عام 1880م انعقد مؤتمر مدريد الذي ضم 15 دولة، انتهى بتوسيع امتيازات الدول الأوربية في المغرب وزيادة إضعافه، حيث حصلت دول جديدة على هذه الامتيازات مثل ألمانيا والسويد والنرويج والدانمارك والبرتغال، ثم انضمت روسيا إليها سنة 1881م.[2]

وكانت فرنسا أكثر الدول حصولا على هذه الامتيازات رفقة اسبانيا، ولما احتلت تونس عام 1881م قامت باحتلال الواحات الصحراوية تمهيدا للانفراد بالمغرب.

وحتى تحقق هذا الانفراد قامت بتوقيع اتفاقيات مع ايطاليا (1902م)، بريطانيا (1904م)، اسبانيا (1905م) تبادلت معها المصالح الاستعمارية، وبقيت ألمانيا خارج حساباتها إلى أن ضغطت عليها من خلال أزمة أغادير 1911م لتعوضها بجزء من مستعمرتها بالكونغو الفرنسي، ولم يبق لها بعد ذلك سوى تنفيذ خطتها واحتلال المغرب، خاصة بعد عقد مؤتمر الجزيرة عام 1906م والذي كانت قراراته لصالحها ولصالح اسبانيا، وفعلا لما هيأت فرنسا الوضع، توغلت قواتها واحتلت فاس، وفرضت حمايتها على المغرب في 1912/03/30م.

ت- معاهدة الحماية على المغرب ومضمونها:

في 1912/03/30م تم التوقيع على معاهدة الحماية بين السلطان مولاي عبد الحفيظ و ممثل فرنسا "أوجين رونو" (Eugene Regnault) و قد ورد في هذه المعاهدة[3] مايلي:

---

[1] علي سلطان، تاريخ العرب الحديث، طرابلس، منشورات مكتبة طرابلس العلمية العالمية، د.ت، ص ص609.608.

[2] علي سلطان، نفسه، ص613.

1-Bulletin officiel no 1, première année – du 1/11/1912, traite conclu entre la France et le Maroc le 30/03/1912 pour l’organisation du protectorat français dans l’empire chérifien.

اتفقت حكومة الجمهورية الفرنسية و حكومة صاحب الجلالة السلطان الشريف على تطبيق نظام جديد لضمان الاستقرار الداخلي و الأمن العام، و ذلك لإدخال الإصلاحات التي ستمكن المغرب من إنجاح تنميته الاقتصادية ، عبر تطبيق البنود التالية:

الفصل الأول: حكومة الجمهورية الفرنسية اتفقت مع حكومة السلطان الشريف على الإصلاحات الإدارية و القضائية و التربوية و الاقتصادية و المالية و العسكرية التي تعتبرها الحكومة الفرنسية نافعة لتطبيقها في المغرب.

الفصل الثاني: صاحب الجلالة الشريفة السلطان يعترف من الآن للحكومة الفرنسية بعد مشاورتها للسلطات المخزنية، بحقها في نشر قواتها العسكرية على التراب المغربي في الأماكن التي تعتبرها مهمة للحفاظ على أمن و سلامة المبادلات التجارية و تدبير الشؤون الأمنية على البر و في المياه المغربية.

الفصل الثالث: حكومة الجمهورية الفرنسية تتعهد بمساندة صاحب الجلالة الشريفة ضد كل خطر يمس شخصه الشريف أو عرشه أو ما يعرض أمن بلاده للخطر، المساندة تشمل أيضا ولي عهده و سلالته.

الفصل الرابع: القرارات التي سيطبقها نظام الحماية يصادق عليها السلطان الشريف باقتراح من الحكومة الفرنسية أو من مفوضيها، و هذا يشمل القوانين الجديدة و التعديلات على القوانين الجارية على السواء.

الفصل الخامس: المفوض المقيم العام يمثل الحكومة الفرنسية لدى السلطان الشريف و للمقيم العام كامل الصلاحيات لتطبيق مقتضيات معاهدة الحماية. المقيم العام هو الوسيط الوحيد بين السلطان و الممثلين الدبلوماسيين الأجانب، كما له كل الصلاحيات فيما يخص الأجانب المقيمين بالمملكة الشريفة.

الفصل السادس: المنتدبون الدبلوماسيون و القناصل الفرنسيون يمثلون الرعايا المغاربة و يدافعون عن المصالح المغربية في الخارج، لا يمكن لصاحب الجلالة الشريفة توقيع أي معاهدة دولية بدون موافقة حكومة الجمهورية الفرنسية.

الفصل السابع: تتعاهد كل من حكومتي الجمهورية الفرنسية و السلطان الشريف على تطبيق الاتفاق المشترك للإصلاح المالي الضروري لضمان مصالح الدائنين للخزينة الشريفة و كذا المحافظة على عائدات الخزينة.

الفصل الثامن: يتعهد صاحب الجلالة السلطان الشريف ألا يقترض لنفسه أو لغيره مالا عاما أو خاصا دون موافقة الحكومة الفرنسية.

الفصل التاسع: هاته المعاهدة تصادق عليها حكومة الجمهورية الفرنسية و ستبعث بها للسلطان الشريف في أسرع وقت ممكن ، يوقع كلا الطرفين هاته المعاهدة بخاتميهما.

إمضاء:

- رونو
- مولاي عبد الحفيظ

و بعد توقيع هذه المعاهدة تم تعيين الجنرال ليوطي أول مقيم عام في المغرب (1912-1925)، وقد احتفظت السلطنة المغربية بكل مؤسساتها وحكومتها، تحت إشراف المقيم العام الذي يمثل فرنسا، بمعنى أن كل الصلاحيات تصبح من مهام المقيم العام، وبذلك فقد المغرب بدوره استقلاله السياسي والاقتصادي.وتطبيقا لاتفاقية 1905م مع اسبانيا بشأن اقتسام المغرب تم توقيع اتفاق 1912/11/27م و الذي بموجبه تم تحديد مناطق النفوذ الاسبانية في الشمال و الجنوب و حول ايفني.[1]

2-3 موقف الشعب المغربي من الحماية المزدوجة على المغرب:

لم يرض الشعب المغربي بدوره بهذا الاحتلال الذي أفقده كيانه السياسي، وحول سلطانه إلى مجرد وسيلة في يد فرنسا واسبانيا، حيث استمرت المقاومة من 1912م إلى غاية سنة 1930م، كانت أخطرها حرب الريف (1921م-1926م) التي كبدت اسبانيا وفرنسا في نهايتها خسائر بشرية ضخمة، ولم تنته إلا بعد التعاون العسكري بين الدولتين واستعمال الغازات السامة والطيران، كما استعملت فرنسا لإخماد الانتفاضات وقمع الشعب المغربي المجندين التونسيين والجزائريين والأفارقة السنغاليين، وقد أشرنا سابقا لما تكلمنا عن

---

[1]- Moulay Abdelhadi Alaoui, le Maroc du traite de Fès à la libération 1912-1956, Rabat-Maroc, édition la porte, 1994, pp 37-43.

التجنيد إلى حرب الريف وكيف استغل المجندون الأهالي في قمعها، زيادة على قمع كل حركة مناوئة للتغلغل الفرنسي في المغرب. ولما هدأت المقاومة المسلحة، ظهر النضال السياسي للدفاع عن الهوية الوطنية وإيقاظ الوعي الوطني.[1]

فمباشرة بعد انتهاء حرب الريف ونفي محمد بن عبد الكريم الخطابي إلى جزيرة (ريونيون) شرق إفريقيا أنشأ بعض الشبان المغاربة ما يسمي (العصبة المغربية) في الرباط، وأنشأ علال الفاسي في فاس اتحادا وطنيا لنشر المبادئ القومية، وصيانة اللغة العربية للحفاظ على الهوية الوطنية، ثم اتحدت الهيئتان سنة 1927م ومنها ظهر "حزب الاستقلال" فيما بعد بزعامة علال الفاسي في ديسمبر 1943م، وهكذا نشطت الحركة الوطنية، واستمرت في نضالها إلى غاية قيام الثورة المسلحة التي أفضت إلى الاستقلال الوطني سنة 1956م.

ب- التنافس الاستعماري على بلدان غرب إفريقيا:

توافد الأوربيون على ساحل إفريقيا الغربي منذ القرن 15م، بدءا بالبرتغاليين لممارسة التجارة وخاصة تجارة الصمغ والذهب والرقيق، وبعد قرنين من الزمن استقر الاسبان ثم الهولنديون ثم الفرنسيون بالمنطقة، وأسسوا مراكز تجارية، واشتدت المنافسة بين التجار الأوربيين إلى غاية 1815م حين سيطر الفرنسيون على السنغال، ثم وقع الفرنسيون عدة معاهدات مع بعض الأمراء[2] ووسعوا نفوذهم بالمنطقة.و قد ركزنا في هذا العنصر على المناطق التي عرفت تواجدا تجانيا وفق ما يتلاءم مع موضوع الدراسة.

1- موريتانيا:

الموريتانيون لم يرضوا بوجود مثل هذه المراكز على أراضيهم وهاجموها لطرد الفرنسيين منها، وكانت موريتانيا مقسمة إلى سبع مناطق على كل منها أمين[3]. وفي 1901م حاول "كوبولاني" فرض السيطرة الفرنسية على منطقة (ترارزة) وتمكن من ذلك، ثم سيطر على براكنا سنة 1904م، وعلى تاغنت عام 1905م، وتمكن بحنكته من إقناع بعض الزعماء المحليين بتوقيع معاهدة حماية مع فرنسا، ولكن الترارزة تمكنوا من قتل (كوبولاني) سنة

---

1 فادية عبد العزيز القطعاني، م،س، ص49.

2 توجد نسخ من بعض هذه المعاهدات محفوظة بأرشيف ما وراء البحار بأكس أون بروفاس، منها معاهدة مع أمير كاجور والفرنسيين.

3 أحمد ياغي، م س، ص170.

1905م، وخلفه الجنرال (غورو) الذي سيطر على منطقة (أدرار) سنة 1909م وأخمد المقاومة الوطنية، ثم تم الاستيلاء الكامل على موريتانيا سنة 1920م وأصبحت جزءا من إفريقيا الغربية الفرنسية.

ولم يخضع الموريتانيون، رغم الهيمنة الفرنسية على البلاد، خضوعا تاما إذ ظهرت المقاومة بزعامة الشيخ ماء العينين، وحتى بعد وفاته استمرت هذه المقاومة إلى غاية عام 1934م، لتظهر بعدها الحركة السياسية التي تزعمها حزبا: الاتحاد الوطني ومنظمة الشباب، الذان توحدا فيما بعد في حزب واحد هو حزب التفاهم المغربي (1948).[1] واستمر النضال إلى غاية حصول البلاد على استقلالها عام 1960م.

2- مالي:

كثف الأوربيون من رحلاتهم باتجاه مالي منذ عام 1859م، وخاصة منهم الفرنسيين الذين توغلوا في البلاد عن طريق نهري النيجر والسنغال بعد مقاومات عنيفة،وتمكنوا من بسط سيطرتهم على المنطقة رغم وقوف الحاج عمر لهم بالمرصاد، وهو ما سنوضحه أكثر لما نتعرض لمواقف التجانية من استعمار غرب إفريقيا وحتمية المقاومة، وقد أكملت فرنسا سيطرتها على المنطقة منذ عام 1898م.[2]

3- النيجر:

في عام 1890م اتفقت فرنسا وبريطانيا على تعيين الحدود واقتسام مناطق النفوذ في وسط إفريقيا، وكانت النيجر من نصيب فرنسا. حينئذ بعثت حملة عسكرية لاحتلالها و أصبحت عام 1904م جزءا من إفريقيا الغربية الفرنسية، ولقيت مقاومة عنيفة في الشمال من طرف الطوارق الذين تأثروا بالحركة السنوسية في ليبيا في التعبئة ضد الاستعمار[3]، وبعد التعاون الانجليزي- الفرنسي تم إخضاع المنطقة كلها سنة 1923م. وبقيت النيجر خاضعة للاستعمار الفرنسي ، و بعد قيام الجمهورية الفرنسية الخامسة في 04 ديسمبر 1958م

---

[1] أحمد ياغي،م س، ص172.

[2] أحمد ياغي، نفسه ، ص210

[3] - محمد حمدي بشير ،تجربة التحول الديمقراطي في النيجر، القاهرة، المكتب العربي للمعارف، 2015-ص221.

تمتعت بالحكم الذاتي تحت الوصاية الفرنسية إلى غاية حصولها على الاستقلال التام في 03 أوت 1960م.

4- فولتا العليا (بوركينافاسو):

أمام ضعف مملكة قبائل (موسي) تمكنت فرنسا من توقيع معاهدة حماية معها سنة 1896م، وبعد ثماني سنوات ضمتها إلى النيجر، ثم أعادتها من جديد كمستعمرة مستقلة سنة 1920م أين أخذت اسم (مستعمرة فولتا العليا)، وبقيت تحت السيطرة الفرنسية إلى غاية إعطائها الاستقلال السياسي عام 1960م[1].

5- السنغال:

في إطار الصراع بين فرنسا وبريطانيا حول مناطق النفوذ في إفريقيا احتلت بريطانيا سان لويس سنة 1758م، ثم عاد السنغال إلى فرنسا بموجب معاهدة 1783م، ثم احتلها الانجليز من جديد، وعلى إثر ذلك عقدت معاهدة في باريس بينهما عام 1818م لتعود بعدها المنطقة إلى فرنسا، وفي عهد نابليون الثالث، وضع مشروع سنة 1848م للتوسع داخل السنغال، وعين الجنرال"فيدارب"حاكما على البلاد وقاد حملات كبيرة لإخضاعها، وواجهته مقاومة اشتدت لعشرات السنين انتهت بالسيطرة الكاملة على السنغال، وأصبحت سان لويس عاصمة لإفريقيا الغربية الفرنسية بعد القضاء على المقاومة، و خاصة المقاومة التجانية بزعامة الحاج عمر بن سعيد أولا ثم خلفائه بعد وفاته عام 1864م.[2]

6- غينيا:

بعد مؤتمر برلين 1885م قررت فرنسا السيطرة على غينيا، ودخلت قواتها مدينة "كوناكري" عام 1887م واضطر حاكم فوتا جالون إلى توقيع معاهدة حماية معها، ولكن "ساموري توري" لم يوافق على الخضوع للاستعمار الفرنسي، خاصة وأنه كان قد تعرض منذ عام 1880م للمعمرين الانجليز و الفرنسيين و أبعدهم عن بلاده، و تحدى القوات الفرنسية رغم تفوقها عددا و امتلاكها الأسلحة الثقيلة.

---

[1] أحمد ياغي، م س، ص216

[2] أحمد ياغي، نفسه، ص226.

كان الفرنسيون يعتقدون أن بإمكانهم ربط منطقة مالنكي في الشرق بأودية الجنوب ثم احتلال المنطقة الغابية، ولكنهم واجهوا مقاومة شرسة من طرف ساموري توري [1] الذي كان يستعمل في جهاده طريقة (الأرض المحروقة) لإيقاف تقدم العدو و حرب العصابات، لأنه لم يكن قادرا على المواجهة المباشرة لعدم تكافؤ القوى بين الطرفين.و منذ عام 1889م ظهرت ضده معارضة داخلية من طرف الوثنيين الذين كانوا يعارضون الإسلام، و ارتكب خطا بمحاولته مد نفوذه إلى شمال ساحل العاج مما أضعف قوته ، ثم خدع من قبل رفقائه و تم أسره في 1898/09/29م من طرف القائد العسكري غورو، و نفي إلى الغابون أين توفي في 1900/06/02م وأصبحت غينيا جزءا من افريقيا الغربية الفرنسية منذ عام 1904م ، و تم تقسيمها إلى أربع مناطق في عام 1920م[2] و بقيت مستعمرة فرنسية إلى غاية استقلالها عام 1958م.

7- ساحل العاج:

في القرن 12هـ/ 18 م وصلت قبائل "الأغنى" و "الأشانتي" من الشرق واستقرت في جنوب البلاد وأسست ممالك، وعقد الفرنسيون معاهدة مع ملك "الأغنى" سنة 1843م فرضوا بموجبها الحماية على تلك الأقاليم، وبعد القضاء على ساموري توري أخضعت البلاد كلها للحماية الفرنسية، وفي عام 1944م أصبحت عضوا في الاتحاد الفرنسي، ثم جمهورية مستقلة عام 1960م.[3]

تلك هي أبرز المناطق التي وصل إليها النفوذ التجاني، حاولنا تتبع كيفية خضوعها للاستعمار لنعرف مواقف التجانية في غرب إفريقيا عموما من قضية المقاومة حتى نقارن هذه المواقف مع مواقفها في شمال القارة.

---

[1] -Muriel Devey, la Guinée, édition Karthala, Paris- 2009, p 111.

[2] - Odile Goerg, couper la Guinée en quatre ou comment la colonisation a imagine l'Afrique, in : vingtième siècle, revue d'histoire no 111 / 2011, Paris, S.E.D.E.T –p 73.

[3] أحمد ياغي، م س ، ص238.

ثانيا: التجانية وإشكالية المقاومة في شمال وغرب إفريقيا

أ- موقفها من المقاومة في شمال إفريقيا

1- الجزائر:

إذا تكلمنا عن التجانيين في الجزائر بصفة عامة، فإن هناك تباينا بين الموقف الرسمي للطريقة من الاستعمار الفرنسي ومن قضية مقاومته، وبين موقف بعض المقدمين والمريدين، ولذلك سنحاول الإشارة إلى كل منهما لتتضح مواقفهما أكثر من هذه القضية التي قادت إلى نزاع مسلح بين الطريقة والأمير عبد القادر سنة 1838م.

1-1- الموقف الرسمي للطريقة التجانية من قضية المقاومة:

أبدت كل الزوايا الكبرى منذ بداية الاحتلال الفرنسي ولاءها الرسمي للاحتلال الفرنسي سواء في عين ماضي أو تماسين أو تقرت، ولكن هل كان هذا الولاء عن اقتناع (بأهمية) هذا الاستعمار بالنسبة للجزائر وفق ادعاءاته بتمدين الجزائريين وتطويرهم، وتفضيلا له عن الأتراك الذين رأوا منهم القمع والاضطهاد، وتسببوا في هجرة شيخهم أحمد التجاني إلى فاس بالمغرب، أم كان مجرد مهادنة لهذا الاستعمار على أساس أن الظروف خدمته وأهلته ليكون السيد الجديد لهذا البلد بعد الأتراك.

كتب الكثير عن هذا الولاء و خاصة من قبل الأجانب ، وكنا نعتبر الكتابات الفرنسية مجانبة للصواب، وأنها تريد فقط زرع التفرقة بين الجزائريين، وضرب هذه المؤسسة الدينية الكبرى التي ذاع صيتها في قارة إفريقيا كثيرا في تلك الفترة من القرن 19م، بعد وصولها إلى تكوين دولة إسلامية في غرب إفريقيا أقلقت الاستعمار، على يد الحاج عمر الفوتي، ولكن الوثائق الرسمية لشيوخ الطريقة، ومراسلاتهم لساسة الاستعمار أثبتت هذا الولاء.

قد يأخذ البعض في تفسير هذا الولاء بالرأي الأول وهو اعتبار التجانيين الوجود الفرنسي في الجزائر استجابة من الله لدعاء شيخهم "أحمد التجاني" ضد العثمانيين بقوله: "اللهم أزل ملكهم كما أزلت ملك المسلمين من اسبانيا"، لأن الطريقة كما ذكرنا عانت كثيرا من حملات البايات العثمانيين على عين ماضي في أواخر عهدهم، ولذلك يرجعون الاحتلال الفرنسي

إلى القضاء والقدر، هذا الرأي تؤيده الباحثة الفرنسية عبلة غزيل بقولها: "التجانية عارضت أية مقاومة للفرنسيين، فذلك قدر الجزائر، وفضلت البقاء في مهمتها الدينية"[1]. ونفس الرأي ذهبت إليه "ايفون توران" في كتابها (المواجهات الثقافية في الجزائر المستعمرة)، حين أكدت أن التجانيين اعتبروا الاحتلال عقابا من الله للمذنب، وكشفا للخطيئة، كما رأوا أن (النصر الفرنسي لا يجب أن يفخر به لأنه ليس من صنع الفرنسيين، وأن الأمة الكبيرة مهما كان عزها، لا توفق في أعمالها مؤقتا وتصبح أداة إرادة فوقية)[2].

أبو القاسم سعد الله له رأي آخر حول موقف الطريقة التجانية من الاستعمار، فهو يرى أن محمد الصغير التجاني بعد مقتل أخيه محمد الكبير في معسكر، عاد إلى زاوية عين ماضي وأخذ قيادة الطريقة، وأصبح يفضل الحياد، واستغل الفرنسيون ذلك بنشر الدعايات حول هذا الموقف الحيادي في رفض مقاومة الفرنسيين.[3] وقد ينطبق هذا الرأي فقط على محمد الصغير التجاني لأن كل خلفائه في عين ماضي أعلنوا ولاءهم بصفة رسمية للفرنسيين، ومعنى ما ذهب إليه أبو القاسم سعد الله هو مهادنة الاستعمار إلى أن تتغير الظروف، ولربما بنى وجهة نظره هذه على الرسالة التي رد بها محمد الصغير التجاني على طلب الأمير عبد القادر بضرورة مشاركته في الجهاد.

1-1-1- محمد الصغير التجاني ومسألة المقاومة:

لما بويع الأمير عبد القادر لقيادة المقاومة ضد الاستعمار الفرنسي، بعث الأمير إلى محمد الصغير التجاني شيخ الطريقة التجانية في عين ماضي، يطلب منه المشاركة في الجهاد ضد المحتل لما لهذه الطريقة من نفوذ على سكان الصحراء. وفي الحقيقة هذه الرسالة تندرج في إطار مراسلات الأمير لكل أعيان البلاد، بعد بيعته الشرعية كأمير، يحثهم فيها على توحيد الصفوف لطرد الاستعمار.

---

[1] Abla Gheziel, op. cit, p215.

هذا الرأي أخذ به أيضا، الأستاذ رضوان شافو في مقاله: "الحملة العسكرية الفرنسية على منطقة وادي ريغ وردود الفعل الشعبية (1854-1875)، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، العدد 14 مارس 2014، جامعة الوادي، ص110.

[2] ايفون توران، م س، ص147.

[3] أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي (1830-1954)، ج4، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1997، ص ص 192-194.

وتوحيد الصفوف هو ما نصت عليه وثيقة البيعة، وتعهد الأمير بالسعي لتحقيقها. فالأمير كان يؤدي واجبه كأمير، وليس كزعيم قادري، حتى نتخذ منه موقفا معارضا، ثم أن الجهاد أصبح في نظر الأمير واجبا على كل مسلم جزائري غيور على وطنه.

من هذا المنطق جرت مراسلة الأمير مع محمد الصغير التجاني، ولكن رد هذا الأخير كان الرفض بأسلوب مهذب لا يوحي بالمعارضة، ورد فيه:

"إنني أرغب في البقاء في هدوء الحياة الدينية، واهتم فقط بالقضايا الروحية، وأنا مع ذلك لا أملك لا القوة ولا النفوذ الذي يفترض في، وإذا كان من مشيئة الله الذي أتى بالفرنسيين إلى بلد مسلم أن يطردهم، وأن يدفعهم إلى عبور البحر ثانية، فإنه لا يحتاج إلى ساعدي لإتمام هذا العمل المقدس. إن هدوء الحياة الدينية التي انصرفت إليها جعل من واجبي قيادة أولئك الذين ارتبطوا بي في ظل احترام الله والمحافظة عليهم، بعيدا عن النزاعات الدنيوية التي لا نستطيع التنبؤ بنهايتها"[1]. وهكذا عزل الشيخ محمد الصغير نفسه منذ البداية عن أي مجهود وطني في الجهاد، متخذا موقفا معارضا من المقاومة الوطنية تحت ستار الإيمان بالقضاء والقدر، واعتبر المقاومة أمرا دنيويا لابد من الابتعاد عنه، وذلك لا يبرر شرعية موقفه في نظرنا.

لقد تضاربت الآراء حول سبب رفض الشيخ محمد الصغير التجاني المشاركة في الجهاد إلى جانب الأمير عبد القادر، فالضابط "رين" يرى أن التجاني كان متيقنا من هزيمة الأمير، كما أنه ليس هناك ما سيربحه في حالة انتصاره لأن الشمال كان تحت نفوذ طرق صوفية أخرى منها القادرية[2]. و"رين" ركز بذلك على الانتماء الطرقي لكل منهما، وليس على الانتماء الوطني، مكرسا بذلك سياسة التفرقة التي تعود عليها الاستعمار، أما عمار هلال، فيرى أن التجارة المزدهرة التي أقامها التجانيون بين عين ماضي وغرب إفريقيا

[1] Louis Rinn, Marabouts et Khouan, étude sur l’Islam en Algérie, Adolphe Jourdan, Alger, 1884, P426.

[2] Louis Rinn, « nos Frontières sahariennes à L’ouest du Djebel Amour et les ouled sidi cheikh avant 1864 » in : Revue Africaine N° :30/1864, Alger, O.P.U, P181.

وضرورة المحافظة عليها، وعلى الأرباح الهائلة التي يجنونها منها كانت وراء رفض الشيخ محمد الصغير للمشاركة في المقاومة.[1]

إسماعيل العربي يرجع هذا الرفض إلى الطموح السياسي للشيخ محمد الصغير التجاني[2] الذي كان حسبه يرغب في استرجاع النفوذ والمكانة التي فقدها بوفاة والده، وتحول هذا النفوذ إلى الحاج علي التماسيني، ثم بروز الأمير عبد القادر الذي يريد بدوره الاستحواذ على هذا النفوذ، ولعل السبب الحقيقي - في نظرنا- هو تلك الحساسية الموجودة بين الطريقة التجانية وأهل الحشم منذ مقتل أخيه محمد الكبير أثناء ثورته على الباي حسن في ضواحي معسكر سنة 1826م بمنطقة عواجة، والتي يتهم فيها التجانيون سكان الحشم بخذلان محمد الكبير، وتركه وحده يقاتل جيش الباي حتى قضي عليه، وعلى أفراد جيشه عن آخرهم، وهو الرأي الذي عبر عنه أيضا صاحب (وشائح الكتاب) بقوله:

"وكان الدافع له لمحاربة الأمير (يقصد محمد الصغير التجاني) حزازة نفسية، وعواطف دينية، واعتقادات مذهبية[3]، لها نصيب من المبررات عندما نمعن النظر في التاريخ وندرسه دراسة حيادية لا لهذا ولا على ذلك."[4]و تذكر بعض الكتابات التاريخية أيضا أن محمد الصغير التجاني كان مصمما من البداية على مهادنة الاستعمار الفرنسي ، بدليل أن أعيان منطقة الأغواط قدموا إليه قبل مراسلته من الأمير، طالبين منه إعلان الجهاد و مبايعته أميرا ، لكنه رفض متحججا بأنه لايوجد في الصحراء ما يساعد على الحرب.[5]

وبعد فشل كل المساعي بينهما، وحتى يجبر الأمير الشيخ محمد الصغير على العدول عن رفضه، اضطر إلى محاصرة عين ماضي سنة 1838م.

---

[1] عمار هلال، الطرق الصوفية ونشر الإسلام والثقافة العربية في غرب إفريقيا السمراء، الجزائر، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، 1988، ص126.

[2] إسماعيل العربي، المقاومة الجزائرية تحت لواء الأمير عبد القادر، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، ط2، 1982، ص171.

[3] الأمير عبد القادر اتهم التجانية بالخروج عن المذهب المالكي بذكرهم البسملة في الصلاة، ومحمد الصغير اعتبر المسألة مسألة اجتهادية مستنبطة من المقارنة بين المذهبين المالكي والشافعي، فالأول يكرهها والثاني يبطل الصلاة بدونها فاختار التجاني الكراهية على البطلان.

[4] قدور بن رويلة، وشائح الكتاب وزينة الجيش المحمدي الغالب، تقديم وتحقيق محمد بن عبد الكريم، ط1، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1980، ص96.

[5] -Fatiha Sifou, les premières réactions politiques algériennes face à la conquête française (1830-1834), revue des sciences humaines, n.10 -juin 2016, faculté des sciences humaines et sciences islamiques, université d’Oran,1-Ahmed Benbella , p.46.

2-1-1- حصار عين ماضي 1838م وأثره على المقاومة الوطنية:

في 1838/06/05م خيم الأمير بجيشه تحت أسوار مدينة عين ماضي، وبدأ بمحاصرتها. ويروج "رين" لفكرة مساعدة أولاد سيدي الشيخ للأمير في صراعه مع التجانيين، لإضعاف الطريقة التجانية التي كانت منافسة لهم في الصحراء،[1] وهي في نظرنا مجرد اتهامات، لأنه ليس هناك ما يشير إلى هذه المساعدة، وأن الأمير اعتمد على نفسه وعلى جيشه لتوحيد الصفوف، ومقاومة أي انشقاق في هذا الظرف العصيب الذي تمر به البلاد، ولو أن بعض المراجع تشير إلى عثور الأمير على رسالة بعثها التجاني إلى سكان الأغواط يستنفرهم ضده، فتحرك الأمير على أساسها لإعادته إلى صف المقاومة.[2]

وحتى يطمئن الأمير عبد القادر التجاني بأنه قادم فقط لإعادة اللحمة إلى جبهة المقاومة وتوحيد الصفوف، بعث إليه وفدا من 20 فارسا على رأسهم "ليون روش"[3] ولكن التجاني جمع قوته ورفض الاستجابة لنداء الأمير وتحصن بقصره، وهنا لعب "ليون روش" دورا كبيرا في تحقيق التباعد بين الرجلين بعد تعيينه مفاوضا من قبل الأمير، وحقق هدفه بحدوث المعركة وبداية قصف الأمير لحصن عين ماضي، وعمل على تبذير الذخيرة حتى يستمر الصراع ويضعف الطرفين.[4] ولم يكتشف الأمير أمر هذا الجاسوس إلا في منتصف نوفمبر 1839م بعد فراره إلى مركز الجيش الفرنسي بوهران.

لم يتمكن الأمير من دخول القصر، واستمر حصاره لمدة تقارب الستة أشهر، وقد أجهد التجاني وأصحابه الجوع والعطش والخوف، واضطر في النهاية إلى قبول تسليم القصر على شروط منها:

---

[1] Louis Rinn, nos Frontières sahariennes, op.cit, p 181.

[2] يوسف مناصرية، مهمة ليون روش في الجزائر والمغرب (1832-1847)، الجزائر، م.و.ك، 1990، ص29.

[3] ليون روش، ولد في غرونوبل بفرنسا في 1809/09/27 م من أبوين فرنسيين، وتوفي في نفس المدينة في 1901/06/26م، بدأ دراسته في ثانوية مدينته ثم في ثانوية تورنون التي نال منها شهادة البكالوريا سنة 1828 ثم دخل معهد الحقوق في غرونوبل، وكان واسع الطموح ميالا للمغامرة، فانقطع عن الدراسة وتحول إلى مهنة التجارة بمرسيليا، كان أبوه روش ألفونس ملحقا بخدمات العتاد العسكري بالجزائر منذ 1830 وكانت له مزرعة في سهل المتيجة، التحق بها روش سنة 1832 وعاش وسط الأهالي الجزائريين، تعلم العربية، ولوساطة أبيه، عين ملازما في الحرس الوطني، ولما حضرت اللجنة الإفريقية عام 1833م عين مترجما ، ثم أصبح مترجما في الجيش عام 1835م، وكان يمارس الجوسسة قبل التحاقه بالأمير.

وأثناء توقيع اتفاق التافنة 1837م، ادعى اعتناقه للإسلام والتحق بالأمير، وبدأ عهدا جديدا كجاسوس إلى غاية عودة القتال بين الأمير وفرنسا عام 1839، أين التحق من جديد بالجيش الفرنسي.ينظر:أحمد بن الشين، م س ، ص89.

[4] يوسف مناصرية، م س، ص30.

- دفع تعويضات للأمير
- الجلاء عن المدينة في مدة أربعين يوما
- السماح له بنقل جميع أمواله القابلة للنقل
- السماح لأنصاره بمرافقته بأسلحتهم
- يرفع الأمير الحصار عن المدينة، ويتراجع عنها بجيشه، حتى يتمكن التجاني من الخروج
- - يضع التجاني ابنه رهينة عند الأمير.

ورفع الحصار فعلا عن الحصن يوم 1838/12/02م وتراجع الأمير إلى تاجموت، وعاد إلى عين ماضي في 1839/01/12م وفجر أسوار الحصن، ورجع إلى معسكر.

ومهما تصلب الطرفان في مواقفهما، فإنه من الأكيد أن المقاومة الوطنية هي الخاسر الأكبر لأن هذا الصراع زاد من تشتت الصفوف وقرب أكثر التجانية من الاستعمار، وهو الهدف الذي حققه ليون روش لبلاده.

3-1-1- مواقف بقية الزوايا التجانية الكبرى، تماسين وقمار من المقاومة الوطنية:

المواقف الرسمية للزوايا التجانية الكبرى من قضية المقاومة الوطنية كانت كلها متشابهة ومنها ما لاحظناه على زاوية تماسين وقمار. فالحاج علي التماسيني الذي خلف الشيخ أحمد التجاني على رأس الطريقة التجانية، وكان يمارس نشاطه من زاوية تماسين، أبدى من البداية رفضه للمشاركة في المقاومة، ولم يستجب لا لنداءات الأمير، ولا لطلب سكان الجهة الشرقية بضرورة الجهاد لما قدم الدوق "دومال" سنة 1844م إلى تماسين، حيث حث السكان على تقبل الوضع بقوله: "إن الله أعطى الجزائر للفرنسيين وكل الأوطان التي تنتمي إليها، فهو الذي يحمي سيطرتهم، فلتبقوا في سلام، ولا تطلقوا النار عليهم، الله حرركم من مضطهديكم الذين لا يعرفون سلوكا آخر غير العنف، أتركوا غيركم يفعلون ما يريدون لأنه يظهر، رغم كونهم كفارا، أنهم سلكوا طريق العدالة والحكمة، الذي بواسطته يعم الخير الجميع، الحق يتبع الحق، كل ما يأتي من الله يجب أن يحترم."[1]

[1] Louis Rinn, Marabouts et Khouan, op.cit, P427.

بعد وفاة الشيخ الحاج علي التماسيني سنة 1853م، خلفه على رأس زواية تماسين ابنه محمد العيد التجاني[1]، وحدث أن ثار الشريف بوشوشة[2]، وقرر مهاجمة توقرت التي كانت بها حامية فرنسية بقيادة مارميي (Marmier)، وقد وقع اتفاق بين أهالي توقرت والشعانبة لمساعدة بوشوشة في هجومه.

وفعلا تمكن من دخول توقرت في 13 ماي 1855 م بقوة قدرت بـ 900 مقاتل بعد مقاومة ضعيفة من الحامية الفرنسية. هذا الانتصار العسكري أراد أن يضيف إليه تأييد التجانية لما لها من تأثير في نفوس أتباعها، فاتجه إلى تماسين مقر الزاوية وطلب تأييدها ولكنه لم يحقق أية نتيجة، حيث رفض محمد العيد التجاني استقباله قائلا:"بمشيئة الله دخل الفرنسيون إلى الجزائر، وإن حكومتهم دائمة فاحترس".[3] فغادر بوشوشة توقرت بعد ذلك متجها إلى عين صالح، وكان لهذا الرفض تأثيره الواضح على سير المقاومة في المنطقة.

والمعروف أن محمد الصغير التجاني لما توفي سنة 1853م، خلف ولدين صغيرين، مع مجموعة من البنات أم كل منهما كانت أمة طلقهما قبل وفاته، وبعد البحث عنهما تم العثور عليهما وأعيدا إلى عين ماضي وهما: أحمد عمار والبشير، وتكفل بتربيتهما وكيل زاوية عين ماضي ابن المشري ريان، وانتقلت الخلافة إلى محمد العيد التماسيني، وحتى لما كبر الولدان وأصبح أحمد عمار شيخ زاوية عين ماضي، ورغم الانقسام الذي ظهر بين الزاويتين، فإن نقطة التشابه بينهما كانت إظهار الولاء العلني للاستعمار.

فحمد العيد التجاني في تماسين زيادة على رفضه المقاومة، جهر بولائه للقادة العسكريين وللحكومة العامة الفرنسية في الجزائر وكان يجدد ولاءه للاستعمار باستمرار، ربما خوفا على مصالح زاويته من الضغط الاستعماري، لأن جميع رجال الطرق كانوا مجبرين على الحصول على رخصة لزيارة زواياهم المنتشرة في البلاد وخارجها أيضا، وجمع أموال

---

[1] محمد العيد التجاني: هو محمد العيد بن الحاج علي التماسيني من مواليد 1815م ببلدة تماسين، نشأ في حضن أسرته فحفظ القرآن وتعلم مبادئ الشريعة الإسلامية، وبعد وفاة والده خلفه في قيادة الزاوية التجانية بتماسين من 1853م إلى وفاته عام 1875م. ينظر: رضوان شافو، م.س، ص114.

[2] بوشوشة: هو محمد بن التومي بن إبراهيم الغيشاوي المعروف بـ (بوشوشة) من مواليد الغيشة بجبال عمور، ولد في 1826م، تزعم المقاومة ضد الفرنسيين، ولما ضعفت قوته اعتقل في 1862م وأدخل سجن بوخنيفيس قرب سيدي بلعباس، ثم فرمن السجن عام 1863م وواصل المقاومة في عين صالح وتوسعت حركته بعد انضمام بن ناصر بن شهرة إليه سنة 1869م. ينظر: محمد الأخضر عبد القادر السائحي، مدونة أشغال ملتقى الشريف محمد بن عبد الله بورقلة، جمعية الانتفاضة الشعبية 27 فبراير، 25-27 فبراير 1998م، ص14.

[3] رضوان شافو، م س، ص110.

الزيارة، وتحصيل المنتجات وغيرها، مما يعني الخضوع لمراقبة الاستعمار، وهناك وثائق رسمية كثيرة مختومة بختم محمد العيد التجاني مرسلة إلى قادة الاستعمار يستعطفهم ويجدد لهم ولاءه.

بعد محمد العيد جاء دور معمر بن الحاج على التماسيني الذي سار على نهج أسلافه في الولاء للفرنسيين.[1]

وهذه الوثائق الرسمية لازالت محفوظة بالأرشيف الوطني لما وراء البحر، ثم جاء دور محمد العروسي التجاني في زاوية قمار، ووثائقه التي يجهر من خلالها بالولاء وخدمة الاستعمار كثيرة[2].

ولما أصبح أحمد عمار على رأس زاوية عين ماضي، لم يظهر أي معارضة للاستعمار كما لم يؤيد أية مقاومة تذكر، رغم أن بعض المراجع تذكر تأييده لثورة أولاد سيدي الشيخ ولحركة بن ناصر بن شهرة وتذهب إلى حد اعتبار هذا التأييد سببا في اعتقاله بالجزائر العاصمة، ثم نقله إلى فرنسا ببوردو أين التقى بالفرنسية أوريلي بيكار واتفق معها على الزواج.

يأخذ بهذا الرأي يحي بوعزيز حين يقول: "وفي عام 1869م وصلت حركة ابن شهرة بن ناصر إلى عين ماضي مركز التجانيين، فأظهر شيخها ميله لها مما دفع السلطات الفرنسية إلى اعتقاله يوم 10 فيفري 1869"[3].

ولكن أحمد عمار التجاني نفسه لما نقل إلى العاصمة كذب ذلك، واعتبرها مجرد إشاعات للإساءة لسمعته، واعترافاته تؤكد ذلك[4]. وهذا الإبعاد حسب التقارير الفرنسية كان هدفه

---

[1] استشهدنا فقط ببعض الوثائق التي أدرجناها في الملاحق منها:
- وثيقة مختومة بختمه مؤرخة في 30-12-1882، وهي رسالة ولاء للحاكم العام
- رسالة ولاء من معمر بن الحاج علي التماسيني أيضا إلى القائد العسكري لقسنطينة الجنرال فورجمول، العلبة 16h3أرشيف ما وراء البحر، أكس أون بروفانس.

[2] ينظر: بعض الوثائق التي استشهدنا بها، مدرجة أيضا في الملاحق منها.
- رسالة ولاء للجنرال دولاروك حاكم قسنطينة، مؤرخة في 1894/11/10م.
- رسالة ولاء وتهنئة بدخول العام الميلادي الجديد إلى قائد المكتب العربي بقسنطينة، مؤرخة في 1905/12/25م، العلبة 16h3.

[3] يحي بوعزيز، كفاح الجزائر من خلال الوثائق،الجزائر، دار البصائر للنشر والتوزيع، 2009، ص140.

[4] هناك وثيقة عثرنا عليها، يتوسل من خلالها أحمد عمار للسلطات الفرنسية لإعادته إلى عين ماضي لما كان في بوردو ويبرئ نفسه من كل ما سماه بالوشاية، موجهة إلى الحاكم العام للجزائر، بين فيها أن خدماته لفرنسا لم تنقطع منذ اعتلائه

تهدئة الوضع في المنطقة، وخوفا من التأثير عليه إذا بقي في عين ماضي، خاصة وأنه كان شابا صغيرا لا يتعدى عمره في سنة 1869م 19 عاما.

أما أخوه البشير، فلم يعتقل معه في البداية، حيث تشير كل التقارير الفرنسية أن أحمد عمار نقل بمفرده إلى العاصمة، ووفر له الفرنسيون مبنى خاصا، به كل شروط الاستقرار، وبعد فترة قدم أخوه البشير لزيارته والتوسل للسلطات الفرنسية بإعادته إلى بلدته، فارتأت هذه الأخيرة نقله معه فيما بعد إلى فرنسا حتى لا يحس بالوحدة[1]، وبعد فترة قضاها معه تم إرجاعه إلى عين ماضي لتسيير شؤون الزاوية ريثما يعود أخوه أحمد عمار.[2]

ورسائل الولاء كثيرة ، يعبر من خلالها كلها شيوخ التجانية في الزوايا الكبرى المذكورة عن حبهم لفرنسا واستعدادهم لتقديم كل الخدمات التي تحتاجها، وهذا الولاء هو الذي دفع المارشال فالي إلى التفكير في تعيين أحد شيوخ التجانية كقايد على منطقة الأغواط تبعا لولائه الكبير، كما قال.[3]

وازداد تقرب زاوية عين ماضي أكثر من الفرنسيين بعد زواج أحمد عمار بالآنسة أوريلي بيكار التي يعتبرها الفرنسيون ضمانا لنفوذهم على التجانية وضمان مصالح الاستعمار. والوثائق التي تشير إلى هذه الثقة في شخص السيدة بيكار موجودة كذلك، رغم أن التجانيين يعتبرونها في صفوفهم، وأنها قد أسلمت وأخذت اسم آمنة التجاني.

2-1 موقف بقية الزوايا الصغرى.

اتخذنا زاوية تلمسان نموذجا للزوايا الرافضة للاستعمار والداعية للمقاومة، وهناك تقارير كثيرة صادرة عن الضباط الفرنسيين، توضح متابعة الإدارة الاستعمارية لما يجري في هذه الزاوية التي كان يديرها المقدم الطاهر بوطيبة، فهذا الأخير كان محل اهتمام السلطات الفرنسية بتحريضه على الثورة في المنطقة ، ومحاولته الاتصال بأهالي المناطق المجاورة

خلافة زاوية عين ماضي، وآخرها كما قال: توقيعه على دعوة للجزائريين للمشاركة في حرب 1870م، وذهابه بنفسه لرفع معنويات المقاتلين الجزائريين هناك. الرسالة مختومة بختمه الخاص، وموقعة بتوقيعه.
العلبة 16h3 أكس أون بروفانس، أرشيف ما وراء البحر.

[1] وثيقة تشير إلى زيارة سي البشير لأحمد عمار في العاصمة مؤرخة في 1870/05/21 م العلبة 1643 أرشيف ما وراء البحر، أكس أون بروفانس.

[2] وثيقة إعادة سي البشير إلى عين ماضي، مؤرخة في 1871/01/25م تحت رقم 61.أكس أون بروفانس Fonds G.G.A-16h3.

[3] Note du maréchal Valée-(juillet 1839)-16h73, A.N.O.M-Aix.

لجمعهم على كلمة الجهاد، وكان يوزع المناشير حسب مسؤول المكتب العربي بتلمسان، لمقاطعة الإدارة الفرنسية والثورة على الاستعمار، ولما سمع شيخ زاوية عين ماضي بنضال هذا المقدم، تبرأ منه وأعلن إقالته من مهامه.

2- تونس:

1-2 موقف الطريقة التجانية من الحماية الفرنسية على البلاد:

يظهر أن الطريقة التجانية في تونس، لم تغير مواقفها المساندة أو المهادنة للاستعمار، حيث بمجرد فرض الحماية على هذا البلد سنة 1881م، كانت في مقدمة الطرق الصوفية التي أعلنت ولاءها له، فالشيخ المنوبي العمراني، شيخ زاوية بوعرادة، استقبل بنفسه الجيش الفرنسي وكان دليله في منطقته، وأمر القبائل بملازمة الهدوء والامتثال للنفوذ الفرنسي وسهل بذلك الأمر للقوات الفرنسية. نفس الموقف سجلته زاوية باب منارة، والتي ساهمت في تهيئة المناخ المناسب للنفوذ الفرنسي، حتى أن القائد سيون (Cyone) كان يشارك كل جمعة في المائدة التي تنصب بالزاوية،[1] لكن هذا لا يعني أن كل الزوايا التجانية كانت مساندة للاستعمار، فزاوية الكاف مثلا: حرضت قبائل ورتان والخماسة على الثورة مما اضطر القوات الفرنسية بقيادة دولاروك للهجوم عليها وإخضاعها، وفرضت عليها غرامة مالية، وبمجرد رحيله عادت من جديد للتمرد.

لكن هذه الزوايا الثانوية لم تكن مؤثرة على الاستعمار ما دامت الزوايا الرئيسية في صفه.

2-2- موقف الطريقة من أحداث الجنوب التونسي:

عرف الجنوب التونسي ثورة عارمة ضد الاستعمار الفرنسي- وقد سبق لنا الإشارة إليها - ولما بادر أحد مقدمي التجانية الشيخ أحمد إلى إعلان الجهاد في الجنوب لمؤازرة الثوار في 1882م، قام شيخ الطريقة بالجزائر بعزله في مارس 1883م بعد إرسال مبعوث له إلى تونس.[2]

---

[1] التليلي العجيلي، م س، ص ص 115-117.

[2] - التليلي العجيلي، نفسه، ص145.

كما وصل الشيخ محمد الصغير التجاني من تماسين إلى تونس في جويلية 1885م لطمأنة المقيم العام وإقناعه بالولاء للفرنسيين، وهو الذي دفع بول كامبون بعد ذلك إلى التصريح: بأن(التجانية بالنسبة لفرنسا أداة من الطراز الأول للصمود في وجه دعاية الجامعة الإسلامية لأن أتباعها هم الأعداء الطبيعيون للطريقة السنوسية.)[1]

وميل التجانية إلى المهادنة إزاء دخول الاستعمار الفرنسي إلى تونس، ساهم في تيسير مهمة القوات الفرنسية في السيطرة على معظم مناطق البلاد.

3- المغرب الأقصى:

استنادا إلى أن السلطان هو أمير المؤمنين، وهو المخول باتخاذ كل القرارات التي يراها صالحة للمجتمع المغربي، وأن الكل مطالب باحترام إرادة السلطان، فحضور الزاوية مهما كان انتماؤها الطرقي في المجتمع رهين إرادة السلطان، أي أنها غير قادرة على فرض ذاتها في المجتمع دون إرادته، فهو المرجعية الدينية الوحيدة في البلاد.[2]

انطلاقا مما سبق، فالطرق الصوفية في المغرب أصبحت مؤسسات مخزنية، مهمتها تمثيل المخزن مع نهاية القرن 19م وبداية القرن 20م مقابل تمتعها بامتيازات واسعة. وبعد خضوع البلاد للحماية منذ عام 1912م، انتقلت الوصاية المخزنية إلى الوصاية الاستعمارية، و للحفاظ على امتيازاتها لجأ زعماؤها إلى إقناع أتباعهم بإيجابيات الاستعمار. وبالتالي فالطريقة التجانية حافظت في المغرب الأقصى على نفس روح الولاء للاستعمار في بقية مناطق الشمال الإفريقي، حيث اعتبرت الاستعمار قدرا محتوما لا مفر منه[3]، بل وراسل الشيوخ التجانيون أتباعهم في المغرب لتقبل الاستعمار والعيش في ظله،وهو ما ذهب إليه أيضا "بول أودينو" الذي قال: " خلال السنين الستين الأخيرة، كانت التجانية تقدم

---

[1] Green (A.H) « French islamic Policy in Tunisia 1881-1918, a prelimmary inquiry » revue d'histoire maghrébine, N°3- janvier 1975, imp. de l'UGTT, Tunisie, P05.

[2] Abdellah Laroui, Les origines sociales et culturelles du nationalisme marocain 1830-1912 centre culturel arabe, Casablanca, 1993, P143.

[3] قاسم الحادك، الزوايا والطرق الصوفية في المغرب، من خدمة المخزن وتكريس شرعيته إلى مسالمة المستعمر ومهادنته، مجلة الدراسات والبحوث الاجتماعية، جامعة الوادي، العدد الأول، سبتمبر 2013م، ص68.

لنا العون، ومنذ سنة 1911م، ونحن نستغل نفوذها القوي في جنوب المغرب، وموريتانيا والريف".[1]

ب- موقف الطريقة التجانية من قضية المقاومة في غرب إفريقيا:

لاشك أن المواقف التجانية من الاستعمار الغربي في غرب إفريقيا كانت مختلفة تماما في البداية عما سجلناه من مواقف في شمال إفريقيا، و ربما يعود ذلك إلى اختلاف أوضاع الإقليمين ، إذ ارتبط جهاد التجانيين في غرب إفريقيا أولا بمحاربة الوثنيين، و محاولة نشر الإسلام في مختلف مناطق هذا الإقليم، قبل الاصطدام بالتوسع الاستعماري ، ليجدوا أنفسهم أمام وضع جديد أكثر خطورة من الوثنيين، برر أيضا حتمية الجهاد ضد الكفار، أما شمال إفريقيا فكان كله إسلاميا ، و التجانية لما ظهرت بالجزائر عانت ظروفا صعبة على يد الأتراك قبل وصول الاستعمار الفرنسي، مما جعل هذه الظروف تؤثر –ربما- في مواقفها.

مرت مقاومة التجانيين في غرب إفريقيا بمرحلتين أساسيتين هما : المقاومة المسلحة في عهد الحاج عمر الفوتي و خلفائه من منتصف القرن 19م إلى نهايته ، ثم المقاومة السلمية خلال النصف الأول من القرن 20م .

أولا- المقاومة المسلحة في عهد الحاج عمر الفوتي و خلفائه

1- المقاومة المسلحة في عهد الحاج عمر الفوتي :

ارتبطت حركة الجهاد في هذه المرحلة بشخصية إسلامية رجعت من الحجاز عام 1832م، وهي أكثر حماسا لنشر الإسلام و التعاليم التجانية، و أكثر تصميما على اقتلاع جذور الوثنية من غرب إفريقيا، بل وحتى تصحيح إسلام مسلمي المنطقة، و الذي ارتبط كثيرا بالتقاليد الوثنية ، موجها اللوم إلى الأمراء المسلمين المحليين الذين كانوا سببا في تراجع الإسلام في المنطقة بتقاعسهم و تسامحهم المفرط ، و إلى رجال الطريقة القادرية.[2]

[1] روم لاندو، تاريخ المغرب في القرن 20، ترجمة نيقولا زيادة، بيروت، دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع، 1980، ص141.

2-أحمد بن الشين، م س، ص 74.

1-1- نبذة عن حياة الحاج عمر الفوتي(1797م-1864م):

هو فقيه مالكي ، و صوفي تجاني ، ينتمي إلى عائلة "تال" الفولانية التوكولورية بالسنغال ، غرب إفريقيا.ولد في 01 رمضان 1211ه الموافق ل 28 فبراير 1797م بقرية حلوار في منطقة "فوتاتور" بضاحية مدينة "بودور"[1] في السنغال، من والدين شريفين: سعيد بن عثمان تال، و آدم سخنة التي كان عمر أصغر أولادها العشرة.[2]

حفظ عمر القرآن الكريم و درس مبادئ الدين الإسلامي و قواعد اللغة العربية على يد والده سعيد بن عثمان و عمره اثنى عشر عاما، و بعده قرر مواصلة دراسته في بعض المراكز العلمية المشهورة آنذاك ، فاتجه إلى موريتانيا و استقر بولاتة ، أين تعمق في قواعد اللغة العربية و أخذ العلوم الدينية الأخرى (التوحيد- السيرة- الفقه المالكي- التفسير-الحديث..) و خاصة على يد مولود فال الشنقيطي الذي أخذ عنه الطريقة التجانية.[3] لما بلغ الثلاثين سنة انتقل إلى فوتاجالون ، و تعمق في أصول الطريقة التجانية على يد الشيخ عبد الكريم بن أحمد الناقل، كما لازم الشيخ إبراهيم بن محمد بن مصطفى الديولي في منطقة "كونغ"[4]و أخذ عنه علم التوحيد و المنطق ، ثم عاد إلى حلوار و حظي بتقدير كبير من أهالي قريته.

في سنة 1826م عزم على الحج و ودع ذويه ، متوجها نحو جنوب الصحراء بدلا من المغرب العربي ، فزار أولا أحمد بن حمد لوبو أمير دولة ماسينا الإسلامية بمالي، ثم مر بإقليم آهير بالنيجر قبل أن ينزل في نوفمبر 1826م بصوكوتو عاصمة الدولة الإسلامية بشمال نيجيريا، و التي أسسها الشيخ عثمان بن فودي (ت1817 م)، بعدها مر بإمبراطورية "برنو"و مكث قليلا عند أميرها محمد الأمين ، ثم وصل مصر و منها دخل الحجاز بحرا ، و هناك التقى بشيخه محمد الغالي المغربي الذي قضى ثلاث سنوات في خدمته، و لما عزم على العودة إلى بلده عينه خليفة للطريقة التجانية بالسودان الغربي. ودعه الحاج عمر اثر ذلك سنة 1829م ، متوجها إلى مصر ثم بيت المقدس و دمشق ثم فزان بليبيا ثم برنو، حتى

1- عبد الحكيم بن تركية ، التوسع الاستعماري الفرنسي في السودان الغربي و مقاومة ساموري توري 1854-1914م، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث و المعاصر -1996م ، معهد التاريخ- جامعة الجزائر، ص 22.

2 -Ka Thierno, Ecole de Pir Saniokhor, histoire, enseignement et culture arabo-islamique au Sénégal du 17e au 20e siècle, édit.Gia-Dakar, Sénégal-2002,p 359.

3- عبد الحكيم بن تركية، م س، ص 23.

4- مدينة تقع حاليا في شمال شرق ساحل العاج في مقاطعة تشولوغو.

وصل إلى صوكوتو سنة 1832م أين استضافه أميرها محمد بيلو بن عثمان الذي زوجه بنته مريم و أشركه في نشاطات الدولة سياسيا و دينيا.[1]

بقي بصوكوتو أكثر من خمس سنوات، اكتسب خلالها تجربة سياسية عن طريق المشاركة في ادارة البلاد و خبرة عسكرية بمشاركته في عدة حروب ضد الطامعين في البلاد ، و هو ما أهله فيما بعد لتكوين امبراطورية تجانية. اتجه سنة 1838م الى مملكة ماسينا و كان في طريقه ينشر تعاليم الطريقة التجانية .مكث بمدينة حمد الله بماسينا تسعة أشهر ثم اتجه الى نيامينا[2] ثم كانغابا[3] ، التي أخذ حاكمها ورد التجانية ، ثم استقر بكانكان[4] عاصمة الاقليم ما يقارب سنتين مكونا عددا كبيرا من الأتباع، و محضرا إياهم للجهاد، ثم اتجه الى دياجنكو عام 1840م لتنظيم جهاده.[5]

بعد دياجنكو اتجه إلى فوتاجالون أين أسس زاويته في مدينة دينغراي (بشرق غينيا حاليا) مقابل جزية سنوية يدفعها للأمير الوثني "يمباساكو"الذي كان يسيطر على المنطقة و ظل هناك لمدة ثلاث سنوات (1851-1849م) يهيء أتباعه و يشتري الأسلحة لفتح المدن الوثنية.[6]

2-1- جهاده ضد الوثنيين:

أصبحت زاوية الحاج عمر بدينغراي مركزا هاما لنشر نشاطه الديني و الثقافي الذي تمكن من خلاله من جذب الكثير من السكان للطريقة التجانية ، كما مكنه من نشر روح الحماس لدى أتباعه للمشاركة بقوة في حركة الجهاد التي عزم عن طريقها على إقامة إمبراطورية إسلامية تجانية. وأول من مستها هذه الحركة الجهادية المدن الوثنية . ففي عام 1852م قيل عن الحاج عمر أنه سمع صوتا يناديه للجهاد ، و اعتبر ذلك دعوة من الله ، و كون جيشا من خمس فيالق : ثلاثة منها من التوكولور، و الاثنان الآخران من المنضمين للإسلام ، و كل فيلق قسم إلى ثلاثة أذرع، مجموع أفراد جيشه في البداية وصل إلى حوالي اثني عشر ألف مقاتل ، ازدادوا مع مرور الوقت ليصلوا إلى ثلاثين ألف مقاتل، و هؤلاء الأفراد كانوا

---

[1] - محمد المنتقى تال، الجواهر و الدرر في سيرة الشيخ الحاج عمر، ط1- بيروت، دار البراق، 2005، ص 47.

[2] - نيامينا: مدينة بمالي بمقاطعة كوليكورو في الجنوب على الجهة اليسرى لنهر النيجر.

[3] - كانغابا: مدينة بمالي بمقاطعة كوليكورو أيضا تبعد عن باماكو بحوالي 100 كم.

[4] - كانكان: هي حاليا مدينة تابعة لجمهورية غينيا في الشمال الشرقي على نهر ميلو، و هي ثاني أكبر مدينة بعد كوناكري.

[5] - عبد الحكيم بن تركية، م س، ص 25.

6- عامر صمب ، الأدب السنغالي العربي، ج 1، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، 1978م-ص 48.

ممن آثروا التخلي عن آبائهم و أمهاتهم من أجل الجنة. و تأسيا بالرسول صلى الله عليه وسلم ، سمى من انضم إليه من سكان دينغراي بالأنصار، و من هاجر معه إليها بالمهاجرين.[1]حارب في البداية حاكم إقليم دينغراي و هزمه، ثم غزا مدينة "البامبوك "الغنية بمناجم الذهب، ثم سيطر على إمارة "كارتا" و دخل عاصمتها "نيورو"، ثم إمارة "خاسو"، ثم منطقة "غالام" في حوض السنغال الأوسط، و أصبحت المناطق تتساقط الواحدة تلو الأخرى، و تمكن الحاج عمر من نشر الإسلام و التعاليم التجانية في كل هذه المناطق معتمدا على القوة، و عدم التسامح حتى مع المسلمين المعارضين له.[2]

كان منهج الحاج عمر صارما في الدعوة للإسلام، حتى وصل الأمر إلى اتهامه بقتل كل من يرفض الإسلام ، و استشهد "مونتاي"في ذلك بفرقة من البمبارا الوثنيين الذين طلب منهم الدخول في الإسلام ، و لما رفضوا قتل قسما منهم ، و لما فر القسم الآخر –حسبه-و تسلق بعضهم الأشجار أنزلهم منها بالقوة و أعدمهم و أحرق البقية، و اتبع- حسبه دائما- نفس المعاملة مع المسلمين المخالفين له.[3] و حتى ولو كان الأمر صحيحا فربما ظروف المرحلة التي كان الحاج عمر يمر بها كانت تتطلب هذه الصرامة لتحقيق الأهداف التي كان يناضل من أجلها.

بعد السيطرة على كل هذه المناطق أراد إخضاع إمارة سيغو الوثنية، ووجه الدعوة لحكومة ماسينا التي كان على رأسها حكام مسلمون للتعاون معه و لكنها رفضت، فتوجه إلى الغرب لمهاجمة إمارات سنغالية على الساحل الأطلسي سنة 1854م، و أرسل رسالة لسكان المناطق الخاضعة للفرنسيين مثل سان لويس و غيرها للثورة ضدهم. فقد ورد في رسالته المؤرخة في فبراير 1855م لسكان سان لويس:"الآن سنتحرك إليكم بمشيئة الله، لا تنتظروا إقامة سلم مع طاغيتكم . الجهاد واجب ضد كل من لا يؤمن بالله و برسوله."[4] و لما وصل الحاج عمر الى الشمال عند مجرى نهر السنغال،أدرك أن قواته ليست كافية للدخول في صراع مباشر مع الفرنسيين فتراجع ، و اتجه إلى الشرق، و قضى على دولة سيغو سنة

---

[1] -Vincent Monteil, l'Islam Noir, 2ème édition, édition du seuil, Paris- 1971, p 99.

2- يحي بوعزيز، تاريخ إفريقيا الغربية الإسلامية من مطلع القرن 16م إلى مطلع القرن 20م، الجزائر، دار هومة للطباعة و النشر و التوزيع، 2001، ص 18.

[3] -Vincent Monteil, op.cit, p 98.

[4]- Christopher Harrison, France and Islam in West Africa 1860-1960, press syndicate of the university of Cambridge- United Kingdom, 1988, p 10.

1858م ثم أخضع ماسينا سنة 1862م، ثم دخل تمبكتو بجيشه منتصرا،[1] و يظهر من كل هذه الانتصارات أن الحاج عمر قد استفاد فعلا من تجربته العسكرية و الإدارية في صوكوتو، و أنه أضاف إلى هذه التجربة دهاءه الخارق الذي مكنه من النجاح في مهمته ، و هذا النجاح الباهر الذي حققه جعل الفرنسيين في المنطقة يتخوفون من نفوذه ، و يعدون العدة للقضاء على إمبراطوريته و السيطرة على أراضيه.

3-1- جهاده ضد الاستعمار الفرنسي:

أمام انعدام التكافؤ في القوى، حاول الحاج عمر ربح الوقت و مهادنة الفرنسيين مؤقتا بربط علاقات تجارية معهم، حتى يسترجع قواه و ينقض عليهم ، حيث قابل مدير الشؤون الخارجية لمستعمرة السنغال صكاي"و أعلن له عن رغبته في تصفية الأجواء السياسية مع فرنسا ، على أن يبيع له الفرنسيون الأسلحة و يدفعوا له الضرائب مقابل ممارستهم التجارة بحرية.[2]و لكن الفرنسيين كانوا يدركون نواياه، و لم يهتموا لمسعاه،[3] و كان على رأس الإدارة الاستعمارية في السنغال لويس فيدارب المعروف بحنكته و تجربته ، و الذي كان يطمح إلى تكوين إمبراطورية فرنسية تمتد من السنغال جنوبا إلى شمال إفريقيا على البحر المتوسط شمالا، تجسيدا لرغبة نابليون الثالث (1848م-1870م) و كانت سياسة فيدارب في المنطقة تركز على جر الحاج عمر إلى الاصطدام ببعض الزعامات المحلية لإضعافه ، و منهم أحد أفراد الأسرة الحاكمة في كاسو ، المدعو"سامبالا" عدو الحاج عمر .[4]

لويس فيدارب و هو يخطط للقضاء على الحاج عمر ، واجه مشكلة مع قبائل ترارزة في موريتانيا ، حيث قام زعيمهم "محمد الحبيب" الذي له علاقات حسنة مع الحاج عمر ، بحرب ضد الفرنسيين [5]و كان على فيدارب معالجة هذه المشكلة بسرعة ، لأن اتحاد الزعيمين سيعرض بلا شك الوجود الفرنسي للخطر ، و لذلك اضطر إلى عقد معاهدة مع

5 - عبد الله عبد الرزاق إبراهيم ' م س، ص 66.

- أحمد بوعتروس، م س ، ص 319.[2]

- عبد الله عبد الرزاق إبراهيم، م س،ص 75. [3]

[4] - Robert Cornevin, histoire de l’Afrique des origines à nos jours, 2è édition, petite bibliothèque, Payot, Paris-1966, p 228.

[5] - Maurice De La Fosse, Afrique Occidentale Française, librairie Plan, Paris-1931, pp 128-129.

محمد الحبيب سنة 1858م و اعترف هذا الأخير بالحماية الفرنسية ، و تفرغ بذلك فيدارب لحركة الحاج عمر .[1]

لم يتوقف الحاج عمر عند مضايقة الفرنسيين فقط، بل وصل نفوذه إلى غامبيا التي كانت خاضعة للانجليز ، و ثار سكانها ضد الوجود الانجليزي، و لم تتمكن بريطانيا من إخماد هذه الثورة حتى تحالفت مع الفرنسيين، مما جعل هؤلاء الأخيرين يدركون خطورة الموقف و لجأوا إلى التحالف مع قبائل البمبارا الوثنية و تقديم الدعم لها لمحاربة الحاج عمر.[2]

انتقل الحاج عمر إلى المواجهة المباشرة مع الفرنسيين ، حيث بادر إلى الهجوم على المراكز الفرنسية ، ووجه من جديد دعوة إلى سكان سان لويس للتوقف عن التعاون مع الفرنسيين، كما قام بعرقلة النشاطات التجارية الفرنسية و طرد التجار الفرنسيين بين منطقة باقل و بودور ، و هاجم "خاسو" التي كانت قد وقعت تحت السيطرة الفرنسية، و بنى فيها فيدارب حصنا، كلف الضابط "بول هول" بالإشراف عليه. حاصر الحاج عمر المدينة إلى غاية نفاذ مؤونة الفرنسيين و كادوا يستسلمون لو لا سقوط أمطار غزيرة عرقلت نشاط أتباع الحاج عمر ، و اغتنم "هول" الفرصة في ظل ضعف أسلحة الحاج عمر للخروج له، و دارت معركة كبيرة بينهما انهزم فيها الحاج عمر، و عاد سنة 1858م إلى فوتاتور، و جمع 40 ألف رجل من المقاتلين استعدادا لمنازلة الفرنسيين من جديد.[3]

حصل الفرنسيون على المزيد من الدعم العسكري، أمام إحساسهم بازدياد نفوذ الحاج عمر. و هذا الدعم المتزايد دفع هذا الأخير إلى توجيه نشاطه إلى أعالي نهر النيجر، محاولا قطع الطريق أمام حلفاء فرنسا من الوثنيين، و إضعاف القدرات القتالية للفرنسيين ، فهاجم البمبارا الوثنيين في سيغو[4] في 10 مارس 1861م، بعد نقل فيدارب إلى الجزائر كقائد لمقاطعة سيدي بلعباس، و أرغم سكانها على اعتناق الإسلام، و بنى حصونا حول المدينة، وعين ابنه أحمدو التال أميرا عليها، و ضم ماسينا و عاصمتها حمد الله في 16ماي 1862م.[5]

---

[1] - R. Cornevin, op.cit, p 273.

[2] - أحمد بوعتروس، م س، ص 320.

[3] - أحمد بوعتروس، نفسه، ص 320.

[4] - سيغو: تقع على حوض نهر النيجر في القسم الجنوبي من مالي.

[5] -اسماعيل العربي،الصحراء الكبرى و شواطئها، الجزائر، م.و.ك، 1983، ص 173.

بعد عودة فيدار بالى السنغال سنة 1863م كحاكم عام في عهدته الثانية، اندهش كثيرا للقوة التي وصل إليها الحاج عمر و أحس بالخطر على الوجود الفرنسي في غرب إفريقيا، حينئذ دعم ملك ماسينا - عدو الحاج عمر- و فرض عليه الحصار في حمد الله و صمد الحاج عمر لمدة ثمانية أشهر كاملة ، و لما لم تصله النجدة أضرم النار في المدينة سنة 1864م ، و غادرها نحو مدينة باندياغارا، فلحقه أعداؤه ، و اضطر إلى الاحتماء بإحدى المغارات ، أين حاصروه لمدة أربعة أيام، استشهد إثرها بعد حدوث انفجار قوي داخل المغارة في 03 رمضان 1280ه الموافق ل 12 فبراير 1864م عن عمر يناهز سبعين سنة.[1]

ظهرت روايات عديدة حول وفاة الحاج عمر الفوتي، فالبعض يعتبرها انتحارا و البعض الآخر يذكر أنه اختنق بفعل الدخان الذي أحدثه الانفجار بعد تصويب الأعداء لأسلحتهم صوب المغارة .[2] و هذا ممكن في نظرنا، لأن رجلا مجاهدا، كافح كثيرا في سبيل نشر الإسلام لا يمكنه أن ينتحر.و كان الحاج عمر قد تمكن من بسط سلطانه إلى أقصى حدود إفريقيا الغربية رغم الصعوبات التي واجهها إذ كان ملزما بالمقاومة على ثلاث جبهات: الوثنيين و القادريين و الاستعمار الفرنسي.

2- أحمدو التال بن الحاج عمر و تجدد المقاومة:

2-1- وضعية الإمبراطورية التجانية بعد وفاة الحاج عمر:

بعد استشهاد الحاج عمر التال ، تولى حكم الإمبراطورية التجانية ابنه "أحمدوالتال" [3] الذي حمل أيضا لقب خليفة الطريقة التجانية في السودان الغربي .و كان على أحمدو مواصلة الجهاد الذي بدأه والده الحاج عمر ضد الفرنسيين و حلفائهم الوثنيين، و قد حمل أيضا لقب "أمير المؤمنين" و كان يحظى بدوره باحترام كبير من قبائل التكرور.

---

1 - عبد الحكيم بن تركية، م س ، ص28.

2 - أحمد بوعتروس، م س ، ص321.

3- أحمدوالتال: هو ابن الحاج عمر الفوتي، من زوجته "مريم"حفيدة عثمان بن فودي، بنت خليفته محمد بيلو أمير صوكوتو. ولد بهده الإمارة(بنيجيريا حاليا) سنة 1833م و تربى تربية إسلامية، أخذ عن والده القراءة و الكتابة، و حفظ القرآن الكريم في صغره على يد شيوخ الطريقة التجانية ثم درس بقية العلوم الإسلامية كالفقه و التفسير و الحديث على يد عدة علماء في المنطقة ، و بذلك تمكن والده الحاج عمر من تحضيره تحضيرا جيدا لخلافته و تحمل المسؤولية من بعده.ينظر: أحمد بوعتروس، نفس المرجع، ص 326.

واجهت مقاومته للاستعمار عراقيل كثيرة أضعفت قوته، و تعقدت أوضاع إمبراطوريته أكثر من فترة والده ، إذ ظهر الصراع على أشده بين إخوته على حكم إمبراطورية والدهم مما أدى إلى انقسامها إلى أربعة أقسام هي[1]:

- المقاطعة الأولى : خاضعة لأحمدو التال، و تضم مناطق شاسعة من الضفة الشمالية لنهر النيجر و أجزاء من مملكة البمبارا، والأراضي الواقعة بين نهري النيجر و باني ، عاصمتها سيغو.

- المقاطعة الثانية: تضم منطقتين هما : كونيا كاري، خاضعة لأخيه باسيرو –نيورو، تحت حكم أخيه الآخر مونتاغا.

- المقاطعة الثالثة: تمتد من نهر باخوي و نهر باؤولي إلى نهر النيجر و الأراضي الواقعة شمال فوتاجالون.

- المقاطعة الرابعة: وتضم دينغراي في أعالي نهر النيجر و خضعت لأخيه أجيبو.

للتذكير فان الحاج عمر كان يحس بإمكانية انقلاب أبنائه على أخيهم أحمدو، و كان يدرك خطورة ذلك على وضع إمبراطوريته أمام الأطماع الفرنسية المتزايدة ضدها، و لذلك قبل وفاته عين ابنه أحمدو نائبا عنه في سيغو، و طلب ولاء إخوته له. وقد حاول أحمدوا التال استرجاع نفوذه على الإمبراطورية سنة 1868م، و لم يعترف به إخوته ، و ظهرت حركات تمرد في معظم أجزاء الدولة ، و رغم هذه الصعوبات تمكن أحمدو من القضاء على مؤامرات إخوته ، و على حركات التمرد في أواخر سبعينات القرن التاسع عشر، و عين لمساعدته على تسيير مقاطعاته بعض القادة المخلصين له.[2]

2-2- تجدد المقاومة ضد الفرنسيين:

لإيقاف الزحف الفرنسي باتجاه إمبراطوريته ، لجأ أحمدو التال إلى إقامة حصون ، خاصة في "نيورو" و "ديالا" التين تقعان في مواجهة مباشرة مع الفرنسيين ، وحاول مهادنة أعدائه بعقد اتفاقيات تجارية لربح الوقت و تحضير قواته جيدا للمواجهة الحتمية. وفعلا وافقت فرنسا على إبرام معاهدة معه في 03 نوفمبر 1880م عن طريق "غاليبني"، حصلت

---

[1] - أحمد بوعتروس، م س، ص 327.

[2] - عبد الله عبد الرزاق إبراهيم، م س، ص79.

بموجبها على حق مد سكة حديدية بين نهري السنغال و النيجر.[1] و تمكنت فرنسا بعد ذلك من الحصول على امتيازات واسعة للتجار الفرنسيين ، و إحكام قبضتها على إمارة سيغو بموجب معاهدة جديدة وقعها أحمدو معهم سنة 1882م. وفي أوائل أكتوبر 1882م قرر وزير المستعمرات الفرنسي التوسع في النيجر ، و حاول أحمدو التهديد بإلغاء المعاهدة و لكن فرنسا لم تبال باحتجاجه،[2]و بعثت حملة لاحتلال باماكو رغم معارضة حاكم السنغال "كنار" الذي كان يرى في استعمال القوة إرهاقا للخزينة ، و استبدل ب"فالون"(Valon) وتضرر أحمدو التال كثيرا من هذه التوسعات ، و استعد للجهاد و محاربة الفرنسيين.

أقام أحمدو المزيد من الحصون في المناطق الإستراتيجية ، و نقل عاصمته من سيغو إلى نيورو التي اتخذها مركزا للجهاد، و هاجم منها البمبارا حلفاء الفرنسيين و حقق عليهم انتصارات، ولم يكن أحمدو قادرا على الرد على هجمات الفرنسيين لضعف إمكانياته ، و اكتفى بمهاجمة القوافل الفرنسية المتجهة إلى مادينا في جنوب شرق السنغال.[3] و من الظروف التي ساعدته على الصمود في وجه الفرنسيين مؤقتا ظهور حركات مسلحة بقيادة ساموري توري و محمد الأمين في أعالي السنغال، مما جعل القوات الفرنسية تتوزع على عدة جبهات، و أدرك الفرنسيون أن الزعماء الثلاثة قد يتحدون و يشكلون خطورة كبرى عليهم ، فحاولوا تحسين العلاقات مع الشيخ أحمدو ليتفرغوا للقضاء على بقية الحركات الجهادية و السيطرة على وادي النيجر و السنغال، و هو الخطأ الذي ارتكبه الشيخ أحمدو لأن القضاء على بقية الزعماء سيعطي الفرصة فيما بعد للقضاء عليه هو الآخر، و نجحت فرنسا عن طريق غالييني في تحييد الشيخ أحمدو عن طريق اتفاقية وقعتها معه في ماي 1887م، تعهد فيها غالييني بعدم غزو مناطقه.[4] و التجارب السابقة أثبتت أن الاستعمار الفرنسي لا يبالي بهذه التعهدات، و هو الفخ الذي وقع فيه الشيخ أحمدو من جديد.

في سنة 1888م تم لفرنسا القضاء على ساموري توري و محمد الأمين، و من ثم بدأ التفكير في القضاء على إمبراطورية الشيخ أحمدو، فبدأ القائد الفرنسي "أرشينار" هجومه

---

[1] - أحمد بوعتروس، م س، ص327.
[2] - عبد الله عبد الرزاق إبراهيم، م س، ص 84.
[3] - عبد الله عبد الرزاق إبراهيم، نفسه، ص 85.
[4] - عبد الله عبد الرزاق إبراهيم، نفسه، ص 85.

على قلعة "كونديان[1]" التابعة لإمبراطورية التكرور ، و لقي مقاومة شديدة من سكانها رغم القصف المستمر لمدة ثماني ساعات، واستسلمت المدينة في النهاية للفرنسيين. بعد كونديان اتجه أرشينار إلى مدينة سيغو عاصمة الإمبراطورية سنة 1890م و كان يحكمها مدني ابن الشيخ أحمدو في غياب والده الذي كان ينظم قواته في ماسينا للهجوم على كونديان التي احتلها الفرنسيون، و تمكن أرشينار من دخول سيغو دون مقاومة في 06 أفريل 1890م.[2]

لما عجز الشيخ أحمدو عن تجنيد العدد الكافي لمهاجمة كونديان، اكتفى بمهاجمة الخط الحديدي في "تالاري"، و لما عزم أرشينار على مهاجمة نيورو حاول الشيخ أحمدو الدفاع عنها بتقسيم قواته إلى أربعة أقسام مع إرسال 5000 مجاهد لمنع تقدم القوات الفرنسية من الجنوب، لكن أرشينار تمكن من إلحاق الهزيمة بالمجاهدين و الدخول إلى نيورو في فاتح جانفي 1891م.

بعد يومين من دخول القوات الفرنسية نيورو حاول الشيخ أحمدو الهجوم على الفرنسيين في قرية "يوري" ولكنه فشل في اقتحامها و اضطر إلى الانسحاب إلى ماسينا. تمكن أرشينار من زرع التفرقة بين أتباعه، حيث هجره العديد منهم و اغتنم هذه الفرصة للهجوم على قوات الشيخ أحمدو الذي فقد 500 مجاهد، و انهارت معنويات قواته و انضم عدد منهم بما في ذلك أخوه أجيبو إلى أرشينار .وبدأ العد التنازلي للإمبراطورية التجانية، حيث تمكن الفرنسيون ، رغم شجاعة الشيخ أحمدو و صموده، من التفوق عليه في آخر مواجهة يوم 28 أفريل 1893م، و انتقل إلى منطقة النيجر أين مكث إلى غاية وفاته سنة 1895م، و انتهت بذلك أيام الإمبراطورية التجانية. و بعد وفاة الشيخ أحمدو منح خليفة صوكوتو قرية صغيرة لابنه سماها "دار السلام" استقر بها، واعترافا بالجميل ساعده في حروبه ضد الانجليز.[3]

- تقع كوديان في شرق غينيا .[1]
- عبد الله عبد الرزاق إبراهيم ، م س، ص 87[2]
-يحي بوعزيز، تاريخ إفريقيا الغربية الإسلامية، م س، ص139.[3]

ثانيا- المقاومة السلمية خلال النصف الأول من القرن 20م :

تزعمها عدة شيوخ تجانيين منهم : سعيد النور التال، إبراهيم نياس ، الشيخ مالك سي، الشيخ الشريف أحمد حماه الله. كل الشيوخ الأوائل- عدا حماه الله–فضلوا مهادنة الاستعمار الفرنسي وإظهار حسن نواياهم تجاهه و التظاهر بالتعاون معه، فقد كانوا يرون في المقاومة المسلحة دمارا للمسلمين في غرب إفريقيا في ظل التفوق العسكري الكبير الذي كان المستعمر يتمتع به، واستدلوا على ذلك بما خلفته مقاومة الحاج عمر طيلة عدة سنوات من المعارك من قتلى و يتامى و فقر و تدمير و حرق للقرى. و قد فضل كل واحد منهم مواجهة الاستعمار بالإصلاح و التوعية، و الوقوف في وجه مخططات التفرقة و ضرب مقدسات المسلمين، و العمل على صيانة أسس الهوية الوطنية لشعوب غرب إفريقيا.

1- التجانيون و إستراتيجية المهادنة:

الشيخ مالك سي اتخذ من زاويته بتواوين غرب السنغال، مركزا لنشر الإسلام الذي كان الاستعمار يضع العراقيل أمام انتشاره، و الشيخ إبراهيم نياس في زاويته بكاولاك في جنوب السنغال، وحقق هذان الشيخان نتائج أبهرت الإدارة الاستعمارية نفسها التي أصبحت تتخوف كثيرا من نشاطهما رغم الطابع السلمي لهذا النشاط، و الذي لم تجد له هذه الإدارة أي مبرر لإيقافه و معاقبة أصحابه. و بلغت الطريقة التجانية قمة انتشارها في إفريقيا على يد هذين الشيخين، إضافة إلى الشيخ الهادي بن سيدي مولود فال الذي نشرها في نيجيريا و تحدى الضغوط البريطانية .[1]

وهذه النشاطات بقدر ما زادت من انتشار الإسلام و التعاليم التجانية، بقدر ما أضعفت النفوذ الاستعماري في غرب إفريقيا، وهو ما أثار مخاوف السلطات الاستعمارية التي رأت الأتباع يتكاثرون في كل مكان، بل و تجاوزت شهرة هذين الشيخين، و خاصة إبراهيم نياس حدود إفريقيا الغربية .[2] و في مطلع القرن 20، وزيادة على هذا النشاط التجاني لهؤلاء الشيوخ، تمكن مسلموا بلاد الهوسة [3] التجانيون من التغلغل إلى داخل مناطق القبائل الوثنية بجنوب النيجر، ونشروا الإسلام في أواسطها و في مملكة اليوروبا [4] كلها .

[1] الخليل النحوي، م.س ، ص 123.

[2] الخليل النحوي، نفسه، ص 341.

[3] بلاد الهوسا: كانت تشمل أراضي من النيجر و مالي و نيجيريا .

[4] مملكة اليوروبا: كانت تشمل بعض المناطق الغربية من نيجيريا الحالية و جزءا من الداهومي (بنين) و غانا و توغو .

و بعد الاحتلال البريطاني، أخذ المسلمون التجانيون ينتشرون داخل القرى الريفية على مقربة من مزارع اليوروبا و شاهد أحد الرحالة الأوربيين عشرين مسجدا في قرية واحدة واثني عشر مسجدا في قرية أخرى، [1] مما يوحي للدور الذي لعبه التجانيون في نشر الإسلام و التصدي لكل المحاولات الاستعمارية لطمس هوية شعوب غرب إفريقيا .

شيخ آخر من شيوخ التجانية طبق سياسة المهادنة، و عمل في ظلها على توحيد صفوف مسلمي غرب إفريقيا، انه سعيد النور التال المولود بنيورو بمالي سنة 1873م و توفي عام 1980م، و هو ابن النور بن الحاج عمر التال.

ربط هذا الشيخ علاقات حسنة مع الفرنسيين، و يظهر أنه بالغ كثيرا في إظهار ولائه لهم، مما جلب له المعارضة من قبل بعض مقربيه، و على رأسهم " أجيبو " أحد أبناء الحاج عمر الذي لم ير أي ضرورة للتحالف مع الكفار – كما قال – حيث كان سعيد النور يثني دوما على الفرنسيين و مشاريعهم في إفريقيا الغربية لصالح السكان، وفي المقابل يجوب المناطق حاثا السكان على التعاون والتضامن، و الحفاظ على تماسكهم، وعدم الانبهار بالمظاهر الغربية التي تفسد عقيدتهم. و نظرا لهذا التقرب من الفرنسيين عين مندوبا للحجاج مرتين: الأولى سنة 1939 م و الثانية عام 1952 م. [2]

2- التجانية الحمالية و دورها في مقاومة الاستعمار :

الشيخ أحمد حماه الله (1883م-1943 م) : من كبار مشايخ الطريقة التجانية، ولد في كامبا صاغو بمالي في وقت كان فيه الاستعمار الفرنسي في أوج توسعاته بإفريقيا الغربية، و تربى في وسط متدين أخذ فيه تعاليم الطريقة التجانية. الجديد الذي أتى به الشيخ أحمد حماه الله هو إدخال بعض الإصلاحات على الطريقة التجانية، و منها ترديد ورد جوهرة الكمال 11 مرة عوض 12، و رفض مهادنة الاستعمار، مؤكدا أن المسلم لا يمكنه الخضوع للكافر مهما كانت قوته . و هذه المعارضة الشديدة للاستعمار أقلقت الإدارة الفرنسية كثيرا، حتى أصبحت تطلق اسم " الحمالين " على كل من يعارض سياستها، و اعتبر الشيخ أحمد ممن يشكلون خطرا على الاستعمار، وخاصة منذ سنة 1930م أين أصبح يجهر بكرهه

---

[1] يحيى بوعزيز، تاريخ إفريقيا الغربية الإسلامية، م.س، ص 160.

[2] Adriana Piga, op.cit. p 181.

للفرنسيين، فسارعت فرنسا إلى نفيه إلى ساحل العاج في عهد الحاكم العام "بواسون" سنة 1942م، ثم نقل إلى الجزائر بمنطقة سيدي علي كاسان شمال شرق مستغانم، و بعدها إلى فرنسا أين توفي في "مونليصون " (Montluçon) في 1943/01/16م. [1]

اتسع النهج الحمالي إلى معظم مناطق غرب إفريقيا، رغم تضييق الإدارة الاستعمارية على الحماليين، و ممن حملوا هذا النهج إلى هذه المناطق: موسى أمينو في ديوري في شمال فولتا العليا بالجهة الساحلية، و كان أمينو أكثر خطورة من الشيخ أحمد حماه الله نفسه، إذ لم يكتف بالمعارضة بل لجأ إلى التحريض على الجهاد، و قامت حركة مسلحة بزعامته في هذه المنطقة و لكنها لم تدم أكثر من 24 ساعة، إذ تمكنت القوات الفرنسية من القضاء عليها و قتله . كما نشر الحمالية في مدينة " جيبو " عبد الله دوكوري، و الشيخ الثالث : أبو بكر صافادوغو الذي اختاره حماه الله نفسه سنة 1923م لنشر الأفكار الحمالية في غرب إفريقيا.

وقد ركزنا من بين هذه الشخصيات على الشيخ أبي بكر لدوره الهام في التصدي للاستعمار و خططه انطلاقا من مدينته التي أسسها بنفسه في غرب بوركينافاسو، و أطلق عليها اسم "رحمة الله " .

الشيخ أبوبكر (1882م-1947م): أصله من قرية قريبة من مدينة " واهيغوريا " عاصمة مملكة ياتنغا القديمة، عند حدود مالي الحالية، أتم تكوينه الإسلامي سنة 1908م، ثم قام بعدة رحلات لمدة عشر سنوات، زار خلالها البقاع المقدسة لأداء فريضة الحج و غانا، و بعد حصوله على الورد التجاني، عاد إلى قريته، و أسس قرية جديدة سبق ذكرها (رحمة الله).[2]

كان الهدف من هذا المركز الديني الجديد، جمع المسلمين و توحيد صفوفهم، و تحصينهم ضد التأثيرات الاستعمارية، و أصبح يستقبل يوميا الكثير من مسلمي المنطقة، حتى التف حوله عدد كبير من الأتباع، و ذلك ما أقلق الإدارة الاستعمارية التي كانت ترى في كل تحرك تجاني، و خاصة إذا كان حماليا، خطرا عليها.

---

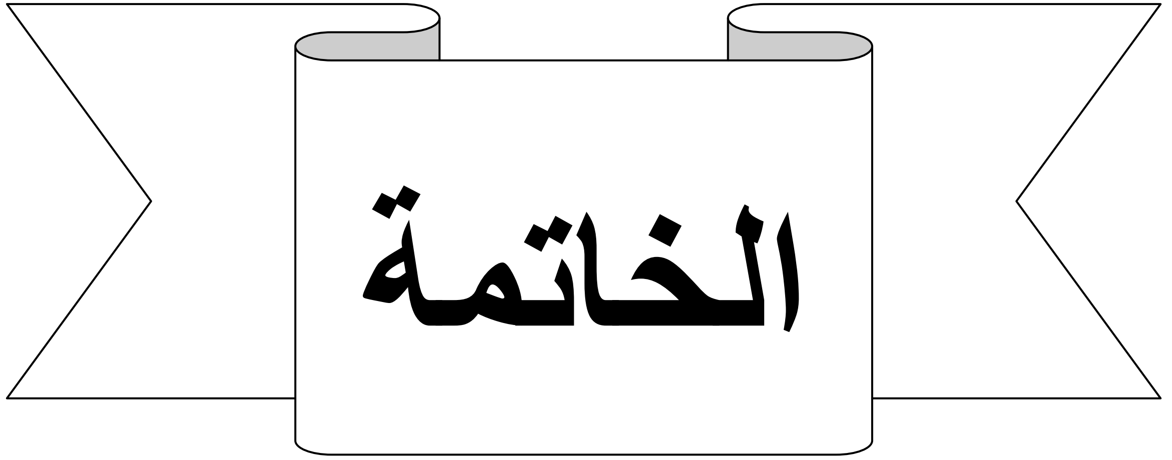
[1] Felice Dassetto et pierre-Joseph Laurent, Ramatoullaye, une confrérie musulmane en transition, Revue de Recherches sociologiques et anthropologiques n° 37/2 – 2006. Université catholique de Louvain, Belgique pp.51-53.

[2] Bernard Salvaing, L'invention religieuse en Afrique, histoire et religion en Afrique noire, édition Karthala, Paris, 1993 p 330.

و في عام 1939م ألقت عليه القبض، و شتتت أتباعه، و دمرت قرية " رحمة الله " (راماتولاي) وحكم على الشيخ أبي بكر بعشر سنوات سجنا، قضى منها خمس سنوات في تمبوكتو، ثم أطلق سراحه سنة 1947م، و توفي بأشهر قليلة بعد خروجه من السجن. [1]

و هكذا تمكنت الطريقة التجانية من إثارة قلق الإدارة الاستعمارية، حتى و هي تتبع نهجا سلميا رأى فيه الاستعمار خطورة على وجوده، خاصة و أنه يشتم من كل تحرك رائحة الإسلام الذي أتى من أجل القضاء عليه بكل السبل، لأن الإسلام لا يقبل الخضوع و التنازل مما يدفع المسلم للمقاومة، و لو تظاهر بالمهادنة و الولاء .

[1] Felice Dassetto, et Pierre-Joseph Laurent, op.cit. pp 57-58.


الخاتمة

عرفت منطقة شمال إفريقيا و غربها طرقا صوفية عديدة قبل النصف الثاني من القرن 18م، فترة ميلاد الطريقة التجانية، و هذه الطرق تمكنت من ملأ الفراغ الثقافي، و التحكم في التوجهات الروحية للسكان. و لكن ظهور التجانية كان ظرفا خاصا لظاهرة التصوف، لكونها حاولت القفز على جميع مكتسبات الطرقية، ليس فقط في الجزائر، بلد منشئها، بل في العالم الإسلامي كله فقد أظهرت نفسها ختما لكل الطرق، و أن مؤسسها هو خاتم الأولياء، و استمد ورده مباشرة من الرسول صلى الله عليه و سلم.

ظهرت هذه الطريقة في الجزائر عام 1782م، و كانت بداية انطلاقها من قرية أبي سمغون، رغم أن الشيخ أحمد التجاني كان متواجدا بمدة قصيرة قبلها بفاس، و كان بإمكانه الإعلان عن ميلادها هناك، و لكن لكثرة اضطراباتها، فضل الرجوع إلى الجزائر، و إعلان حدوث الفتح إيذانا ببداية طريقة جديدة في بلده و ليس في المغرب. و كان الشيخ أحمد التجاني طموحا، يريد الوصول إلى أبعد نقطة ممكنة في الشهرة العالمية، و الظرف الذي ظهرت فيه طريقته كان يسمح بوصوله إلى أكبر عدد من الأتباع، خاصة لما روج له من بشائر لأتباعه كضمانه الجنة لهم، و لآبائهم و أبنائهم لا الحفدة بدون حساب. كل ذلك سهل لطريقته الانتشار حتى بلغت جل مناطق إفريقيا في عهد مؤسسها ثم استمرت في الانتشار بعد وفاته عام 1815م على يد خلفائه.

و قد لقيت التجانية متاعب كثيرة في الجزائر في العهد العثماني، و كانت مواقفها المتصلبة منه سببا في عدة صدامات مع البايات الأتراك، حتى بعد هجرة مؤسسها إلى فاس عام 1798م، و أكبر نكسة لها كانت في معركة عواجة بين ابن مؤسس الطريقة، محمد الكبير و الباي حسن أين أبيد جيش التجاني عن آخره، و ربما كانت هذه الحادثة الأساس الذي بنيت عليه مواقف التجانية في الجزائر بعد زوال الحكم العثماني و بداية عهد الاحتلال الفرنسي منذ عام 1830م، حيث لم تمر على تلك النكسة سوى 4 سنوات .

فالفترة الاستعمارية بشمال إفريقيا و بغربها كانت فترة جديدة، ليس فقط بالنسبة لشعوب المنطقة بل حتى بالنسبة للطريقة التجانية التي تباينت مواقفها السياسية خلال القرن 19 بين شمال القارة و غربها، بينما بقي التوافق في المواقف من القضايا الأخرى على حاله، و استمر نشاطها في شتى المجالات، و لو أنه تأثر نسبيا بالضغط الاستعماري خاصة في غرب إفريقيا. و قد كتب الكثير حول هذه المواقف، و كثير من هذه الكتابات كانت مجرد نقد يفتقر للدليل، و قد حاولت دراستنا الوقوف على مختلف تلك المواقف من خلال ما تيسر لنا من المادة و خاصة المادة الأرشيفية، و قد خرجنا منها بالنتائج التالية:

- الطريقة التجانية كان لها تأثير كبير على أتباعها داخليا و خارجيا سواء في دفع أتباعها إلى مهادنة الاستعمار كما جرى في شمال إفريقيا، أو مقاومته كما جرى مع الحاج عمر

الفوتي في غرب إفريقيا، ففي الأولى امتد النفوذ الاستعماري إلى الكثير من المناطق بمجرد إعلان شيوخ عين ماضي و تماسين عن ولائهم للإدارة الفرنسية، و في غرب إفريقيا تمكن الحاج عمر الفوتي من بناء إمبراطورية كبرى بناء على ولاء أتباعه الشديد له.

- تأثير زاوية عين ماضي و تماسين باعتبارهما زاويتين رئيسيتين على بقية الزوايا التجانية و قد رأينا ذلك حتى في تونس، إذ بمجرد رغبة مقدم التجانية في الجنوب إعلان الثورة ضد الفرنسيين و زيارة شيخ تماسين اثر ذلك لتونس و عزله، هدأت الأمور، و عاد الأتباع لمهادنة الفرنسيين.

- شيوخ زاوية تماسين كلهم منذ الحاج علي التماسيني عرفوا بالتقوى و الورع و العلم، و خدمة قضايا المجتمع الجزائري، و تزعم بعضهم الإصلاح كما هو الحال بالنسبة لمحمد العيد التجاني، الذي أثنى عليه أحد رجال الإصلاح من جمعية العلماء المسلمين الجزائريين و هو الشيخ محمد السعيد الزاهري، رغم الخلاف الذي كان بين الطرقية و جمعية العلماء المسلمين، و رغم ذلك أعلنوا ولاءهم جهرا للاستعمار الفرنسي و باركوا وجوده في الجزائر، و هم يدركون أن ذلك لا يخدم القضية الوطنية، و يخرج عن الإجماع الذي حاول الأمير عبد القادر تحقيقه لإخراج المستعمر من البلاد.

- زاوية عين ماضي تأثرت كثيرا بزواج أحمد عمار بالفرنسية أوريلي بيكار، و رغم نفي التجانيين لتأثير هذه المرأة على سير الطريقة التجانية و خاصة على زاوية عين ماضي، و لكونها جاسوسة في خدمة الاستعمار، فان الأحداث المتعاقبة على الزاوية تبين كلها خضوع الزاوية التام للاستعمار منذ حلولها بعين ماضي: التسهيلات المقدمة للقادة العسكريين، و الوثائق الفرنسية الموجودة بحوزتنا تؤكد مدى الثقة التي وضعتها الإدارة الاستعمارية في أوريلي بيكار، و تشير صراحة إلى أنها في خدمة الاستعمار، و لا خوف من الطريقة ما دامت موجودة بقصر "كوردان" بعين ماضي.

- استغلال الإدارة الاستعمارية المشاكل العائلية في زاوية عين ماضي في عهد الشيخ أحمد عمار كوسيلة ضغط على الزاوية و إبقائها خاضعة لنفوذ الاستعمار، حيث تشير الوثائق الفرنسية أن الشيخ البشير التجاني أطلق الرصاص على أخيه أحمد عمار و أصابه في ساقه.(و كان الشيخ البشير في حالة سكر)، و ألقي عليه القبض من قبل قائد المنطقة، و تم إعلام مسؤولي الإدارة الاستعمارية بهذا الحادث الذي استغلته فرنسا كثيرا، حيث لوحت بتقديم الشيخ البشير الى المحاكمة بتهمة محاولة القتل في حالة سكر ، و هي تدرك أن ذلك لو حدث سيسيء كثيرا الى سمعة الطريقة ، وهو ما يحتم على شيخها أحمد عمار الخضوع للادارة الاستعمارية خاصة و أن زاوية عين ماضي كانت في صراع مع تماسين لاسترجاع النفوذ . وقد بذل أحمد التجاني جهودا كبرى و توصل إلى التوسل للقادة

العسكريين للتدخل و تجنب هذه المحاكمة الخطيرة، و بقي هذا الملف من أخطر الملفات التي زادت الطريقة رضوخا للاستعمار.

- مبررات المهادنة في غرب إفريقيا بعد وفاة الحاج عمر الفوتي تبدو مقبولة، حيث يشير كل الشيوخ الذين هادنوا الاستعمار كإبراهيم نياس و مالك سي و نورو التل إلى أن المواجهة مع الاستعمار في ذلك الظرف لن يعود على سكان غرب إفريقيا و على الطريقة إلا بالوبال و الدمار، فشعوب القارة ضعيفة، و الدول الاستعمارية و منها فرنسا قوية بإمكانياتها العسكرية و الاقتصادية، و المهادنة و كسب ثقة المستعمر سبيل للعمل في هدوء، بعيدا عن الضغط و التهديد و العراقيل التي يضعها الاستعمار في وجه معارضيه، و أعلنوا بصراحة أنهم ملزمون بهذه المهادنة للحفاظ على تماسك المجتمعات الإسلامية في غرب إفريقيا، عن طريق تعليمها و تكوينها تكوينا إسلاميا يحصنها من كل المخاطر التي يخطط لها الاستعمار، أما مبررات شيوخ التجانية في شمال إفريقيا فهي غير منطقية- في نظرنا - إذ كيف يصرح التجانيون علنا أن ولاءهم إنما هو اعتراف بجميل فرنسا فيما قدمته لشعوب شمال إفريقيا من مزايا، في الوقت الذي كان فيه قادة الاستعمار لا يعترفون لهذه الشعوب حتى بحق المواطنة، و يستغلونها كعبيد، اللهم إلا إذا كانوا يقصدون التسهيلات المقدمة لهم.

- ظاهرة الولاء السياسي للطريقة التجانية في شمال إفريقيا غطت على أدوارها المتبقية، فلا ننكر أبدا مساهمتها في الحفاظ على الشخصية العربية الإسلامية لهذه البلدان و خاصة الجزائر لكونها البلد الذي كان أطول بلدان شمال إفريقيا خضوعا للاستعمار، و أكثرها عرضة للتجهيل و التنصير و الإبادة ...

هذه الأدوار التي استمرت طيلة العهد الاستعماري، على الأقل في مناطق تواجد زواياها، و إلى يومنا هذا توصف من قبل الكثير بالعمالة للاستعمار رغم ما قدمته للمجتمع في بقية القضايا التي عالجناها، بينما سطع نجمها أكثر في غرب إفريقيا، حتى في فترة المهادنة للأدوار الحاسمة التي أداها شيوخها، و الذين كانت سمعتهم كبيرة حتى على مستوى العالم الإسلامي، مثل الحاج إبراهيم نياس.

في النصف الأول من القرن العشرين، مواقف الطريقة التجانية كانت متجانسة في كل القضايا عدا فرع الحمالية الذي أسسه الشيخ أحمد حماه الله، و الذي عارض الاستعمار علانية رغم عدم حمله للسلاح، ووقف في وجه التجنيد الإجباري الذي أيده كل ما تبقى من التجانيين، و هو ما عرضه للاضطهاد و نفي زعيمه إلى ساحل العاج ثم وهران ثم فرنسا إلى أن توفي في منفاه بمون ليصون بفرنسا سنة 1943م.

دور الولاء و سببه في شمال إفريقيا، و هو ما يندرج ضمن جواب إشكالية الموضوع يعود –في نظرنا- إلى خروج الطريقة من العهد العثماني في الجزائر منهكة و ضعيفة ، خاصة و أنها تعرضت إلى نكسة كبيرة لم يتحملها التجانيون ، تمثلت في إبادة كل أفراد جيش محمد الكبير التجاني سنة 1826م على يد الباي حسن بن موسى، أي قبل دخول الفرنسيين إلى الجزائر بأربع سنوات فقط ، مما جعل أخاه محمد الصغير يتخوف من مغامرة عواقبها غير مضمونة، و كانت الطريقة في حاجة ماسة إلى الهدوء و الاستقرار، و الابتعاد عن جو المعارك التي أفقدتها شيخها ، وهذه النكسة أضعفتها كثيرا و حطمت معنويات شيخها الجديد محمد الصغير و أتباعه، فكان عليها أن تؤثر الولاء و المهادنة على المخاطرة من جديد أمام جيش أقوى من العثمانيين و هو الجيش الفرنسي ، ثم أنها كانت طريقة حديثة العهد بالوجود، و المنافسة على أشدها بين الطرق الصوفية ، و بالتالي فهي تحتاج إلى استرجاع قوتها لتتمكن من الصمود و الانتشار ، و المهادنة للفرنسيين – في نظر التجانيين- تحقق لهم هذا الهدف.

لجوء الحاج عمر الفوتي إلى استعمال القوة لبناء دولته في الوقت الذي كان بقية التجانيين يهادنون الاستعمار، لم يكن موجها منذ البداية إلى الاستعمار الفرنسي ، فالحاج عمر لما رجع من الحج متأثرا بالفكر التجاني ، تأثر أيضا بجهاد الرسول صلى الله عليه و سلم، و لذلك فور عودته إلى بلده عزم على نشر الإسلام في ربوع غرب إفريقيا، و لم يوجه سهامه من البداية للفرنسيين المتواجدين بشمال السنغال. و تأسيا بالرسول صلى الله عليه و سلم هاجر من دياغونكو التي استقر بها في البداية مع أتباعه إلى دينغراي، و اعتبر الأولى مكة المكرمة، و الثانية المدينة المنورة ، و سمى من رافقه من أتباعه " المهاجرين"، و من كانوا في دينغراي "الأنصار"، و انتظر توفر الشروط لإعلان الجهاد كتدريب أتباعه و توعيتهم بالمهمة التي تنتظرهم لنشر الإسلام و محاربة الوثنية .

و لما ظهر النزاع بينه و بين دولة ماسينا التي كانت إسلامية، اعتمد الحاج عمر طريقة الإجماع و اعتبر مسلميها مرتدين عن الإسلام الحقيقي، و لجأ إلى صيغة التكفير ضد بعض من كانوا يعتبرون مسلمين في كل من إمارات: كارتا- سيغو- باكونا..و بالتالي فجهاد الحاج عمر من البداية كان ضد الوثنيين و بعض المسلمين (المرتدين) – كما قال- و الدليل على أنه لم يستعمل جهاده ضد الفرنسيين منذ البداية ، وصوله في محاربته الوثنيين إلى أعالي نهر السنغال أين وجد الفرنسيين ، مما اضطره إلى التراجع إلى الجنوب، و سعى فيما بعد إلى عقد اتفاقيات معهم . و لما لاحظ لويس فيدارب أن الإمبراطورية التجانية التي شكلها الحاج عمر الفوتي تشكل خطرا على مخططات الفرنسيين الراغبين في توسيع احتلالهم إلى المناطق الداخلية ، و رغم رغبته في التعاون معهم، و طلب منهم السلاح لمحاربة الوثنيين إلا أن الفرنسيين اتجهوا فيما بعد إلى خيار المواجهة معه للقضاء على إمبراطوريته ، و هنا وجد نفسه ملزما بالدفاع عن ملكه، و اضطر لمقاومتهم إلى غاية وفاته سنة 1864م.

و بالتالي ففي كلتا الحالتين: حالة الولاء، و حالة المقاومة، يبدو لنا أن الظروف هي التي تحكمت في اتخاذ هذه المواقف، و – ربما – لو كان الحاج عمر الفوتي من البداية قد وجد الفرنسيين في كامل منطقة السنغال، لكان قد هادنهم كبقية التجانيين، و ذلك ما ستوضحه الأبحاث مستقبلا حول هذا الزعيم التجاني الذي يحتاج إلى المزيد من الدراسة رفقة زعماء آخرين تركوا بصماتهم النضالية في غرب إفريقيا ، كما قد تظهر أسرار أخرى للمواقف التجانية من هذه القضايا و قضايا أخرى إذا ما توفرت المادة الأرشيفية التي تنفض الغبار عنها و تبين حقيقتها. و نحن نؤكد من جديد أنه حتى و لو سجلت بعض المواقف التي يستغلها البعض للمساس بسمعة الطريقة ، فنحن ندرج تلك المواقف ضمن وجهات نظر أشخاص كانوا على رأس الزوايا التجانية، و كانوا يعتبرونها صائبة ، في الوقت الذي سجل التاريخ مواقف شجاعة لزوايا تجانية أخرى كما هو الحال في تلمسان ، و لو كان هؤلاء المقدمون في عين ماضي أو تماسين لتغير الوضع – ربما – إلى عكس ما سجل من مواقف مما يدفعنا إلى الابتعاد عن الأحكام القاسية.

الملاحق

الملحق الأول:

رسالة من الشيخ أحمد عمار بن محمد الصغير التجاني الى رئيس المكتب العربي بالأغواط يطلب من خلالها ترخيصا من الحاكم العام لزيارة أبي سمغون لمدة شهرين، وهي مختومة بخاتمه و موقعة من طرفه ، و تضمنت عبارات الاستلطاف و الثناء على الادارة الفرنسية، كتبت بتاريخ 24 ماي 1879م.

الملحق الثاني:

رسالة موجهة الى الضابط الفرنسي (أوبلن) من الشيخ أحمد عمار شيخ زاوية عين ماضي يبرئ من خلالها نفسه مما سماه بالوشاية التي كانت سببا في وضعه تحت الاقامة الجبرية في الجزائر العاصمة ، ثم نقله الى فرنسا، و يطلب الادارة الفرنسية عدم تصديق ما ينقل لها عنه و يؤكد أنه مظلوم.

الملحق الثالث:

رسالة موجهة الى الجنرال "فيلمو" من المشري ريان وكيل زاوية عين ماضي ، أثناء ابعاد أحمد عمار عنها بعد الشكوك التي حامت حول استقباله لموفدي أولاد سيدي الشيخ، والمشري هنا اغتنم الفرصة ليعبر للفرنسيين عن محبته لهم و تعاونه معهم و يذكر الجنرال فيلمو بلقائه معه منذ ثورة اولاد سيدي الشيخ أين كان حينها مع الجنرال يوسف.

الملحق الرابع:

رسالة من الشيخ أحمد عمار الى مدير الشؤون الأهلية بالجزائر العاصمة يشكره على تبليغه بقرب عودته الى عين ماضي ، و يشكو له تصرفات المشري ريان وكيل زاويته بعين ماضي ، و الذي استولى على مداخيل الزاوية و حرمه حتى من نفقاته في منفاه بفرنسا ، و يستعطف هذا المسؤول الفرنسي لاقراضه مالا ريثما يعود الى زاويته.

الملحق الخامس:

رسالة من الشيخ محمد الصغير التجاني و معمر التجاني ابني الحاج علي التماسيني الى الحاكم العام بالجزائر ، يعبران عن استمرار زاوية تماسين على ولائها التام للادارة الفرنسية و يعلمانه بالتنسق الحاصل بين عين ماضي و تماسين من خلال زيارة الشيخ البشير التجاني أخ أحمد عمار لتماسين، لتسهيل مهمة فرنسا في السودان الغربي، وهي مؤرخة في 28 نوفمبر 1882م.

الملحق السادس:

رسالة من الشيخ أحمد عمار التجاني في منفاه بفرنسا الى وزير فرنسي مكلف بشؤون الأهالي، يشكو فيها طول مدة بقائه بالمنفى ، و يؤكد براءته مما نسب اليه كما يشكو سطو وكيل زاوية عين ماضي على أملاكه، و يطلب مساعدته ماليا ريثما يتم تسريحه للعودة الى عين ماضي.

الملحق السابع:

رسالة من الشيخ أحمد عمار الى القايد محمد الميلود، و المقدم بن يوسف يشكرهما على تقديم خدمات مميزة للفرنسيين، و يحثهما و يحث أتباعه على البقاء في خدمة فرنسا لما يجلبه ذلك من مزايا ، و يحذرهم من مخالفتها. الرسالة مؤرخة بسنة 1881م.

الملحق الثامن:

رسالة من الشيخ أحمد عمار التجاني و أخيه البشيرمن منفاهما الى المسؤولين الفرنسيين يطلبان مساعدة مالية لسوء أحوالهما بفرنسا بعد نفاذ ما كان بحوزتهما من أموال، و هي مؤرخة في 02 شعبان 1288ه وهو ما يوافق سنة 1871م.

الملحق التاسع:

شكوى من أحمد عمار التجاني و أخيه البشير الى الحاكم العام بالجزائر بشأن استيلاء المشري ريان وكيل زاوية عين ماضي على كل مداخيل الزاوية و حرمانهما منها منذ ابعادهما عن عين ماضي، و يطلبان تنفيذ وكالة انجزاها لدى موثق ببوردو يعينان عن طريقها وكيلا جديدا على الزاوية الى غاية رجوعهما و هذا الوكيل هو السيدعلي بن أحمد بن سالم. الرسالة مؤرخة في 11 رمضان 1287ه بما يوافق سنة1870م.

الملحق العاشر:

رسالة من السيد الدين بن يحي أغا جبل عمور الى الجنرال "دولين" بالأغواط يجدد ولاء سكان المنطقة لفرنسا ، و يؤكد له استحالة تعاونهم مع بن ناصر بن شهرة في تمرده على الادارة الاستعمارية، بعد أن بلغه شك الجنرال في حدوث تقارب بينهما.

الملحق الحادي عشر:

رسالة من أحمد عمار و أخيه البشير الى الحاكم العام "مارشان" يتوسلان له لاعانتهما بالمال لتسديد نفقاتهما بفرنسا بعد نفاذ ما لديهما.

الملحق الثاني عشر:

رسالة من الشيخ أحمد عمار التجاني يذكر فيها الادارة الفرنسية ببراءته مما نسب اليه من تقارب من سي حمزة في ثورة أولاد سيدي الشيخ ، و يؤكد أنه حينها كان ابن عشرين سنة و كان على خطى والده في ولائه لفرنسا، و يشكو من ترك المشري ريان يفسد أرزاقه منذ ابعاده عن عين ماضي لمدة سنتين في مدينة الجزائر و سبعة أشهر الى غاية كتابة هذه الرسالة في فرنسا.هذه الرسالة مؤرخة في 20 محرم 1287ه وهو ما يوافق سنة 1870م.

الملحق الثالث عشر:

رسالة من الشيخ معمر بن الحاج علي التماسيني من زاوية تماسين الى الحاكم العام يجدد له ولاء الزاوية و التجانيين للادارة الفرنسية، و يعبر عن اعتزازه بالعيش في ظل الدولة الفرنسية ، و يخبره بوجود البشير التجاني أخ أحمد عمار من زاوية عين ماضي في زاوية قمار بوادي سوف لتمتين أواصر التعاون بين الزوايا التجانية .تاريخ الرسالة: 24 أكتوبر 1882م

الملحق الرابع عشر:

وثيقة اعتراف بالدين من أحمد عمار الى السيد "قابو" الفرنسي تضمنت مبلغا ماليا قدره 2415 فرنكا لما كان في منفاه بفرنسا.

الملحق الخامس عشر:

وثيقة تشير الى تنفيذ الافراج عن البشير التجاني من منفاه ليعود الى تماسين و ليس عين ماضي يوم 16 سبتمبر 1882م، وهي مراسلة من الجنرال" لوزال"الى الحاكم العام يعلمه بالتنفيذ تطبيقا لتعليمة الأخير بتاريخ 18 أوت تحت رقم 346، وحدد له الطريق الذي يسلكه وهو الجلفة- بوسعادة – بسكرة ثم تماسين تحت حراسة ضابط الصف "بن زيان" من الفرقة الأولى الصبايحية.

الملحق السادس عشر:

وثيقة معلومات حصلت عليها الادارة الفرنسية من أحمد عمار التجاني حول وكيل زاوية تلمسان حمو بن عطار في اطار مراقبتها لهذه الزاوية منذ تمردها على الفرنسيين ، وحول المقدم السابق المعروف بمعارضته لهم و تحريضه على الثورة و هو السيد الطاهر بن بو الطيب الذي نفي الى فرنسا سنة 1869م و كان موجودا بالمنفى لما كان أحمد عمار بفرنسا أيضا سنة 1870م.

الملحق السابع عشر:

طلب ترخيص بالسفر الى تونس موجه الى قائد اقليم توقرت لمعاينة الزوايا التجانية هناك لمدة 03 أشهر من الشيخ محمد البشير بن محمد التجاني شيخ زاوية تماسين، مؤرخ في 1917/07/23م.

الملحق الثامن عشر :

طلب ترخيص بالسفر لأحد المقدمين التابعين لزاوية تماسين، المسمى : محمد بن أحمد بن فرج، الى نواحي ورقلة لتأسيس زاوية تجانية، مرسل من شيخ الزاوية محمد البشير بن محمد التجاني، و يؤكد فيه على دور الزوايا التجانية في تلميع صورة فرنسا أمام الناس و دفعهم الى الولاء لها .

الطلب مؤرخ في 1916/03/26 م، مقدم الى حاكم اقليم توقرت .

الملحق التاسع عشر:

مراسلة من شيخ زاوية تماسين محمد البشير بن محمد التجاني الى الجنرال شاردوني يعلمه باصدار نداء لأتباعه لمؤازرة فرنسا في الحرب الكبرى، و يؤكد له ولاء التجانيين لها و عرفناهم بخدماتها لهم. مؤرخة في 18 جوان 1915م .

الملحق العشرون :

وثيقة موجهة من القائد العسكري لمنطقة توقرت الى كوفي (Cauvet) الحاكم العام، مؤرخة في 1915/11/03م، للاعلام عن وفاة أحد أفراد العائلة التجانية المسمى: أحمد بن محمد العيد و هو عم الشيخ محمد البشير شيخ زاوية تماسين، الوفاة حدثت في بسكرة اثر سفر المعني الى المنطقة، و هو أكبر أبناء الشيخ محمد العيد التجاني الذي قاد زاوية تماسين من 1853م الى 1875م .

الملحق الواحد و العشرون:

رسالة موجهة من الشيخ محمد البشير شيخ زاوية تماسين الى الجنرال شاردوني ببسكرة يشكره على أفضاله على التجانيين، و يجدد محبته له وولاءه لفرنسا و يطلب منه وساطة للحصول على قطعة أرض تسمى (عزلة الشطارة) .

الملحق الثاني و العشرون:

رسالة من أحمد نجل محمد العيد التجاني، شيخ زاوية تاغزوت يعلم فيها الحاكم العام بوفاة أخيه محمد التجاني، يعظم فيها قدر الفرنسيين و يذكره بولائه لهم و يطلب تدخله لتعيينه شيخا للطريقة بعد وفاة أخيه.

الرسالة مؤرخة في 1912/12/28م .

في ٢٦ ماي سنة 1879 بعين ماضي

الحمد لله وحده

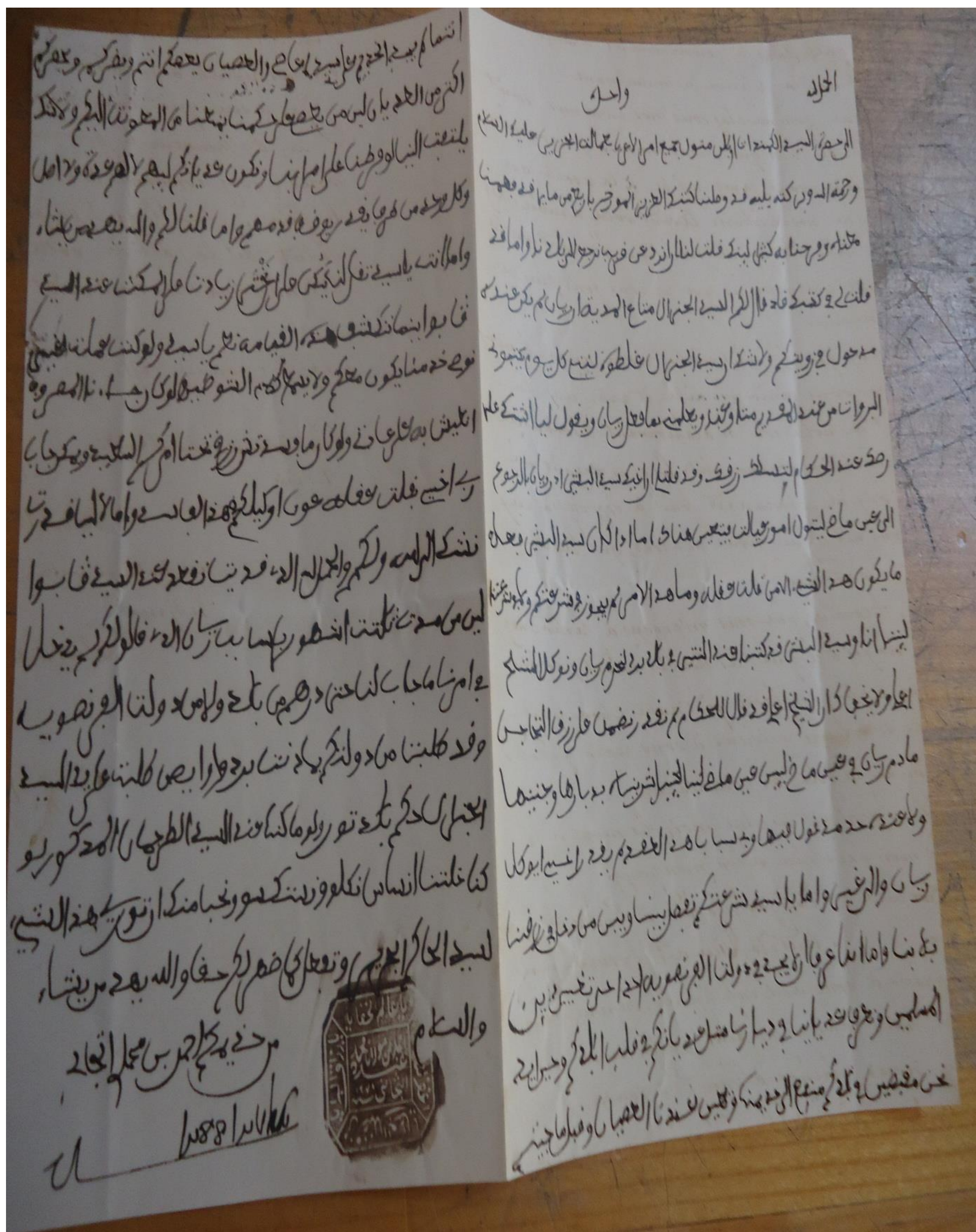
الى حضرة سعادة انت السيد القبطان اسبتالي
حاكم بر وعراب بالاغواط السلام عليك
سلاما تاما عاما اما بعد هذه رسالتنا
تتشرف بحضرتك على مقتضى ما نحن نطلبوه من
سيادتك راغبا منك ان تطلب لنا التصريح
من سعادة الوالي العام بالجزائر على قصدنا
نقدم الى بلد ابو سمغون قرية استطار احوال
زاويتنا الطلب لي مدة شهرين كاملين ادام
الله بقاءك في عز وهناء والسلام عن اذن
سيدي احمد بن سيدي محمد بن احمد التجاني في ٤ جماد الثاني
سنة ١٢٩٦



الملحق رقم: 01

الملحق رقم: 02

الملحق رقم: 03



الملحق رقم: 04

الملحق رقم: 05

الملحق رقم: 06



الملحق رقم: 07

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا ...

1881

الى محبونا وخديمنا القايد محمد الميلود وكافة احبابنا
اهل ارب ... المغدع سيد بن يوسف السلام عليكم
مع الرحمة والبركة وبعد فنطلب الله لكم ان ينظر فيكم
بعين الرضى ويبارك لكم في اولادكم وارزاقكم وان يتوفكم على
محبة الشيخ سيد احمد التجاني اليوم تراه بلغني عنكم بانكم
خدمتم وبذلتم المجهود مع القايد في خدمة الدولة الفرنسوية
المنصرة جزاكم الله خير اليوم وهو على طاعتكم في خدمة الدولة
المنصرة الان من امتثل الى امرها وطاعها صار من الهانيين
ومن خلع على امرها فلا يلوم الا نفسه فتراه ياتيك خديمي
سي عبد الرحمان بن الشتوي فتطلى فيه وتكون معه فيما
يحتاجك فيه والسلام وكتب عن اذن سيدنا احمد بن سيد
محمد التجاني رضى الله تعلى عنهم ونفعنا ببركاتهم امين امين
سنة 1296

الملحق رقم: 08

الملحق رقم: 09

الملحق رقم: 10

الملحق رقم: 11

الحمد لله وحده

الى حضرة الأمير المعظم الجليل سيد الشجعان ابي جكني بذالك سيد مرشان
الحاكم الى بن الجزاير الذي اعطاه الله الدولة المسلمين والدولة لعز نصوي
الذي اعزها الله ونصرها على غيرها اي ياسيد سلام الله عليك ورحمة
الله وبركاته وبعد ياسيد جاه سالتي عنا فنحن بخير والحمد لله رب العالمين
ولا افقدنا شيئا من فضل الله وبفضلك وهذا الواجب علينا ياسيد وبعد
ياسيد الراجل اذا انضام بشتكي لي ابيه وانت ياسيدي عندي في منزلة
اب وخليفته علي ونشتكي اليك ونبكي عليك والله ثم والله ياسيد
ما بقى عندي ما نصرف ولا وجدته ولا وجدت الراجل الذي يخيمني في مقامي
ونزاف ياسيد مخصوص في غاية الحصر والمطلوب من جزايل فضلك
ان تفضل علي بالتسريح والان نعطوف المعروف والله يعطيكم
الخير بارك الله فيك وفي عمورك وفي اولادك والسلام في 21 اه تريخ
شعبان عام
1288

عن اذن احمد بن محمد التجاني واخيه محمد البشير لطف
الله بهم وبجميع امة بالغفار



الملحق رقم: 12

الملحق رقم: 13

وحده

الحمد لله

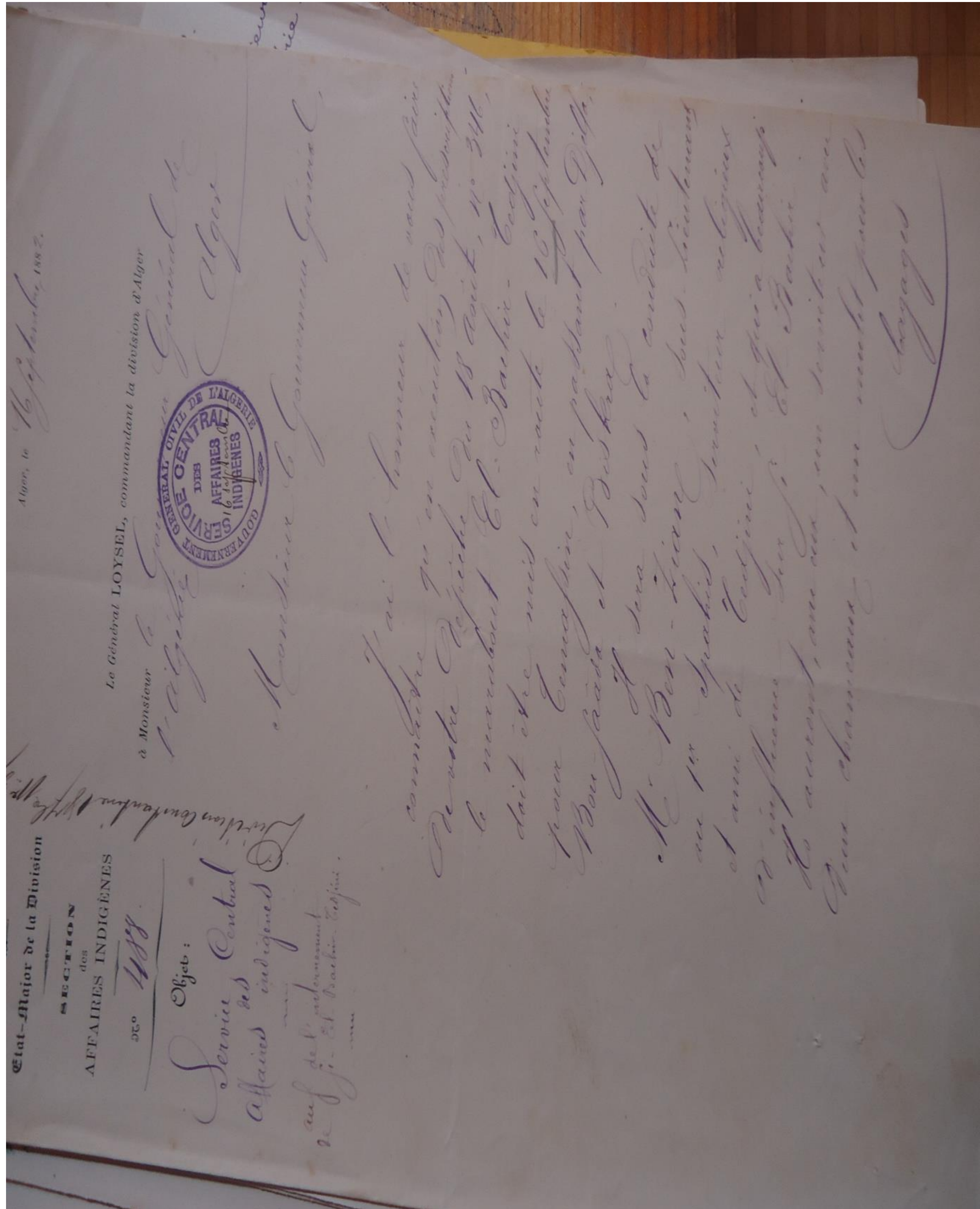
سعادة المعظم والهمام الأكرم الشاب اللبيب الحاكم العجيب
السيد الوالي العام الحاكم الكبير بالولاية الجزايرية أمنه الله وهناه
بالعافية السلام التام بعد مصافحة الأيدي الكرام بما يجب من
التعظيم والاجلال والاحترام وانا دايما اعنط نسايلون وبالخير
لك داعون وبجميل افعالكم شاكرون وفي السعيدة دولتكم متهنيين
ومنبسطين الحمد لله رب العالمين ومحب الجميع ابننا سيدي البشير التجاني
حضر عندنا بوادي سوف في زاويتنا فما زال محفوظا مكرما لا باس عليه
على احسن حال وانتم منوال لا ما يتشوش البال وبه مشتغلين وبالكنا
منه رايين وهو صار نت للامر ومستكفي بنفسه جا اللسان ما اسكنا محلد
واخبرناك بذلك ليكن في علمكم والمرجو من الله سبحانه يوافق فلابد
لقلب اخيه وينذهب كيد شيطانهم حتى يكونوا كما كانوا على حالهم
اول مرة لكي يعمروا دارهم وزاويتهم والله الموفق والله يسعد
دولتكم ويهني الجميع بوجودكم والحسنى احكامكم بمنه ويسلم
عليك اخينا الكبير سيدي محمد الصغير معه بوادي سوف والسلام
من معظم قدركم الشيخ سيدي معمر بن الحاج علي التجاني زاوية تماسين

محمد بن علي التجاني

في ٢٣ اكتوبر ١٨٨٣ سنة

الملحق رقم: 14

الملحق رقم: 15



État-Major de la Division

SECTION des AFFAIRES INDIGÈNES

N° 1488

Objet : Service Central des affaires indigènes

Alger, le 16 septembre 1882.

Le Général LOYSEL, commandant la division d'Alger

à Monsieur le Gouverneur Général de l'Algérie

Alger

GOUVERNEMENT GÉNÉRAL CIVIL DE L'ALGÉRIE SERVICE CENTRAL DES AFFAIRES INDIGÈNES

Monsieur le Gouverneur Général,

J'ai l'honneur de vous faire connaître qu'en exécution des prescriptions de votre Dépêche du 18 Août, n° 346, le marabout El-Bachir-Tedjini doit être mis en route le 16 septembre pour Temacin, en passant par Djelfa, Bou-Saâda et Biskra.

Il sera sous la conduite de Mr Ben-Zian, sous-lieutenant au 1er Spahis, serviteur religieux et ami de Tedjini, et qui a beaucoup d'influence sur Si El Bachir.

Ils auront, avec eux, un serviteur avec deux chameaux et un mulet pour les bagages.

الملحق رقم: 16

Division d'Alger
SUBDIVISION DE MEDEA

faire à copier

Médéa 12 Juin 1880

Renseignements fournis par Si Ahmed Tedjini sur le nommé Si Hamou ben Attar, Oukil de la Zaouïa de Tlemcen, ainsi que sur les mokaddem de son ordre dans l'Ouest.

D'après Si Ahmed, l'ancien Oukil de la Zaouïa des Tedjadjna de Tlemcen, était le nommé Si Tahar ben bou Thaïeb, mokaddem vénéré, mort plus que centenaire (on prétend qu'il a vécu 130 ans), il y a environ deux ans.

Si Tahar ben bou Thaïeb avait été interné en France en 1869, et s'y trouvait encore en 1870, à l'époque où Si Ahmed était à Bordeaux. Monsieur Crémieux, membre du Gouvernement de la Défense nationale, ayant entendu

الملحق رقم : 17



الملحق رقم: 18

الملحق رقم: 19



الملحق رقم: 20

GOUVERNEMENT GÉNÉRAL DE L'ALGÉRIE

TERRITOIRES DU SUD

TERRITOIRE DE TOUGGOURT

N° 4121

RÉPUBLIQUE FRANÇAISE

Biskra, le 3 Novembre 1915

CAUVET, Le Commandant Militaire du Territoire de Touggourt à Monsieur le Gouverneur Général de l'Algérie

Service des Affaires Indigènes et du personnel Militaire

A.S. du décès de SI AHMED ben MOHAMMED LAÏD, membre de la famille maraboutique des Tidjanya de Tamelhat.

G^{t} GÉNÉRAL DE L'ALGÉRIE — ENTRÉE — 6 NOV. 1915 — N° 3849 — AFFAIRES INDIGÈNES MILITAIRES

M. le Commandant Supérieur du Cercle de TOUGGOURT m'écrit ce qui suit:

" J'ai l'honneur de vous rendre compte du décès d'un " des membres de la famille maraboutique des Tidjanya de " TAMELHAT. SI AHMED ben SI MOHAMMED LAÏD, survenu à BISKRA " au cours d'un voyage, le 28 Octobre 1915.

" Le corps a été transporté de BISKRA à TAMELHAT pour " être inhumé dans la zaouïa.

" Le défunt était âgé de plus de quatre-vingts ans; " il était l'aîné des cinq fils de SI MOHAMMED LAÏD, grand " maître de l'ordre des Tidjanya de TEMACINE, Cheikh de la " Zaouïa de 1853 à 1875. C'est le troisième des fils de " MOHAMMED LAÏD qui décède. Il en reste deux encore en vie: " SI SADOK et SI MAHMOUD.

" Il était l'oncle paternel du Cheikh actuel de la " Zaouïa, SI EL BACHIR ben MOHAMMED.

" Il habitait TAGHZOUT et ne faisait à Tamelhat que de " courtes apparitions. Il vivait en assez bons termes avec " SI EL BACHIR.

" Dans le procès pendant entre SI EL BACHIR d'une part, " SI SADOK, SI MAHMOUD et les Oulad-Larabi, d'autre part, il " avait conservé une attitude neutre. Il n'est pas encore " possible.....

11 NOV 1915 N° 2894

الملحق رقم: 21

جناب المعظم المحترم السير الكلونيل شاردوني
الجزايرية دامت معاليكم وحسنت معاليكم
عليكم السلام ولطايف التحيات والاكرام وبعد فالذي
اعرضه على جنابكم اني اصبح هو انا حللنا بعين البيضا
بخير وعافية تامة . وانا ما زلت وما ازال متذكر
محاسنكم ومشخص حسن صنيعكم معنا جازاكم الله
من الذاكرين ولفضلكم من الشاكرين ونرجوا
من كمال فضلكم ان لا تنسونا من اخباركم دايما وابدا
كما انني لكم كذالك ادام الله لنا وجودكم وخلد ذكركم
والسلام من معظم قدركم المنطوي
على محبتكم الشاكر لفضلكم
الداعي لدولته الجمهورية
بالنصر وانا فقير عبد ربه
محمد البشير بن محمد التجاني رئيس الطريقة التجانية
الحال وقت التاريخ بعين البيضا
ولتعلم جنابكم اني كنت طلبت من السير الوالي العام ان ينعم
علينا بتمليك الارض المسمات بعزلة الشطارة الكاينة
بدوار بير بوحوش . وقد وعدنا بذالك وقد طال
رجاؤنا لذالك فنرجوا من كمال عدلكم ان تذكروا السير المذكور
بذالك وتعرفنا بما عليه العمل الى عين البيضا والسلام

(ختم: عبده محمد البشير ابن محمد التجاني)

محمد البشير
التجاني

الملحق رقم: 22

Annexe à la ~~lettre~~ Note du Cabinet du G. G.al n° 110 du 28 déc. 1912

الحمد لله وحده

28 دسمبر 1912 سنة

المعظم المحترم صاحب الفضايل الحميدة
سعادة السيد الوالي العام على القطر
الجزايري السلام عليكم ورحمة الله وبركاته
وبعد اسئال الكثير منى اليكم عن زكية
احوالكم ادامها الله في الهنا والعافية والمحبوب
به جنابكم الرفيع هو انه اخانا الشيخ
سيدي محمد نجل سيدي محمد العيد كبير زاوية
تماسين قد توفي رحمة الله عليه عظم
الله اجركم فيه وقد كان وقت حياته
هو الذي يباشر الامور ونتكفل بمباشرة
سيادتكم في مصالحنا والان قد توفي
فنطلب من فضلكم ان تلاحظنا بتعطفكم
لان دولتكم المحمية دابها الشفقة والحنانة
على جميع رعايها خصوصا على من له يد
في المعونة مع الدولة الفرانسوية
والسلام من معظم قدركم الرفيع
خادم دولتكم السعيدة سيدي
احمد نجل سيدي محمد العيد التجاني
كبير زاوية تلاغين وت الواضع خاتمه
واسمه اسفله بتاريخ اعلاه

البيبليوغرافيا

المصادر

أ- المصادر المخطوطة:

1-الشنقيطي عبيدة محمد الصغير، مختصر ما أملاه سيد الوجود على التجاني، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية، الجزائر-رقم2396.

2- الأرشيف

- 30H74, A.n.o.m. Aix en Provence : goums algériens pour le Maroc.
- 30H73, A.n.o.m _ événements du Rif.
- 30H72, A.n.o.m - événements du Rif (Goums algériens).
- 3H3-3H4, Service militaire des indigènes, rapports des officiers.
- 3H56, Étude de Missimy sur le service militaire des indigènes.
- 3H19, pensions militaires aux indigènes.
- 30H52, conférence d'Algesiras sur le Maroc.
- 3H61, étude sur le recrutement des indigènes 1908-1911 Algérie-Tunisie.
- J.M.O de la 48e division d'infanterie 26N.443/2à4-S.H.D, Vincennes.
- J.M.O de la 3e brigade de Maroc 26N. 555 / 4 à 6.
- 3G2 / 142 – 14 miom 742 - A.n.o.m- Aix. قرار إحصاء الشبان السنغاليين 1911/01/31م.
- 3G2 / 142 – bobine 96 – déserteurs sénégalais.
- 16 H 52-53-56, rapports sur la confrérie Tidjania.
- 16 H 46 – affaires des tidjanias de Tlemcen, (Moulay Yacoub).

ب- المصادر المطبوعة:

1-برادة علي حرازم، جواهر المعاني و بلوغ الأماني في فيض سيدي أبي العباس التجاني، بيروت، دار الكتب العلمية ، 1997م.

2-بن رويلة قدور، وشائح الكتاب و زينة الجيش المحمدي الغالب، تقديم و تحقيق محمد بن عبد الكريم، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، 1980م.

3- الرياحي عمر بن محمد بن علي بن إبراهيم، تعطير النواحي بترجمة سيدي إبراهيم الرياحي، تونس، مطبعة بكار و شركائه-1902م.

4- سكيرج أحمد بن العياشي، كشف الحجاب عمن التقى مع الشيخ التجاني من الأصحاب، فاس، المطبعة الحجرية-1907م.

5-المشري بن السايح محمد العربي، بغية المستفيد لشرح منية المريد، بيروت، دار الكتب العلمية، 2007م.

6- السنوسي محمد، الرحلة الحجازية، تحقيق الشنوفي علي، تونس، الشركة التونسية للتوزيع-1978م.

7- بن أبي الضياف أحمد، إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس و عهد الأمان، -ج3، تحقيق لجنة من كتابة الدولة للشؤون الثقافية و الأخبار، تونس، المطبعة الرسمية-1964م.

8- الطعمي محي الدين، عروش الحقائق، ج1، بيروت، المكتبة الثقافية -1994م.

المراجع

أ- المراجع العربية:

1- أفا عمر، التجارة المغربية في القرن التاسع عشر، البنيات و التحولات(1830-1912)، الرباط، مكتبة دار الأمان-2006.

2- الأخضر لطيفة، الإسلام الطرقي، ط1، تونس، دار سيراش للنشر-1993م.

3- الأزمي أحمد، الطريقة التجانية في المغرب و السودان الغربي خلال القرن التاسع عشر، دار فضالة-المحمدية، المغرب، 2000م.

4- الأشرف مصطفى، الجزائر، الأمة و المجتمع، ترجمة حنفي بن عيسى، الجزائر، دار القصبة للنشر و التوزيع، 2007م.

5- الأرو عبد الرزاق عبد الحكيم، التنصير في إفريقيا، سلسلة دعوة الحق، الإدارة العامة للثقافة و النشر، مكة المكرمة، رابطة العالم الإسلامي، 2008م.

6– الالوري آدم عبد الله، لباب الأدب، لاغوس، مطبعة الثقافة الإسلامية، أغيغي-1979م.

7- -------------، الإسلام و تقاليد الجاهلية، القاهرة، مطبعة المدني، 1979م.

8- بجاوي محمد الصالح، متعاونون و مجندون جزائريون في الجيش الفرنسي 1830-1918م، ط1-الجزائر، دار القصبة للنشر و التوزيع، 2009م.

9- البسال أحمد سعد الدين، التبشير و أثره في البلاد العربية و الإسلامية، القاهرة، دار أبو المجد للطباعة، 1989م.

10- بطاش علي، لمحة عن تاريخ منطقة القبائل، حياة الشيخ الحداد و ثورة 1871م، الجزائر، دار الأمل، 2007م.

11- بقطاش خديجة، الحركة التبشيرية الفرنسية في الجزائر 1830-1871م، الجزائر، مطبعة دحلب،1992م.

12- بمبا انجاي محمد، أضواء على السنغال، ، القاهرة، دار التوزيع و النشر الإسلامية، 1991م.

13- بوعزيز يحي، سياسة التسلط الاستعماري و الحركة الوطنية الجزائرية، الجزائر، دار البصائر للنشر و التوزيع، 2009م.

14- -------، كفاح الجزائر من خلال الوثائق، الجزائر، دار البصائر للنشر و التوزيع، 2009م.

15- -------، تاريخ إفريقيا الغربية الإسلامية من مطلع القرن 16م إلى مطلع القرن 20م، الجزائر، دار هومة للطباعة و النشر و التوزيع، 2001م.

16- بودينة محمد، مشاهير التونسيين، ط2، تونس، دار سيراش للنشر، 1992م.

17- بوعتروس أحمد، الحركات الإصلاحية في إفريقيا جنوب الصحراء إبان القرن 13ه/19م، الجزائر، دار الهدى للطباعة و النشر و التوزيع، 2009م.

18- تيام ابراهيم، 25 عاما على رحيل الشيخ، ط1-القاهرة، مطبعة النهار، 2002م.

19- تال محمد المنتقى، الجواهر و الدرر في سيرة الشيخ الحاج عمر، بيروت، لبنان، دار البراق، د.ت.

20- ثامر الحبيب، هذه تونس، منشورات مكتب المغرب العربي، القاهرة، مطبعة الرسالة، 1948م.

21- جورتي سيس، السنغال و الثقافة العربية الإسلامية، دار السلام-تنزانيا، دار شمس للمعرفة و الطباعة، 1989م.

22- الجزائري عبد الحميد مسعود، ثورات المغرب العرب و كفاحه: الجزائر-تونس-مراكش، القاهرة، دار الجامعة للطباعة، د.ت.

23- الجيلالي عبد الرحمن، تاريخ الجزائر العام، ج4، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1994م.

24- حمدي بشير محمد، تجربة التحول الديمقراطي في النيجر، القاهرة، المكتب العربي للمعارف، 2015م.

25- خالدي مصطفى و فروخ عمر، التبشير و الاستعمار في البلاد العربية، بيروت، المكتبة العصرية-1973م.

26- دراجي محمد، الإسلام في الجزائر في عهد الاستعمار، الجزائر، مؤسسة عالم الأفكار للنشر و التوزيع، 2007م.

27- رمضان عبد العظيم، الغزوة الاستعمارية للعالم العربي و حركات المقاومة، القاهرة، دار المعارف، 1985م.

28- الزبيري محمد العربي، الكفاح المسلح في عهد الأمير عبد القادر، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، 1982م.

29- ------------، تاريخ الجزائر المعاصر، ج1، منشورات اتحاد الكتاب العرب، 1999م.

30- زوزو عبد الحميد، نصوص و وثائق في تاريخ الجزائر المعاصر، الجزائر، م.و.ك، 1984م.

31- زيادة نيقولا، تونس في عهد الحماية من 1881م إلى 1934م، القاهرة، معهد الدراسات العربية العالية، 1963م.

32- سعد الله أبو القاسم، الحركة الوطنية الجزائرية، ج2-ط3، 1900-1930، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، 1983م.

33- ----------، تاريخ الجزائر الثقافي 1830م-1954م-ج4، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1997م.

34- سعيدوني ناصر الدين، دراسات و أبحاث في تاريخ الجزائر-الفترة الحديثة و المعاصرة، ج 2 ، الجزائر، م.و.ك، 1988م.

35- سلطان علي، تاريخ العرب الحديث، طرابلس، منشورات مكتبة طرابلس العلمية العالمية، د ت.

36- سلاماني عبد القادر، الإستراتيجية الفرنسية لإجهاض الدولة الجزائرية الحديثة 1832-1847، الجزائر، دار قرطبة للنشر و التوزيع، 2012م.

37- شلبي عبد الجليل، الإرساليات التبشيرية، الإسكندرية، دار منشأة المعارف، د ت.

38- شلبي أحمد، الإسلام، ط7، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، 1983م.

39- شهبي عبد العزيز، الزوايا الصوفية و العزابة و الاحتلال الفرنسي في الجزائر، وهران، دار الغرب للنشر و التوزيع، 2007م.

40- شرفي عاشور، معلمة الجزائر، الجزائر، دار القصبة للنشر و التوزيع، 2008م.

41- صمب عامر، الأدب السنغالي العربي، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، 1978م.

42- صاري الجيلالي و قداش محفوظ، المقاومة السياسية(1900-1954) الطريق الإصلاحي و الطريق الثوري، الجزائر، م.و.ك، 1978م.

43- طالب عبد الرحمن، الشيخ أحمد التجاني و منهجيته في التفسير و الفتوى و التربية، الجزائر، الجاحظية، 1999م.

44- عباد صالح، الجزائريون و فرنسا و المستوطنون(1830-1930) قسنطينة، ديوان المطبوعات الجامعية، المطبعة الجهوية، 1999م.

45- عبد اللطيف علي محمد، إفريقيا العربية، بنغازي، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، 1998م.

46- بن العقون عبد الرحمن إبراهيم، الكفاح القومي و السياسي من خلال مذكرات معاصرة-الفترة الأولى(1920-1936) ج1، ط1-الجزائر، م.و.ك، 1984م.

47- العجيلي التليلي، الطرق الصوفية و الاستعمار بالبلاد التونسية، المجلد 2-(1881-1939)، تونس، منشورات كلية الآداب بمنوبة، جامعة تونس1، 1992م.

48- العربي إسماعيل، المقاومة الجزائرية تحت لواء الأمير عبد القادر، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، ط2-1982م.

49- ---------، الصحراء الكبرى و شواطئها، الجزائر، م.و.ك، 1983م.

50- العوامر إبراهيم بن محمد الساسي، الصروف في تاريخ الصحراء و سوف، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، 1977م.

51- عمورة عمار، موجز في تاريخ الجزائر، الجزائر، دار ريحانة للنشر و التوزيع، 2002م.

52- فروة محمد، المقاومة المسلحة في تونس خلال القرنين 19 و 20م، تونس، منشورات المعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية التونسية، 1993م.

53- قنانش محمد و قداش محفوظ، نجم الشمال الإفريقي، وثائق و شهادات لدراسة الحركة الوطنية الجزائرية –ط2، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1994م.

54- قنان جمال، التعليم الأهلي في الجزائر في عهد الاستعمار (1830-1944) الجزائر، دار هومة، 2007م.

55- الكحلوت عبد العزيز، التنصير و الاستعمار في إفريقيا السوداء-ط2، طرابلس-ليبيا، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، د ت.

56- لونيسي رابح و آخرون، تاريخ الجزائر المعاصر (1830-1989) ج1، الجزائر، دار المعرفة، 2006م.

57- مالكي امحمد، الحركات الوطنية و الاستعمار في المغرب العربي، ط2-بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، د ت.

58- مفتاح عبد الباقي، أضواء على الشيخ أحمد التجاني و أتباعه، بيروت، دار الكتب العلمية، 2009م.

59- المحبوبي علي، انتصاب الحماية الفرنسية بتونس، تونس، دار سيراش للنشر- 1986م.

60- مناصرية يوسف، مهمة ليون روش في الجزائر و المغرب (1847-1832) الجزائر، م.و.ك، 1990م.

61- محمدو بن محمدن، المجتمع البيضاني في القرن 19م، الرباط، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، 2001م.

62- نوار عبد العزيز سليمان و نعنعي عبد المجيد، التاريخ المعاصر: أوربا من الثورة الفرنسية إلى الحرب العالمية الثانية، بيروت، دار النهضة العربية، 2000م.

63- نياس الحاج محمد، خاتمة الدر على عقود الجوهر في مدح سيد البشر، دكار، طبع مؤسسة الفجر، 1996م.

64- هلال عمار، أبحاث و دراسات في تاريخ الجزائر المعاصرة (1962-1830)، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1995م.

65- ------، الطرق الصوفية و نشر الإسلام و الثقافة العربية في غرب إفريقيا السمراء، الجزائر، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، 1988م.

66- واعلي محمد الطاهر، التعليم التبشيري في الجزائر من 1830 إلى 1904، الجزائر، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، 2009م.

67- ياغي أحمد إسماعيل و شاكر محمود، تاريخ العالم الإسلامي الحديث و المعاصر، ج2-قارة إفريقيا، المملكة العربية السعودية، دار المريخ، د ت.

ب- المراجع المعربة:

1- آجرون شارل روبير ،الجزائريون المسلمون و فرنسا 1871م-1919م،ج1، تر.محمد حاج مسعود ، الجزائر ، دار الرائد للكتاب ، 2007م.

2- بواهن آدو، تاريخ إفريقيا العام،المجلد السابع، إفريقيا في ظل السيطرة الاستعمارية 1880-1935م، بيروت، اليونيسكو، المطبعة الكاثوليكية،1990م.

3- توران ايفون، المواجهات الثقافية في الجزائر المستعمرة، المدارس و الممارسات الطبية و الدين 1830-1880، الجزائر ، دار القصبة للنشر ، 2007م .

4- ديورانت ول، قصة الحضارة، ج3 ، المجلد6 ، الإصلاح الديني ، ترجمة عبد الحميد يونس ، الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية .

5- رين لويس ، تاريخ انتفاضة 1871 في الجزائر، ترجمة حاج مسعود، الجزائر، دار الرائد للكتاب، 2013م

6- لاندو روم ، تاريخ المغرب في القرن 20 ، ترجمة نيقولا زيادة ، بيروت ، دار الثقافة للطباعة و النشر و التوزيع ، 1980م .

7- لوثروب ستودارد ، حاضر العالم الإسلامي ، ترجمة عجاج نويهض، تحقيق شكيب أرسلان، ج2/1 ، ط 3،القاهرة، دار الفكر العربي، 1971م .

8- ماداریاغا روزا ماريا ، مغاربة في خدمة فرانكو ، ترجمة الغالي كنزة ، سلسلة ضفاف ، الرباط ، منشورات الزمن ، 2006 .

الرسائل الجامعية

1- بلحاج ناصر، مواقف الجزائريين من التجنيد الإجباري(1912-1916) مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ المعاصر، المدرسة العليا للأساتذة، الجزائر، 2005م.

2- بجاوي محمد الصالح ، المجندون الجزائريون في الجيش الفرنسي (1830-1900) مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث ، جامعة الجزائر 2006/2005 م .

3- بوتليلس مراد، تطور التعليم في الجزائر من 1830 إلى 2011 م، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في العلوم الاجتماعية ، قسم الديمغرافيا ، جامعة وهران 2014م .

4- بن تركية عبد الحكيم ، التوسع الاستعماري الفرنسي في السودان الغربي ، و مقاومة ساموري توري (1854-1914م) مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث و المعاصر ، معهد التاريخ ، جامعة الجزائر 1996م .

5- بن الشين أحمد ، الطريقة التجانية بين الماضي و الحاضر ، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في علم الاجتماع ، معهد علم الاجتماع ، جامعة الجزائر 2001/2000 م .

6- صغير حسن عيسى، الشيخ إبراهيم نياس ومنهجه في التصوف والدعوة إلى الله، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في شعبة القرآن الكريم و علومه ، كلية الدعوة الإسلامية ، ليبيا 2004/2003 م .

7- قارة فاطمة، موقف الطرق الصوفية التونسية من الحماية الفرنسية(1881م-1939م) الطريقة القادرية و التجانية نموذجا ، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث و المعاصر ، جامعة الجزائر ، 2012/2011 م .

8- بن لباد الغالي ، الزوايا في الغرب الجزائري ، التجانية ، العلوية ، و القادرية ، دراسة انثروبولوجية ، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في الأنثروبولوجيا ، 2009/2008م جامعة تلمسان .

9- يسلي مقران، الحركة الدينية الإصلاحية في منطقة القبائل (1945-1920م) مذكرة لنيل شهادة الماجستير في الفلسفة، جامعة الجزائر 1991م.

المقالات باللغة العربية

1- بلحاج ناصر ، دور الدعاية العثمانية الألمانية في رفض التجنيد الإجباري بالجزائر و الدعاية الفرنسية المضادة خلال الحرب العالمية الأولى (1918-1914م) ، مجلة الواحات للبحوث و الدراسات ، العدد 03 ، 2008م ، منشورات جامعة غرداية .

2- بن صغير حضري يمينة ، سياسة التوغل الاستعماري الفرنسي بمنطقة وادي ريغ مجلة الواحات ، العدد 02 ، 2014 ، جامعة غرداية.

3- بن سالم بلهادف ، دور الزاوية التجانية بقمار في نهضة سوف و الأمصار ، مداخلة مطبوعة في الملتقى الدولي الثاني للطريقة التجانية بقمار أيام 04-05-06 نوفمبر 2008 م/ مطبعة الوليد ، الجزائر.

4- تلمساني بن يوسف ، التوغل الفرنسي في منطقتي الأوراس و الزيبان ، مجلة المصادر ، العدد 22، الجزائر ، دار غرناطة للنشر و التوزيع ، 2010 .

5- جاب الله طيب ، دور الطرق الصوفية و الزوايا في المجتمع الجزائري ، مجلة معارف ، العدد 14 ، أكتوبر 2013 ، جامعة البويرة .

6- جريدة المبشر، العدد 5912 بتاريخ 1916/09/23.

7- جريدة المبشر، العدد 5914 بتاريخ 1916/09/30.

8- الحادك قاسم ، الزوايا و الطرق الصوفية في المغرب ، من خدمة المخزن و تكريس شرعيته إلى مسالمة المستعمر و مهادنته ، مجلة الدراسات و البحوث الاجتماعية ، العدد 01/سبتمبر 1913 ، جامعة الوادي .

9- رحوي بلحسين آسيا ، وضعية التعليم الجزائري غداة الاحتلال الفرنسي ، مجلة دراسات نفسية تربوية ، العدد 07- 2011 ، جامعة مولود معمري – تيزي وزو .

10- زمامة عبد القادر ، من معركة ايسلي إلى معركة تطوان ، مجلة دعوة الحق ، العدد 321- أوت/سبتمبر 1996 م ، منشورات مديرية الشؤون الإسلامية ، وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية ، الرباط ، المطبعة الأمنية .

11- الزاهري محمد السعيد، المرحوم الشيخ العيد، مجلة الشهاب، العدد 124، 1917م.

12 ------------ ، هل كان الشيخ التجاني وهابيا ؟ مجلة الصراط ، العدد 07 - 1933/10/30 .

13- سرايب نور الدين ، ممارسات ثقافية و جمعنة سياسية ، المثال التونسي ، ترجمة محمد غالم ، مجلة إنسانيات ، العدد 08-1999م ، مركز البحث في الانتروبولوجيا و العلوم الاجتماعية – وهران .

14- سميلا محمد البشير ، مظاهر تأثير التعليم الغربي في التعليم الإسلامي في إفريقيا ، مجلة قراءات افريقية ، العدد 12 ، أفريل / جوان 2012 م .

15- شافو رضوان ، الحملة العسكرية الفرنسية على منطقة وادي ريغ ، و ردود الفعل الشعبية (1875-1854) ، مجلة العلوم الإنسانية و الاجتماعية ، العدد 14 ، مارس 2014 جامعة الوادي .

16- عصفور محمد سلمان ، الحماية الفرنسية على تونس عام 1881 ، و الموقف العثماني و الأوروبي منها ، مجلة ديالي للبحوث الإنسانية ، العدد 56 – 2012 ، كلية التربية للعلوم الإنسانية ، جامعة ديالي ، العراق .

17- لو غالي، التنصير في إفريقيا - السنغال نموذجا، مجلة البيان، العدد 154، سبتمبر 2000.المملكة العربية السعودية.

18- غنابزية علي، دراسة تاريخية لمناهج تعليم القرآن الكريم بين الماضي و الحاضر - مجتمع وادي سوف نموذجا- مجلة البحوث و الدراسات ، جامعة الوادي، العدد 04 – يناير2007م .

19- القطعاني فادية عبد العزيز ، الحركة الوطنية المغربية (1912-1937) ، المجلة الجامعة ، العدد 16 ، المجلد الأول ، فبراير 2014 ، ليبيا ، جامعة الزاوية .

20- الناصري سيد أحمد علي، الإسلام و مواجهة حركة التبشير، مجلة البحوث الإسلامية، العدد 12، 1984، المملكة العربية السعودية، الرئاسة العامة للإفتاء.

21- ولد صدفن محمد الراضي، الاستعمار الفرنسي و أثاره في موريتانيا، عصور الجديدة ، العدد 11/12 – 2013/2014 ، جامعة وهران .

الموسوعات و المعاجم

1- دائرة المعارف البريطانية 693/5 مادة: النصرانية (christianity)

2- فرانسوا جورج دريفوس و آخرون ، موسوعة تاريخ أوربا من عام 1789 حتى أيامنا ، ج3 ، ط1 ، ترجمة حسين حيدر ، منشورات عويدات ، بيروت 1995.

3- معجم البابطين لشعراء العربية في القرنين 19-20 ، عبد الله نياس .

4- الموسوعة العربية المسيرة .

المراجع باللغة الأجنبية

1- Abun Nasr Jamil, the tijaniyya a sufi order ni the modern world oxford university press , london , 1965.

2- Ageron Charles Robert, les algériens musulmans et la France 1871-1919, T2, paris, P.U.F 1968.

3- Abdelmoula Mahmoud, la Tunisie, le Maghreb et le panislamisme pendant la grande guerre, l'impôt de sang, Tunis, M.T.M 2007

4- Ainé Challamel, Mgr louis Antoine pavy, évêque d'Alger, édit hachette 1867

5- Azan paul, les grands soldats de l'Algérie, publication du comite national métropolitain du centenaire de l'Algérie, Orléans 1930.

6- Alaoui Moulay Abdelhadi, le Maroc du traite de Fès a la libération 1912 – 1956, édition la porte, Rabat, Maroc 1994.

7- Boahen Albert Adu, histoire générale de l'Afrique, l'Afrique sous domination coloniale 1880-1935, édition : les presses de l'Unesco, paris 1987.

8- Baunard louis, Mgr, le cardinal Lavigerie, T1, paris, librairie ch. Poussielgue, 1896.

9- Bernard Paul, les écoles indigènes devant l'opinion publique, Alger, A. jourdan, 1897.

10- Boulanger Bernard, à mort la gueuse, paris, calmant Levy, 2006.

11- Servera Suzanne, une approche des mentalités coloniales et indigénophiles en Algérie à la veille de la guerre de 1914-1918, à travers un discours de distribution de prix. S.D

12- Chantal Antier Renaud, les soldats des colonies dans la 1ère guerre mondiale, édition ouest-France, rennes-2008

13- Ceillier Jean Claude, histoire des missionnaires d'Afrique (pères blancs) 1868-1892, paris, édition, Karthala 2008.

14- Crowder Michael, West Africa under colonial rule, London, Hutchinson, S.D.

15- Cornevin Robert, histoire de l'Afrique des origines a nos jours, 2e édition, Paris, petite bibliothèque Payot, 1966.

16- Christopher Harrison, France and islam in West Africa 1860-1960, press syndicate of the university of Cambridge, U.K 1988.

17- The Church Missionnary Atlas, publisher : Adam Mathiew, 1986.

18- Deladriere P. coup d'œil sur l'armée d'Afrique, paris s.m.e./s.d.

19- Delafosse Maurice, Afrique occidentale française, Paris, librairie Plan, 1931.

20- Darmon pierre, un siècle de passions algériennes, une histoire de l'Algérie coloniale 1830-1940 – Paris, édit. Fayard 2009.

21- Duchesne (général), rapport sur l'expédition de Madagascar 1895-1896, adressé le 25/4/1896 au ministre de la guerre, Nancy, imp. Berger-Levault et Cie, Juillet 1897.

22- Deroo Eric, le pautremat Pascal, héros de Tunisie, spahis et tirailleurs d'Ahmed Bey 1er a lamine Bey 1833-1957 Tunis, édition CERES, 2005.

23- Deschamps Hubert, histoire générale de l'Afrique noire de 1800 à nos jours T2, paris, P.U.F 1971.

24- Devoy Muriel, la Guinée, paris, édition Karthala, 2009.

25- Duval Eugene, l'épopée des tirailleurs sénégalais, Paris , édition L'harmattan, 2005.

26- Demombines Godefroy, L'œuvre française en matière d'enseignement au Maroc, Paris, édit. Geutner 1928.

27- Dumont Fernand, l'anti –sultan ou Al hajj Omar Tal de Fouta, Dakar, édition nouvelles éditions africaines, 1979.

28- Depont Octave, et Coppolani Xavier, les confréries religieuses musulmanes, Alger, Adolph Jourdan, 1897.

29- Duruy Victor, le 1er régiment des tirailleurs algériens, Paris, édition hachette et Cie, 1899.

30- Duc D'Aumale, les zouaves et les chasseurs à pied, Paris , édition Michel Levy , 1855.

31- Du Baril, mes souvenirs, T1, Paris, édition Georges Bokba, 1894

32- Esques Gabriel, correspondances du général Rovigo, T1 Alger, édit. Adolphe Jourdan, 1914.

33- Fdil Abdellatif, l'engagement des marocains au cours du 1er conflit mondial, entre histoire et représentations imaginaires, 11ème colloque international interdisciplinaire de Sorèze, Fév.2014-Sorèze-France.

34- Faucon Narcisse, le livre d'or de l'Algérie, paris, Challamel et Cie, librairie algérienne et coloniale, 1889.

35- Green.H.Arnold, the Tunisian ulama 1873-1915, social structure and response to ideological currents, Leiden, Hungary, E,J.Brill , 1978.

36- Goldstein Daniel, libération ou annexion aux chemins croisés de l'histoire tunisienne 1914-1922, Tunis, édit. Maison tunisienne de l'édition, 1978.

37- Gouilly Alphonse, l'islam dans l'Afrique occidentale française Paris, édition Larousse, 1952.

38- Hugo Abel, France pittoresque, ou description pittoresque, topographique et statistique des départements et colonies de France T3 – 1835.

39- Julien Charles André, histoire de l'Algérie contemporaine, la conquête et la début de la colonisation (1827-1871) paris, P.U.F, 1964.

40- Klein Martin, Islam and imperialism in senegal Sine-Saloum 1847-1914, Edinbury university press, 1968.

41- Liorel jules, races berbères, Kabylie de Jurjura, Paris, édit. Ernest-Leroux 1892.

42- Luc Mareau Rene, africains musulmans, Abidjan – DAKAR, Nades éditions, 1982.

43- Laroui Abdellah, des origines sociales et culturelles du nationalisme marocain 1830-1912, Casablanca- Maroc, centre culturel, 1993.

44- Manceron Gilles, Marianne et les colonies, Paris, le découvert 2003.

45- Marty Paul, Jules salenc, les écoles maraboutiques du Sénégal, la medersa de Saint-Louis, Paris, édit. Ernest-Leroux, 1914.

46- Magassouba Moriba, l'islam au Sénégal, Paris, édit. Karthala 1985.

47- Messaoudi Alain, les arabisants et la France, Paris, E.N.S. éditions.

48- Melia Jean, l'Algérie et la guerre 1914-1918 – 4è édition, paris librairie Plon, 1918.

49- Micaleff André, petite histoire de l'Algérie 1830-1962, comment formez-vous le futur ? Paris, édit. . L'harmattan, 1998.

50- Michaud louis Gabriel, biographie ou vie publique et privée de louis Philippe d'Orléans, ex- roi des français, depuis sa naissance jusqu'à la fin de son règne, bureau de biographie universelle, Paris, 1843.

51- Miga Abubakr Ismail, la culture et l'enseignement islamiques au soudan occidental, édition : nouvelle imprimerie du Niger 2003. 52- Meynier Gilbert, l'Algérie révélée, la guerre de 1914-1918 et le 1er quart du 20ème siècle , Genève , librairie Droze , 1981.

53- Monteil Vincent, l'islam noir, 2e édition, Paris, édition du seuil, 1971.

54- Plantet Eugene, les consuls de France à Alger avant la conquête 1579-1830, Paris, messageries hachette, 1930.

55- Pioneau E.M. l'Abbe, vie de Mgr, Dupuch premier évêque d'Alger, Bordeaux, édit. Paul Chaumas S.D.

56- Picciola André, missionnaires en Afrique, l'Afrique occidentale de 1840 à 1940, paris, édit. Denoël.

57- Piga Adriana, les voies du soufisme au sud du Sahara, parcours historique et anthropologique, Paris, édit. Karthala, 2006.

58- Poirier Jules, conquête de Madagascar 1895-1896, Paris, édit. Charles Lavauzelle, 1902.

59- Rinn Louis, marabouts et khouan, Alger, A. Jourdan, 1884.

60- Robert Huré, l'armée d'Afrique 1830-1962, Paris, édit. Charles Lavauzelle, 1977.

61- Révol Jean, histoire de l'armée française, Paris, Larousse, 1929.

62- Rouard De Card Edgard, le statut de Tanger d'après la conversation du 18 décembre 1923 – Paris, A. Pedone, libraire éditeur, 1925.

63- Salvaing Bernard, l'invention religieuse en Afrique, histoire et religion en Afrique noire, Paris, édition Karthala.

64- Surun Isabelle, les sociétés coloniales à l'âge des empires 1850-1960- Atlande, 2012.

65- Thinthoine Robert, colonisation et évolution des genres de vie dans la région ouest d'Oran 1830-1885, Paris, 1943.

66- Thierno ka , école de Pir saniakhor , histoire , enseignement , et culture arabo-islamique au Sénégal du 17e au 20e siècle, Dakar-Sénégal , édit. Gia.

67- Triaud Jean Louis et Robinson David, la Tijaniyya, une confrérie musulmane à la conquête de l'Afrique, Paris, édit. Karthala, 2005.

68- Tonnerre Clermont, rapports au roi Charles x, sur l'état de l'armée – rapport du 14.10.1827.

الرسائل الجامعية باللغة الأجنبية

1- Boumezrag Redouane Bey, la politique scolaire du Maroc à l'égard du dualisme culturel, thèse de doctorat en sciences de l'éducation, université de Lyon, 1983.

2- Gheziel Abla, l'éveil politique de la société algérienne à travers : révoltes, soumissions, assimilation et nationalisme 1830-1936, thèse de doctorat en histoire, université de Toulouse, 2015.

3- Kebé Hassan, interculturalité et intertextualité dans l'œuvre littéraire, thèse de doctorat, université paris- est, 2012.

4- Madlum Aziz Abdulla, bismarck's diplomatic Policy and competition towards the german colonies in Africa , thesis submitted to the university of st clements , part of the requirement of the P.H.D in political science .University of st clements . Izmir-Turkey , 2011.

المقالات باللغة الأجنبية

1- Afif Naima, à propos de l'évangile selon Saint-Jean, revue : Babelao n°3-2014, université de Louvain-Belgique.

2- Arnoulet François, les tunisiens et la 1ère guerre mondiale 1914-1918, revue de l'occident musulman et de la méditerranée (R.O.M.M) vol 38, 1984.

3- Arrêté de 28 février 1870, relatif aux écoles musulmanes, bulletin administratif du Sénégal N° 02.

4- Bannour Abderrezak, aperçu sur l'enseignement du français en Tunisie, revue : documents pour l'histoire du français N°27/2001, Paris.

5- Barthelemy Pascal, l'enseignement dans l'empire colonial français revue : histoire de l'éducation N° 128 / 2010, Lyon.

6- Bayet-marie Laurence, l'enseignement primaire au Sénégal, revue de pédagogie vol.20 / 1972, Lyon, édit. ENS.

7- Blandre Bernard, les témoins de Jéhovah in : archives des sciences sociales des religions N° 80-1992.

8- Bouron Jean marie, les pères blancs, revue : histoire des missions chrétiennes N° 14- Fév. 2010, Paris – Karthala.

9- Bulletin officiel N° 1, première année, du 1/11/1912, traité conclu entre la France et le Maroc le 30 mars 1912, pour l'organisation du protectorat français dans l'empire chérifien.

10- Casajus Dominique, Charles de Foucauld face aux touaregs revue : terrain N°28/mars1997, édit. Direction générale des patrimoines, paris.

11- Chantal Antier, le recrutement dans l'empire colonial français 1914-1918, revue des guerres mondiales et conflits contemporains N° 230- 2008/2 – paris, P.U.F.

12- Choate Marck .I. identity polities and political perception in : french colonial history, vol. 8 / 2007.

13- Cortier Claude, conquête par l'école et réalités sur terrain, revue : documents pour l'histoire, vol 27 / 2001, paris.

14- Dasseto Felice et Laurent Pierre-Joseph, Ramatoullaye : une confrérie musulmane en transition, revue de recherches sociologiques et anthropologiques n° 37/2 – 2006, université catholique de Louvain-Belgique.

15- Dean William, des américains dans la guerre du Rif, revue historique des armées n° 246, 2007, paris.

16- Eizlini Carine, le bulletin de l'enseignement de L'A.O.F, une fenêtre sur le personnel de l'enseignement public, revue Descartes-Paris 5- 2012.

17- EMERIT Marcel, une cause de l'expédition d'Alger , le trésor de la casbah , extrait du bulletin de la section d'histoire moderne et contemporaine du comite des travaux historiques et scientifiques 1952 , paris , imp. Nationale.

18- Gavois marc Olivier, le tournant de 1899 – 1902 dans la maçonnerie en Algérie, cahiers de la méditerranée n° 72-2006.

19- Goerg Odile, couper la Guinée en quatre, ou comment la colonisation a imaginé l'Afrique, revue d'histoire n° 111-2011 paris, SEDET.

20- Gourinard pierre, l'enseignement primaire en Algérie, revue : l'Algérianiste n°14 – 1981 / 5.

21- Green Arnold, french islamic policy in Tunisia 1881-1918, a prelimmary inquiry, revue d'histoire maghrébine n° 3 janv. 1975. Tunis. imp.de L'U.G.T.T.

22- Lafuente Gilles, dossier marocain sur le Dahir berbère de 1930- R.O.M.M. n° 38 – 1984.

23- Le Lac Jules, la mobilisation des populations de l'Afrique de nord pour la libération de l'Europe, cahiers de l'Orient n° 119 – juillet 2015, Paris.

24- Leroy Benjamin, les troupes de marine en Afrique à la fin du 19e siècle, revue historique des armées n° 247-2007, Paris.

25- Michel Marc, colonisation et défense nationale « le général Mangin et la force noire » revue des guerres coloniales et conflits contemporains n° 145, janvier -1987.

26- Les musulmans français et la guerre, adresses de témoignages et fidélités des chefs musulmans, revue du monde musulman T29 – Déc. 1914, édit. ERNEST Leroux-paris.

27- Pohor Rubin, l'église protestante méthodiste de Cote d'Ivoire revue d'études théologiques religieuses, Jan.2009-Montpellier.

28- Presbyterian Church of the Gold Coast, 1908-1942, missionary research Library archives, section 1, the Burke Library archives, Columbia university libraries, New – York, 2012.

29- Rapport de Louis Brunot aux congrés intercolonial de l'enseignement dans les colonies -25-27/9/1931 édit. Henri Didier, Paris 1932.

30- Revue du monde musulman, numéro spécial 1915.

31- Rinn louis, nos frontières sahariennes a l'ouest du djebel Ammour et les ouled sidi cheikh avant 1864, revue africaine n°30/1864, Alger, o.p.u.

32- Sraieb Noureddine, l'idéologie de l'école en Tunisie coloniale 1881-1945, revue de monde musulman et de la méditerranée n° 68-1993.

33- Sauvaigo M.N. l'œuvre des pères blancs dans l'A.O.F ; le littoral du 24.6.1928.

34- Shank David A. bref résumé de la pensée du prophète William Wade Harris in : revue perspectives missionnaires n° 5 – 1983- Paris.

35- Sifou Fatiha, les premières réactions politiques algériennes face à la conquête française (1830-1834) revue des sciences humaines n°10 / Juin 2016 faculté des sciences humaines et sciences islamiques, université d'Oran 1 Ahmed Benbella.

36- Triaud Jean Louis, l'Afrique occidentale et centrale, les voies d'Allah, librairie fayard-France, 1996.

37-Young Robert, interrogating modernity, journal of historical biography, vol 5 – 2009, fraser valley, Canada

المعاجم و الموسوعات باللغة الأجنبية

1- Collier's encyclopedia, Halsey and Friedman eds, New-York.

2- Dictionnaire de pédagogie et d'instruction primaire, publié par l'institut français de l'éducation, série F 1911

3- Hommes et destins, dictionnaire biographique de l'outre-mer académie des sciences d'outre – mer, 1988.

4- le Naour Yves Jean, Dictionnaire de la grande guerre, Larousse, paris- 2008.

فهارس الأعلام و القبائل و الجماعات و الأماكن و البلدان

الأعلام

(أ)

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(ه)

(و)

(ي)

فهرس القبائل و الجماعات

فهرس الأماكن و البلدان

(أ)

(ب)

(ت)

(ن)

(و)

(ي)

233-192

فهرس الموضوعات